
كريس هارمان
تاريخ شعبي للعالم
كما صنعه الجنس البشري
من العصر الحجري إلى الألفية الجديدة
الجزء الثاني
ترجمة
طلعت الشايب
تقديم
أسامة الغزولي

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث



شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

تاريخ شعبى للعالم

كما صنعه الجنس البشرى
من العصر الحجرى إلى الألفية الجديدة

(الجزء الثاني)

تأليف : كريس هارمان

ترجمة : طلعت الشايب

تقديم : أسامة الغزولى



2019

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هارمان، كريس، ١٩٤٢ - ٢٠٠٩
تاريخ شعبي للعالم: كما صنعه الجنس البشري من العصر الحجري إلى الألفية الجديدة (الجزء الثاني)، تأليف: كريس هارمان، ترجمة: طلعت الشايب، تقديم: أسامة الغزولي.
ط ١ - القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٩
٤٤٨ ص، ٢٤ سم
١ - العالم - تاريخ
(أ) الشايب، طلعت (مترجم)
(ب) الغزولي، أسامة (مُقدم)
(ج) العنوان ٩٠٩

رقم الإيداع: ٢٠١٨/ ٤٧٧٦
الترقيم الدولي: 6 - 1373 - 92 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الفصل السابع

عصر الأمل والرعب

مسرد زمني

■ **ثمانينيات القرن التاسع عشر**

- بريطانيا تحتل مصر، اقتسام إفريقيا، التنمية التجارية للهاتف، والفونوجراف، وتوليد الكهرباء والإضاءة.

■ **1890-1900**

- اليابان تهاجم الصين وتستولي على تايوان، الحرب الإسبانية-الأمريكية. اختراع السيارات والسينما.

■ **1899-1902**

- حرب البوير-البريطانيون ينشئون أول معسكرات اعتقال جماعي.

■ **1900**

- نظرية مندل عن الجينات تشيع بين الجمهور، بعد 16 عاما من وفاته.

■ **1903**

- أول طائرة.

■ **1904**

- روسيا تخسر الحرب مع اليابان.

■ 1905

- الثورة في روسيا.
- تأسيس "عمال العالم الصناعيين Industrial Workers of World".
- نظرية النسبية الخاصة لأينشتاين.

■ 1910 - 1914

- "الاضطراب الكبير Great Unrest" في بريطانيا.
- فرع للفصيل البروتستانتي "البرتقاليين Orangemen" في أيرلندا.

■ 1911

- إعلان الجمهورية في الصين.
- ثورة المكسيك.

■ 1912 - 1914

- إضرابات ومتاريس في روسيا، النزاع بين العمال وأصحاب العمل في دبلن، إضراب "الخبز والورود Bread and Roses".

■ 1912 - 1913

- حروب البلقان

■ 1913

- مصنع فورد للإنتاج الكبير للسيارات.

■ **1914**

- نشوب الحرب العالمية الأولى، انهيار الأممية الثانية.

■ **1916**

- هبّة عيد الفصح في دبلن.

■ **1917**

- الثورتان الروسيتان في فبراير وأكتوبر، وتمردات في الجيش الفرنسي، وفي البحرية الألمانية، والولايات المتحدة تدخل الحرب.

■ **1918**

- ثورتان في الإمبراطوريتين الألمانية والنمسوية-الهنجارية.

■ **1919**

- تأسيس الأممية الشيوعية، مقتل روزا لوكسمبورج **Rosa Luxemburg**، الحرب الأهلية في ألمانيا، وفي الجمهوريتين السوفيتيتين في بافاريا وهنجاريا، حرب عصابات في أيرلندا، مذبحة أمريستار في الهند، حركة 4 مايو في الصين، معاهدة فرساي.

■ **1920**

- العمال الألمان يهزمون المحاولة الانقلابية المعروفة باسم كاب بوتش **Kapp Putsch**. عمليات احتلال للمصانع في إيطاليا.

■ 1921

– بريطانيا تقسّم أيرلندا، تمرد كرونشتات **Kronstadt** فـــي روسيا.

■ 1922

– الفاشيون في إيطاليا يتسلمون السلطة

■ 1923

– الفرنسيون يحتلون الرور، التضخم الكبير، الـــشيوعيون يتراجعون عن الانتفاضة، الانقلاب النازي.

■1925

– نظرية الكم لهايزنبيرج **Heisenburg quantum theory**

■ 1926

– هزيمة الإضراب العام في بريطانيا

■ 1927

– مذبحة العمال في شنجهاي، ليون تروتسكي يخرج إلـــى المنفى.

■ 1928 - 1929

– ستالين ينفرد بكل السلطة، الخطة الخمسية الأولى، فرض الطابع الجماعي على الزراعة، اعتقالات جماعية.

■ 1929

– انهيار وول ستريت.

■ **1931**

- الثورة في إسبانيا.

■ **1933**

- هتلر يستولي على السلطة في ألمانيا، مجاعة في أوكرانيا وكازاخستان.

■ **1934**

- الهبة المعادية للفاشية في فيينا، هبات ضد الفاشية في فرنسا، انتفاضة استوريا في إسبانيا، إضرابات في الولايات المتحدة.

■ **1936**

- انتصارات انتخابية للجبهة الشعبية في فرنسا وإسبانيا، احتلال المصانع في إسبانيا، تشكيل مؤتمر المنظمات الصناعية **CIO** في الولايات المتحدة، اعتصام جنرال موتورز، محاكمات موسكو.

■ **1938**

- هتلر يستولي على النمسا، اتفاق ميونيخ.

■ **1939**

- انتصار الفاشيست في إسبانيا، الغزو الألماني لبولندا، بداية الحرب العالمية الثانية.

■ **1940**

- سقوط فرنسا، إيطاليا تدخل الحرب.

■ 1941

– هتلر يهاجم روسيا، اليابان تهاجم الأسطول الأمريكي.

■ 1942

– النازيون يضعون خطط المحرقة اليهودية، الجيش الألماني يُهزم في ستالينجراد، المجاعة في البنغال، حركة "اخرجوا من الهند".

■ 1943

– إضرابات في تورينو، الحلفاء ينزلون قواتهم في جنوب إيطاليا.

■ 1944

– انتفاضة يقوم بها الحلفاء في نورماندي، لتُحرّر باريس، هبّة وارسو، القوات البريطانية تهاجم المقاومة اليونانية.

■ 1945

– المقاومة تحرر مدن شمال إيطاليا، الولايات المتحدة وبريطانيا تستوليان على غرب ألمانيا، وروسيا على شرقها. هيروشيما وناجازاكي. بريطانيا تعيد تأسيس الحكم الفرنسي في فيتنام. حكومات يسيطر عليها الشيوعيون في أوروبا الشرقية.

■ 1947

– بريطانيا تخرج من الهند. التقسيم يفضي إلى سفك الدماء. الأمم المتحدة تساند دولة إسرائيلية في فلسطين. أول حاسوب.

■ 1947 - 1948

- بداية الحرب الباردة. مشروع مارشال، انقلاب براغ، جسر جوي لبرلين، تباعد يوغسلافيا عن روسيا، المكارثية في الولايات المتحدة. جيش الشعب الصيني يدخل بكين.

■ 1950

- الحرب الكورية. استقلال إندونيسيا عن هولندا.

■ 1952 - 1957

- تمرد الماوماو ضد البريطانيين في كينيا.

■ 1953

- ناصر يسقط الملكية في مصر. وفاة ستالين. الولايات المتحدة تفجر قنبلة هيدروجينية.

■ 1954

- اتفاق جنيف ينهي الحرب الكورية ويقسم فيتنام. المخابرات المركزية الأمريكية تسقط حكومة جواتيمالا. التمرد على الحكم الفرنسي في الجزائر.

■ 1955 - 1956

- حركة مقاطعة المواصلات العامة في مونتجومري تطلق حركة الحقوق الوطنية في الولايات المتحدة.

■ 1956

- مصر تؤمم قناة السويس، وتتعرض لهجوم من بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل. خروشتشيف يندد بستالين. الثورة الهنجارية.

■ **1957**

- غانا تفوز بالاستقلال.

■ **1958**

- ثورة وطنية في العراق. "القفزة الكبرى للأمام" في الصين. ديجول يتولى السلطة في فرنسا.

■ **1959**

- متمردو كاسترو يستولون على هافانا.

■ **1960**

- استقلال نيجيريا

■ **1961**

- محاولة غزو أمريكي فاشلة لكوبا. المفاضلة الأولى بين روسيا والصين. "مستشارون" أمريكيون في فيتنام.

■ **1962**

- أزمة الصواريخ الكوبية.

■ **1964**

- استقلال الجزائر. إنزال أمريكي في جمهورية الدومينيكان.

■ **1965**

- انقلاب عسكري في إندونيسيا، مقتل نصف مليون إنسان.

■ **1967**

- إسرائيل تحتل الضفة الغربية بعد حرب "الأيام الستة". انتفاضة سوداء في ديترويت. تأسيس الفهود السوداء. انقلاب كولونيلات اليمين المتطرف في اليونان.

■ **1968**

- حملة تيت الهجومية **Tet offensive** [التي شنها الفييتكونج وجيش الشعب الفيتنامي الشمالي ضد مدنيين وعسكريين من فيتنام الجنوبية والأمريكيين – المترجم]، تمردات طلابية في عموم أوروبا. أحداث مايو في فرنسا، "ربيع براغ".

■ **1969**

- "الخريف الساخن" في إيطاليا. هبة قرطبة في الأرجنتين. "اضطرابات" في أيرلندا الشمالية

■ **1970**

- الإضرابات تسقط جومولكا في بولندا. انتخاب الليندي في تشيلي. الولايات المتحدة تغزو كمبوديا، وطلاب يموتون رميا بالرصاص في جامعة ولاية كنت.

■ **1973**

- انقلاب في تشيلي، حرب في الشرق الأوسط، هَبّة طلابية في اليونان.

■ **1974**

- موجة تضخم عالمية، ثاني إضراب لعمال المناجم، وسقوط حكومة هيث. ثورة في البرتغال، سقوط حكومة الكولونيلات في اليونان.

■ 1975

- "الحل الوسط التاريخي" في إيطاليا. المستعمرات البرتغالية تنال استقلالها. هزيمة اليسار الثوري في البرتغال. نضال حرب العصابات في روديسيا.

■ 1976

- الاعتراف بشرعية المعارضة في إسبانيا. انتفاضة طلاب المدارس في جنوب إفريقيا. المخابرات المركزية الأمريكية ترعى الحرب الأهلية في أنجولا.

■ 1976 - 1977

- اضطرابات في الصين بعد وفاة ماو، أولى إصلاحات السوق.

■ 1979

- الثورة الإيرانية، "الجمهورية الإسلامية". الساندينيستيون يستولون على السلطة في نيكاراجوا. حكومة ثاتشر في بريطانيا. روسيا تغزو أفغانستان.

■ 1980

- احتلال أحواض السفن البولندية. حركة تضامن العمالية. انقلاب عسكري في تركيا. حرب عراقية ضد إيران بإسناد أمريكي. إنهاء حكم البيض في زيمبابوي. أول حاسوب شخصي باستخدام شريحة سيليكون.

■ **1981**

- صواريخ كروز في أوروبا. "الحرب الباردة الثانية". حرب أهلية في سلفادور، إرهاب من الولايات المتحدة والكونترا ضد نيكاراجوا. العسكريون البولنديون يسحقون حركة تضامن.

■ **1982**

- حرب الفوكلاندز

■ **1983**

- الولايات المتحدة تغزو جريناداً.

■ **1985 - 1984**

- إضراب عمال المناجم البريطانيين.

■ **1987**

- "جلاسنوست" تسمح بأول مناظرة حرة منذ ستين عاما في الاتحاد السوفيتي.

■ **1988**

- تظاهرات في الجمهوريات السوفيتية غير الروسية، إضرابات عمال المناجم في بولندا. موجات من التظاهر في يوغسلافيا، وكوريا الجنوبية. ما يشبه انتفاضة في الجزائر.

■ **1989**

- حكومة غير شيوعية في بولندا، احتجاجات ميدان تيانانامين في الصين، إضراب عمال المناجم في روسيا، ثورات سياسية تجتاح أوروبا الشرقية. صعود

ميلوسوفيتش في صربيا. الولايات المتحدة تغـزو بنمـا. علماء يبدءون التحذير من الاحتباس الحراري.

■ 1991

- الحرب على العراق بقيادة الولايـات المتحـدة. انقـلاب فاشل في روسيا، تفكيك الاتحاد السوفيتي. حرب أهليـة في يوغسلافيا وفي الجزائر.

■ 1992

- مجاعة وحرب أهلية في الصومال. حـرب أهليـة فـي طاجيكستان. تباطؤ الاقتصاد الروسي.

■ 1994

- السود يحكمون جنوب إفريقيا.

■ 1995

- الإضرابات تهز الحكومة الفرنسية.

■ 1998

- أزمة اقتصادية تجتاح شرق آسيا، سقوط سوهارتو فـي إندونيسيا.

■ 1999

- حرب بقيادة الولايات المتحدة ضد صربيا.

- ١ -

عالم رأس المال

ترك رأس المال علامته على كل مكان في العالم بحلول **1900**. لم تبق جماعة من الناس، في أي مكان، تقريبا، إلا وقد تحولت حياتها بسببه- لم يبق سوى الصحـــارى الجليدية في القـــارة القطبية الجنوبية، والغابـــات القصيـــة في الأمازون، ووديان المناطق المرتفعة في نيوغينيا، هي التي تنتظر رسل الرأسمالية، المستكشفين الأوروبيين، بما معهم من بضائع رخيصة، وأناجيل، وجراثيم، وأحلام بثروات سهلة.

لم يكن تأثير رأس المال متماثلا في كل مكان. ففي مناطق كثيرة من العالم كان ولا يزال يعني الاستخدام القديم للعضل والعرق، بعد أن أصبح مكرسا لأرباح تنصرف إلى رأسماليين بعيدين، بأكثر مما تنصرف إلى استهلاك محلي. لكن في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية اقتحمت المَيكنة مساحات دائمة الاتساع من الصناعة، والنقل، بل ومن الزراعة.

قبل قرن من الزمان، في بريطانيا، تركزت الثورة الصناعية في فرع واحد من إنتاج المنسوجات- في مصانع نسيج القطن. والآن يجري تثوير كل شكل يمكن تصوره من الصناعات، ثم يعاد تثويره من جديد- صنع الصابون، الطباعة، الصباغة، بناء السفن، صنع الأحذية والجزيمات، وصنع الورق. وأفضى اكتشاف كيفية توليد الكهرباء وصنع المصباح الكهربائي إلى طريقة جديدة لإنتاج الضوء الصناعي وإطالة ساعات العمل (وتسبب رفض هذا الأمر بأول إضراب عمالي في بومباي). وأمّن اختراع المحرك الكهربائي إمكانية تشغيل الماكينة من مسافة بعيدة

نوعا ما عن مصدر طاقة مباشر مثل محرك بخاري. وثوّرت الآلة الكاتبة الإجراءات في المراسلات التجارية، وكسرت احتكار الكتبة الذكور بما لديهم من خبرة بالعمل المكتبي تمتد سنوات طويلة. ومكّن اختراع التلغراف، والهاتف في نهاية ثمانينيات القرن التاسع عشر من تنسيق كل من الإنتاج والمجهود الحربي، بسهولة أكبر، من مسافة بعيدة – كما سمح للناس بالتواصل بسهولة أكبر (أصبح لدى إنجلز هاتف في منزله قبيل وفاته في **1895**). ولم يكن يماثل ظهور المصانع، من حيث الأهمية، سوى الانتشار الهجومي للسكة الحديد، ما قرب المناطق البعيدة إلى المدن. وكثرت مناجم الفحم، لتسد احتياجات متصاعدة إلى وقود السكك الحديد، والمصانع، والسفن البخارية. وظهرت مشروعات للحديد والصلب في حجم مدن صغيرة، كما نشأت بجوارها مدن لأعمال المصانع.

وشجع نمو كل صناعة نمو غيرها. وتعين إطعام سكان المدن، وقرى عمال المناجم، وبلدات عمال الصلب وتزويدهم بالملابس. ونشأت أولى الصناعات الزراعية، مع شحن الحبوب من مروج الغرب الأوسط الذي "لم يسبق فتحه"، ولحم الأبقار من السهول الأرجنتينية المعشبة، والصوف من أستراليا، عبر آلاف الأميال. وهذا، بدوره، شجع على ابتداع طرائق جديدة لتخزين الطعام وحفظه. واحتاجت الحواضر المتنامية إلى وسائل لنقل الناس من حيث يعيشون إلى حيث يعملون. وأقدم على ذلك الرأسماليون الذين ارتأوا في أنفسهم القدرة على كسب المال بنقل الناس في "الأومنيبوسات" التي تجرها الأحصنة، أو بمد خطوط الترام، أو حتى بحفر أنفاق لقطارات السكة الحديد – وحيث عجزوا هم عن ذلك تصدت البلديات المحلية لأداء المهمة، في غالب الأحوال. كانت الطبقات الوسطى في منتصف القرن التاسع عشر مستعدة لتقبل بقاء الفقراء في أحياء مزدحمة وقذرة، حيث يودي بهم الجوع والمرض. ولكن بنهاية القرن التاسع عشر، فهموا كيف يمكن أن ينتقل المرض من أحياء الفقراء إلى الأحياء الغنية، وضغطوا من أجل إنشاء نظم الصرف الصحي، وتخفيف ازدحام المناطق المكدسة بالبشر في وسط المدينة، وإمدادات مياه الشرب، وتأمين الغاز لإضاءة الشوارع وتدفئة المساكن.

واتجهت مجموعات من الرأسماليين للتكسب من أنشطة كهذه، ووظفوا مجموعات جديدة من العمال لتأمينها.

وتسارعت عملية الحضرنة. وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر كان أكثر من ثلث سكان المدينة من الوافدين الجدد.(١) وبحلول العام **1900** كانت ثلاثة أرباع سكان بريطانيا تعيش في مدن أو بلدات، ولم يعد بينهم من يفلح الأرض سوى واحد من كل عشرة.(٢) لكن بريطانيا كانت النموذج المتطرف. ففي ألمانيا بقي ثلث السكان يفلحون الأرض، وعاشت كثرة من عمال الصناعة في مدن صغيرة أو في قرى صناعية، بأكثر مما سكنوا المدن، في بداية القرن. وفي فرنسا بقي **30** بالمائة من السكان يفلحون الأرض حتى **1950**، وبلغت النسبة في اليابان **38** بالمائة.(٣) وحتى في الولايات المتحدة بقي قسم كبير من السكان فلاحيا (وإن دشنت الميكنة التحولات في المروج) وحتى أربعينيات القرن العشرين كان عدد من يعيشون في المدن الصغرى يفوق عدد من يعيشون في الحواضر الكبرى. وعلى رغم هذا كله، بقيت كل هذه البلدان ميالة إلى اتباع النموذج البريطاني. وكانت القرية – بكنيستها، وكاهنها، وسيدها الريفي، وربما بمعلمة المدرسة – تتحول إلى شيء من الماضي. فطريقة العيش التي يحيا بها الناس كانت تتحول، بالكامل.

وأمّن هذا فرصا لرأس المال، بقدر ما واجه من مشكلات. وتمثلت الفرص بتأمين السلع غير المادية. فقد كانت للناس احتياجات غير احتياجاتهم المادية. كانوا يحتاجون للاسترخاء، وللتواصل المجتمعي، وللتغلب على الإرهاق البدني والملل المُدوِّخ بسبب العمل. استبعد الإنتاج المصنعي والحياة الحضرية معظم الطرائق القديمة لإشباع احتياجات كهذه، بأساسها القروي، ذي الإيقاعات الموسمية، ومناسبات التئام الشمل، على نسق غير رسمي. فكان بوسع رأس المال أن يحقق أرباحا بتأمين طرائق جديدة للتواصل الاجتماعي. كان لدى مُصنِّعي الخمور شبكات المشارب الخاصة بهم القادرة على در الربح. واكتشف أول بارونات الصحافة جمهورا هائلا للتخييل والتسلية (حقق مليونير الصحافة البريطاني

"هارمسويرث **Harmsworth**" أول نجاحاته بأسبوعية أسماها "تيتبيتس **Titbits**") وخطت صناعة الترفيه خطوتها الاستطلاعية الأولى، بإنشاء "قاعات الموسيقى **music halls**"، وخطوة تالية مع اختراع الفونوغراف (الذي سبق الجراموفون) في تسعينيات القرن التاسع عشر، "والصور المتحركة".

وانبثقت الرياضات المنظمة هي أيضا من عالم الصناعة الرأسمالية الجديد. كان عمر الألعاب غير الرسمية التي تُلعَب بالكرة، يقدر بألوف السنين. لكن تنظيم مباريات بين فرق تلعب وفقا لقواعد تعكس المعايير التنافسية للصناعة الرأسمالية من الملامح الجديدة لبريطانيا في القرن التاسع عشر، التي سرعان ما انتشرت في أرجاء العالم كافة. وكانت المدن العمالية، والمصانع ذاتها، محل ميلاد كثير من الفرق (ومن هنا جاءت أسماء مثل "الترسانة **Arsenal**" و"دينامو موسكو")، وتولى رجال الأعمال المحليون رئاستها – مدركين المنافع التي تتحل باختراق التركيز على الهويات المحلية خطوط الفواصل الطبقية.

بدأت الرأسمالية بأخذ أناس كانوا نتاجا لشكل مجتمعي أسبق واستخدموا جانبا من حياتهم – ذلك الجانب الذي شمل الكدح العبودي لمدة **12** أو **14** أو حتى **16** ساعة يوميا، في ورشة أو مصنع، لكن أصبح متيسرا لها احتواء حياتهم كلها– من الأسرة التي ينام فيها الناس، والأسقف التي تحميهم من المطر، إلى الطعام الذي يأكلونه، والجهد الذي يبذلونه للوصول إلى أماكن عملهم، وأشكال الترفيه التي تساعدهم على نسيان عالم الكدح. أصبحت الرأسمالية نظاما كليا.

لكن ذلك خلق مشكلة. لم يعد بوسع الرأسمالية أن تبحث عن إمدادات جديدة من قوة العمل الجديدة، من خارج النظام. تعين عليها أن تتخذ خطوات تضمن وجود الإمدادات، وكان هذا يقتضي معالجة مسألة تنشئة أجيال جديدة من البشر. لم يظهر الرأسماليون سوى قدر ضئيل من الاهتمام بأمر كهذا في الأيام الأولى من الثورة الصناعية في بريطانيا، وكان الرأسماليون الصناعيون في البلدان الأخرى يماثلونهم في اللامبالاة. فقد أمن النساء والأطفال قوة العمل الأرخص والأكثر قابلية

للتكيف، بالنسبة لمصانع النسيج. وكانوا يُحشَرون حشرا، من دون اهتمام بأثر ذلك على صحتهم أو على العناية بالصغار. فإذا كان تراكم رأس المال يستدعي تدمير الحياة الأسرية للطبقة العاملة، فليكن الأمر كذلك!

لكن بحلول خمسينيات القرن التاسع عشر، بدأ الرأسماليون الأبعد نظرا يتحسبون لتضاؤل احتياطيات قوة العمل، مستقبلا. وجاء في تقارير مفتشي قانون إغاثة الفقراء **Poor Law**، في **1871** أنه "من الثابت يقينا أن صبية الطبقات الفقيرة حضريي النشأة، وبخاصة من تربوا في لندن منهم، ليس بينهم ... من يبلغ طوله أربعة أقدام وعشرة إنشات ونصف الإنش، أو يبلغ عرض صدره **29** إنشا ببلوغه الخامسة عشرة. فتباطؤ النمو هو من مميزات هذه الأرومة"[٤] وتوصلت لجنة "مانشن هاوس **Mansion House Committee**" في **1893** إلى خلاصة تقول إن "العلاج الواضح... هو في تقوية القدرة، الجسدية والمعنوية، لدى الطبقة العاملة اللندنية"[٥].

وقلصت سلسلة من القوانين المتعاقبة ساعات العمل التي يمكن أن يقضيها الأولاد في العمل، وحظرت تشغيل النساء في صناعات قد تضر بفرص الإنجاب لديهن. وبنت قلة من الرأسماليين "قرى نموذجية"، مثل بورت سانلايت التي أقامها صانع الصابون ليفر على نهر ميرساي، وبورن فيل التي شيدها صناع كادبوري قرب بيرمنجهام، حيث كان بوسعهم التأكد من أن قوة العمل لديهم تعيش في ظروف تشجع الإنتاجية الطويلة الأمد (مع الاستعانة بحظر صارم على الكحول). لكن تعين الانتظار قبل أن تدخل الحكومة مجال معالجة "القدرة البدنية" لدى العاملين، حتى نهاية العشرية الأولى من القرن العشرين. وانتهى التحقيق الذي أجرته "لجنة التدهور البدني **Physical Deterioration Committee**" حول تدني مستوى اللياقة لدى المجندين لحرب البوير في **1902 - 1899** إلى التعبير عن قلق حول قدرة بريطانيا على شن الحرب، مستقبلا، وجاء رد فعل الحكومة الليبرالية بتقرير التغذية المدرسية- وهي الخطوة الأولى المحدودة باتجاه ما سيصبح، لاحقا،

دولة الرفاه. وبعيدا عن هذا كله، انصب جل الاهتمام على تحسين "القدرة المعنوية" لدى الطبقة العاملة – على هجوم ذي طابع خلقي على "السلوك غير المتزن" و"التهتك" و"الإفراط في تعاطي الخمر" و"الفوضى الناشئة عن... إحسان من غير تمييز".(٦)

وتضمنت معالجة هذه النقائص المزعومة، حملات شنها المحسنون، والكنائس، والبرلمانيون، أعلت من شأن قيم الأسر في الطبقة الوسطى – الأسرة النووية، المستقرة، المتجنبة لتعدد الزوجات، والمؤلفة من زوج عامل، وزوجة مخلصة، وأطفال منضبطين. على اعتبار أن عائلة كهذه هي التي تضمن تنشئة أطفال مطيعين ولديهم شعور بالواجب. وكان المكان المختار للمرأة هو البيت، بما يتماشى مع"الطبيعة البشرية". وأصبحت الممارسة المناقضة لهذا النموذج، وإن شاعت في الماضي، توصم بأنها"لا أخلاقية" أو "غير طبيعية". وهكذا أصبح الجنس قبل الزواج، أو خارج الزواج، وكذلك الطلاق، ومنع الحمل، ومناقشة الصحة الجنسية والمباهج الجنسية، أمورا تستحق اللوم، في مناخ جديد من التطهرية الرسمية. وأصبحت المثلية الجنسية مخالفة جنائية، لأول مرة في بريطانيا.

وارتبطت بهذا النموذج الأسري فكرة "الأجر العائلي" – أن يكون أجر الزوج كافيا لبقاء المرأة في البيت لتربي الأطفال. ولم يتحول هذا لحقيقة إلا بالنسبة لشريحة صغيرة من العمال. وأصحاب العمل الذين كانوا يمنحون العمال زيادات في فترات ارتفاع العائدات، عندما تكون الإضرابات ونقص العمالة مصدر ضرر لهم، كانوا يسارعون، بنفس الكيفية، إلى سحب هذه الزيادات منهم، في وقت الكساد. وبقيت كثرة من النساء اللاتي تركن وظائفهن ليتزوجن ويربين أطفالهن، منخرطات في نوع من العمل المأجور (بوظائف تؤدى في البيت أو بالتنظيف). ولكن بضرب المثال، وبجعل الأمر يبدو وكأن عمل المرأة ليس بأهمية "الكادح من أجل الرزق" الذكر سهُل على أصحاب العمل دفع أجور منخفضة للنساء، من غير أن ينتهيد عقاب.

وعلى التوازي مع الاهتمام بــ"أخلاقيات" العمال تنامى الهوس بالكفاءة. كان رأسماليو المراحل المبكرة من الثورة الصناعية يرون أن تحقيق الربح يكون بإطالة ساعات العمل يوميا، قدر الممكن- ليستخلصوا من الناس ما دعاه كارل ماركس "فائض القيمة المطلق". وبعد أن توفرت فرصة استمرار الإنتاج من دون انقطاع، تقريبا، مع نظام النوبتين والنوبات الثلاث، بدأ الاهتمام يتوجه إلى تكثيف العمل وتجنب كل توقف فيه. وأدخل أمريكي هو "فريدريك تايلور **Frederick "Taylor** "الإدارة العلمية"- استخدام مفتشين معهم ساعات توقيت لتفكيك ما فعله العامل إلى وحداته التكوينية لحساب العدد الأقصى للأفعال التي يستطيع أن يفعلها في يوم عمل، وربط العمل باستيفاء هذا الشكل من الأداء. ولم تعد الماكينة ملحقة بالعامل، بل أصبح العامل ملحقا بالماكينة.

وأخيرا، فقد استدعى الاهتمامُ بالإنتاجية الاهتمامَ بالتربية وبالقدرة على القراءة. فالقراءة، والكتابة، والحساب كنت اختيارية بالنسبة للفلاحين وعمال المزارع في الأزمنة قبل الصناعية. ولهذا فأي مناقشة للأدب في الأزمنة قبل الصناعية أو في بواكير زمن الصناعة، تشمل أدب الطبقات العليا والوسطى. لكن العمليات المعقدة والمتفاعلة للإنتاج الرأسمالي أصبحت تقتضي قوة عمل قارئة – ولو لمجرد قراءة التعليمات على الماكينات والعلامات على حاويات التعبئة- مع معرفة أساسية بالحساب، إضافة إلى ما يساوي هذين الأمرين من حيث الأهمية: اعتياد متأصل على الانضباط الزمني والطاعة. وحتى الرأسمالية البريطانية التي أنجزت ثورتها الصناعية من غير ذلك، صارت في سبعينيات القرن التاسع عشرتشعر بضرورة فرض التعليم الإلزامي حتى سن العاشرة على عمال المستقبل لديها- رغم أنها تركت تعليم الطبقات الوسطى والعالية للمدارس الخاصة التي تدرس اللاتينية واليونانية **grammar schools** ومدارس العموم **public Schools** (التي تحمل تسمية خاطئة). وعادة ما ركزت النظم الرأسمالية اللاحقة، والتي احتاجت قوة عمل لديها من الكفاءة ما يساعد على تحدي السيطرة البريطانية على الأسواق، على برامج تربوية عامة صارمة من البداية، مستهدفة ليس فقط تربية عمال المستقبل، بل والتجهيز التقني لأقسام من الطبقة الوسطى.

بلغت الرأسمالية الطفولية، المنتمية لأواخر المرحلة الإقطاعية ومرحلة الحكم المطلق، سن الرشد في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر. ومع بداية القرن العشرين كانت تدخل مرحلة النضج، في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية. وبهذا فقد أظهرت كثيرا من ملامح المجتمع الذي نعيش فيه اليوم. وإحدى النتائج المترتبة على ذلك أن الناس بدءوا يأخذون هذه الملامح كشيء مسلم به. في بواكير الثورة الصناعية، شعر الناس بصدمة الانتقال من الحياة الريفية إلى العمل الصناعي. وغالبا ما نظروا للماضي، بحثا عن علاج لأوجاعهم- كما حدث عندما بدأ الميثاقيون مشروعا لإنشاء مزارع صغيرة. لكن الشعور بالصدمة اختفى مع بداية القرن العشرين. بقي لدى الناس الاستعداد للاندهاش إزاء ابتكارات فردية، مثل السيارة أو الضوء الكهربي. لكن لم يعد يصدمهم المجتمع القائم على التنافس، وقياسات الوقت، والشراهة. فلم يكونوا يعرفون سوى المجتمع الرأسمالي. فتصوروا أن أشكاله السلوكية المائزة هى "الطبيعة الإنسانية". ولم يعد الناس يدركون كم أن سلوكياتهم كان من شأنها أن تبدو مستهجنة لدى أسلافهم.

أيديولوجية التقدم

اعتقد أيديولوجيو العالم الجديد للرأسمالية أنهم على وشك حل كل مشكلات الإنسانية. وأصيب قسم كبير من الأوساط المثقفة بعدوى هذا التفاؤل. فقد كان كل عام جديد يشهد معجزات ابتكارية جديدة. أصبحت الحياة أكثر راحة من أي وقت مضى للبورجوازية والطبقات الوسطى، بل تحسنت أحوال بعض الأقسام من الطبقة العاملة. وبدا كما لو أن تحقيق أحلام الأجيال السابقة لا يحتاج أكثر من بقاء الحال على ما هو عليه.

وعززت التطورات العلمية والتكنولوجية هذه المعتقدات. واستخدم الفيزيائي "توماس **Thomas**" (لورد كلفين **Lord Kelvin**) قواعد الميكانيكا عند نيوتن ليصوغ نموذجا ميكانيكيًّا للكون كله، من أصغر الذرات لأكبر المجرات، وحاول "جيمس

كلارك ماكسويل **Maxwell James Clerk**" أن ينشئ تكاملا بين ذلك وبين مكتشفات "مايكل فاراداي **Michael Faraday**" في الكهرباء والمغناطيسية.(٧) وبالوقت ذاته وضع عالما الطبيعة "داروين **Darwin** ووالاس **Wallace**" تقارير حول الكيفية التي تطورت بها الكائنات الحية، عبر عملية للانتخاب الطبيعي، ومضى داروين إلى البرهنة على أن الإنسانية تحدّرت عن كائن ثديي يشبه القرد. ونجح الكيميائيون في تصنيع بعض المواد العضوية الموجودة في الكائنات الحية، باستخدام مواد غير عضوية.

حاولت القوى الدينية والغيبية القديمة أن تقاوم هذه الأشكال من التقدم المعرفي، لكن الارتباط بين المعرفة العلمية وبين تحقيق الربح في الصناعة لم يترك لهم سوى موقع على خط الدفاع الأخير. بقي بمستطاع كبير الأساقفة الإنجيليين في أكسفورد أن يندد بـــ "هكسلي **Huxley**"، تلميذ داروين، كما نددت البابوية بجاليليو جاليلي، لكن الكهنة لم يعودوا متسلطين على عقول الناس، كما لو أن التنوير انتصر، أخيرا، في معركته مع قوى اللاعقلانية.

وصارت العقيدة الجديدة بزحف للتقدم لا يعيقه عائق، تدعى "الوضعية" (وهو اسم أطلقه المفكر الفرنسي "كومت **Comte**" على هذه الأفكار) أو "العلمية". ونبع من هذه العقيدة منطق روايات الفرنسي "إيميل زولا **Émile Zola**"، التي سعى فيها إلى تصوير السلوك الإنساني كنتاج لتفاعل أعمى بين الظروف المادية والعواطف الموروثة، ومحاولات "تيودور دريسير **Theodore Dreiser**"، في رواياته عن المشروعات التجارية الكبيرة، التي صورت السلوك الرأسمالي باعتباره تجسيدا لمبدأ "البقاء للأصلح". وكانت هذه العقيدة أساس التفاؤل في روايات الخيال العلمي المبكرة عند "هيربرت جورج ويلز **H. G. Wells**"، التي صورت الإنسانية المنتصرة وهي تهبط على سطح القمر، أو في بعض مسرحيات جورج برنارد شو مثل "الإنسان والسوبرمان **Man and Superman**" أو "الميجور بربارة **Major Barbara**". وكانت حاضرة في محـــاولات "سيجمونـــد فرويـــد

Sigmund Freud" تفسير المشاعـر والسلوكيات اللاعقلانية، على أساس اتصال بقوى داخل العقل البشري- الأنا، والأنا العليا، والهو- وهي تتفاعل على نحو شديد الشبه بالتفاعل بين مكونات الكون عند كلفين.(٨) وكانت هذه العقيدة هي خلفية فلسفة "بيرتراند راسل **Bertrand Russell**"، والمبـدأ الموجه لأمثال "سيدنـي وبياتريـس ويب **Sidney & Beatrice Webb**" وجمعيتهما الفابية **Fabian Society** في بريطانيا، وهما من اعتقدا بإمكانية تغيير المجتمع للأفضل، عبر إصلاحات جزئية ينفذها موظفون حكوميون طيبو النوايا.

بل إن القوى الرجعية، التي سبق لها الاعتماد على التصدي للتقدم بذرائع دينية، أصبحت تدعي أنها تتبع مقاربة علمية. فجرى تحريف الرؤى العلمية حول الطبيعة عند داروين لتتخذ شكل "الداروينية الاجتماعية"، التي زعمت أن الطبقات، أو الأمم، أو الأعراق التي سادت غيرها، تأتّى لها ذلك لأن" سيادتها المتأصلة" ضمنت لها الانتصار في الصراع من أجل البقاء. وتُرْجِمت الانحيازات القديمة المتصلة بـ"الدم الأفضل" أو "الأرومة الأنقى" إلى مصطلحات حديثة، علمية المظهر. وبالطريقة ذاتها، فإن المحاجّة القديمة عند القديس أوجستين (وعند لوثر وكالفين) حول الاحتياج لسلطة دولة قوية لوقف الشر الذي ينبع من "لعنة آدم" - "الخطيئـة الأصلية"- صـارت تُتَرْجم إلى ضرورة السيطرة على "الغرائـز الحيوانية" عند الناس. وفي حين طالبت الكنيسة بسيطرة بوليسية على سلوكيات الناس، صار دعاة الإنساليـة "**eugenics**" يطالبـون الدولة باستخـدام قياسات افترضوا أنها علمية لتقرير "الذكاء" و"الميول الإجرامية" المتأصلة، بغرض تقليص قدرات التناسل عند أناس معينين. وارتبط ذلك بتخوف على مآلات "العرق"، بعد أن أصبحت أسر الفقراء أكبر حجما من أسر الأغنياء- وهو تخوف ربما شارك فيه مصلحون من الطبقات الوسطى، مثل "جون ماينارد كينز **John Maynard Keynes**" الشاب، بالقدر الذي تجده عند الرجعيين من الطبقات الأعلى.

لكن "الوضعية" و"العلمية" ارتبطتا، على العموم، بالإيمان بأن المستقبل لن يكون إلا أفضل من الحاضر، وبأن الحداثة ذاتها تعني التحسن. وبحلول العام **1914** كان الإيمان بالعلم بسبيله إلى أن يحل محل الإيمان بالله- وإن بقيت كثرة من أصحاب رأي جذير بالاحترام يدعو للمزج بين الإيمانين.

نشوء الديمقراطية الرأسمالية

كانت كلمة الديمقراطية مكروهة لدى الطبقات الحاكمة في منتصف القرن التاسع عشر. بقوا يدينونها باعتبارها "حكم الغوغاء" ممن وصفهم "بيرك **Burke**" بأنهم "الحشود الخنزيرية". وأظهر مؤرخ إنجليزي إصلاحي من الإصلاحيين الدستوريين في حزب "الهويجز **Whigs**" مثل "ماكولاي **Macaulay**" من التصلب ما يمكن أن تجده عند أي محافظ "تُوري **Tory**". فكان يقول إن "حق الانتخاب الشامل يمكن أن يضر بكل الأغراض التي من أجلها كانت هناك حكومة"، وإنه "مناقض تماما لوجود الحضارة".[٩] وحتى عندما كانت الطبقات الحاكمة تُجبر، بقوة ضغط من قوى أدنى على الاعتراف بحقوق الانتخاب، فإنها كانت تسعى لتقييد ذلك بشروط تتعلق بالملكية، تستبعد الطبقات الدنيا. ووسع مشروع بقانون إصلاحي في **1832**، في بريطانيا، حق الانتخاب ليشمل مليونا من السكان بعد أن كان المسموح لهم بهذا الحق مائتى ألف – وكان هذا يعني حق الانتخاب لما لا يتجاوز خُمس الذكور من السكان. وزاد قانون، صدر في **1867** في أجواء محتدمة، عدد من يحق لهم الانتخاب[١٠]، وإن أبقى على حرمان نصف الذكور من السكان من هذا الحق. ولم يكن "الليبراليون أو المحافظون يتوقعون أن يؤسس هذا القانون لدستور ديمقراطي".[١١] وفي بروسيا وفي عدد من الدول الألمانية الأخرى، ضمن نظام انتخاب يقوم على تقسيم الناخبين إلى ثلاث طبقات، أغلبية مقاعد البرلمان للأقلية الأكثر ثراء بين السكان. وفوق هذا كله، أصرت معظم الطبقات الحاكمة، تقريبا، على مجلس ثان غير منتخب للبرلمان- مجلس للوردات أو مجلس شيوخ يضم

الأعيان– ويكون له حق الفيتو على عملية التشريع، وعلى أن يكون للعاهل حق تعيين رئيس الحكومة. ولا غرو إن عبر ماركس في ذلك الوقت عن وجهة نظر كومونة باريس، القائلة بأن ديكتاتورية لويس فيليب هي أكثر انسجاما مع رغبات الطبقات الحاكمة من نظام جمهوري ديمقراطي: "إنه شكل الدولة في ظل الحكم الطبقي الحديث، على الأقل في القارة الأوروبية".(١٢)

وعلى رغم ذلك، فمع حركة القرن، بدأت شخصيات معينة في الطبقة الحاكمة ترى أن الديمقراطية ليست، بالضرورة، خطرا يتهددهم، ما داموا قادرين على تقرير قواعد عملها. واكتشف لويس بونابرت ذاته كيف يتلاعب بعملية الانتخاب المؤسسة على حق جميع الذكور في التصويت، عندما تعين الحصول على إقرار باستيلائه على السلطة في **1851**. كانت أغلبية الناخبين الفرنسيين من الفلاحين، الذين يعتمدون في معرفة الأحداث السياسية على الكهنة والمدرسين في القرى. ومن ثم فقد اعتبر أن تحكمه في تدفق المعلومات إليهم، على نحو ينشر بينهم الخوف مما يجري في المدن، يمكنه من الفوز بأصواتهم ومن إثبات أنه "أفضل" من الجمهوريين. وكان هذا مثالا سعى بسمارك إلى الاقتداء به عندما جعل من الملك البروسي إمبراطورا لألمانيا– فقد جاء البرلمان الإمبراطوري بانتخاب يقوم على حق التصويت لجميع الذكور، في حين بقيت الانتخابات لمناصب الدولة على أساس حجم ملكية الأرض.

واكتشفت الطبقة الحاكمة في بريطانيا أن التوسع التدريجي في حقوق الانتخاب لا يضر بقدرتها على تقرير سياسات الدولة، ما دامت كل سلطات تقرير السياسات بعيدة عن سيطرة البرلمان. بقيت هذه السلطات بأيدي تراتبيات غير منتخبة، من العسكريين، والشرطة، والقضاء، وجهاز الخدمة المدنية. وقرر هؤلاء الحدود التي ينشط داخلها البرلمان، عادة، وبقي بمقدورهم رفض أي إجراء يشعرون تجاهه بنفور خاص، باعتباره "غير دستوري" (كما فعلوا عندما صوت البرلمان في **1912** لصالح الحكم الذاتي في أيرلندا). وفي ظروف كهذه، فبدلا من

أن يعمل البرلمان كآلية تضغط بها الجماهير على الطبقة الحاكمة، أصبح آلية تروض بها الطبقة الحاكمة المعبرين عن مشاعر الجماهير- بإجبارهم على تقليص مطالبهم لتناسب الفضاء المحدود الذي سمحت به الطبقة الحاكمة. وكان زعيم الحزب الرئيسي للرأسمالية البريطانية – الحزب الليبرالي – "جلادستون **Gladstone**" قد استشعر، بالفعل، في **1867** "ضرورة تشجيع قسم أوسع من السكان على أن يكون البرلمان مركز اهتماماتهم السياسية".(١٣)

وكما كتب "رالف ميليباند **Ralph Miliband**":

> **إن استيلاء السياسيين على"الديمقراطية" لم يكن يعني تقبلهم لها: كان ذلك، على الأرجح، محاولة للتخلص من تأثيراتها... فمن المقبول، وربما من المقبول من بعض الوجوه، أن يكون هناك قدر من الديمقراطية تم تقليصه والسيطرة عليه، بكل عناية. لكن كل ما يتجاوز ذلك ليس مقبولا ولا مرغوبا. وقد تم ضبط النظام السياسي بكامله وفق هذا التوجه.(١٤)**

وفي كل مكان، ترافقت عمليات توسيع حق الاقتراع مع محاولات سياسيي الطبقات الحاكمة التأثير على قلوب وعقول الطبقات الأدنى. وجاءت أول محاولة من حزب المحافظين في بريطانيا لإنشاءاتحاد قومي تتألف عضويته من أشخاص ليسوا في البرلمان في السنة التي صدر فيها قانون الإصلاح لعام **1867**. وكان هدفه "في المقام الأول، تجميع العمال المحافظين"(١٥)، عبر شبكة من الروابط المحلية ونوادي الشرب: "فالطابع القوي والملح لتأثير المحافظين على الطبقة العاملة هو الأكثر وضوحا بين ملامح النشاط المبكر للاتحاد القومي".(١٦) وقد كان ذلك تأثيرا يقوم على أساس تباين بين أقسام من العمال وبين من يفترض أنهم أفضل منهم، وعلى أساس عداوات دينية أو إثنية بين بعض العمال وبين آخرين(وهكذا، ففي مدن معينة في شمال إنجلترا وفي اسكتلندا كان الانتماء للاتحاد القومي يعنـــي أنك بروتستانتـــي من البرتقاليين **Orange Protestant** المعادين

للمهاجرين الأيرلنديين)، وعلى تمجيد للتوسع الإمبريالي البريطاني، وعلى عطاءات المحسنين للفقراء في وقت الانتخابات.[١٧] ووجدت جهود المحافظين لاجتذاب الطبقات الدنيا والعمالية نظيرها في جهود بذلها الليبراليون، الذين أنشأوا شبكات الروابط المحلية الخاصة بهم. ولم يحدث إلا بعد **1905** أن نجحت قلة من المرشحين "المستقلين" من حزب العمال في مواجهة مع الحزبين الرأسماليين اللذين هيمنا على العمل السياسي في أوساط الطبقة العاملة لأربعين عاما– وكانا ملتزمين بالأوضاع القائمة، بمثل التزام منافسيهما المنتمين للمؤسسة.

وكان للنموذج، في جوهره، ما يماثله في مكان آخر. ففي الولايات المتحدة انقسمت الطبقة العاملة إلى جمهوريين وديمقراطيين، وكان أساس التنظيم، في جوهره، يعتمد على المولد، كأمريكي من أهل البلاد أو كمهاجر (مع تعقيدات إضافية مصدرها موقف الديمقراطيين المتعاطف مع الجنوب). وفي فرنسا شجع الكاثوليك المحافظون مشاعر العداء للسامية، في نضالهم من أجل النفوذ مع الجمهوريين من الطبقة الوسطى المعادين لرجال الكنيسة. ووجد أصحاب الأراضي اليونكر **Junker** (النبلاء– المترجم) في شرق ألمانيا أن من السهل، نسبيا، أن يجعلوا العمال الريفيين يصوتون على النحو الذي يريدونه؛ وأدار "الليبراليون القوميون" من الصناعيين الموالين لبيسمارك حزبا خاصا بهم؛ وفي الجنوب تمكنت الكنيسة الكاثوليكية من السيطرة على التفكير السياسي لدى الناس، حتى في مناطق التعدين.

وساعد تنامي الصحافة الجماهيرية جهود أحزاب الطبقات العليا. وفي عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر حاولت الطبقات الحاكمة البريطانية وقف انتشار الأفكار الجامحة في أوساط الطبقة العاملة الجديدة بفرض ضرائب تجعل أسعار الصحف بعيدة عن متناولهم. ولكن منذ خمسينيات القرن، وما بعدها، وجد نوع جديد من أصحاب المشروعات، إمكانية لتحقيق ربح من الصحف الشعبية. ومن بداية القرن العشرين، فإن أناسا مثل هارمسويرث (الذي سرعان ما سيصبح لورد نورثكليف **Lord Northcliffe**) و"ماكس آيتكن **Max Aitkin**" (لورد بيفربروك

Lord Beaverbrook"، فيما بعد) اعتبروا الصحف أسلحة سياسية. وتمكن رجال من هذا النوع من تحويل حدث ثانوي من أحداث حرب البوير، وهو "حصار مافيكينج **Siege of Mafeking**"، إلى نقطة تمركز لاهتمام الناس من كل الطبقات. وعلى نحو مشابه، نجحت الصحافة الفرنسية في إشعال هستيريا معادية للسامية في قضية "النقيب درايفوس **Captain Dreyfus**" الذي سجن ظلما بتهمة التجسس لحساب ألمانيا. واستغلت الصحافة الألمانية الخوف من الحرب لإلحاق هزيمة بالاشتراكيين في انتخابات **1907**.

وقد مثّل تنمية نوع جديد من القومية جزءا من السيطرة على الديمقراطية الرأسمالية. فقد ظهرت قومية منتصف القرن التاسع عشر، بشكل رئيسي بين شعوب قسمها وقمعها نظام الدولة الذي فُرِض على أوروبا بعودة النظام القديم في **1814-1815**. كانت صيحة لضم صفوف المحاربين من أجل التحرير، وارتبطت بالمناداة بالديمقراطية والحكم الجمهوري. وهذا النوع من القومية الصاعدة من أسفل بقي شائعا حتى نهاية القرن بين الجماعات التي قمعتها الإمبراطوريات الروسية، والنمسوية – الهنجارية، والعثمانية. وقد شجع عليه اتساع السوق. فمن بين أوساط الفلاحين، نشأت طبقات وسطى تتحدث اللغات المحلية، وبدأت النضال لإقامة دول قومية، أو على الأقل بُنًى قومية متمتعة بحكم ذاتي، لكي تواصل السعي وراء مصالحها.

وإلى جانب هذا النمط القديم، وبالتناقض معه، نشأ نوع جديد من القومية، التي جرى الترويج لها من أعلى، من قبل الملكيات ومن قبل الحكام الرأسماليين الجدد، في آن معا. وهكذا اعتنق بيسمارك شكلا من القومية الجرمانية؛ وحاول القياصرة الروس إضفاء الطابع الروسي على رعاياهم الناطقين بالفنلندية، والأوكرانية، والبولندية، وبلغات الشعوب المستتركة؛ وحاولت الطبقات العليا الفرنسية توجيه طاقات الشعب باتجاه "الانتقام" من الألمان، والحماس لإخضاع شمال إفريقيا والهند الصينية؛ وأعلن حكام بريطانيا أن مهمتهم هي أن "يسودوا

البحار" و"يمدنوا السكان الأصليين".[١٨] وألقت الحكومات، والصحف، ورجال الصناعة، ورجال المال بثقلهم وراء الترويج لهذه القومية، معلنين وحدة الهوية بين الطبقات المستغِلة والمستَغَلة في كل بلد، معلنين أنهم نسيج واحد، حتى وإن كان فريق منهم يعيش حياة الترف والآخر يكدح، أو يتضور جوعا. وساعدت الفرص التي أتيحت لأقسام من الطبقات الوسطى، للعمل في إدارة شئون الإمبراطوريات، على تمتين صلتهم المادية بهذا النوع من القومية الجديدة، ما شجعهم على نشر نفوذها بين شرائح العمال– بإدارة منظمات جديدة شبه عسكرية مثل الكشافة لشباب الطبقات الوسطى والعاملة، على سبيل المثال. وكانت هذه المنظمات توصف بأنها "غير سياسية"، لكن التزامها بأيديولوجية الطبقة الحاكمة القائمة على "الملك" و"البلاد" و"الإمبراطورية" لم يكن موضع شك مطلقا.

وتمثل الأثر العام لتدابير كهذه إلى تحويل حق الانتخاب، الذي اعتبرته الطبقات الحاكمة خطرا قاتلا في ثمانينيات القرن التاسع عشر، إلى وسيلة لترويض شريحة من الطبقة العاملة في العشرية الأولى من القرن العشرين. ولم يقع التحول بين ليلة وضحاها، أو من دون احتكاكات. فغالبا ما قاومت الطبقات العليا. واحتاج الأمر في بريطانيا **95** عاما لتنتقل من قبولها بحق الطبقة الوسطى في الانتخاب، في **1832**، إلى منح حق الانتخاب لجميع البالغين. وفي بلجيكا تطلب الأمر إضرابين عامين، لفرض التوسع في حق الانتخاب. وفي ألمانيا وقعت صدامات ممرورة في الشوارع حول هذه القضية في العشرية الأولى من القرن العشرين، وفي **1918** كان الحراك الثوري هو وحده الذي جعل الطبقة الحاكمة تقر بحق الانتخاب للجميع.

وجاءت مقاومة منح المرأة حق الانتخاب مماثلة لمقاومة منح العمال ذلك الحق. فقد كان انتشار علاقات السوق يعني دخول المزيد من الطبقات الوسطى، وكذلك المزيد من النساء العاملات إلى قوة العمل المأجور. لكن الأسرة النموذجية لدى الدعاة الأخلاقيين، الأسرة التي يتركز اهتمامها على تنشئة جيل المستقبل "المناسب"، لم تر للمرأة دورا سوى في المنزل، وبررت ذلك بأفكار مطابقة حول

كفاءة المرأة وحول القيم "النسوية". وأفكار كهذه لم تكن لتعني شيئا لامرأة فلاحة في العصور الوسطى، منخرطة في عمل ثقيل، كما أنه كان يصعب أن تتناسب أفكار كهذه مع العاملات في مصانع لانكشاير. ولكن، بالنسبة لرجال الطبقة الوسطى في العشرية الأولى من القرن العشرين – ورجال الطبقة العاملة الذين تأثروا بالصحف – جعلت الأفكار المطالبة بمنح المرأة حق الانتخاب نوعا من العبث.

ومن التناقضات المثيرة للاهتمام، أن حجب حق التصويت أدى إلى مزيد من التفاف الناس حول نظام الديمقراطية الرأسمالية. فقد تمثل الجانب الأعظم من التوترات في قتال من أجل التحول إلى جزء من النظام، وليس من أجل تجاوزه. فقبل **1914**، أفضت الحملة من أجل الحق في الانتخاب بنساء الطبقات العليا والوسطى إلى الانخراط في عمل مباشر ضد الملْكية والدولة. ولكن، بنشوب الحرب، ألقت القائدات البارزات لحركة المطالبة بحق المرأة في الانتخاب – مثل "إيميلين وكريستابيل بانكهيرست **Emmeline & Christabbel Pankhurst**"– بأنفسهن في الحملة من أجل الانخراط في المذبحة على الجبهة الغربية. أما "سيلفيا بانكهيرست **Sylvia Pankhurst**" التي عارضت الاقتتال، فقد اعتبرت البرلمان عائقا دون التقدم.

الديمقراطية الاجتماعية

خلق الانتشار السريع للصناعة وللطبقة العاملة الصناعية جمهورا جديدا لأفكار المنظمات الاشتراكية التي دمرتها هزائم **1848** و**1871** . لكن لم تتوفر هذه المنظمات، حيثما كانت، على شعور بقدرتها خوض مواجهة ثورية مباشرة مع الدولة. وبدلا من ذلك، فقد اتبعت استراتيجية وضعها اشتراكيون ألمان. استغلوا الفرص التي أتاحتها نظم الانتخاب الجديدة، على محدوديتها وتكريسها لمصالح الطبقات العليا، لتشييد منظمات عمالية قانونية، مثل نقابات العمال، ومنظمات الرفاه، والنوادي الرياضية، بل وحتى نوادي الغناء.

وحقق الحزب الديقراطي الاجتماعي الألماني نجاحا كان هائلا، في بعض وجوهه. فتزايدت حصيلته من الأصوات، من انتخاب لانتخاب، وصار أكبر من حزب ملاك الأراضي ومن حزب الصناعيين. وتمكن من البقاء على رغم حظر استمر اثني عشر عاما في ظل قوانين "معادية للاشتراكية"، فبلغ عدد أعضائه المليون، وصار له تسعون صحيفة محلية. وأصبحت شبكة المنظمات الفرعية التابعة له (النقابات، وجمعيات الرفاه، وما شابه) جزءا من نسيج حياة الناس في كثير من المناطق الصناعية. ونجح الحزب في أن يفعل كل هذا، على رغم من تكرر اعتقالات محرري صحفه، ومنظميه، ونوابه في البرلمان. وبدا أن ذلك برهان على أن الديمقراطية الرأسمالية يمكن أن تتحول ضد مصالح الرأسمالية- وهذا درس دأب فريدريك إنجلز على توضيحه، في مقال بعد الآخر.

وسرعان ما اتبعت أحزاب أخرى المثال الألماني. وكان هذا هو المثال الذي حث فريدريك إنجلز حزب العمال الفرنسي، بقيادة "جول جويسده **Jules Guesde**" و"بول لافارج **Paul Lafargue**" على اتباعه. وفي إسبانيا بدأ العامل في مدريد "بابلو إيجليسياس **Pablo Iglesias**" إنشاء "الحزب الاشتراكي للعمال الإسبان **Partido Socialista Obrero Español (PSOE)**"، متبعا الاتجاهات ذاتها، تقريبا. وكان هذا ما فعله الناشطون في إيطاليا. وحتى في بريطانيا، حيث جعلتهم عشرون عاما من ارتفاع مستوى المعيشة لهؤلاء العمال المهرة، أكثر استعدادا لتقبل رسالة الحزب الليبرالي بقيادة جلادستون، تحركت مجموعة من الديمقراطيين الراديكاليين باتجاه اليسار في **1883**، وبدءوا تشييد صورة مصغرة من الحزب الألماني، الاتحاد الديمقـراطي الاجتماعـي. وعندما تشكلت فـي **1889** فيدرالية أممية للمنظمات العمالية، تعرف عموما باسم الفيدرالية الأممية الثانية، كان الحزب الألماني الضوء الهادي لها.

لكن نظرية هذه الأحزاب انطوت على تناقض، يتصل بالتزامهم بالإسقاط الثوري للرأسمالية، وبنشـاطهم العملي اليومي، المتمثل بالحرص علـى ممارسة

ضغوط يومية من أجل الإصلاح داخل الرأسمالية. وبرز هذا التناقض في منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر.

أحد المثقفين القياديين في الحزب الألماني كان "إدوارد برنستاين **Edward Bernstein**". جمعته إلى إنجلز علاقة صداقة، ولعب دورا مهما في الإبقاء على الحزب، من منفاه، إبان فترة الحظر. وفي منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر أعلن أن الافتراضات النظرية الأساسية عند ماركس وإنجلز كانت خاطئة. ودفع بأن الأزمات الاقتصادية المعممة لم تعد من الملامح التكوينية الأساسية للنظام الرأسمالي، ومضى إلى القول بأنهما أخطآ أيضا في التنبؤ بقطبية متصاعدة بين الطبقات:

> **نرى في كل البلدان المتقدمة امتيازات البورجوازية وهي تفضي، خطوة بعد خطوة، إلى تنظيمات ديمقراطية... والمصلحة المشتركة تكتسب قوة، بمقادير متزايدة، مقابل المصلحة الخاصة، وتتوقف هيمنة القوى الاقتصادية.**[١٩]

ودفع برنستاين بأن هذه العملية يمكن أن تؤتي ثمارها من دون "تفكك النظام الطبقي"[٢٠] الذي طالب به ماركس في كتاباته عن كومونة باريس. وكل ما كان مطلوبا هو انتشار النظام البرلماني، مع اعتناق الاشتراكيين "الليبرالية" [٢١] شاملة، وسياسة إصلاح، خطوة خطوة، داخل النظام القائم.

وندد المنظر الرئيسي في الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني، "كارل كاوتسكي **Karl Kautsky**" بطروحات برنستاين. وذهب إلى أن التخلص من الرأسمالية بالإصلاح مستحيل- فعند نقطة معينة، يتعين أن ينشب "صراع على السلطة" و"ثورة اجتماعية". لكن الخُلاصات العملية التي انتهى إليها لم تختلف كثيرا عن الخلاصات عند برنستاين. فقد ذهب إلى أن الثورة الاشتراكية سوف تنشأ عن التنامي المحتوم للناخبين الاشتراكيين. وبمرور الوقت تصبح للحزب أغلبية انتخابية وشرعية تسمح له بإنهاء أي محاولة من القوى الرأسمالية لإسقاط حكومة

اشتراكية. وحتى يحدث ذلك يتعين تجنب الفعل الذي قد يتسبب بالرد العقابي. وبخلاف برنستاين فإن كاوتسكي كان يقول بوجود هدف بعيد هو التحول الاشتراكي. لكن ما وصفه من أنشطة يومية عملية تفضي إلى ذلك لم يكن شديد الاختلاف عما لدى برنستاين.

فقد تشارك الاثنان في الإيمان بـ"العلمية" أو "الوضعية" التي آمنت بها انتلجنتسيا الطبقة الوسطى، وبالحتمية الميكانيكية للتقدم. فبالنسبة لبرنستاين، كان العلم، والتكنولوجيا، وتصاعد السياق الديمقراطي، عوامل تُحوّل الرأسمالية إلى اشتراكية. فيما رأى كاوتسكي أن العملية تحدث في المستقبل، وليس في الحاضر، وإن لم يختلف عن برنستاين في اليقين المطمئن إلى حتميتها. فعلى مر التاريخ، أفضت التحولات في قوى الإنتاج إلى تحولات في علاقات الإنتاج، وهذا ما سيحدث، بحسب رأيه، إذا تذرع الناس بالصبر. ولم يجد كاوتسكي من يتحدى اطمئنان الغفلة هذا سوى الثورية البولندية – الألمانية ذات السبعة والعشرين عاما روزا لوكسمبورج.

ووجه منظمو الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني الذين ينفقون جهودهم في حشد الأصوات الانتخابية وفي الحفاظ على المنظمات التابعة للحزب، جهودهم للتنديد الرسمي بأفكار برنستاين، وإن واصلوا مسار العمل المعتدل، داخل النظام. وحذا حذوهم قادة الاتحادات النقابية، الذين انحصر اهتمامهم في جعل أصحاب العمل يقبلون الدخول في مفاوضات. وخسر برنستاين الأصوات داخل حزبه، لكنه فاز في المناظرة.

لكن قدرة الأحزاب الاشتراكية على توسيع نفوذها داخل النظام الرأسمالي اعتمدت، بالنهاية، على استقرار الرأسمالية ذاتها. واعترف برنستاين بذلك عندما جعل التحرر المفترض للنظام من الأزمات محور دفوعه. وقد مرت الرأسمالية الألمانية، في تسعينيات القرن التاسع عشر، بمرحلة بدا فيها أنها جعلت نفسها بمأمن من التأزم، وأسس برنستاين على ذلك تعميماته بخصوص المستقبل.

وبالمقابل، انطلقت روزا لوكسمبورج من أن العمليات التي تعمل على استقرار النظام الرأسمالي في ألمانيا في التسعينيات هي ذاتها التي ستسبب له انعدام الاستقرار، لاحقا.[٢٢] ووضعت يدها، أيضا، على أمر كاد أن يدركه الاقتصادي الليبرالي الإنجليزي هوبسون، وسوف يفصله لاحقا، في **1916**، الثوريان الروسيان "نيقولاي بوخارين **Nicolai Bukharin**" و"فلاديمير لينين **Vladimir Lenin**" – أن مرحلة النمو الرأسمالي المتسارع مرتبطة بالتوسع الإمبريالي للقوى العظمى.

الإمبريالية

في **1876** لم تكن أوروبا تحكم سوى عشرة بالمائة من مساحة إفريقيا. ولم يحل العام **1900** إلا وكان أكثر من تسعين بالمائة من تلك القارة مستعمرًا. اقتسمت بريطانيا، وفرنسا، وبلجيكا القارة فيما بينها، تاركة شرائح صغيرة لألمانيا وإيطاليا. وفي المرحلة ذاتها، أسست بريطانيا، وفرنسا، وروسيا، وألمانيا، مناطق نفوذ امتدت من المستعمرات المحدودة التي أسستها على أجزاء من الصين؛ واستولت اليابان على كوريا وتايوان؛ وأخضعت فرنسا الهند الصينية بكاملها، وانتزعت الولايات المتحدة بورتوريكو والفلبين من إسبانيا؛ واتفقت بريطانيا وروسيا على اقتسام غير رسمي لإيران. وحتى الجزر الصغيرة في المحيطين الباسيفيكي والهندي كانت تخضع لإملاءات من لندن أو باريس. وصار عدد الدول المتمتعة باستقلال حقيقي، خارج أوربا والأمريكتين، يعد على أصابع اليد الواحدة – بقايا الإمبراطورية العثمانية، وتايلند، وإثيوبيا، وأفغانستان.

ونقلت الأساطير، عبر حكايا للأطفال وروايات لآبائهم، صورة المستكشف الأبيض الجسور الذي يقهر شعوبا من "سكان أصليين" جهلاء، يصبحون بعد ذلك ممتنين له، والواحد منهم "نصف شيطان ونصف طفل"، بحسب قصيدة لكيبلنغ يحث فيها الأمريكيين على محاكاة أمجاد الكولونيالية البريطانية. ورسمت هذه الأساطير

لشعوب إفريقيا وجزر المحيطين الباسيفيكي والهندي صورة موحدة، يبدون فيها بدائيين، ويوحد بينهم أكل لحوم البشر وممارسة السحر.

وبالحقيقة، فإن مستكشفين أوروبيين، مثل "**مونجو بارك Mungo Park**" في تسعينيات القرن الثامن عشر وأول التاسع عشر، ومثل "**ليفينجستون Livingstone**" و"**ستانلي Stanley**" في خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر، لم ينجحوا في تحقيق الشهرة لرحلاتهم عبر إفريقيا إلا بسبب وجود مجتمعات لها بنيتها ودول لها وجودها القائم. ونجحت هذه الدول في معالجة محاولات الغزو الأوروبي الأولى، بسهولة. وجدير بنا أن نتذكر أنه في ثمانينيات القرن التاسع عشر كان الأوربيون قد أتموا أربعمائة عام من الاتصال البحري مع سواحل إفريقيا- وكان هنود، وعرب، وترك، على اتصال بمساحات واسعة من الداخل الإفريقي، لمدد أطول. لكن الأوربيين لم تتحقق لهم السيطرة المباشرة إلا على مناطق قليلة، متباعدة، وغالبا ساحلية. وكما كتب "**بروس فاندرفورت Bruce Vandervort**": "في بواكير المرحلة الحديثة، على الأقل، لم يكن تفوق أوروبا التكنولوجي، إلا في حالات قليلة، بالغ العظمة أو الأهمية، إلا ربما في البحر. فالسكان المحليون كانوا ينجحون، سريعا، في اللحاق بالمبتكرات الأوروبية".[٢٣]

وانتهت المحاولات الأولى التي قام بها الأوروبيون لانتزاع مستعمرات في إفريقيا إلى معارك دموية، غالبا ما انتهت بهزيمتهم. فقد تعين على الفرنسيين أن يخوضوا معارك طويلة ومريرة قبل أن يُخضعوا الجزائر والسنغال. وخسر البريطانيون المعركة ضد جيش "**الآشانتي Ashanti**" في أوائل سبعينيات القرن التاسع عشر، وضد المهديين السودانيين في الخرطوم في **1884** (عندما لقي تشارلز جورج جوردون الذي كان هو نفسه من ساعد على سحق تمرد التايبينج في الصين مصيره العادل، بأن قتل في الخرطوم)، والمعركة ضد الزولو في "**إيساندلوانا Isandlwana**" في **1879**. وحلت بالإيطاليين هزيمة مدمرة، أنزلها بهم الجيش الإثيوبي في **آدووا Adowa** في **1896**، عندما" تحطمت عقيدة الفاتحين البيض، بكاملها".[٢٤]

لكن مع حلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، أدى النمو المتسارع للتصنيع في أوروبا الغربية إلى تغير الموازين، لصالح القوى المرشحة لتأسيس مستعمرات. فالبنادق ذات الخزائن، والسفن البخارية المصفحة بالفولاذ القادرة على الوصول إلى أعالي الأنهار، والسلاح ذو السمعة السيئة، بنادق **جاتلينج Gatling** الآلية – أمنت للجيوش الأوروبية التفوق، في معظم المعارك، لأول مرة. وفوق ذلك، فقد سهل التدفق اللانهائي للسلع، التي أفرزتها الصناعة، على الأوروبيين رشوة الحلفاء الإفريقيين، ليحاربوا نيابة عنهم. فنصف جنود إيطاليا في إدووا كانوا من إرتيريا أو من التيجراي، وكثرة من جنود البريطانيين في السودان كانوا من المصريين أو السودانيين. فسياسة "فرق تسد" التي نجح الحكام البريطانيون في استخدامها لصالحهم، في الهند، بدأت تستخدم على نطاق واسع في إفريقيا.

زعم الأوربيون أنهم يحاربون ضد "الهمجية"، لكن أساليبهم كانت بربرية. وعندما تمكنت القوات البريطانية بقيادة "**لورد كتشنر Lord Kitchener**"، بالنهاية، من إخضاع السودان، في معركة أم درمان في **1889**، قتلت قواته عشرة آلاف سوداني، بالبنادق الآلية، في حين لم تخسر سوى **48** من رجالها. "لم تلق الألوف المؤلفة من رجال المهدي المحتضرين أو الجرحى، في ميدان المعركة، أي مساعدة من البريطانيين، الذين أداروا ظهورهم، ببساطة وابتعدوا"[٢٥]. رفعوا أصواتهم طالبين الماء، طالبين العون منا، لكن ضباطنا لم يبالوا بهم"، هذا ما كتبه جندي بريطاني في يومياته. وأمر كتشنر، فصنعوا له من جمجمة زعيمهم المهدي محبرة[٢٦] ولم تكن حملة "**لورد لوجارد Lord Lugard**" على قرية ساتيرو المتمردة في نيجيريا أقل وحشية. وبحسب تقديراته، قتل رجاله ألفي متمرد، من دون أن تكون لديهم هم خسائر. أعدموا الأسرى ووضعوا رءوسهم فوق الرِّزَّات.[٢٧] وتقدم الملك البلجيكي "**ليوبولد Leopold**" سواه ممن دعوا لحملة صليبية غربية على إفريقيا، زاعما أن ذلك من شأنه أن يدخل "الحضارة"، ويخرج الرق. وانتزع إقليم الكونغو الشاسع، باعتباره إمبراطورية شخصية، واستخدم وسائل يتعفف عنها حتى الاستعماريون الآخرون. وفي تقرير رسمي للخارجية

البريطانية، تحدث "**روجر كيسمنت Roger Casement**" عن زيارة لواحدة من الأقاليم المنتجة للمطاط، حيث أصبحت "قرى كاملة، زرتها وعرفتها جيدا، كمجتمعات مزدهرة... أصبحت اليوم مقفرة من السكان". وعلم أن الجنود الذين مارسوا النهب وأحرقوا القرى، كان يملأون السلال بالأيدي التي انتُزعت من أجساد الضحايا، ويعودون بها كدليل على أنهم لم يبددوا الذخيرة بغير طائل".(٢٨)

يقينا، لم تبدد القوى الرأسمالية المال والجهد، وهي تخضع بقية أنحاء العالم، بسبب دافع إنساني. لكنهم لم يفعلوا ذلك، ببساطة، بسبب العنصرية، بغض النظر عن تركيزهم على العنصرية كمبرر لمهمتهم. الربح كان الدافع.

وقد دار جدل مطول بين المؤرخين حول ما إذا كانت القوى الكولونية محقة في تصورها أن الإمبراطوريات ستحقق لها مزيدا من الثراء. ولكن هذه المحاجة، شأنها شأن المحاجة حول تجارة الرقيق في القرن الثامن عشر، هي محاجة في غير موضعها. لقد ظنت القوى الكبرى، بالفعل، أن الإمبراطوريات ستحقق لها مزيدا من الثراء. على الخط الأول في التوسع الإمبريالي كان الرجال ذوو الوجوه المتحجرة الذين فهموا، بكل وضوح، أن المال هو ما يُسيِّر العالم. وربما اعتبر أناس من أمثال الملك ليوبولد أو المغامر البريطاني "**سيسل رودس Cecil Rhodes**" أنفسهم مثاليين، لكنهم كانوا يسعون وراء المال. وكما كتب ليوبولد للسفير البلجيكي في لندن "لا أريد أن أفوت فرصة أن نحصل لأنفسنا على شريحة من هذه الكعكة الرائعة، كعكة إفريقيا".(٢٩)

ولا يمكن أن نتفهم عملية اقتسام أشلاء العالم، ما لم ننظر فيما كان يجري للرأسمالية في الغرب في تلك الفترة. شهدت السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر – التي غالبا ما يشار إليها باسم "الكساد الكبير"– كساد الأسواق، وتراجع الأسعار، وانخفاض الأرباح وعوائد الأسهم، خاصة في بريطانيا. وبالنسبة للمستثمرين البريطانيين بدا أن هناك طريقة واحدة للحفاظ على مدخولاتهم – الاستثمار بالخارج. وارتفع الاستثمار في التجارة الخارجية من **95** مليون إسترليني

في **1883** إلى **393** مليون إسترليني في **1889**. وسرعان ما أصبح ذلك مساويا لثمانية بالمائة من إجمالي الناتج القومي العام لبريطانيا، وأصبح يمتص نصف المدخرات.(٣٠) وجرى توجيه الجزء الأساسي من الأموال إلى "أسهم"– استثمارات ذات معدلات ربح ثابتة لإنشاء السكة الحديد، والجسور، والموانئ، وأرصفة الشحن، والممرات المائية، أو لتمويل هيئات حكومية. وأيا كانت الاستثمارات، فقد وُعِد المستثمرون بأرباح تعلو على ما يمكن تحقيقه من ربحية محلية المصدر. وجرى تأمين سوق للإنتاج الصناعي المحلي (مثل قضبان السكة الحديد، والقاطرات البخارية، وعوارض الجسور) وضمان تدفق مواد خام رخيصة. وبهذه الطريقة جرى الانتقال بالرأسمالية البريطانية إلى مرحلة جديدة من التوسع.(٣١) وتطلب هذا النوع من الاستثمار وسيلة لتجنب عجز المقترضين الأجانب عن دفع المستحقات في مواعيدها. وأمنت الكولونيالية ذلك عبر القوة المسلحة للدولة.

وهكذا تولت بريطانيا وفرنسا، معا، شئون المالية المصرية، عندما عجز حكام مصر عن سداد ديونهم في **1876**، وفي ثمانينيات القرن استخدمت حكومة بريطانيا القوة المسلحة لتأسيس "محمية"– وقد جرى إدماج مصر، عمليا، في الإمبراطورية البريطانية، لضمان السيطرة على عائدات شركة قناة السويس، ولحماية الطريق إلى الاستثمارات البريطانية الأضخم، في الهند.

وعلى نحو مشابه، حاولت القوات البريطانية السيطرة على منطقة الترانسفال في جنوب إفريقيا، التي كان يحكمها البوير الناطقون بالهولندية، بعد اكتشاف ركائز الذهب والماس. وأفضت حرب مريرة إلى تأسيس جنوب إفريقيا كحام مستقر للمصالح البريطانية.

ولم تتجه كل الاستثمارات إلى المستعمرات. فقد ذهب قسم كبير من الاستثمارات البريطانية إلى الولايات المتحدة، وذهب كثير من الاستثمارات إلى بلدان في أمريكا اللاتينية، مثل الأرجنتين. وهذا ما جعل البعض ينكرون وجود صلة بين الاستثمار وراء البحار وبين الإمبريالية. والنقطة هي أن المستعمرات

منحت رأسماليي القوى الكولونيالية منافذ استثمار محمية. وأمنت المستعمرات أيضا قواعد عسكرية لحماية الاستثمارات في أماكن أخرى. وترجع أهمية ممتلكات بريطانية مثل مالطا، وقبرص، ومصر، واليمن الجنوبي، والكاب، ليس فقط إلى كونها، هي ذاتها، مصادر للربح، ولكن أيضا باعتبارها محطات على الطريق إلى الهند- وكانت الهند، بما أنها "جوهرة التاج"، محطة بدورها على الطريق إلى سنغافورة، وإلى الصفيح والمطاط في الملايو، وإلى الأسواق التي فتحت حديثا في الصين، وإلى الممتلكات الغنية في أستراليا ونيوزيلندا. كانت الإمبراطورية أشبه بثوب منسوج يحول دون إصابة الرأسمالية البريطانية بنزلة برد: وقد يبدو خيط واحد من خيوط الثوب قليل الأهمية، لكن إذا نَسَلَ ذلك الخيط، بدأت بقية الثوب تتحلل. على الأقل كانت هذه هي الطريقة التي نظر بها المسئولون عن شئون الإمبراطورية، وزملاؤهم في حي المال "السيتي" في لندن، وأصدقاؤهم من رجال الصناعة، إلى الأمور.

لم تكن بريطانيا القوة الإمبريالية الوحيدة. فقد سيطرت فرنسا على ما يكاد يماثل ما سيطرت هي عليه من العالم. وكانت هولندا تمتلك الأرخبيل العملاق الذي ندعوه اليوم إندونيسيا، وسيطرت بلجيكا على حصة مهمة من إفريقيا، وامتلك القيصر إقليما شاسع المساحة شرقي وجنوبي وغربي روسيا ذاتها، وصولا إلى الحدود الهندية، وإلى الجهة المقابلة عند ميناء فلاديفوستوك الواقع على الباسيفيك.

لكن ألمانيا، القوة الصناعية الأوروبية الأسرع نموا، بقيت من دون إمبراطورية، تقريبا. وكانت صناعتها الثقيلة يجري تنظيمها، على نحو متصاعد، عبر الائتمانات الاحتكارية- وهي اتحادات تتألف من شركات تسيطر على الإنتاج، على امتداد السياق الواصل بين استخراج المادة الخام وبين التصرف في المنتوج النهائي. وقد نمت هذه الاتحادات إلى جوار الدولة، ولم يكن لديها شيء من عدم الثقة

بالدولة، الذي تجده عند الرأسمالي الصغير، وهو ما تبقى طابعا مميزا للرأسماليين البريطانيين. وقد تطلعوا لأن تحمي الدولة منتوجاتهم بالتعرفات (الضرائب على الواردات) ولأن تساعدهم على انتزاع حصة من الأسواق الخارجية.

وقد وجهوا أنظارهم إلى ثلاثة اتجاهات: إلى الصين، حيث جرى الاتفاق على تخصيص ميناء لها؛ وإلى إفريقيا حيث تمكنت من السيطرة على تنجانيقا، ورواندا – بوروندي، وجنوب غرب إفريقيا؛ وإلى المغرب، حيث تحدت ألمانيا سيطرة فرنسا وإسبانيا على مراكش؛ وإلى تأسيس ممر، يكون محوره خط السكة الحديد المقترح بين برلين وبغداد، الذي تقرر أن يجتاز جنوب شرق أوروبا وتركيا، إلى بلاد بين النهرين والخليج الفارسي. ولكن أينما اتجهت حركة الرأسماليين الألمان، فقد وجدوا أنفسهم يصطدمون بشبكات مستعمرات، وقواعد، ودول مُسْتَزْلَمَة من قبل إمبراطوريات راسخة – فاصطدموا بالروس في البلقان، وبالفرنسيين في شمال إفريقيا، وبالبريطانيين في الشرق الأوسط وشرق إفريقيا، وبالجميع في الصين.

وإن كان لنا أن نصوغ المسألة صوغا غير متكلف، لقلنا إن الربحية التي أسفرت عن تعاف من "الكساد الكبير"، ومكنت الرأسمالية من السماح لعمالها بقدر من التحسن في مستويات المعيشة، اعتمدت على التوسع الإمبراطوري. ولكن مع توسع الإمبراطوريات وقعت المصادمات بينها.

وعلم أولئك الذين يديرون شئون الإمبراطوريات أن نتائج هذه المصادمات تتوقف على قدرة قواتهم المسلحة. ولهذا، راحت بألمانيا تبني البوارج الحربية لتتحدى سيطرة بريطانيا على البحار، وردت بريطانيا ببناء بوارجها الحربية من طراز "دريدنوت **Dreadnought**". وزادت فرنسا مدة الخدمة العسكرية في جيشها القائم على التجنيد، من عامين إلى ثلاثة، ليكون بوسعها مضاهاة القوة العسكرية الألمانية. وأنشأت روسيا القيصرية مصانع سلاح حكومية، وصممت السكة الحديد على أساس احتمالات الحرب ضد الإمبراطوريات الألمانية، والنمسوية – الهنجارية،

والعثمانية. وكان الانزلاق باتجاه الحرب الجانب السالب في وهم الاستقرار الــذي ألحقته الإمبريالية بالرأسمالية – والذي انبهر به مصلحون اشتراكيون مثل برنستاين.

نقابيون وثوريون

لم يتوقف الصراع بين الطبقات في هذه المرحلة. بدأ هادئا في بعض الفترات وفي بعض الأماكن، أو جرى تحويله إلى مدارات انتخابية خالصة. وصدق هذا، بنحو خاص، على البلد الذي كان فيه أقوى حزب اشتراكي، وهو ألمانيا. ولكن في أماكن أخرى كان هناك بعض المواجهات المريرة. فقد كان يوم العمال في الولايات المتحدة، في ثمانينيات القرن التاسع عشر، يشهد موجة هياج، وكانت هناك صراعات محتدمة في صناعة الصلب (مثل إغلاق مصنع هومستد في **1892**)، وفي السكة الحديد (إضراب بولمان في **1894**) وفي قطاع التعدين (إضراب عمال فحم الأنثراسايت في بنسلفانيا في **1902**). سحق أصحاب العمل الأمريكيون هذه الحركات، مستخدمين الشرطة المسلحة ومخبري منظمة "**بنكرتن Pinkerton**" الخاصة للحراسات والخدمات الأمنية، لإطلاق الرصاص على المضربين.

وفي بريطانيا، ترافقت مع الانتعاش الاقتصادي في ثمانينيات القرن التاسع عشر موجة إضرابات ونشاطات نقابية، بين العمال غير المهرة، بدأت بــ"إضراب فتيات صناعة أعواد الثقاب "الشهير في الطرف الشرقي للندن، وإضراب عمال الشحن النهري في **1889**. واستغل أصحاب العمل تجدد الكساد الاقتصادي في بداية تسعينيات القرن لتدمير كثرة من النقابات الجديدة، عبر عملية تحطيم الإضرابات (باستخدام محطمي الإضرابات المحترفين، كما جرى في الإضراب في ميناء الهال النهري)، وبتجويع الناس لإجبارهم على العودة للعمل (كما جرى مع الإضراب المطول الذي غلبت عليه المشاركة النسائية في برادفورد)، وبإغلاق المصانع، واتخاذ إجراءات قانونية تسمح بمصادرة أموال النقابات (كما في حالة إضراب سكة

حديد **تاف فيل Taff Vale**). وشهدت الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر في فرنسا إضرابات كبيرة. فأضرب عمال المناجم في **ديكازفيل Decazeville** لستة أشهر في **1886**، فجرى استدعاء قوات الجيش، واعتقال الكثيرين، وإطلاق الرصاص على المضربين من عمال النسيج في فورميز **Formies** في شمال فرنسا، في أول مايو **1891**، ما أسفر عن وفاة عشرة وجرح ثلاثين، بينهم أطفال.(٣٢)

ادعى البعض أن الإمبريالية أدت إلى "رشوة" العمال في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، من أرباح "الاستغلال المفرط" في المستعمرات- أو على الأقل إلى "رشوة" أرستقراطية عمالية مائزة تتألف من العمال المهرة، وأن هذا يفسر شعبية الاشتراكيين الإصلاحيين من أمثال برنستاين. لكن الحقيقة أن كثرة من العمال ضربوا فوق رؤوسهم إبان سنوات ذروة الكولونيالية عندما بلغ تدفق الاستثمارات إلى خارج أوروبا الغربية أعلى درجة له. لم يكونوا جميعا عمالا غير مهرة، على الإطلاق. وفي بريطانيا، أكبر قوة إمبريالية في ذلك الوقت، انخرط المهرة من المهندسين، والطبَّاعين، وصانعي الأحذية والجزيمات، في معظم الإضرابات في تسعينيات القرن التاسع عشر، في مقاومة لخفض الأجور وغير ذلك من شروط العمل. وتدور الرواية الكلاسيكية، عن الطبقة العاملة في العقد الأول من القرن العشرين، وهي "**محب الإنسانية ذو السروال الممزق The Ragged Trousered Philanthropist**"، لـ "**روبرت تريسيل Robert Tressell**" حول طبَّاعين وعمال ديكورات مهرة. ولم ينشأ الاستقرار الذي نعمت به الرأسمالية في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية عن رشوة العمال، ولكن نشأت عن الكيفية التي قلصت بها الإمبريالية التأزمات في النظام، خالقة أجواء بدا فيها الإصلاح ممكنا، و"عمليا".

وعلى أية حال، بدأت فترة السلام الطبقي تقترب من نهايتها مع اقتراب القرن الجديد. فقد ترتب على انتشار العلاقات الرأسمالية نمو وتحول في الطبقة

العاملة. فأعيدت هيكلة مهن قديمة، مثل صنع الأحذية، والطباعة، ورص الحروف، وبناء السفن، والهندسة، بما يتسق وأحدث الأساليب الرأسمالية. واتسعت صناعات التعدين، وإنتاج الحديد والصلب في كل مكان. وظهرت صناعات جديدة، مثل التصنيع الكيماوي والكهربي. وبجوار عمال النسيج في مصانعهم، والذين كانوا رمزا للثورة الصناعية في بريطانيا، أصبح هناك ملايين مُملْينة من العمال في صناعات ثقيلة، في مختلف أنحاء العالم. وظهرت أيضا أولى التحركات باتجاه الإنتاج الكبير، القائم على أعداد هائلة من عمال نصف مهرة مرتبطين بإيقاعات خط الإنتاج. وفي **1909**، بدأ هنري فورد يبيع أولى سياراته، وهي السيارة التي أنتجت بكميات كبيرة، من "**طراز تي T Model**" الشهير وأُطلق عليها اسم "**ليزي المعدنية Tin Lizzy**" **[أو "لينا النطّاطة" –المترجم]**. وفي **1913** افتتح مصنعه في هايلند بارك، في ديترويت، الذي ضم عشرات الألوف من العمال. وخلال عقدين من الزمان، كان ملايين العمال في أكثر من اثني عشر بلدا يعملون في مصانع مشابهة. بالوقت ذاته، ظهرت على النظام، إجمالا، علامات اضطرابات اقتصادية جديدة. بدأت الأجور الحقيقة تتراجع، في معظم البلدان الاقتصادية في العشرية الأولى من القرن العشرين. والأزمات الاقتصادية التي زعم برنستاين أنها صارت شيئا من الماضي، عادت بقسوة.

وأسفر هذا عن موجة جديدة من النضالات العمالية، مع انتشار إضرابات ممرورة في معظم البلدان. وبدأت مجموعات جديدة من الناشطين تنظم نفسها، على أسس تباينت مع تلك التي اعتمدتها الأحزاب الاشتراكية القائمة، بتوجهها البرلماني، وبقياداتها النقابية القائمة، التي تركز على التفاوض مع أصحاب العمل.

وقادت منظمة "عمال العالم الصناعيين"، التي تأسست في **1905** بالولايات المتحدة إضرابات عمال التعدين، والأخشاب، وعمال الشحن، والعاملين في صناعات النسيج، وإضرابات العمالة المنظمة من السود ومن النساء ومن العمال غير المهرة، الذين درجت على تجاهلهم فيدرالية العمل الأمريكية، "المعتدلة"

والمعترف بها. واتبعت **الكونفدرالية العامة للشغل (CGT)** في فرنسا مقاربة مماثلة من حيث التشدد، مصرة على أن الثورة العمالية يمكن أن تتحقق عبر الأساليب النضالية النقابية، رافضة أي مشاركة في الانتخابات البرلمانية. وأصبحت مقاربتها تعرف، عالميا، باسم "**السندكالية syndicalism**" (النقابية)، وهو اسم مشتق من الكلمة الفرنسية التي تعني نقابة وهي **sindicat**. وقد أنشأ الفوضويون في إسبانيا **الكونفدرالية الوطنية للعمل (CNT)** لتكون بديلا ثوريا يغني عن قيادة الحزب الاشتراكي **للاتحاد العام للشغيلة (UGT)**. وفي أيرلندا، قاد المنظم المتشدد لأحد اتحادات عمال الشن وهو "**جيم لاركين Jim Larkin**"، إضرابا ضخما في بلفاست في **1907**، وحد بين الكاثوليك والبروتستانت، بل وأشعل السخط داخل الشرطة. وبعدها أسس لاركين نقابة جديدة، هي" الاتحاد الأيرلندي لعمال النقل والأشغال العامة". وفي بريطانيا، كانت هناك محاولات لإنشاء فروع لمنظمة عمال العالم الصناعيين **(IWW)** وعاد العامل الهندسي **توم مان Tom Mann** الذي لعب دورا قياديـــا في إضراب عمال الشحـــن في **1889**، من أستراليا وجنوب إفريقيـــا، ليدعو إلى النسخة الخاصة به من السندكالية، القائمة على اتحاد صغار العمال، داخل النقابات القائمة.

وتلقى الشعور بوجود بديل عن المقاربة البرلمانية دفعة هائلة بقوة الأحداث في روسيا – ثورة **1905**. كانت روسيا القيصرية مركزا للثورة المضادة، منذ قامت بدورها في فرض استعادة النظام القديم في أوروبا في **1815-1814**. فحتى الليبراليون المعتدلون اعتبروا ذلك أمرا منفرا. لكن القيصرية شارفت على السقوط في **1905**. واجتاحت موجات متتالية من الإضرابات عموم روسيا بعد أن فتح الجنود النار على تظاهرة عمالية في العاصمة بطرس بورج. كان على رأس التظاهرة قس هو **الأب جابون Father Gabon**، الذي كان يدير نقابة ترعاها الدولة، متصلة بالشرطة السرية، وكان العمال يهتفون مطالبين "أباهم الحبيب" (القيصر) بعدم الالتفات لـــ"مستشاري السوء" لديه. ولكن، بعد إطلاق النار تصاعد الطابع الثوري للهتافات. وقد أصدر الاشتراكيون صحفا واضحة في ثوريتها. ووقع

تمرد في أسطول البحر الأسود، قاده بحارة المدرعة بوتمكين. ووقعت محاولة لتنظيم انتفاضة في موسكو، في ديسمبر، بقيادة الفصيل **البلشفي Bolshevik** في الحزب الاشتراكي الديمقراطي، الذي تزعمه فلاديمير لينين. وتمحورت القوى الثورية في بطرسبورغ حول نوع جديد من التنظيم ينهض به مفوضون منتخبون من الورش الرئيسية ويقوده ليون تروتسكي البالغ من العمر ستة وعشرين عاما. والاسم الذي اتخذه هذا التنظيم، وهو "**سوفيت soviet**" هو الكلمة الروسية التي تعني "مجلس"، ولم يجر استيعاب كامل لدلالة هذا الاسم آنذاك. لكنه كان يمثل طريقة جديدة في تنظيم القوى الثورية، تختلف عن **اليوميات journée**، وهي انتفاضات الشوارع الباريسية، في الثورة الفرنسية، وحتى عن الكومونة. فقد تأسست الكومونة على مفوضين من الطبقة العاملة في المناطق السكنية- وهو نوع من التنظيم ناسب مدينة كانت لا تزال تتألف، أساسا، من ورش صغيرة. أما السوفيت فكان يناسب مدينة مرت بتحول تسبب به تصنيع السنوات الثلاثين السابقة، وما صحبه من قيام مصانع ضخمة.

وكانت بطرسبورغ كذلك تماما، وإن بقي مجمل روسيا متخلفا، إلى حد بعيد. فالكتلة الكبرى بين السكان كانت من الفلاحين، الذين يفلحون الأرض بأساليب لم تكد تتغير من أواخر القرون الوسطى. وكانت القيصرية تقوم على الأرستقراطية، وليس على طبقة الرأسماليين الروس، وكان كثير من أهداف ثورة **1905** مماثلا لأهداف الثورة الإنجليزية في القرن السابع عشر، والفرنسية في القرن الثامن عشر. لكن القيصرية وجدت نفسها مجبرة على تشجيع جيوب لنمو الرأسمالية الكبيرة، بغرض إنتاج السلاح ومعدات السكة الحديد، فحولت مليوني إنسان إلى عمال صناعيين. وأدى حضورهم إلى تحول فيما كان يمكن أن يكون ثورة بورجوازية ذات طابع فرنسي. وعجزت غالبية الاشتراكيين في روسيا عن إدراك ذلك. واعتقد عدد كبير منهم أن بوسع روسيا تجنب التحول إلى الرأسمالية، بالمرة، لتمضي باتجاه نوع من الاشتراكية يقوم على القرية الفلاحية. ولم يكن مطلوبا أكثر من عمل مسلح لتحطيم سلطة الدولة. وعُرِف هؤلاء الاشتراكيون باسم النارودنيين،

أصدقاء الشعب، وتألف منهم الحزب الثوري الاجتماعي. وكان هناك ماركسيون يرون أن الرأسمالية تتطور، لكن كثرة منهم انتمت إلى الاتجاه **المنشفي Menshevik**، وهو اتجاه الحزب الديمقراطي الاجتماعي، الذي آمن بأن كل ما يتعين على العمال فعله هو أن يساعدوا البورجوازية على القيام بثورتها. بل إن بلاشفة لينين تحدثوا عن" الثورة البورجوازية الديمقراطية". لكن ليون تروتسكي مضى إلى أبعد من ذلك: قال إن انخراط العمال في الثورة يجعلها ثورة "دائمة"، وهو ما قاله ماركس بعد ثورة **1848**. وهكذا انتقلت الحركة الثورية، على نحو أساسي، من مجرد رفع مطالب ديمقراطية إلى رفع مطالب اشتراكية.[٣٣]

في أوروبا الغربية كانت روزا لوكسمبروغ أفضل من تفهم أهمية ثورة **1905**، بعد أن خبرتها، على نحو مباشر، في وارسو الخاضعة لاحتلال روسي. وفي كراسة لها بعنوان "الإضراب الجماهيري"[٣٤] بينت كيف يـــمكن أن تثير الإضرابات الجماهيرية، بشكل عفوي، مسائل سياسية، مدشنة بذلك استراتيجية غير برلمانية للتحول. ولم تحظ أطروحتها إلا بقدر قليل من الاهتمام داخل الحركة الاشتراكيـــة الألمانية، وبـــدا أن سحق القيصريـــة للثورة قلل من أهميـــة هذه الطروحات.

لكن السنوات بعد **1910** بدا أنها تشهد تصاعدا في الإضرابات، من جديد، على نطاق أوسع وبحدة أشد، في أمريكا الشمالية وغرب أوروبا. وفي الولايات المتحدة وقع **إضراب لورانس Lawrence strike** الشهير، في ماساشوسيتس، حيث انقاد أكثر من عشرين ألف امرأة عاملة من أكثر من عشر خلفيات قومية، وراء مهيجين من حركة عمال العالم الصناعيين **IWW**، من أمثال **إليزابيث غيرلي فلين Elizabeth Gurley Flynn** **وبيج بيل هايوود Big Bill Haywood**. وشهدت بريطانيا "**الاضطراب الكبير Great Unrest**"، الذي تمحور حول إضرابات ضخمة في السكة الحديد، وفي الموانئ، والمناجم، وامتد إلى عشرات الصناعات، وغالبا ما انضم إليه عمال غير مهرة وعمال غير منضمين للنقابات. وفي أيرندا وقع إغلاق

مواقع العمل الذي استمر خمسة أشهر، في **1913**، بين عمال النقل وغيرهم. وفي إيطاليا وقعت الصدامات الدموية بين العمال والشرطة، في "الأسبوع الأحمر" في آنكونا، بعد التظاهرة المعادية للعسكرة، وإضراب خمسين ألفا من عمال التعدين في تورينو(حيث قتل الجنود عاملين)، وموجة من الهياج اجتاحت شمال إيطاليا واحتاجت إلى تدخل مائة ألف جندي لقمعها[٣٥]. وحتى في ألمانيا حيث كان المستوى العام للنضالات لا يزال أدنى منه في بقية أوروبا، انفجر إضراب ممرور في الرور. وأخيرا، فإن مذبحة العمال المضربين في مناجم الذهب في لينا في **1912** تبعتها طفرة في النضالات العمالية، ما سمح للفصيلين المتنافسين في الحزب الديمقراطي الاجتماعي بإصدار صحيفتين حاصلتين على شبه ترخيص، وبلغ الأمر ذروته في قيام المتاريس في سان بطرسبورج في صيف **1914**.

كان الزمن الذي تيسر فيه للرأسمالية أن تحقق الاستقرار لنظامها في مركزه، بمغامراتها الدموية في المستعمرات، يقترب من نهايته. ولكن قبل أن يتسنى لأحد أن يتبين إلى أين يمضي هذا كله، كان يتعين أن يُسفَك الدم على نطاق غير مسبوق في كل أنحاء أوروبا.

الطريق إلى الحرب

تجلت حقيقةُ أن الإمبريالية تعني الحرب بين القوى الكولونيالية، وأنها تعني استعباد شعوب المستعمرات، بكل وضوح في وقت مبكر، في **1904**، عندما أفضى اندفاع روسيا شرقا، باتجاه الباسيفيكي، إلى صراع مباشر في الصين الشمالية، مع اندفاع اليابان غربا عبر كوريا. وساعدت هزيمة روسيا بعد ذلك على الإسراع بثورة **1905**. وبدا، مرتين، أن تضاربا مشابها بين المصالح في مراكش قد ينتهي إلى حرب بين فرنسا وألمانيا في **1906** و**1911**.

لكن المنطقة الخطيرة حقا كانت جنوب شرق أوروبا، البلقان، حيث اعتبرت كل قوة من القوى العظمى أن لها أزلامها بين الدول المحلية. نشبت الحروب بين

تـــلك الدول في 1912 و1913. في البداية، هجمت الصرب، واليونـــان، والجبـــل الأسود، وبلغاريا على ما تبقى من مقدونيا وتراقيا العثمانيتين، مُخلّفتين تركيا وليس فيها سوى إسطنبول وشريط ضيق من تراقيا الشرقية. وبعد ذلك هجمت اليونان، وصربيا، ورومانيا، بتشجيع من القوى العظمى، على بلغاريا. وشهدت الحرب بشاعات تورطت فيها كل الأطراف. أرادت أقسام من الطبقات الوسطى الحضرية تخليق وتوسعة دول "عصرية" موحدة اللغة. لكن سكان المناطق الريفية، في كل مكان تقريبا، كانوا خلائط من مجموعات إثنية متباينة اللغات واللهجات. وكانت الطريقة الوحيدة لضمان قيام دولة قومية "نقية إثنيا" هي شن حروب تتضمن طرد، وربما إعدام، المدنيين الذين لا تتوفر فيهم المعايير الضرورية. وانتهت الحرب الأولى بمعاهدة لندن، والثانية بمعاهدة بوخارست. لكن المعاهدتين لم تفعلا شيئا لإزالة الضغوط التي أفضت إلى الحرب، ووجد كثير من هذه الضغوط في كثير من الأقاليم النمسوية – الهنجارية في شرق أوروبا، كما في المناطق العثمانية السابقة. كانت المنطقة بأسرها كوكتيلا عملاقا يهدد بالانفجار.

وفـــي يوليو 1914 ظهـــر إلى أي مـــدى كان الوضـــع متفجرا، عندما قـــام الأرشيدوق النمسوي "فرانز فردينانـــد **Franz Ferdinand**" بزيارة إلى سارايفـــو، عاصمة البوسنة الخاضعة لإدارة نمسوية، وقد اغتاله وطني كان مؤيدا لطرد النمسويين وضم المنطقة لصربيا المجاورة.

وما جرى بعد ذلك معروف جيدا: أعلنت الحكومة النمسوية الحرب على صربيا؛ خشيت الحكومة الروسية من تعرضها لتحديات تهدد مركزها فأعلنت الحرب على النمسا؛ رأت ألمانيا أن مصالحها هي مع النمسا وتحركت ضد روسيا؛ شعرت فرنسا بالحاجة إلى منع ألمانيا من أن تهزم روسيا وتصبح القوة المهيمنة على أوروبا؛ ألقت بريطانيا بثقلها وراء فرنسا فأعلنت الحرب على ألمانيا، متعللة بتحرك القوات الألمانية عبر بلجيكا. وفي غضون أسبوع تهاوى سلام استمر أربعة

وأربعين عاما في أوروبا الغربية – وهي أطول مدة سلام في الذاكرة – مفضيا إلى حرب بين كل الدول الكبرى.

وغالبا ما يبدو أن الحروب، شأنها شأن الثورات، تفجرها مسببات ثانوية. وهذا يجعل الناس يعتبرونها أحداثا رتبتها الصدف، نتيجة لسلسة اعتباطية من الأحكام الخاطئة وسوء التفاهم. لكن الأحداث الثانوية لها أهميتها، بالحقيقة، لأنها، بالنهاية، ترمز إلى التوازن بين القوى الاجتماعية والسياسية الكبرى. فشمعة الإشعال، مثلا، هي من المكونات الرخيصة للسيارة، ولا يمكنها، بذاتها، أن تحرك أي شيء. لكنها قادرة على إشعال الطاقة المتفجرة لبخار الوقود في المحرك. وبالطريقة ذاتها، فإن عملية اغتيال، أو ارتفاع في الضرائب، قد يكون أيهما قليل الخطر في ذاته، لكنه قد يفضي إلى صدامات بين دول أو بين قوى اجتماعية كبرى.

وراء السلسة الطويلة من النشاط الدبلوماسي في صيف **1914**، كانت تكمن حقيقة غاية في البساطة. فقد تصادمت، في مختلف أنحاء العالم، الإمبرياليات المتنافسة التي ظهرت عندما حاولت كل واحدة منها حل مشكلاتها بالتمدد عبر الحدود الدولية. وتحول التنافس الاقتصادي إلى التنافس على الأقاليم، وتوقفت النتيجة على القوة المسلحة. ولم يكن بوسع أي دولة أن تتخاذل، بمجرد أن انفجرت سلسلة المجابهات كنتيجة للاغتيال الذي وقع في سارابيفو، لأنه ما من دولة كان بمقدورها المخاطرة بضعف نفوذها الكوني. والإمبريالية ذاتها، التي حفزت النمو الاقتصادي وعززت الإيمان بحتمية التقدم صارت هي التي تمزق قلب أوروبا.

الهوامش

(١) وردت هذه الأرقام في:

G. Stedman Jones, Outcast London (Harmondsworth, 1976), p132.

(٢) انظر الجدولين 13 و3 في:

E. Hobsbawm, Industry and Empire (Harmondsworth, 1971).

(٣) أرقام المنظمة الدولية للتعاون والتنمية **OECD**:

(4) G. B. Longstaff in September 1893, quoted in G Stedman Jones, Outcast, p128.

(٥) ورد في:

G. Stedman Jones, Outcast, p129.

(6) Charity Organising Society report of 1870-71, quoted in G. Stedman Jones, Outcast, p266.

(٧) على مستوى الممارسة، استخدم ماكسويل المقاربات الرياضية المناقضة لهذا النموذج، ومهد الطريق لبعض النماذج البالغة الاختلاف التي انتشرت في القرن العشرين. لكن نموذجه هو الذي سيطر على مساحة واسعة من التفكير العلمي لجيل بكامله. انظر:

W. Berkson, Fields of Force (London, 1974), chs 5, 6 and 7, especially pp150-155.

(٨) كما هو الحال في نموذج ماكسويل للكون، ففي نظرية فرويد كانت هناك عناصر خاضعة لمقاربة شديدة الاختلاف. وبحلول العشرينات من القرن العشرين كان التحليل النفسي يُنْظَر إليه كتبرير لتحديات لا عقلانية للمقاربة الجبرية - الميكانيكية. ولكن المؤكد أن نقطة الانطلاق عند فرويد كانت تعتمد على جبرية ميكانيكية. انظر، على سبيل المثال التقارير عن محاولاته الجراحية الأولى للتعامل مع أعراض الهستيريا، عند:

J. Masson, The Assault on Truth (Harmondsworth, 1984), pp55-106.

(٩) وردت في:

R. Miliband, Capitalist Democracy in Britain (Oxford, 1982), fn 2, p22.

(١٠) انظر:

See R. Harrison, Before the Socialists (London, 1965), pp69-78.

(11) M. Cowling, 1867, Disraeli, Gladstone and Revolution, quoted in R Miliband, Capitalist Democracy, p25.

(12) K. Marx, second draft for The Civil War in France,translated in K Marx and FEngels, Collected Works, vol 22 (London, 1985).

(13) M. Cowling, Disraeli, p49.

(14) R. Miliband, Capitalist Democracy, p28.

(15) Hanham, quoted in R Miliband, Capitalist Democracy, p27.

(16) R. T McKenzie, British Political Parties (London, 1963), p15.

(١٧) حول هذا الموضوع، انظر:

G. Stedman Jones, Outcast, pp344, 348.

(١٨) بريطانيا، التي هي واحدة من أقدم الرأسماليات الصناعية، كانت لها، أيضا واحدة من أقدم القوميات من أعلى. وقد بين إي. بي. طومسون E. P. Thompson كيف أن الحكومات رعت منظمات قومية شعبية لمناهضة اليعقوبية البريطانية في تسعينيات القرن الثامن عشر. انظر حول هذا الموضوع:

E. P. Thompson, The Making of the English Working Class (New York,1966).

وفي وقت أقرب إلينا، أكدت ليندا كولاي Linda Colley على مدى تنامي الشعور القومي من خمسينيات القرن الثامن عشر، صعودا. انظر:

L. Colley, Britons (London,1994).

ولسوء الحظ، فإن مقاربتها أحادية البعد، وتعجز عن رؤية ما رآه طومسون، وهي التيارات المناهضة للقومية، التي كانت موجودة على الدوام.

(19) E. Bernstein, Evolutionary Socialism (London, 1909), pxi.

(20) E. Bernstein, Evolutionary Socialism, p159.

(21) E. Bernstein, Evolutionary Socialism, p160.

(22) R. Luxemburg, Social Reform or Social Revolution (Colombo, 1966).

(23) B. Vandervort, Wars of Imperial Conquest in Africa 1830-1914 (London, 1998), p27.

(24) Nicola Labanca, quoted in B Vandervort, Wars of Imperial Conquest, p164.

(25) B. Vandervort, Wars of Imperial Conquest, p177. See also T Packenham, The Scramble for Africa (London, 1992), pp539-548.

(26) T. Packenham, The Scramble, p546.

(27) T. Packenham, The Scramble, p652.

(28) T. Packenham, The Scramble, p600.

وحول ادعاءات الإنسانية ومعاداة الرق عند ليوبولد، انظر الصفحات من 11 وحتى 23.

(٢٩) ورد في:

T. Packenham, The Scramble, p22.

(٣٠) أرقام منقولة عن:

H. Feis, Europe: The World's Banker, 1879-1914, quoted in M Kidron, 'Imperialism, the Highest Stage but One', in International Socialism 9 (first series), p18.

(٣١) لمناقشة أطول حول اقتصاديات الإمبريالية، انظر كتابي:

Explaining the Crisis (London, 1999), pp35-36

ومن أجل الرد على الدفوعات المضادة، المتصلة ببيانات إمبيريقية، انظر الهامش 50، ص 59.

(٣٢) تفصيلات من:

L Derfler, Paul Lafargue and the Flowering of French Socialism (Harvard, 1998), pp48 and 90.

(٣٣) انظر:

L. Trotsky, Results and Prospects, in The Permanent Revolution and Results andProspects (London, 1962).

وحول تقريره العام عن هذه الثورة، انظر:

L. Trotsky, 1905 (New York, 1972).

(٣٤) العنوان الكامل:

The Mass Strike, the Political Party and the Trade Unions (London,1986).

(35) According to A Sayers, 'The Failure of Italian Socialism', International Socialism37 (first series).

-٢-

الحرب العالمية والثورة العالمية

4 أغسطس 1914

ظن كل من شارك في الحرب، تقريبا، أنها ستكون قصيرة. تحدث ولي العهد الألماني عن "حرب مشرقة ولطيفة". توقع إعادة للحرب الفرانكو-بروسية للعام **1870**، عندما لحقت الهزيمة بالجيش الفرنسي خلال أسابيع. كان الجنود الفرنسيون قد كتبوا على عربات القطارات التي أخذتهم إلى الجبهة "إلى برلين **à Berlin**". وكان الشائع على ألسنة البريطانيين أن "كل شيء سينتهي قبل أعياد الميلاد".

في البداية، كانت للحرب شعبية. شهدت روزا لوكسمبورج في برلين "هذيانا مجنونا... تظاهرات وطنية في الشوارع...حشودا تغني، ومقاهي تتردد داخلها أغنيات وطنية... ودهماء عنيفة، مستعدة لتصعيد مشاعرها لدرجة الهذيان المحموم، مع كل شائعة مبالغ فيها... قطارات امتلأت بجنود الاحتياط... انطلاق القطارات وسط صيحات فرح من صبايا متحمسات".[١] وكتب تروتسكي يقول "بدا حماس الجماهير في النمسا – هنجاريا مثيرا للدهشة، على نحو خاص... رحت أذرع الشوارع الرئيسية في فيينا التي اعتدتها، وأنا أرقب حشودا تثير العجب وهي تملأ طريق رينج شتراسه الأنيق، حمالون، غسالات، صانعو أحذية، صبيان ورش، فتية من الضواحي".[٢] وفي لندن، احتشد قبالة قصر بكنجهام "جمع هائل، ومتحمس لدرجة مذهلة: يوم الرابع من أغسطس[٣]. ووصف فيكتور سيرج، وهو في سجن فرنسي، كيف أن "ترديدا مفعما بالعاطفة لنشيد المارسييز، من قبل حشود تشهد

حركة القطارات محملة بالجنود، وصل إلينا داخل السجن". وكان بوسعنا أن نسمع الصيحات "إلى برلين، إلى برلين".[٤] وحتى في بطرسبورج، بدا أن مشاهد الإضرابات والمتاريس التي لم يمض عليها سوى أيام قليلة، صارت نسيا منسيا. وتحدث السفير البريطاني "**بوكانان Buchanan**"، فيما بعد، عن: "عن تلك الأيام الرائعة في أوائل أغسطس" "عندما بدا كما لو أن روسيا كلها تغيرت".[٥]

لكن شعبية الحرب لم تكن عميقة على النحو الذي أوحت به التظاهرات الجماهيرية الحاشدة، والترديد الحماسي للأناشيد الوطنية. ويكتب المؤرخ "**دافيد بلاكبورن David Blacknourn**" عن ألمانيا، قائلا: "شاركت في التظاهرات الحماسية، في أواخر يوليو، أعداد قليلة نسبيا، مع حضور بارز للطلاب ورجال المبيعات الشبان... كانت مناطق الطبقات العاملة، مثل الرور كانت هادئة... ولاحظ المراقبون الأكبر سنا اختلافا عما كانت عليه تظاهرات السبعينيات من القرن التاسع عشر"[٦] وقارن "**شليابنيكوف Shlyapnikov**"، وهو ثوري من بطرسبورج، بين الحماس للحرب في أوساط الطبقات الوسطى والعليا وبين المزاج المتحفظ بين عمال المصانع:

> **فعلت صحافة بطرسبورج الكثير لإشعال العواطف الشوفينية. أظهروا مهارة في تضخيم المخالفات "الألمانية" بحق النساء وكبار السن من الروس المقيمين في ألمانيا. لكن هذا الجو العدائي لم يدفع بالعمال نحو المبالغات القومية"[٧].**

وروى **رالف فوكس Ralph Fox** كيف أنه لاحظ، كعامل شاب في لندن، مدى سهولة تنظيم اجتماعات أسبوعية مناهضة للحرب في فنسبري بارك[٨].

وفسر تروتسكي هذه الحالة بأنها كانت أقرب إلى رد فعل على حياة الملالة مما هي شعور وطني عميق الجذور:

> **كثيرون هم الذين يقضون أيامهم، يوما بعد يوم، في ملالات القنوط؛ فهم عماد المجتمع الحديث. ويقتحم نداء التعبئة العامة**

حياتهم كأنه البشارة: المعتاد الذي لطالما أثار النفور، قد انزاح، ليحل محله الجديد وغير الاعتيادي. ولاتزال تنتظرهم، في المستقبل، تحولات أكثر غرابة. للأحسن أم للأسوأ؟ للأحسن بالطبع- فما الذي يمكن أن يبدو أسوأ من الظروف "العادية"؟... تؤثر الحرب على الجميع، ويشعر الذين تقمعهم الحياة وتخدعهم بأنهم تساووا مع الأغنياء وأصحاب النفوذ[٩].

الطبقات الاجتماعية المختلفة لا ينفصل بعضها عن بعض انفصالا كاملا، أبدا. فالمزاج السائد بين الموجودين على القمة يؤثر فيمن يلونهم مباشرة، ويؤثر مزاج الموجودين في الوسط، على مزاج من هم عند القاع. وقد انتقل تصميم الطبقات الحاكمة في أوروبا على أن يحاربوا بعضهم البعض إلى الطبقات الوسطى، وإلى أقسام من الطبقة العاملة، بآلاف الطرق - عبر خطابات وطنية، وقصص صحفية عن "الانتهاكات التي قام بها العدو"، عبر المواكب الموسيقية والأغنيات الشعبية، وعبر إعلانات صدرت عن الروائيين، والشعراء، والفلاسفة. ووصف المؤرخ الألماني ماينيكي أثر الحرب في نفسه بأنها شحنته "بالبهجة الأكثر عمقا". وتذكر الكاتب الروائي الفرنسي الراديكالي **أناتول فرانس Anatole France** (شاعرا بالخجل) كيف أنه ألقى "خطابات قصيرة على الجنود". ووصف الفيلسوف **بيرجسون Bergson** الحرب بأنها حرب "الحضارة ضد البربرية". وكتب الشاعر الإنجليزي **روبرت بروك Rupert Brooke** "تمشي النبالة على ممشانا، مجددا"[١٠] وأظهر الروائي هيربرت جورج ويلز حماسا لـ"حرب تنهي الحروب". وكرر أساتذة المدارس هذه التصريحات على طلابهم الذين بلغوا سن الرشد، وهم يحثونهم على الذهاب للحرب. وكل من رأى رأيا مخالفا، اتهم بأنه "يطعن شبابنا في ظهورهم".

وبقيت جماعات عريضة من العمال يمكن توقع معارضتها لهذه الضغوط. وكانت الحركات الاشتراكية وجماعات المناضلين النقابيين معتادة على أكاذيب

الصحافة، وعلى الطعن الذي يستهدف مبادئهم. وقد انضم كثير منهم لاجتماعات ضمت الألوف في لندن، وباريس، وبرلين، عشية الحرب ليستمعوا لزعمائهم وهم يدعون للسلام. ولكن بمجرد أن اندلعت الحرب، اندفع أولئك الزعماء أنفسهم لتأييدها. وقد كان الجميع مستعدين لمساندة حكامهم ضد الآخرين: الديمقراطيون الاجتماعيون الألمان والنمسويون، وحزب العمال ومؤتمر الاتحادات النقابية **TUC** (فيدرالية الاتحادات النقابية – المترجم) في بريطانيا، الاشتراكي جول جيسده والنقابي **جوهو Jouhaux** في فرنسا، والماركسي المخضرم **بليخانوف Plekhanov** والفوضوي المخضرم كروبوتكين، في روسيا. أما من ساورتهم الشكوك، مثل كاوتسكي و**هاس Haase** في ألمانيا، **وكير هاردي Keir Hardie** في بريطانيا، فلزموا الصمت حرصا على "وحدة الحزب"، وخوفا من اتهامهم بخيانة "الأمة". فكتب هاردي يقول" الأمة التي تحارب يتعين أن تتحد. والأولاد الذين ذهبوا ليحاربوا من أجل أمتهم، يجب أن لا تفت في عضدهم الأصوات النشاز في بلادهم"[١١].

عقود من الانصياع لأحكام الديمقراطية الرأسمالية كانت تُحْدث أثرها. أفضى السعي إلى الإصلاح داخل بُنى الدولة الرأسمالية إلى التماهي مع تلك الدولة في صراعاتها العسكرية. وكان الاشتراكيون الربيون والبلاشفة الروس، وحدهم، هم الذين عبروا عن عداء، لا تهاون فيه، للحرب. وعارض الاشتراكيون الحرب عندما انتهت بلادهم إلى تحالف مع البريطانيين، والفرنسيين، والروس. لكن معارضته للحرب كانت تعود، في قسم كبير منها، لانشقاق داخل الطبقات الحاكمة حول الجانب الذي يتعين مساندته – وانشق المحرر اليساري لصحيفة الحزب، شخص يدعى **بنيتو موسوليني Benito Mussolini**، ليمارس تهييجا لا يهدأ، لصالح الحرب.

وثبت أن الاعتقاد بإمكانية نصر سريع هو في غير محله تماما. في الشهور الأولى من الحرب، نجح الجيش الألماني فعلا، في اجتياح سريع لبلجيكا وشمال

فرنسا، حتى خمسين ميلا من باريس، وتقدم الجيش الروسي حتى شرق بروسيا، التابع لألمانيا. ثم اضطر الجيشان للتراجع. تراجع الألمان أمام تقدم الجيوش الفرنسية والبريطانية، في معركة مارن، لينشئ خط دفاع من الخنادق على مسافة ثلاثين ميلا في العمق. ومني الروس بخسائر جسيمة في موقعة تاننبرج، وطُردوا من الأراضي الألمانية. وتحولـت "حرب المناورات" (حرب الجيـوش السريعـة الحركة) إلى حرب استنزاف، ليقاسي كل جانب خسائر فادحة، وهو يحاول اختراق المواقع المتخندقة للجانب الآخر. وبعد أن كان المتوقع أربعة أشهر من العداوات، امتدت إلى أكثر من أربع سنوات، وانتقلت من الجبهات الشرقية والغربية إلى تركيا، وبلاد مابين النهرين، والحدود الإيطالية – النمسوية، وشمال اليونان.

كانت تلك أكثر الحروب دموية، في تاريخ الإنسانية، حتى ذلك الحين، إذ بلغ الضحايا عشرة ملايين قتيل، تقريبا. مليون وثمانمائة ألف في ألمانيا؛ ومليون وسبعمائة ألف في روسيا؛ ومليون وأربعمائة ألف في فرنسا؛ ومليون وثلاثمائة ألف في النمسا – هنجاريا؛ و**740** ألفا في بريطانيا؛**615** ألفا في إيطاليا. خسرت فرنسا واحدا من كل شاب في عمر القتال، وألمانيا واحدا من كل ثمانية. وسقط ما يزيد عن **23** مليون قذيفة في معركة **فيردون Verdun** التي استمرت لخمسة أشهر – وشارك فيها مليونا رجل، قُتل نصفهم. لكن أحدا من الجانبين لم يحقق أية مكاسب. ومات مليون رجل في معركة **السوم Somme** التي استمرت أربعة شهور في **1916**، وفقد البريطانيون **20** ألفا في اليوم الأول.

وتسببت الحرب أيضا في اضطراب هائل في المجتمع ككل. وبحلول **1915** و**1916** أدركت كل القوى المتصارعة أنها تخوض حربا شاملة. وتوقفت النتائج على القدرة على توجيه جميع الموارد إلى جبهة القتال، بغض النظر عن تأثير ذلك على مستويات المعيشة. فالصناعات التي كانت تنتج سلعا استهلاكية جرى تحويلها لإنتاج الذخائر. وتعين إيجاد بدائل للمواد الغذائية والمواد الخام التي كانت تستورد،

فيما مضـــى، من البلاد المعادية أو الخاضعة لحصار بحـــري. وتعين نقل العمال من صناعة لأخرى، وإيجاد إمدادات جديدة من قوة العمل، لتحل محل من أُرْسلوا إلى الجبهة. وأصبح من الضروري تجنيد العمال الزراعيين- حتى إن تسبب ذلك بنقص شديد في الأغذية - وفي ألمانيا صار شتاء **1917** يعرف باسم"شتاء اللفت"، باعتباره النبات الذي حل محل معظم الخضراوات. ولم يكن العامل الألماني يحصل في المتوسط على أكثر من **1313** سعرا حراريا من الغذاء الذي يتناوله، يوميا، وهو ما يقل بمقدار الثلث عن المستوى المطلوب للبقاء طويلا على قيد الحياة، ومات قرابة**750** ألفا، بسبب سوء التغذية[١٢]. ولم يعد بوسع الحكومات، في أي مكان، تمويل جهودها العسكرية سوى بطبع النقود. وتصاعدت الأسعار، بسبب نقص الأغذية والمواد الأساسية، وتزايد السخط بين الجماهير.

وأصبح جلياً، لدى الجنرالات والسياسيين، على السواء، أن كسب الحرب يعتمـــد على سيطرة الدولة على جانب كبيـــر من الاقتصاد، بغض النظـــر عن الأرثوذكسية الاقتصادية لـــ"السوق الحرة". وكان هناك تصاعد حاد لاتجاه الدمج بين الصناعة الخاضعة للاحتكار وبين الدولة، وهو ما كان واضحا، بالفعل، قبل الحرب، في بلدان بعينها. وحوالي العام **1917** اعترف تقرير صادر عن وزارة الحرب في بريطانيا بأن سيطرة الدولة امتدت "حتى صارت تغطي، ليس فقط الأنشطة القومية ذات التأثير المباشر على الحرب، بل كل قطاع في الصناعة"[١٣]. وبنهاية الحرب كانت الدولة تشتري تسعين بالمائة من الواردات، وتسوق أكثر من ثمانين بالمائة من الأطعمة المستهلكة محليا، وتسيطر على معظم الأسعار[١٤]. وفي ألمانيا، مـــارس الجنرالان **هندنبيـــرج Hindenburg ولودنـــدورف Ludendorff** ما يشبه الديكتاتورية على قسم واسع من الاقتصاد في المراحل المتأخرة من الحرب، عبر توجيهاتهم لرؤساء الترستات الاحتكارية الكبيرة[١٥].

وكان بوسع الجنرالات والصناعيين، معا، أن يروا أن الاستيلاء على أقاليم جديدة من شأنه أن يزيد الموارد الاقتصادية الخاضعة لسيطرتهم. وأعيد تحديد

أهداف الحرب لتشمل، ليس فقط انتزاع مستعمرات في آسيا وإفريقيا أو الدفاع عنها، ولكن أيضا الاستيلاء على مناطق في أوروبا، خاصة المناطق الصناعية أو شبه الصناعية. وبالنسبة لألمانيا كان ذلك يعني ضم المناطق المنتجة لخام الحديد في اللورين الفرنسية، وتأسيس سيطرة ألمانية على بلجيكا، وأوروبا الوسطى ورومانيا، وإقامة منطقة نفوذ في تركيا والشرق الأوسط، يكون محورها سكة حديد برلين – بغداد(١٦). وبالنسبة لفرنسا أصبحت الحرب تستهدف استعادة الألزاس واللورين، وإنشاء نوع من السيطرة على الراينلند الألمانية. وبالنسبة لروسيا كانت الحرب تستهدف ضم إسطنبول (التي وعدتها بها بريطانيا، في اتفاقية سرية). ومثلما تطلع الرأسماليــون الأفــراد إلى زيادة رأسمالهم عبر المنافســة الاقتصادية، تطلعــت مجموعات من الرأسماليين الذين ربطت بينهم الدول القومية إلى زيادة رأسمالهم عبر التنافس العسكري والحرب. لم تعد الإمبريالية مجرد مستعمرات، وإن بقيت المستعمرات مهمة. أصبحت نظاما كليا لا تستطيع واحدة من رأسمالياته أن تبقى من دون محاولة التوسع على حساب الأخريات – نظاما كان منطقه العسكرة الكلية والحرب الكلية، بغض النظر عن الخلخلة الاجتماعية التي تنشأ عن ذلك.

أحدثت الخلخلة تأثيرا هائلا على الطبقة العاملة، وعلى البورجوازية الصغيرة التقليدية، وعلى الفلاحين. حدثت تراجعات مفاجئة، وفي بعض الأحيان كارثية، في مستويات المعيشة. وفي ألمانيا، نزلت الأجور "الحقيقية" للرجال، بحلول **1917**، بأكثر من الخمس، في الصناعات العسكرية، وبأكثر من النصف في الصناعات المدنية(١٧). واختفت الطرائق القديمة في الدفاع عن الأجور وشروط العمل، بعد أن ألقى قادة الاتحــادات العمالية بثقلهم وراء المجهــود الحربي وعارضــوا كل الإضرابات، وكانت العقوبات القاسية تنتظر كل من تجرأ على خرق "الهدنــة". وفي بريطانيــا واجــه زعماء نقابيون أحكاما بالسجن، بموجــب "قانون الدفــاع عن المملكة"؛ وفي ألمانيا وقع تجنيد جماعي لمن اتهموا بالتحريض، وأُرسلوا إلى الجبهة.

ووقع أيضا اضطـــراب هائل في أنماط حياة الطبقة العاملة. انتُزع نصـــف العاملين الذكور من وظائفهم ومجتمعاته القديمة، وأُرسلوا إلى الجبهة، وحل محلهم تدفق نسائي واسع. وارتفع في ألمانيا عدد النساء العاملات في مشروعات صناعية يوظف الواحد منها أكثر من عشرة عمال، بمقدار النصف، ليزيد عددهن عن المليونين(١٨). وفي بريطانيا وصل عدد العاملات في مصانع الذخيرة، وحدها، إلى ثمانمائة ألف عاملة(١٩). كان اندفاع الرأسمالية باتجاه الحرب يمزق النمط العائلي الذي بذل النظام جهودا مضنية لفرضه. وكان من شأن ذلك أن ينشر توجهات خاصة بجماعات مثل عاملات النسيج، لتعم شرائح أوسع من النساء العاملات، ويمنحن شعورا جديدا بالمساواة مع الرجال. لكن الأثر المباشر كان مضاعفة العبء الذي تعين عليهن احتماله. وتعين عليهن العثور على طريقة ما للتوفيــق بين ساعات عمل مطولة في المصنع وتربية الأطفال في البيت، من دون عون. وفي الغالـــب، فقـــد استنفد ذلك الأمر طاقتهـــن وهن يحاولـــن الإبقاء عـــلى وحدة الروح والجسد.

المشقة، والاضطراب، وفقدان الاتجاه – كانت تلك هي ظروف الحياة في مناطق الطبقة العاملة، في سنوات الحرب الأولى. ومع تراجع مستويات المعيشة، زيدت ساعات العمل، وصارت ظروف العمل في المصانع أكثر خطورة، ووقع تارجع حاد في عدد الإضرابات. لكن في **1915** و**1916** أفضى اليأس إلى مقاومة. وقعت احتجاجات عفوية، في مجتمعات للطبقة العاملة كانت تثقلها المعاناة – وكانت نساء تلك المجتمعات المصدر الرئيسي للاحتجاجات. وكانت النماذج الأكثر تمثيـــلا لتلك الظاهرة هي إضـــراب المستأجرين الكبير فـــي جلاسجو فـــي **1915** واحتجاجات محلية على نقص الأغذية، في كثير من البلدات الألمانية في شتاء **1916** و**1917**. وتنامت الإضرابات أيضا بين العاملين من الرجال، الأقل تعرضا لضغوط التجنيد– وهم عمال التعدين المهرة، الذين كان يُنظَر إليهم باعتبارهم

أســـاسيين للمجهود الحربـــي. فقد بقيت شبكات المنضالين النقابيين التابعة لهـــم – رؤساء العمال في مدن مثل جلاسجو، وشيفيلد، وبرلين، وبودابست، وفيينا – متماسكة لم تُمَس. ومع تفاقم المشكلات بدأ هذان النوعان من الاحتجاج بالتواصل فيما بينهما، وبالتواصل مع نوع من التساؤل حول الحرب. وفي الغالب، قاد الإضرابات اشتراكيون من معارضي الحرب، حتى مع بقاء كثير من المضربين شاعرين بضرورة مساندة "فريقهم".

بالوقت ذاته، كان ملايين من الرجال على الجبهة يواجهون أمورا لم يكن في حياتهم ما يُعِدُّهُم لها. وسرعان ما تبين لهم أن الحرب ليست نزهة سارة إلى برلين أو إلى باريس، أو مغامرة عظيمة من نوع ما. كانت الحرب هي الوحل، والملالة، والطعام الردىء، والرعب من الموت المحيط بهم من كل جانب. وكانت تجربة الحرب تتضمن أيضا، لدى المجندين من الطبقة العاملة أو من الفلاحين في تشكيلات "المشاة البائسة المعذبة"، معرفة بأن حياتهم تختلف كثيرا عن حياة الجنرالات وضباط الأركان، بما لديهم من أطايب الطعام والنبيذ، ومساكن مريحة، ومجندين مكلفين بخدمتهم. ولم يسفر ذلك عن تمردات، بشكل آلي. فكثير من المجندين جاؤوا من خلفيات لم تتوفر على ثقافة المقاومة للأوامر الصادرة من أعلى. فعادات الانصياع والطاعة، التي جرى غرسها في رءوسهم منذ الطفولة، دفعت بالجنود إلى قبول مستسلم بما ساقتهم إليه أقدارهم، باعتبار ذلك مجرد وظيفة مملة وكريهة أخرى، من الوظائف التي تعين عليهم أداؤه خاصة وأن كل شكل من أشكال المقاومة كان قمينًا بأن يواجه بقسوة "العدالة" العسكرية. ولاحظ الضابط البريطاني، شاعر الحرب ويلفريد أوين، أن "النظرة الغريبة، في عيون الجميع" ممن كانوا يرقبون العودة إلى الجبهة، "لم تكن نظرة يأس أو رعب، بل كانت ما يفوق الرعب رعبا، كانت نظرة مُعَمَّاة، خالية من التعبيـــر، كأنها نظرة أرنب ميت"[٢٠].

لكن احتمال التمرد كان ماثلا على الدوام. فقد انتبه الجنرالات، والرعب يملؤهم، إلى دلالة ما جرى في احتفالات أعياد الميلاد في **1914**، عندما تسلق الجنود البريطانيون والألمان الخنادق خارجين منها للمؤاخاة بين الجانبين. وتلقى الضباط البريطانيون أوامر بإطلاق النار على أي جندي ألماني يجتاز الخنادق ليتآخى مع جنودهم، في **1916**(٢١). لكن احتياطات كهذه لم تحُل دون انفجار تمردات كبيرة. وشهدت الجبهة الغربية في فرنسا في أبريل **1917** أول انفجار من هذا النوع. فما يقدر بـــ**68** من الفرق العسكرية الفرنسية، قرابة نصف الجيش الفرنسي، رفضت العودة للجبهة، بعد هجوم راح ضحيته ربع مليون جندي. وبمزيج من التنازلات وأشكال القمع - خمسمائة حكم بالإعدام، نُفِّذ منها تسعة وخمسون حكما- أمكن استعادة الانضباط، ولكن بعد أن رفعت بعض الوحدات العلم الأحمر ورددت نشيد الثورة الأممية **Internationale** ولم تكن التمردات في بقية الجبهات الغربية بمثل ما كانت بين الفرنسيين. لكن العام **1917** شهد أيضا تمرد خمسين ألف جندي في إيطاليا، وخمسة أيام من التمرد الدموي الذي شمل مائة ألف جندي في القاعدة العسكرية البريطانية في إيتابل **Étaples**، قرب بولونيا **Boulogne**. وأنهى الجنرالات البريطانيون التمرد بأن قدموا تنازلات في البداية، ثم أعدموا قادة التمرد، وأبقوا الأمر كله طي الكتمان(٢٢).

كانت التمردات العسكرية جزءا من اضطراب وسخط يعمان كل أنحاء أوروبا. لم يقتصر ذلك، قط، على العمال الصناعيين. فقد تأثر به أيضا كثيرون من الطبقة الوسطى، من حاملي الرتب الدنيا في الجيوش. وتجد جانبا من الشعور بذلك في أعمال شعراء الحرب البريطانيين، وفي كتابات تعبر عن انقشاع الوهم بعد الحرب، مثل: "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية" **لرومارك Remarque**، أو **"وداعا للسلاح" لهيمنجواي Hemingway**، أو **"تحت النيران" لباربيس Barbusse**، أو **"الحياة في القبر" لميريفيلي Myrivillis**. وكان يمكن لمشاعر كهذه أن تمضي

بالمرء للتماهي مع اليسار الثوري، كما جرى للكاتب المسرحي الألماني **إرنست توللر Ernst Toller**. لكن أمكن أيضا أن تنتهي إلى وطنية يمينية، نحت باللائمة عن الهزيمة في الحرب على الفساد، والخيانة، ونفوذ قوى "غريبة".

وبالنهاية جرت الحرب أعدادا هائلة من المجندين الفلاحين الفرنسيين، والإيطاليين، والنمسويين – الهنجاريين، والروس من قراهم إلى الفوضى والرعب في الحرب المميكنة. وفي فترة سبقت اختراق الاتصالات الجماهيرية الحديثة معظم الريف الأوروبي، تعرض المجندون الفلاحون لخبرات وأفكار لم تمر بهم من قبل، أُجْبِر بعضهم على القبول بتصنيف وطني، لأول مرة، وهم يتحدثون لهجات محلية، وسط جيوش متعددة القوميات. وفيما كانوا يحاولون استيعاب ما يجري، أمكن جرهم لاتجاهات متعارضة – تحت تأثير كهنة يمارسون الطقوس التقليدية، ووطنيين من الطبقات الوسطى يتحدثون بلهجات مماثلة للهجاتهم، أو عمال يجاورونهم في الخنادق ويطرحون أفكارا اشتراكية، ويضفون على السخط الموجه ضد الأثرياء قدرا من الاتساق.

كانت هذه هي مشاعر كتلة هائلة من الرجال المسلحين المتوترين، الممرورين في الخنادق والثكنات، عندما كانت دول أوروبا يمزق بعضها لحم بعض.

فبراير 1917

"نحن الجيل الأكبر سنا، قد لا نعيش حتى نشهد المعارك الحاسمة للثورة القادمة"، هذا ما قاله لينين المنفي، في اجتماع لشبيبة العمال الناطقين بالألمانية في زيوريخ في يناير 1917. لكنه قال ذلك بعد أن بين أن الثورة محتومة، على رغم كل شيء. قال"أوروبا حبلى بالثورة، والسنوات المقبلة في أوروبا، وتحديدا بسبب وحشية الحرب، سوف تفضي إلى انتفاضات شعبية تقودها البروليتاريا"[٢٣].

ووقعت الهبة الأولى بعد ذلك بستة أسابيع، بالضبط، في بتروجراد، عاصمة الإمبراطورية الروسية[٢٤]. وفي صباح الثاني من مارس تنازل عن العرش القيصر الذي بدا في 23 فبراير[٢٥] أن سلطته يستحيل تحديها. وبحلول نوفمبر كانت تدير البلاد حكومة ثورية يقودها لينين.

لم يكن أحد في الثالث والعشرين من فبراير يتوقع ثورة. واحتفل الاشتراكيون بذلك اليوم، باعتباره اليوم العالمي للمرأة العاملة – وهو تقليد قائم منذ **1910**، استجابة لنداء من القائدة الاشتراكية للنساء العاملات في ألمانيــا **كلارا زيتكين Clara Zetkin**. واحتفلت الجماعات السرية الاشتراكية في بتروجراد بذلك اليوم بمنشورات، وخطابات، واجتماعات، لم يَدْعُ أي منها لإضرابات خوفا من أن الظرف لم ينضج بعد للفعل النضالي[٢٦]. لكن المرارة التي شاعت بين عاملات النسيج، بسبب نقص الخبز، اللاتي كان بينهن الكثيرات ممن التحق أزواجهن بالجيش، بلغ حدا جعلهن يعلن الإضراب وينظمن مسيرة في مناطق المصانع. وروى عامل في مصنع نوبل الهندسي، بعد ذلك:

> **كان بوسعنا سماع أصوات النساء: "يسقط الغلاء!"، "يسقط الجوع!"، "الخبز للعاملين!". وامتلأ الشارع بكتل من نساء ذوات توجه نضالي. ومن لمحننا منهن، رحن يلوحن بأيديهن، صائحات "اخرجوا! "كفوا عن العمل!" وانهمرت علينا كرات الثلج عبر النوافذ. فقررنا الانضمام للثورة[٢٧].**

في اليوم التالي، تنامت الحركة لتشمل نصف عمال المدينة البالغ عددهم أربعمائة ألف، بمواكب من المصانع إلى وسط المدينة، وتغيرت الهتافات، من "الخبز!" إلى "يسقط الاستبداد" و"تسقط الحرب". هاجمت الشرطة المسلحة الاحتجاجات، حاولت الحكومة استخدام الآلاف المؤلفة من الجنود، الذين كانوا في ثكنات المدينة يرقبون لحظة التوجه للجبهة، لتفريق المحتجين. لكن اليوم الرابع من الإضرابات والتظاهرات شهد موجة من التمردات تجتاح الثكنات. اختلطت كتل العمال بكتل

الجنود، واجتاحت شوارع المدينة، حاملة الأسلحة والأعلام الحمراء، وملقية القبض على الشرطة والموظفين الحكوميين. وبمجرد أن دخلت المدينة الكتائب التي تم توجيهها لاستعادة النظام، انضمت عناصرها للثوار. وأحبط عمال السكة الحديد محاولة يائسة من القيصر للعودة إلى المدينة. واجتاحت موسكو ومدنا روسية أخرى حركات مماثلة. وأبلغ جنرالات القيصر سيدهم بأنه لا سبيل إلى استعادة النظام، ما لم يتنازل عن العرش.

فما الذي يحل محل القيصر؟ ظهرت قوتان تسعيان للاستيلاء على وظائف الحكومة، وتعملان متجاورتين، من جناحين مختلفين في قصر تُوريد **Tauride** في بتروجراد. من ناحية، كانت هناك المعارضة الرسمية من داخل النظام القيصري، يمثلها السياسيون البورجوازيون من دوما الدولة **State Duma** القديم (المجلس الأدنى في البرلمان القيصري – المترجم) المنتخبون على أسس طبقية أعطت الأغلبية الساحقة من القاعد للطبقات ذات الحيازة. ومن ناحية أخرى، كان هناك موفدو العمال، الذين اختارتهم مجالس عمالية، أو سوفيتات، شُكِّلت على نمط سوفيتات **1905**. وكان السؤال المفتاح هو: أي هاتين الهيئتين المتنافستين ستضع يدها على السلطة؟ وفي فبراير تمكن أعضاء الدوما من تشكيل حكومة مؤقتة، بعدم ممانعة من السوفيتات. وفي أكتوبر تعين أن تشكل السوفيتات الحائزة على الأغلبية الحكومة الخاصة بها.

كانت الشخصيات الرئيسية في الدوما مصدر تعاون بالغ الأهمية مع القيصرية، منذ بداية الحرب، تعمل معه لتنظيم صناعات الحرب والتكسب منها، وإن أثار سخطها التفاف حلقة فاسدة من شخصيات البلاط حول القيصرة وحول الشخص العزيز عليها، الذي اغتيل قبل وقت قصير، **راسبوتين Raspotin**. طالبوا بإصلاحات ثانوية، في إطار النظام القيصري، ويقينا لم يطالبوا بإسقاطه. وكما أوضح واحد من أبرز شخصياتهم، وهو **رودزيانكو Rodzianko**، فيما بعد:

> **لم تكن الأحزاب المعتدلة غير راغبة، فقط، في الثورة، بل وكانت خائفة منها. وعلى نحو خاص، فعناصر حزب حرية الشعب (الكاديت)، وهو الحزب الواقف على يسار الجماعات المعتدلة ولديه نقاط تماس، أكثر من غيره، مع الأحزاب الثورية، كانت الكارثة المقبلة تخيفهم أكثر من غيرهم(٢٨).**

في الثورات الإنجليزية، والأمريكية، والفرنسية، ومرة أخرى في **1848** انقلبت أقسام واسعة من الطبقات ذات الحيازات على الهبات الشعبية، بعد أن انحرفت إلى التطرف. لكنهم لعبوا بعض الأدوار التدشينية في الحركات الثورية. وفي روسيا في **1917** منعهم خوفهم من العمال الصناعيين من أن يفعلوا ذلك. وكما كتب المؤرخ المنشفي للثورة، **سوخانوف Sukhanov**: "خانت بورجوازيتنا الشعب، ليس في اليوم التالي على الانقلاب، ولكن، بخلاف البورجوازيات الأخرى، حتى قبل أن يقع الانقلاب"(٢٩).

وبقي زعماء الدوما، أمثال رودزيانكو و**مليوكوف Miliukov**، يتفاوضون حول إصلاح الملكية حتى لحظة تنازل القيصر. ومع ذلك، فهم من عين الحكومة التي حلت محله – وهي حكومة قادها الأمير **لفوف L'vov**، وسيطر عليها أصحاب الحيازات الزراعية الكبيرة والصناعيون الكبار. ولم يكن بين أعضائها سوى شخص واحد يملك شيئا من المؤهلات الثورية، وهو محام حقق شهرته بالدفاع عن المسجونين السياسيين، وهو **كيرينسكي Kerensky**.

التقى موفدو العمال إلى السوفيت، بداية، للتنسيق بين مختلف أقسام الطبقة العاملة. وبمجرد أن أرسلت الكتائب المتمردة موفديها للانضمام إلى جمعية العمال، أصبح هؤلاء الجنود بؤرة الحركة الثورية بكاملها. وتعين أن يحكم مسئولها التنفيذي المنتخب قبضته على الإدارة الفعلية للمدينة: تأمين إمدادات غذائية للجنود المتمردين؛ الإشراف على اعتقال رجال الشرطة والموظفين الحكوميين في النظام القديم؛ ترتيب إرسال واحد من كل عشرة عمال في كل مصنع، إلى ميليشيا مكلفة

بالحفاظ على النظام الثوري؛ إنشاء جريدة تنبئ الناس بما يجري في وقت احتجبت فيه كل الصحف بسبب الإضراب. وكانت جماعات من العمال والجنود تتجه إلى السوفيت لتأخذ منه التعليمات - وطوال الوقت، التحقت كل السوفيتات التي نشأت في مختلف أنحاء البلاد بالسوفيت الموجود في بتروجراد. ونتيجة لكل ذلك صار هذا السوفيت الحكومة الفعلية للثورة. لكنه كان حكومة رفضت الاستيلاء رسميا على السلطة، وانتظرت أن يفعل زعماء الدوما ذلك.

وكان موفدو العمال في السوفيت متأثرين، بدرجات متفاوتة، بالأحزاب السرية الاشتراكية. وكان القمع في زمن الحرب قد ألحق دمارا يكاد يكون كاملا بالبنى التنظيمية لتلك الأحزاب، وإن بقي تأثير أفكارها، وتأثير شخصياتها القيادية، سواء كانوا مسجونين، أو منفيين، أو تحت الأرض. لكن هذه الأحزاب لم تستخدم نفوذها، في الأيام الأولى للثورة، لمعارضة قبول السوفيت بحكومة اختارها زعماء الدوما. وتكررت الخلافات بين البلاشفة الماركسيين والمنشفيين حول التكتيكات. في **1905** اتبع المناشفة سياسة الانتظار حتى تأخذ البورجوازية المبادرة، في حين أصر البلاشفة على ضرورة أن يدفع العمال بالثورة البورجوازية إلى الأمام. وإبان الثورة دعا كثير من المناشفة للدفاع عن روسيا ضد الألمان والنمسويين، في حين رفض البلاشفة، و"الأمميون" من المناشفة، أي تأييد للحرب، لكنهم اتفقوا على طبيعة الثورة المقبلة - كان - تعين أن تكون ثورة بورجوازية.

وأدى هذا إلى أن قبل أول من وصل بتروجراد من البلاشفة، وهما ستالين ومولوتوف **Molotov**، بالحكومة البورجوازية المؤقتة التي اختارها الدوما. وترتب على ذلك أن لم يصبح بمقدورهم المطالبة بوقف فوري للحرب، حيث إنها لم تعد حربا شُنّت باسم القيصر، بل حرب "دفاع ثوري". والثوري الوحيد الذي اشتُهِر بأنه شَخَّص الثورة تشخيصا مختلفا، وأصر على أنه من الممكن أن تكون ثورة بروليتارية، كان ليون تروتسكي. لكنه كان منفيا في أمريكا في فبراير، ولم يكن

لديه حزب يخصه هو، وكان ينتمي، بدلا من ذلك، إلى تجمع اشتراكي غير محكم، يقف بين البلاشفة والمناشفة.

ولم يكن موفدو العمال إلى السوفيت سعداء بتشكيل الحكومة الجديدة. كانوا مرتابين بالأمير لفوف وبمجموعة ملاك الأراضي والصناعيين المحيطين به. ولكن لم تكن لديهم الثقة التي تجعلهم يقولون لقادة سياسيين، لديهم معرفة واضحة بالماركسية، إنهم مخطئون. وكان إقناع موفدي الجنود بتأييد الحكومة أسهل كثيرا من إقناع موفدي العمال. لم يكن معظمهم انخرط في عمل سياسي من قبل. نشأوا على الانصياع لمن هم "أفضل" منهم، وعلى رغم أن التجارب المريرة قلبتهم على القيصر وعلى كبار الضباط، لكنهم بقوا على طاعة من كانوا فوقهم ممن انحازوا إلى الجانب الذي اختاروه - لصغار ضباط الكتائب الكثيرين وللحكومة المؤقتة، التي تعلمت استخدام لغة الثورة، بعدهم بما لا يزيد عن يومين.

فشل الحكومة المؤقتة

لم يكتب للحكومة المؤقتة أن تبقى، في هذا الشكل أو ذاك، إلا لثمانية أشهر، ثم أطاحتها ثورة ثانية. وبعد أن سقطت، أرجع أنصارها هذا السقوط لمكائد لينين. زعموا أن روسيا كانت في طريقها باتجاه شكل من الديمقراطية البرلمانية، وإلى تصنيع يخلو من الألم، لو أنها أُعطيت الفرصة. وكسبت روايتهم للأحداث شعبية جديدة في العشرية التي تلت انهيار الاتحاد السوفيتي. لكن هذه الرواية لا تتسق مع أحداث **1917**.

مع سقوط القيصر، راحت القوى البورجوازية الواقفة وراء الحكومة المؤقتة تدفع في اتجاه، فيما كانت الجماهير التي صنعت الثورة تدفع في اتجاه آخر. واتسعت الهوة الفاصلة بينهما على مر الأسابيع التالية.

كان رأسماليو روسيا مصممين على اتباع السيسات ذاتها، التي دفعت بعمال بتروجراد للانتفاض، وجعلت الجنود يساندون هبتهم. فالقيصرية ألقت بروسيا المتخلفة وشبه القروسطية لحرب ضد ألمانيا، ثاني أكثر رأسمالية متقدمة في العالم. وكان من المحتم أن تأتي النتيجة تضعضعا للوضع الاقتصادي، على نطاق واسع، وخسائر هائلة على الجبهة، وانحسار عمليات نقل الغذاء للمدن، وإفقار قوة العمل الحضرية. لكن الحكومة الجديدة كانت مصرة على مواصلة الحرب، بمثل إصرار الحكومة القديمة، لمجرد أن الرأسماليين كان لديهم من التصميم على التوسع الإمبراطوري عبر البحر الأسود، حتى إسطنبول والبحر المتوسط، ما يماثل تصميم الجنرالات القيصريين. كانت صناعاتهم الكبرى احتكارات تدار بالتعاون مع الدولة، وأسواقهم الوطنية يحد منها تخلف الزراعة وفقر الفلاحين. فأي شيء أفضل، للتوسع في هذه الأسواق، من توسعة حدود الدولة؟ لم يكونوا يرون منطقا سوى منطق الحرب الإمبريالية، مهما كانت درجة الاضطرابات الناشئة عنها. وواصلت الحكومة المؤقتة القبول بذلك، حتى عندما أعيدت هيكلتها لتعطي بعض مناصبها للأحزاب الاشتراكية "المعتدلة"، مع تولي كيرينسكي رئاسة الوزراء."حتى كثرة من أعضاء الحكومة المؤقتة اليساريين أعربوا، سرا، عن اتفاقهم مع... الأهداف"التي تقضي بإقامة إمبراطورية جديدة، تشمل الدردنيل ودولا "تابعة" في أوروبا الشرقية[٣٠].

وتماثلت مواصلة التوجهات العسكرية، مع تواصل التوجهات السياسية إزاء الشعوب غير الناطقة بالروسية، التابعة للإمبراطورية، والتي تمثل أكثر من نصف إجمالي السكان. كان هناك تاريخ من التمردات في بولندا، وفي فنلندا، وفي أجزاء من القوقاز، وبدرجة أقل في أوكرانيا. وقد استخدم القياصرة القمع، وفرضوا الطابع الروسي في محاولة لاستئصال كل حركة تستهدف الحكم الذاتي. وواصلت الحكومة الجديدة هذه المقاربة، بسبب الخوف من فقدان الأسواق وإمدادات المادة الخام.

أعطى النظام القيصري كبار الملاك الزراعيين نصف أراضي البلاد، واستخدم النظام القديم كامل قوة الدولة ضد كل محاولة لتفتيت الملكيات الزراعية الكبيرة. وكانت المصالح الرأسمالية في الحكومة الجديدة على الدرجة ذاتها من التصلب. فقد يلقي الوزراء خطابات مطولة حول الإصلاح المرتقب، لكنهم كانوا يصرون، بالوقت ذاته، على ضرورة أن ينتظر الفلاحون.

وكانت سياساتهم تعني أن السخط بسبيله للتصاعد، في وجود البلاشفة أو بغير وجودهم. لم يعط أحد أوامر بالانتفاض في فبراير. وبالمثل، فلم يعط أحد أوامر للفلاحين بمهاجمة مساكن كبار الملاك وباقتسام الأرض، طوال الصيف. ولم يصدر أحد أمرا للناس في فنلندا، أو في أوكرانيا، أو لشعوب القوقاز والبلطيق للمطالبة بأن تكون لهم دولهم. ولم يوعز أحد لملايين الفلاحين الذين ارتدوا بزات عسكرية بأن يهربوا من الجبهة. فالناس الذين شهدوا إسقاط ملكية عمرها خمسمائة عام لم يكونوا بحاجة لمن ينبههم لضرورة التخلص من مصادر أذى أخرى، خاصة أن كثيرين منهم صار عنده سلاح وجرى تدريبه على استخدامه.

الحكومة المؤقتة هي نفسها التي نفخت في الجمرات. أظهرت طموحاتها الحقيقية في يونيو، عندما حاولت شن هجوم عسكري على سيليجا **Silesia** النمسوية. تصاعد السخط في صفوف القوات المسلحة، خاصة عندما حاول كيرينسكي إعادة فرض الانضباط القيصري، بما يشمل عقوبة الإعدام. وفاقم الهجوم العسكري الفوضى الاقتصادية. كانت الأسعار قد تضاعفت أربعة أضعاف، تقريبا، بين **1914** و**1917**. وفي أكتوبر تضاعفت مجددا. تراجعت إمدادات المدن بالغذاء، وانتشر الجوع. وكما أوضح المؤرخ اليميني **نورمان ستون Norman Stone**:

> **لم تصبح روسيا بلشفية لأن الجماهير كانت بلشفية من بداية الثورة، ولا بسبب مكائد السوفيتات أو القادة البلاشفة. بل أصبحت بلشفية لأن النظام القديم تهاوى، وإلى حد ما على النحو الذي**

تفرد لينين بالتنبؤ به. وبحلول الخريف كانت المدن جائعة ومبتلاة بالأوبئة؛ وضيَّع التضخم المسعور كل معنى ليس فقط لزيادة الأجور، بل ولاقتصاد البلاد إجمالا؛ وتراجع إنتاج السلع الحربية، حتى عجز الجيش عن القتال، حتى إن أراد القتال. وحل الشلل بالمناجم، والسكة الحديد، والمصانع...الفوضى الاقتصادية دفعت بروسيا نحو البلشفية.

كان يمكن تلافي البلشفية لو أن هناك أي بديل؛ لكن انهيار الرأسمالية كان واضحا للعيان(٣١).

الأحزاب والثورة

لكن ثورة أكتوبر لم تكن مجرد نتيجة لتطور ميكانيكي لقوى غير بشرية. فقد اعتمدت على تصرف الجماهير - العمال، والفلاحين، والجنود- في مواجهة هذه القوى. وكان هنا أن لعب لينين والبلاشفة دورا حاسما. ولولاهم لاستمرت الاحتجاجات، والإضرابات، وسيطرة العمال على المصانع، وهجوم الفلاحين على حيازات كبار الملاك، وحركات العصيان والتمرد بين القوميات غير الروسية. لكن هذا كله لم يكن لينصهر في حركة واحدة، محاولة إحداث تحول قصدي في المجتمع.

وبدلا من ذلك، كان يمكن، بسهولة، أن يستدير كل منهم ليجابه الآخرين، بما يسمح للعمال العاطلين، والجنود اليائسين، والفلاحين المشوشين بالسقوط في موجات التهييج اللاسامية والقومية الروسية، التي روجت لها فلول النظام القديم. وفي ظروف كهذه، كان يمكن لرجل مثل الجنرال كورنيلوف **General Kornilov** أن ينجح، في محاولته الزحف على بتروجراد في أغسطس، لفرض ديكتاتورية عسكرية. لم يكن ممكنا للرأسمالية أن تنجو في روسيا **1917**، لكن ذلك لم يكن ليمنع شعبا جائعا، ويائسا، من السماح لديكتاتورية يمينية بأن تستغل يأسهم بإقامة نظامها. وكما لاحظ تروتسكي ذات مرة، فالفاشية التي ولدت في إيطاليا في **1922**، كان يمكن أن تظهر، باسم آخر في روسيا، في **1917** أو **1918**.

لكن الاختلاف نشأ عن نجاح حزب اشتراكي ثوري في كسب ولاء أقلية لها قيمتها بين عمال روسيا، في الخمسة عشر عاما التي سبقت الثورة. قامت مصانع كبيرة في بتروجراد، وفي قلة قليلة غيرها من المدن، على رغم تخلف البلاد على الإجمال. في **1914** اشتغل نصف عمال بتروجراد البالغ عددهم مائتين وخمسين ألفا في مصانع يزيد عدد عمال الواحد منها عن خمسمائة، وهذه نسبة تفوق ما كان في رأسماليات الغرب المتقدمة(٣٢). ومثّل هؤلاء تربة خصبة للبروباجندا والتحريض الاشتراكيين، منذ تسعينيات القرن التاسع عشر.

واختلف لينين عن معظم القادة الاشتراكيين من جيله (كان في السابعة والأربعين حين قامت الثورة) من حيث الإصرار على أن الغرض من التحريض يجب ألا يقتصر على كسب تأييد سلبي لمثقفي اليسار، أو لمنظمات من النوع النقابي، ولكن يجب أن يستهدف بناء شبكة من الناشطين داخل الطبقة العاملة، ملتزمة بالتمرد على النظام القيصري. وأسفر ذلك عن قطيعة بينه وبين زملاء سابقين مثل مارتوف **Martov** ، ودان **Dan**، وأكسلرود **Axelrod**، رغم اتفاق ظاهر على الطبيعة البورجوازية للثورة المتوقعة. وكان يُنظَر إلى البلاشفة باعتبارهم الأكثر "تشددا" بين الحزبين الماركسيين – الأكثر تصميما على أن تأتي عناصر الحزب الثوري من مثقفي الطبقة الوسطى أو العاملين في النقابات، وعلى صياغات دقيقة للقضايا النظرية للتوصل إلى وضوح الغرض. وبحلول صيف **1914** كان البلاشفة الحزب الذي يملك أوسع قاعدة عضوية بين عمال بتروجراد، ويصدر جريدة مرخصة هي"البرافدا"، ويكسب معظم الأصوات في انتخابات ممثلي العمال في الدوما(٣٣). وأدت الحرب إلى مزيد من توضيح الفروق بين الحزبين الماركسيين. اتخذ الباشفة موقفا رافضا للحرب، بكل قوة (وإن لم يقبل الكثيرون بما دعا إليه لينين من "انهزامية ثورية")، وأودع ممثلوهم في الدوما السجون. وقد ساند كثير من المناشفة الحرب، في حين أن أقلية بينهم ارتبطت بمارتوف، وهم "المناشفة الأمميون"، رفضوها وإن حافظوا على صلاته بالأغلبية(٣٤).

وكان هناك حزب ثالث، تأتّى له نفوذ بين عمال بتروجراد، في الشهور الأولى من 1917 أكبر من نفوذ البلاشفة أو المناشفة – وهو حزب الاجتماعيين الثوريين. لم يكن هذا حزبا ماركسيا، بل كان حزبا جاء من التراث "الشعبوي" الروسي الذي أكد على مطالب الفلاحين، من ناحية، وعلى دور أقلية بطولية تشعل الحماس الثوري بأفعال يضرب بها المثل (باغتيال قادة الشرطة غير المحبوبين، مثلا)، من ناحية أخرى. وعرف عن أكثر قادتهم شهرة أنهم جاءوا من الطبقة الوسطى، وفي 1917 كانوا يؤيدون الحرب والحكومة المؤقتة، رغم الفشل في تنفيذ برنامجهم الخاص بالإصلاح الزراعي. وبحلول الخريف انشق قادة أقل بروزا، تحت اسم "اليسار الاجتماعي الثوري"، كنتيجة لضغط السخط المتصاعد على الحكومة المؤقتة.

في فبراير كان الاجتماعيون الثوريون يتمتعون بنفوذ واسع في بتروجراد، يفوق نفوذ البلاشفة. عانى البلاشفة أكثر من غيرهم من القمع القيصري، ولم يكن كثير من العمال والجنود يدركون أهمية التمييز بين الأحزاب القديمة في الظروف الجديدة. لكن كثرة من الأفراد البلاشفة لعبوا أدوارا مهمة في انتفاضة فبراير، وكان الحزب يتمتع بقاعدة عضوية متينة في المصانع ومناطق الطبقة العاملة– مائة عضو في مصنع بوتيلوف العملاق، وخمسمائة في منطقة فايبورج الصناعية، بإجمالي ألفي عضو في مجمل المدينة، في بداية مارس. لكن قاعدة عضويته تنامت سريعا مع الثورة، فوصلت العضوية 16.000 في أواخر أبريل[٣٤]. وبعد أن أصبحت العضوية واحدا من كل ثلاثين عاملا، وصلت دعايات البلاشفة وتحريضاتهم إلى كل عامل، تقريبا، في المدينة. وفي أواخر مايو كان بوسع الحزب الفوز بعشرين مقعدا في انتخابات الحكومة المحلية لبتروجراد (مقابل 3.4 بالمائة للمناشفة وخمسين بالمائة للاجتماعيين الثوريين)[٣٦].

تشوش أنصار الحزب بسبب تأييده الحكومة المؤقتة في فبراير ومارس. ولم يتضح الموقف إلا بعد عودة لينين من المنفي في أبريل. كان بوسعه أن يرى أن الرأسمالية الروسية عجزت عن حل أي من مشكلات البلاد، وأن من شأن سياساتها أن تجعل ظروف العمال، والفلاحين، والجنود، معا، أكثر سوءا. وجاءت استجابته للموقف عبر صياغة محاجة شديدة التقارب مع محاجة تروتسكي– وهي التي سبق أن رفضها البلاشفة الأرثوذوكسيون. فقد أشار إلى أن الطبقة العاملة هي التي لعبت الدور الأساسي في إطاحة القيصرية، وأنها، بإنشائها السوفيتات، خلقت طريقة لصنع القرار أكثر ديمقراطية من أي طريقة اتبعتها البورجوازية. لكن الشرط المسبق لذلك هو أن تكون للسوفيتات كل السلطة، وأن تحل ميليشيا عمالية محل الجيش والشرطة السابقين، وأن تؤمَّم البنوك وتعطى الأرض للفلاحين الفقراء.

لم يتصرف الحزب البلشفي كدكتاتورية، وتعرضت طروحات لينين، في البداية، لهجوم من كثرة من البلاشفة في المدينة. لكن هذه الطروحات لقيت استجابة هائلة في مناطق صناعية مثل فايبورج. فهو قدم صياغة واضحة لما دار في خواطرهم، بشكل مشوش. فعل لينين للأقسام النضالية من الطبقة العاملة الروسية ما فعله توم بين لأهالي المستعمرات الأمريكية في **1776**، بكتابه **Common Sense** [المنطق السليم/ ترجمة محمد إبراهيم الجندي **2012** – المترجم]، وما فعله جان بول مارا بكتابه **L'Ami du Peuple** [صديق الشعب – المترجم] لكثير من السان كيلوت الباريسيين في **1792-1793** بصوغ رؤية للعالم هي رؤية ذات معنى في ظروف ناقضت كل المفهومات القديمة. ساعد لينين الناس على الانتقال من كونهم ضحايا للظروف تملكهم الغضب إلى ذوات تاريخية فاعلة.

لم يحتج لينين لأكثر من أسبوعين حتى يكسب تأييد غالبية الحزب. لكنه احتاج وقتا أطول لكسب تأييد الكتلة العمالية، ناهيك عن الجنود والفلاحين. في البداية، أوضح لأعضاء الحزب ضرورة أن "يشرحوا في صبر" ضرورة إسقاط

الحكومة المؤقتة وإنهاء الحرب. لم يكن بوسع المناشفة أن يحققوا هذه الغاية باعتبارهم أقلية لم تكسب بعد تأييد أغلبية العمال. وكان من شأن سلوكيات الحكومة المؤقتة، وعفوية نضالات العمال، والفلاحين، والجنود، أن تضمن فاعلية هذا "التفسير". وارتفعت حصة البلاشفة من أصوات الناخبين، من **20** بالمائة في مايو إلى **45** في نوفمبر. وارتفعت في موسكو من **11.5** بالمائة في يونيو، إلى **51** بالمائة في أواخر سبتمبر. وفي أول مؤتمر لسوفيتات عموم روسيا في أوائل يونيو، كان للبلاشفة ثلاثة عشر بالمائة من الوفود. وفي المؤتمر الثاني، في نوفمبر كان لهم ثلاثة وخمسون بالمائة – إضافة إلى واحد وعشرين بالمائة لليسار الاجتماعي الثوري المتحالف معهم[٣٧].

وانطوى الأمر على ما يتجاوز إقناع الناس بوضع علامة أمام مجموعة من الأسماء وليس أمام غيرها، على ورقة الاقتراع. فقد انخرط البلاشفة في كل نضال عمالي- لجعل الأجور متماشية مع التضخم، لمواجهة تدهور الأحوال، ولمنع المديرين من إغلاق المصانع والتسبب بفوضى اقتصادية[٣٨]. وشجعوا الجنود على تحدي سلطة ضباطهم، كما شجعوا الفلاحين على اقتسام الأرض. أخذ البلاشفة على عاتقهم البرهنة للمستغلين والمقموعين على أن لديهم، هم أنفسهم، السلطة والقدرة على إدارة المجتمع وفقا لمصالحهم عبر السوفيتات.

وكل ثورة كبرى تتقدم عبر صعود وهبوط، عبر انعطافات تنطوي على خطر أن يفقد الناس القدرة على رؤية ما يجري، ككل. ولم تكن روسيا في **1917** استثناء. وقد أدت تصرفات الحكومة المؤقتة والجنرالات إلى انفجار الغضب في أوساط العمال في بتروجراد وفي حامية المدينة، في يوليو، وظهرت تحركات عفوية لإسقاط الحكومة المؤقتة. لكن قادة البلاشفة (وبينهم تروتسكي الذي انضم لتوه للحزب) أوحت حساباتهم بأن الاستيلاء على السلطة في بتروجراد قد لا يقابل إلا بقليل من التأييد في مناطق أخرى، في تلك اللحظة، وقد تستخدم القوى الرجعية

ذلك كعذر، لتعزل الحركة الثورية في المدينة وتسحقها. وتعين عليهم أن يجدوا طريقة لضبط جماح الحركة مع الاستمرار في إظهار التضامن الواضح معها.

ولم تأت النتيجة إيجابية، على الفور. فضبط البلاشفة لجماح الحركة أسفر عن قدر من التراجع في معنويات العمال والجنود، في حين تسبب تضامن البلاشفة معها إلى اعتقال الحكومة المؤقتة لكثير من قادتها وإجبار قيادات أخرى، أبرزهم لينين، على الاختباء. وبهجومها على الحركة فتحت الحكومة المؤقتة الباب أمام كل قوة تسعى للقضاء النهائي على كل رمز للثورة، بما في ذلك الحكومة المؤقتة ذاتها، وحاول الجنرال كورنيلوف الزحف على المدينة. والغريب أن الخطوة النهائية للحركة باتجاه الاستيلاء على السلطة لصالح النظام السوفيتي تمثلت بتنظيم الدفاع عن المدينة، بالتعاون مع أنصار الحكومة المؤقتة– ولكن بطريقة تسعى لاقتلاع آخر بقايا الاحترام لتلك الحكومة، على هشاشة تلك البقايا. وحتى عندئذ لم يكن تأسيس سلطة سوفيتية في الخامس والعشرين من أكتوبر خلاصة مؤكدة. كان واضحا أن أغلبية الوفود في مؤتمر سوفيتات عموم روسيا الذي انعقد ذلك اليوم يمكن أن يؤيدوا الاستيلاء على السلطة. لكن بلاشفة قياديين، مثل زينوفييف **Zinoviev** وكامنيف **Kamenev**، عارضوا، طارحين بدلا من ذلك الحوار مع المناشفة والاجتماعيين الثوريين. وبالمقابل، اعتقد لينين وتروتسكي أن التأخير قد يكون قاتلا. فالجماهير الشعبية ترسخت لديها القناعة بقدرتها على تغيير الأمور، متجاوزين عادات الانصياع والطاعة التي غرسها فيهم حكم طبقي استمر لآلاف السنين. وإقدام الحزب على التأجيل يساوي الإعلان عن أنه لا يقاسمهم هذه القناعة، ويساعد على تدميرها، أثناء ذلك. كانت الأزمة الاقتصادية تتعمق، يوما بعد يوم، مهددة بتحويل الثقة بالنفس إلى تراجع معنوي ويأس. وإذا سُمح لأمر كهذا بالحدوث، فالفلاحون، والجنود، وبعض العمال قد ينضوون تحت راية مغامر عسكري ما.

أكتوبر 1917

اختلف ثورة أكتوبر في بتروجراد، من ناحية معينة، أشد الاختلاف عن ثورة فبراير في المدينة ذاتها- كانت أكثر سلمية، بكثير. كان إطلاق الرصاص أقل، والفوضى أقل. وهذا ما جعل بعض مؤرخي اليمين يصفونها بـ"الانقلاب"، كفعل أقدمت عليه قيادات في أقلية بلشفية، من فوق رءوس الجماهير. والحقيقة أنها كانت منظمة وسلمية، تحديدا، لأنها لم تكن انقلابا. لم تكن فعلا أقدمت عليه قلة من الشخصيات، من أعلى، بل عملا أقدمت عليه جماهير جرى تنظيمها، عبر بُنى عبرت عن أعمق تطلعاتها. فقد تيسر للجنة العسكرية التي يقودها بلاشفة من سوفيت بتروجراد اتخاذ قرارات ينصاع لها العمال والجنود، لأن اللجنة كانت جزءا من سوفيت انتخبوه وبوسعهم تغيير عضويتها. وهذا منح اللجنة سلطة افتقدتها الحكومة المؤقتة، وجعلت كل الجنود في المدينة، باستثناء قليلين، يتبعون أوامرها، بحيث لم يبق أمام كيرينسكي ووزرائه سوى الفرار.

"لم يعد للحكومة المؤقتة وجود"، هذا ما جاء في تقرير تروتسكي المقدم في 25 أكتوبر لسوفيت بتروجراد:

> **قيل لنا إن العصيان سوف يفضي إلى مذبحة ويغرق الثورة في بحور من الدم. وحتى الآن حدث كل شيء من دون إراقة الدم. لا علم لدينا بوقوع قتيل في مواجهة. ولا علم لي بأي مثال، في التاريخ، على حالة ثورية شاركت فيها حشود بهذه الضخامة وكان حدوثها من غير إراقة دم، على هذا النحو[٣٩].**

وسرعان ما ظهر لينين بعد اختفاء دام ثلاثة أشهر، ليقول:

> **الآن تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ روسيا... وإحدى مهامنا الروتينية أن ننهي الحرب، فورا. ولكن لكي ننهي الحرب... لا بد من هزيمة رأسماليتنا ذاتها. وسوف تساعدنا في هذه المهمة**

حركة الطبقة العاملة العالمية التي بدأت تتطور بالفعل في إيطاليا، وألمانيا، وانجلترا... لدينا قوة منظمة جماهيرية سوف تنتصر على كل شيء وتمضي بالبروليتاريا إلى الثورة العالمية. وفي روسيا يتعين أن نمضي، على الفور، لبناء دولة اشتراكية بروليتارية. تحيا الثورة الاشتراكية العالمية(٤٠).

وما جرى كان أمرا بالغ الأهمية. ففي **1792-1793** دفعت الجماهير العاملة في باريس بالقسم الأكثر راديكالية في الطبقة الوسطى إلى السلطة، لتفاجأ بأن هذه السلطة تنقلب عليها، ثم يخلع المحافظون الباحثون عن مصالحهم الذاتية المسيطرين عليها. وفي فبراير **1848** فرض أبناء وبنات تلك الجماهير اثنين من ممثليهم على الحكومة، فجرى ذبحهما عند المتاريس في يونيو. وفي **1871** مضوا لمسافة أبعد، واستولوا على السلطة، لبرهة وجيزة– ولكن في مدينة واحدة ولشهرين فقط. وها هو مؤتمر من العمال، والجنود، والفلاحين يستولي على السلطة في بلد تعداد سكانه مائة وستون مليونا، وتمتد رقعته من ساحل الباسيفيك وحتى البلطيق. وبدا أن الاشتراكية العالمية أصبحت، بالفعل، على الأجندة.

الثورة تحت الحصار

كان لدى قادة الثورة إدراك عميق لحقيقة أن مشاكل خطيرة تواجههم، ما دامت الثورة محصورة في الإمبراطورية الروسية. لقد نجحت الثورة لأن عمال بتروجراد وعدة مدن أخرى كانوا مركزين في بعض أضخم المصانع في العالم، في مركز الإدارة والاتصالات، بالضبط. ورغم ذلك، فقد كانوا يمثلون نسبة ضئيلة من السكان. وكان جماهير الفلاحين مؤيدين للثورة، ليس لأنهم اشتراكيون ولكن لأنها قدمت لهم المكاسب ذاتها التي تقدمها ثورة بورجوازية كلاسيكية – توزيع الأراضي. الأزمة الاقتصادية التي تسببت بها الحرب كانت، بالفعل، تشل الصناعة وتنشر الجوع في المدن. وقد نزلت الفرد الواحد من خبز التموين، إلى **300** جرام، وأصبح ما يحصله الفرد من الطاقة لا يزيد، في المتوسط، على **1500** سعر

حراري يوميا[٤١]. وكانت إعادة تنظيم الإنتاج الصناعي، على نحو يكفل إنتاج السلع اللازمة لإقناع الفلاحين بإمداد المدن بما تحتاجه من غذاء، هي المهمة الهرقلية التي تواجه لجان العمال المشرفة على مديري كل مصنع. ولم يكن ممكنا إنجاز هذه المهمة ما لم تتلق الثورة عونا من ثورات أخرى في بلدان متقدمة صناعيا، بدرجة أكبر.

وكان الاعتقاد بأن الحرب هي التي ستسبب ثورات كهذه هو ما أقنع لينين بالتخلي عن اعتقاده بأن الثورة في روسيا لن تكون إلا ثورة بورجوازية. وفي **1906** أعلن منددا:

> **بالفكرة السخيفة وشبه الفوضوية... القائلة بإخضاع السلطة لثورة اشتراكية. فدرجة التطور الاقتصادي في روسيا، وتنظيم الجماهير العريضة للبروليتاريا، يجعلان التحرير الكامل والفوري للطبقة العاملة مستحيلا... وكل من يحاول أن يبلغ الاشتراكية عبر أي طريق سوى طريق الديمقراطية السياسية سوف يصل، حتما، إلى خلاصات سخيفة ورجعية[٤٢].**

غير لينين رأيه، لأن الحرب التي دفعت بعموم روسيا إلى الثورة كانت تمضي بكل شعوب أوروبا إلى غايات مماثلة. ولكن، وكما أكد لينين في يناير **1918** "من دون ثورة في ألمانيا يكون محكوما علينا بالدمار"[٤٣]. لم يكن الإيمان بثورة عالمية وهمًا. فقد أدت الحرب، بالفعل، إلى هبات تمرد مشابهة لما شهدته روسيا – وإن على نطاق صغير للغاية – من ذلك تمردات **1917** في جيوش فرنسا، وبريطانيا، وفي البحرية الألمانية، والإضراب الذي نظمه مائتا ألف من عمال الصناعات المعدنية في ألمانيا بسبب خفض الحصص التموينية من الخبز، وخمسة أيام من القتال بين العمال والجنود في تورين في أغسطس **1917**[٤٤]، وإضرابات غير مأذونة في قطاعات الهندسة والتعدين في بريطانيا، وهبة جمهورية في دبلن في عيد القيامة في **1916**.

عمت معارضة الحرب القارة الأوروبية. في ألمانيا أسقط الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني (**SPD**) المؤيد للحرب العضوية عن عدد كبير من ممثليه البرلمانيين، لتعبيرهم عن مشاعر سلمية، ما أدى بهم إلى إنشاء حزب خاص بهم هو حزب الديمقراطيين الاجتماعيين المستقل. وفي بريطانيا ترأس الرجل الذي سيصبح زعيما لحزب العمال في المستقبل **رامسي ماكدونالد Ramsay MacDonald** اجتماعا لممثلي العمال المطالبين بالسلام، في ليدز.

لكن الثورات لا تنفجر بقوة جداول زمنية متزامنة. فالضغوط العامة في نظام مأزوم تنشأ عنها انفجارات مماثلة، في أماكن مختلفة. لكن الأشكال والتوقيتات التي تتخذها كل هبة من الهبات تتوقف على الظروف والتقاليد المحلية، الخاصة بمكان كل واحدة منها. فاقتصاد روسيا الفلاحي المتخلف، والبنية العتيقة لدولتها، أديا إلى تهاوي الإمبراطورية في **1917**، قبل دول وسط أوروبا وغربها. فهذه الدول وقع تحديثها وتصنيعها، ولو جزئيا، بفعل سلسلة الثورات التي اندلعت بين **1649** و**1848**. وتوفرت لكل هذه البلدان، وبدرجات متفاوتة، على شيء افتقدته روسيا- أحزاب اشتراكية برلمانية لها وجودها المؤسسي، وبيروقراطيات نقابية مشتبكة مع بنية المجتمع القائم وإن بقيت محتفظة بصدقيتها بين شرائح واسعة من العمال.

وفي يناير **1918** اجتاحت موجة من الإضرابات كلا من النمسا – هنجاريا وألمانيا، شارك فيها نصف مليون من العاملين في الصناعات المعدنية في فيينا وفي برلين. وإلى حد ما، استلهم المضربون الثورة الروسية، وتعرضوا لهجمات وحشية من الشرطة. لكن عمال برلين بقيت عندهم أوهام ارتبطت بزعيمي الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني المؤيدين للحرب **إيبرت Ebert وشايدمان Scheidemann** لدرجة أنهم ضموهما للجنة الإضراب. واستخدم الاثنان نفوذهما لتخريب الإضراب وضمان هزيمته، بما ترتب على ذلك من ضحايا كثيرين.

وقد توقعت روزا لوكسمبورج، وهي في سجنها في براسلاو، المخاطر التي تكاد تلم بروسيا، في خطاب أرسلته لزوجة كاوتسكي، لويز، في الرابع والعشرين من نوفمبر:

> **هل أنت سعيدة بما يجري في روسيا؟ من الطبيعي أن الروس لن يستطيعوا الصمود في سبت الساحرات هذا [هذا التجمع لقوى الشر والفجور- المترجم]، ليس لأن الإحصائيات تثبت التخلف الشديد للاقتصاد الروسي، كما تصور زوجك الشاطر، ولكن لأن الديمقراطية الاجتماعية في أوربا الغربية، الشديدة التقدم، هي حركة تتألف من أشقياء جبناء تعساء، سوف يتركون الروس ينزفون حتى الموت وهم يرقبونهم، بكل هدوء[٤٥].**

وجاء سلوك الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني في يناير مصداقا لتحذيراتها. وجهت القيادة العليا الألمانية إنذارا نهائيا للحكومة الثورية، إبان المفاوضات في المدينة الحدودية البولندية بريست – ليتوفسك، بأنه ما لم تترك روسيا الألمان يستولون على مساحات شاسعة من أوكرانيا الروسية، فسوف يزحف الجيش الألماني على روسيا نفسها. وتوجهت الحكومة الثورية، من فوق رءوس الجنرالات، بنداء إلى العمال والجنود الألمان، موزعة مئات الألوف من المنشورات بالألمانية، عبر خط الجبهة. لكن هزيمة حركة الإضراب جعلت الانهيار الثوري السريع للجيش الألماني مستبعدا، وتقدم جنوده مئات الأميال. واحتدمت النقاشات داخل الحزب البلشفي والسوفيتات حول ما يتعين عمله. ودعا بوخارين والثوريون الاجتماعيون اليساريون إلى شن حرب على ألمانيا. لكن لينين رأى ضرورة قبول الإنذار، مادام البلاشفة لم يتوفروا على القوات اللازمة لشن حرب ثورية. وجاءت طروحات تروتسكي رافضة لشن الحرب ولقبول الإنذار، معا، بأمل أن الظروف في ألمانيا هي التي سوف تحل المعضلة. وبالنهاية تمكن لينين من إقناع معظم البلاشفة الآخرين بأن قبول الإنذار هو الخيار الواقعي الوحيد. واستقال الثوريون

الاجتماعيون اليساريون من الحكومة، تاركين البلاشفة وحدهم في الحكم. وفاقمت الشروط العقابية التي فرضها الألمان، كثمن للسلام، المشكلات التي تسببت بها الحرب للاقتصاد الروسي. كانت أوكرانيا تحتوي على أكبر قدر من الفحم الروسي، وكانت مصدرا لكثير من احتياجاته من الحبوب الغذائية. انهار الإنتاج الصناعي بسبب نقص الوقود، وصار نقص الغذاء في المدن أكثر حدة من ذي قبل. ونزلت الحصة التموينية من الخبز في بتروجراد إلى مائة وخمسين جراما، في السابع والعشرين من يناير، ثم إلى خمسين جراما (أقل من أوقيتين) في الثامن والعشرين من فبراير. وكان أثر ذلك على الطبقة العاملة في بتروجراد، صانعة الثورة، مدمرا. وفي أبريل نزل حجم قوة العمل في المدينة إلى أربعين بالمائة مما كان عليه في يناير **1917**. وتضررت مصانع المنتوجات المعدنية، التي كانت عماد الثورة في **1905**، أكثر من غيرها. وفي الشهور الستة الأولى من **1918**، نزح ما يزيد على المليون عن المدينة، بأمل العثور على طعام في مكان آخر: "خلال شهور قليلة، كانت البروليتاريا في بتروجراد الحمراء، التي اشتُهرت في عموم روسيا، بدورها البارز في الثورة، قد تم اقتلاعها"[٤٦].

لم يعد العمال، الذين مضوا ببقية روسيا إلى الثورة، بفضل دورهم الاستراتيجي في عملية الإنتاج، منخرطين في هذا الأمر. المؤسسات التي أقاموها – السوفيتات – كانت ولا تزال موجودة، لكنها فقدت علاقاتها العضوية بأماكن العمل، بالورش.

بقي الحماس للثورة، ما جعل تيارا دافقا من العمال، والجنود، والفلاحين ينضمون للحزب البلشفي، حيث كانت مُثُلُ اشتراكية الطبقة العاملة ملهمةً لأعمال بطولية. ومكّن هذا الحماس تروتسكي من إنشاء الجيش الأحمر الجديد، المؤلف من مليون جندي، بالبناء على النواة الصلبة للميليشيات الملتزمة للعام **1917**. لكن لا السوفيتات، ولا الحزب، ولا الجيش الأحمر عادت جزءا من طبقة عاملة حية،

وكادحة. كانوا أقرب شيء إلى نسخة مُحَدَّثة من اليعقوبية – لكن فيما كانت نسخة التسعينيات من القرن الثامن عشر تحركها مُثُل الجناح الراديكالي للبورجوازية، فقد نبعت مُثُل النسخة الجديدة من اشتراكية الطبقة العاملة والثورة العالمية.

وأصبحت مهمة الحرب من أجل هذه المثل أكثر صعوبة مع تتابع شهور **1918**. ففي يونيو ويوليو، أعقبت استيلاء الألمان على أوكرانيا، هجمات نظمتها حكومتا بريطانيا وفرنسا، واستولت قوات مؤلفة من ثلاثين ألف جندي تشيكي (كانوا أسرى حرب من جنود الجيش النمسوي – الهنجاري، نظمهم القوميون التشيك بغرض الحرب إلى جانب الطرف البريطاني – الفرنسي – الروسي) على مدن تقع بامتداد خط السكة الحديد العابر لسيبيريا، ما قسم روسيا نصفين. وتحت حمايتهم، شكل اليمينيون من الاجتماعيين الثوريين والمناشفة حكومة في ساراتوف، ذبحت في الشارع كل من شكت بانتمائه للبلاشفة[٤٧]. واستولت القوات اليابانية على فلاديفوستوك على ساحل الباسيفيك. ونزلت قوات بريطانية على ساحل مورمانسك في الشمال، كما استولت على باكو في الجنوب. في تلك الشهور، اغتال الاجتماعيون الثوريون اليساريون السفير الألماني في بتروجراد بغرض تدمير سلام بريست – ليتوفسك، والاستيلاء على السلطة بالقوة، في حين اغتال الاجتماعيون الثوريون اليمينيون الخطيب البلشفي **فولودارسكي Volodarsky** وجرحوا لينين.

وحصل تحول في طبيعة النظام الثوري، تحت ضغط التطويق الخارجي، والإرهاب والثورة المضادة الداخليين. وفي كتابه **السنة الأولى من الثورة الروسية Year One of the Russian Revolution** الذي نشره في **1928**، يصف الفوضوى التي تحول بلشفيا **فيكتور سيرج Victor Serge** التحولات:

> **في الجمهورية نظام كامل للديمقراطية الداخلية. لم تصبح ديكتاتورية الطبقة العاملة، بعد، ديكتاتورية حزب أو لجنة مركزية أو أشخاص معينين. فآلياتها مُركبة. فكل سوفيت، كل لجنة**

ثورية، كل لجنة تابعة للحزب البلشفي، أو للحزب الثوري الاجتماعي اليساري تمتلك حصة منها، وتديرها على طريقتها... وكل القرارات تناقش، في جلسات [الهيئة التنفيذية لسوفيت عموم روسيا]، وهي في الغالب بالغة الأهمية. وهنا يتمتع أعداء النظام بحرية الكلام، وبأوسع مما في البرلمانات(٤٨).

ثم بدأ هذا كله يتغير:

يمثل هجوم الحلفاء، بالتزامن مع تمرد الكولاك (أثرياء الفلاحين) وانهيار التحالف السوفيتي (مع الثوريين الاجتماعيين اليساريين) تهديدا، لا تخطئه عين، لوجود الجمهورية. وهذا يجبر ديكتاتورية البروليتاريا على طرح أدواتها الديمقراطية المحددة الأغراض، من دون تأخير. وتستدعي المجاعة والفوضى المحلية تركيز السلطة بأيدي مفوضين معينين... والمؤامرة تحتم إنشاء جهاز قوي للأمن الداخلي. والاغتيالات، والهبات الفلاحية، والخطر القاتل، تستدعي استخدام الرعب. ويترتب على حظر نشاط الاشتراكيين المنتمين للثورة المضادة، وعلى القطيعة مع الفوضويين والاجتماعيين الثوريين اليساريين، احتكار سياسي يتمتع به الحزب الشيوعي. فالمؤسسات السوفيتية، من السوفيتات المحلية إلى سوفيت عموم روسيا، ومجلس مفوضي الشعب، كلها تعمل في فراغ(٤٩).

وكان عند هذه النقطة أن تحولت الحكومة الثورية، لأول مرة، إلى استخدام ممنهج للرعب. كانت عناصر الثورة المضادة من البيض [تمييزا لهم عن البلاشفة الحمر-المترجم] قد أظهرت استعدادها لإطلاق الرصاص على المتهمين بالثورية، لمجرد الشك. فعلوا ذلك في أكتوبر، عندما حاربوا متشبثين بموسكو، وبعد إخماد هبة للديمقراطيين الاجتماعيين، قتل "البيض" في فنلندا ثلاثة وعشرين ألفا من الحمر، في يناير. وهكذا شعر الثوريون بأنه لم يعد بوسعهم سوى الرد بالمثل. فأصبح إطلاق الرصاص على من يُظَن أنهم من الثورة المضادة، وأخذ البورجوازيين كرهائن، واتباع أساليب من شأنها أن تلقي بالرعب في قلب كل من يُظَن أنه

معارض للثورة، جزءا من الممارسات الثورية. وعلى رغم الانطباعات التي خلّفتها أعمال مثل رواية **أرخبيـــل الكولاك Gulag Archipelago** التي كتبهـــا **سولجينيتسين Solzhenitsyn**، فقد اختلف الرعب، تمام الاختلاف، عن ذلك الذي استخدمه ستالين، من سنة **1929** وما بعدها. فقد كان رد فعل على أفعال حقيقية، وليس على أفعال متخيلة، قامت بها الثورة المضادة. وقد انتهى ذلك كله، بنهاية الحرب الأهلية في **1921**.

وصمد النظام الثوري لكل التحديات، لأنه بقي حائزا على التأييد من كل الطبقات الأشد فقرا، في مختلف أنحاء الإمبراطورية الروسية القديمة، على رغم الصعوبات الجسيمة. بقي مصدر الأمل الوحيد للعمال، والضامن لحصول الفلاحين الفقراء على الأرض، وقوة المقاومة ضد العصابات المناهضة للسامية العاملة مع جيوش البيض، ولم يكن يعاني أي خوفا من حق تقرير المصير للقوميات غير الروسية.

وعلى رغم ذلك، فجميع قيادات النظام الثوري – ومئات الآلاف من المتطوعين المخاطرين بحياتهم لحمل رسالة – تعلقت عيونهم بالغرب، بدول أوروبا الصناعية، أملا بالحصول على غوث اشتدت حاجتهم إليه.

الهوامش

(١) ما كتبته روزا لوكسمبورج في ربيع 1915 في:

The Junius Pamphlet (London,1967), p1.

(2) L Trotsky, My Life (New York, 1960) pp233-234.

(3) J Canning (ed), Living History: 1914 (London, 1967), p240.

(4) V Serge, Memoirs of a Revolutionary (London, 1963), p47.

(٥) كما ورد في:

L Trotsky, My Life, p233.

(6) D Blackbourne, The Fontana History of Germany 1780-1918 (London, 1977), pp461-462.

(7) A Shlyapnikov, On the Eve of 1917 (London, 1982), p18.

(8) R Fox, Smoky Crusade (London, 1938), p192.

(9) L Trotsky, My Life, pp233-4.

(١٠) هذا الاستشهاد ورد في:

J Joll, Europe Since 1870 (London, 1983), p194.

(11) Keir Hardie, quoted in R Miliband, Parliamentary Socialism (London, 1975), p44. For an account of Kautsky's position, see M Salvadori, Karl Kautsky and the Socialist Revolution 1880-1938 (London, 1979), pp183-185.

(١٢) بحسب ما جاء في:

D Blackbourne, The Fontana History of Germany, p475.

(١٣) ورد في:

D MacIntyre, The Great War, Causes and Consequences (Glasgow,1979), p63.

(14) D MacIntyre, The Great War, p64.

(15) D Blackbourne, The Fontana History of Germany, pp488-489.

(١٦) لمزيد من التفاصيل، انظر:

D Blackbourne, The Fontana History of Germany, pp480, 482.

(١٧) الأرقام كما وردت في:

J Kocka, Facing Total War (London, 1984), p23.

(18) J Kocka, Facing Total War, p17.

(19) D MacIntyre, The Great War, p61.

(20) W Allison and J Fairley, The Monocled Mutineer (London, 1986), p68.

(٢١) من أجل تقرير مفصل حول هذا، في أعياد الميلاد لعام **1916**، انظر مقتطفات من يوميات الملازم وليم سانت ليجر، في:

M Moynihan (ed), People at War 1914-1918 (London, 1988), p52.

(٢٢) تجد تقريرا وافيا، بني على مقابلات صحفية مع المشاركين، في:

W Allison and J Fairley, The Monocled Mutineer, pp81-111

(٢٣) نقل إلى الإنجليزية، في:

V I Lenin, Collected Works, vol 23 (Moscow, 1964), p253.

(٢٤) كان يقال لها بطرسبورج حتى أغسطس **1914**.

(٢٥) التاريخ بحسب التقويم اليوليوسي المستخدم في روسيا، آنذاك. وبحسب التقويم الجريجوري المعدل المستخدم في الغرب، كان ذلك في مارس.

(٢٦) طبقا لشهادة كايوروف المذكورة في:

L Trotsky, The History of the Russian Revolution (London, 1965), p121.

(27) S A Smith, 'Petrograd in 1917: the View from Below', in D H Kaiser (ed), The Workers' Revolution in Russia of 1917 (Cambridge, 1987), p61.

(٢٨) كما جاء في:

Trotsky, The History, p181.

(29) N N Sukhanov, The Russian Revolution 1917 (Princeton, 1984), p77.

(30) N Stone, The Eastern Front (London, 1975), p218.

(31) N Stone, The Eastern Front, pp283-284, 291.

(٣٢) تجد الأشكال والمزيد من التفصيلات في:

S A Smith, Red Petrograd (Cambridge,1983), pp10-12.

(٣٣) فاز البلاشفة بستة مقاعد والمناشفة بسبعة مقاعد، لكن مقاعد المناشفة كان معظمها في دوائر الطبقة المتوسطة. انظر:

T Cliff, Lenin, Volume 1: Building the Party (London, 1975), p325.

(٣٤) ألخص في هذه الفقرة تاريخا طويلا من النشاطات والمناظرات. لتقرير واف، انظر:

T Cliff, Lenin, Volume 1. I Getzler, Martov (Melbourne, 1967), provides a sympathetic account of the leading Menshevik

(٣٥) الأرقام الواردة في:

T Cliff, Lenin, Volume 2: All Power to the Soviets (London, 1976), pp148, 150.

(٣٦) وردت الأرقام مع المصادر في:

M Haynes, 'Was there a Parliamentary Alternative in 1917?' in International Socialism 76, p46.

(٣٧) وردت مجموعتا الأرقام، مع المصادر في:

M Haynes, 'Was there a Parliamentary Alternative in 1917?'

(٣٨) لمطالعة تقرير حول هذه النضالات، انظر:

S A Smith, Red Petrograd; T Cliff, Lenin, Volume 2, pp168-189.

(٣٩) كما ورد في:

N N Sukhanov, The Russian Revolution, p627-628.

(٤٠) كما ورد في:

N N Sukhanov, The Russian Revolution, p629.

(٤١) وردت الأرقام مع المصادر في:

S A Smith, Red Petrograd, p87.

(42) V I Lenin, Collected Works, vol 8 (Moscow, 1962), pp28-29.

(43) V I Lenin, Collected Works, vol 27 (Moscow, 1977), p98.

(٤٤) للاطلاع على تقرير حول هذا التمرد، انظر:

J M Cammett, Antonio Gramsci and the Origins of Italian Communism (Stanford, 1967), pp52-53.

(٤٥) كما جاء في:

Nettl, Rosa Luxemburg, vol II (London, 1966), p689.

(46) S A Smith, Red Petrograd, p243.

(٤٧) لمزيد من التفصيل، انظر:

V Serge, Year One of the Russian Revolution (London, 1992), pp282.

(48) V Serge, Year One, p245.

(49) A Upton, The Finnish Revolution, 1917-18 (Minnesota, 1980), p522, quotedin J Rees, 'In Defence of October', International Socialism 52, p33.

-٣-

أوروبا فى اضطراب

نوفمبر الألمانى

لم يتأخر المد الثوري في الغرب طويلا، بمعايير التاريخ. فقد جاء بعد الثورة الروسية بما لا يزيد عن اثني عشر شهرا- وإن كانت هذه شهورا طويلة بالنسبة لروسيا التي كانت تتضور جوعا، والتي مزقتها الحرب.

أمنت الشروط الابتزازية التي فرضها الألمان عبر معاهدة بريست - ليتوفسك لحكام روسيا فرصة لالتقاط الأنفاس، لكنها كانت فرصة وجيزة. مضى هجوم كبير ودموي بجيوشها، في مارس 1918 إلى التغلغل في فرنسا، لما هو أبعد مما مضت إليه في 1914، ثم عجزت عن مواصلة التقدم. وفشلت محاولة ثانية للتقدم، في أغسطس، ثم جاء الدور على الجيش الألماني ليتراجع. كانت احتياطياته من الرجال تنفد، في حين أمد دخول الولايات المتحدة الحرب، قبل ذلك بعام، الجانب الإنجليزي - الفرنسي بموارد بشرية جديدة، وبالقدرة على الوصول إلى إمدادات هائلة من المعدات. حل الفزع بالقيادة العليا الألمانية، وأصيب لودندورف بما يشبه انهيارا عصبيا[١]. قرر في أواخر سبتمبر ضرورة التوصل لهدنة فورية، وحاول التملص من المسئولية عن ذلك بأن أقنع القيصر بتعيين حكومة جديدة تضم وزيرين من الديمقراطيين الاجتماعيين. لكن كان يستحيل الضغط على زر التشغيل، ببساطة، لتتوقف الحرب التي أصابت أوروبا بتقلصات استغرقت أربع

سنوات. كانت الإمبراطوريات المتنافسة، وخاصة الإمبراطورية الفرنسية، تطلب رطلا من اللحم [مثل ذلك الذي طلبه تاجر البندقية اليهودي، في مسرحية شيكسبير الشهيرة- المترجم] مثل ذلك الذي طلبته الإمبريالية الألمانية من روسيا، في وقت سابق من ذلك العام. ولمدة شهر، بقيت الحكومة الألمانية تحاول، يائسة، أن تتملص من دفع ذلك الثمن، فتواصلت الحرب، بعنف دموي مشهود. واندفعت قوات بريطانية – فرنسية أمريكية إلى مناطق في فرنسا وبلجيكا تحت سيطرة الألمان. وفي البلقان تمكنت قوة تألفت من بريطانيين، وفرنسيين، وصرب، ويونانيين، وإيطاليين، من طرد قوات الجيش النمسوي.

كانت الضغوط تفوق احتمال الملكية النمسوية - الهنجارية المهتزة المتعددة الجنسيات، وريثة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي قامت قبل اثني عشر قرنا. انهار جيشها واستولى زعماء الأقيات الوطنية على المدن الرئيسية: استولى التشيك والسلوفاك على براغ، وبرنو، وبراتسلافا؛ واستولى أنصار دولة "سلافية" جنوبية موحدة على زغرب وساراييفو؛ واستولى الهنجاريون بقيادة الأرستقراطي الليبرالي **مايكل كالوري Michael Karoly** على بودابست؛ وأخذ البولنديون كراكوف. ومع تدفق حشود هائلة عبر شوارع فيينا، مطالبين بالجمهورية وممزقين الرموز الإمبراطورية(٢)، انتقلت السلطة في المناطق الناطقة بالألمانية في النمسا إلى أيدي ائتلاف مع الأحزاب البورجوازية يقوده الديمقراطيون الاجتماعيون.

وأصدرت القيادة العليا الألمانية، التي خامرها اليأس من الخروج من الورطة، أوامرها للأسطول بالإبحار باتجاه بريطانيا، بأمل تحقيق انتصار بحري مفاجئ يحقق لها الخلاص. لكن بحارتها لم يكونوا مستعدين للقبول بموت محتوم. كان تمردهم في العام السابق قد جرى سحقه وإعدام قادته بسبب السلبية الشديدة- فقد اكتفوا بالإضراب تاركين للضباط والشرطة العسكرية فرصة إطلاق الرصاص عليهم. هذه المرة لم يكونوا ليرتكبوا الغلطة ذاتها. تسلّح البحارة في كييل،

واخترقت صفوفهم شوارع المدينة، بجوار عمال الميناء المضربين، ونزعوا سلاح معارضي الإضراب، وأنشأوا مجلس جنود. وهكذا أشعلوا شرارة حريق شامل لكل ألمانيا.

اجتاحت التظاهرات برلين، بريمين، هامبورج، هانوفر، كولوني، لايبزيج، دريسدن، وعشرات من المدن الأخرى. استولوا على القصر الملكي في ميونيخ، وأعلنوا إصلاحيا اشتراكيا معاديا للحرب، **كيرت إيزنر Kurt Eisner** رئيسا لحكومة "دولة بافاريا الحرة". وفي التاسع من نوفمبر، جاء دور برلين. ففي حين راحت مواكب ضخمة من العمال والجنود، بما معهم من بنادق وأعلام حمراء، تجوب شوارع العاصمة، أعلن الثوري المناهض للحرب **كارل لايبكنشت Karl Liebknecht**، الذي جرى إطلاق سراحه قبل فترة قصيرة، قيام "الجمهورية الاشتراكية"، وانطلاق الثورة العالمية من شرفة القصر الإمبراطوري. وحتى لا يخسر المزايدة، أعلن **شايدمان Scheidemann** المؤيد للحرب، المنتمي للديمقراطيين الاجتماعيين الألمان والذي كان وزيرا في آخر حكومة إمبراطورية، قيام "الجمهورية" من البرلمان الإمبراطوري. وفر القيصر إلى هولندا، وقدم الحزبان الديمقراطيان الاجتماعيان "حكومة ثورية" من "مفوضي الشعب" لكي تصادق عليها جمعية عمومية من ألف وخمسمائة من موفدي العمال والجنود. وكان هذا رمزا لحقيقة أن الجنود والعمال، صاروا مُحكّمين للسلطة السياسية في عموم ألمانيا، وفي بلجيكا الخاضعة للاحتلال الألماني. بدا أن قوى الثورة، المجسدة في مثل هذه المجالس أو السوفيتات، تجتاح شمال أوراسيا كله، من بحر الشمال إلى شمال الباسيفيك.

لكن المجالس الألمانية سلمت السلطات الثورية لرجال مصممين على عدم توظيفها لغايات ثورية. فخلال 24 ساعة كان رئيس الوزراء الجديد إيبرت يتواصل هاتفيا مع الجنرال جروينر، من القيادة العسكرية العليا. اتفق الاثنان على العمل

معا- بمساندة من هندنبيرج "ديكتاتور" زمن الحرب- لاستعادة النظام في الجيش، حتى يتسنى للجيش استعادة النظام في المجتمع ككل[٣].

كان الديمقراطيون الاجتماعيون الذين أرادوا الإصلاح في إطار الدولة الرأسمالية، قد وقفوا إلى جوار تلك الدولة، بما يتسق مع منطقهم، عندما نشبت الحرب في **1914**. ثم عادوا، وبالاتساق المنطقي ذاته، يحاولون إعادة تأسيس سلطة تلك الدولة في مواجهة الثورة. بالنسبة لهم كانت بُنى القمع والسلطة الطبقية هي "النظام"؛ وبالنسبة لهم كان تحدي تلك البُنى من جانب المستَغلّين والمحرومين "فوضى" و"هيولية". كانت التجسيدات الحية لتلك التحديات هم المعارضون البارزون للحرب- روزا لوكسمبورج وكارل لايبكنشت. تمتع هذا الأخير، على نحو خاص، بتأييد هائل بين الجنود والعمال في برلين. وناور الديمقراطيون الاجتماعيون مع القيادة العسكرية العليا لتدمير هذه الشعبية. دبروا هبة في المدينة، بهدف سحقها بقوات من خارجها، ليلقوا باللوم عما جرى من سفك للدماء، على لايبكنشت ولوكسمبورج. اعتقل ضباط الجيش الاثنين. أسقطوا لايبكنشت على الأرض، فاقدا الوعي، ثم أطلقوا عليه الرصاص. سحقوا جمجمة لوكسمبورج بمؤخرة بندقية، ثم أطلقوا الرصاص على رأسها وألقوا بها في مجرى مائي. ونقلت صحافة الديمقراطيين الاجتماعيين أن لايبكنشت أُطلِق عليه الرصاص "وهو يحاول الهرب"، وأن لوكسمبورج قتلتها "جماهير غاضبة". وعندما قرأ المحترمون من أعضاء الطبقة الوسطى الأخبار، "قفزوا فرحا"[٤]. لم يتغير شيء من أيام الأخوين **جراكوس Gracchus Brothers** و**سبارتاكوس Spartacus**، من حيث رد فعل الأثرياء المتحضرين إزاء من يقاومون حكمهم.

لكن السيطرة على الغليان الثوري لم تكن مهمة سهلة، بالنسبة للتحالف بين الديمقراطيين الاجتماعيين والعسكريين. وغالبا ما أعطى المؤرخون الانطباع بأن الثورة الألمانية كانت حدثا ثانويا، انتهى في سهولة وسرعة. بل إن هذه هي الرسالة التي يمكن استخلاصها من تاريخ القرن العشرين، كما كتبه **هوبزبوم Hobsbawm**،

على نحو ملهم، في الغالب، بعنوان **"عصر التطرفات" The Age of Extremes**. فهو يكتب قائلا: إنه بعد أيام قليلة من أيام شهر نوفمبر "لم يعد النظام القديم الذي اصطبغ بصبغة جمهورية، يجد أي إزعاج من جانب الاشتراكيين... بل [و] صار الإزعاج أقل من الحزب الشيوعي الذي جرى ارتجاله قبل فترة وجيزة"[٥]. والحقيقة أن الموجة الأولى من الغليان الثوري لم يتم إنهاؤها إلا في صيف **1920**، وكانت هناك موجة ثانية في **1923**.

وكما هو حال كل ثورة كبرى في التاريخ، أفضت ثورة نوفمبر **1918** إلى أن اهتمت بالسياسة، لأول مرة، أعداد كبيرة من الناس. لم يعد الحديث عن الاشتراكية والثورة قاصرا على جوهر عمالي يتألف ممن صوت من العمال لصالح الاشتراكيين قبل **1914**. امتد إلى ملايين من الطبقة العاملة ومن الطبقة الوسطى الدنيا، ممن سبق لهم التصويت لحزب الوسط الكاثوليكي، لتقدميين الليبراليين، ولـــ"الليبراليين القوميين" غير الليبراليين، أو حتى للحزب الزراعي الذي يسيطر عليه أصحاب الحيازات البروسيون. إبان الحرب بدأ كثير من العمال المنتمين لحزب الديمقراطيين الاجتماعيين القديم التماهي مع اليساريين المعارضين للقادة المؤيدين للحرب – قرابة نصف أعضاء الحزب الديمقراطيي الاجتماعي الألماني القديم انتقلوا إلى الحزب اليساري الديمقراطي الاجتماعي المستقل. لكن مقابل كل واحد من هؤلاء، كان هناك كثيرون انتقلوا إلى اليسار، من الأحزاب البورجوازية وبقوا، رغم ذلك، يعتبرون قادة الديمقراطيين الاجتماعيين اشتراكيين. وبعد أن كانوا يعارضون الديمقراطيين الاجتماعيين لهذا السبب في الماضي، صاروا يؤيدونهم للسبب ذاته.

ولعب قادة الحزب الديمقراطي الاجتماعي على هذه المشاعر، بالاستمرار في إلقاء خطابات يسارية، وإن أصروا على أن السياسات اليسارية لا يمكن إدخالها إلا بالتدريج، وبالحفاظ على النظام، والتصدي لأشكال"الجموح" الثوري. وأصروا

على أن لابكنشت ولوكسمبورج كانا مصدر خطر على الثورة، وبالوقت نفسه خططوا مع الجنرالات لإطلاق الرصاص على المخالفين.

وقد ساعدهم على نشر هذه الرسالة زعماء الحزب الديمقراطي الاجتماعي المستقل. هؤلاء لم يكونوا راضين عن الحرب، لكن غالبيتهم بقيت ملتزمة بإصلاح الرأسمالية. وكان بين صفوفهم كاوتسكي، وبرنستاين، و**هلفيردينج Hilferding**- الذي سيصبح وزير اقتصاد، في حكومتين ائتلافيتين مع الأحزاب البورجوازية، في العشرية التالية. وطوال الشهرين الحاسمين الأولين من عمر الثورة، خدم الحزب بكل ولاء في حكومة قادتها أغلبية الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني، وساعد في الترويج لسياساتها بين جماهير العمال والجنود.

ولكن، بمرور الوقت، بدأ مؤيدو قيادات الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني ينقلبون عليهم. فتمردت ضد الحكومة، في الأسبوع الأول من يناير، القوات التي جرى توجيهها إلى برلين لمساعدتها على فرض النظام في نوفمبر، وكثير من العمال والجنود الذين ساعدوا في قمع هبة يناير، تمردوا هم أنفسهم، في العاصمة، في مارس. وفي منتصف يناير حصل الحزب الديمقراطي الاجتماعي على **11.5** مليون صوت في الانتخابات، وحصل الديمقرطي الاجتماعي المستقل على **2.3** مليون صوت. وعلى رغم ذلك، ففي الأسابيع القليلة التالية، نظم العمال الذين صوتوا، بقوة، للديمقراطيين الاجتماعيين إضرابا عاما في الرور، ووسط ألمانيا، وبريمن، وهامبورج، وبرلين، وميونيخ وحملوا السلاح ضد سياسات الحكومة. وبحلول يونيو **1920** لم يكن من يصوتون للديمقراطي الاجتماعي يزيدون إلا بستمائة ألف صوت عمن يصوتون للديمقراطي الاجتماعي المستقل.

وسرعان ما اكتشف قادة الحزب الديمقراطي الاجتماعي أن ليس بوسعهم الاعتماد على شعبيتهم من أجل "استعادة النظام". وفي أواخر ديسمبر **1918** تباهى وزير الداخلية الديمقراطي الاجتماعي **نوسكه Noske**، بأنه "يتعين على أحد الناس

أن يكون المُتَعقِّب الوحشي"، واتفق مع الجنرالات على تكوين فرقة مرتزقة خاصة، **الفرايكوربس Freikorps**. هذه القوة التي جاءت عناصرها من بين ضباط"كتائب العاصفة" في الجيش القديم، كانت رجعية تماما. وعلق المؤرخ **ماينيكي Meinecke** اليميني على ذلك بقوله: "كأن النظام القديم بعث حيا". كانت لغة "الفرايكوربس" قومية متشددة، وفي الغالب معادية للسامية. وغالبا ما كانت راياتها تزين برمز هندوسي قديم للحظ السعيد، وهو الصليب المعقوف، وأصبح كثير من كوادرها أعضاء في الحزب النازي.

وتاريخ ألمانيا في النصف الأول من **1919** هو تاريخ زحف الفرايكوربس، عبر أرجاء البلاد، ليهاجموا الناس الذين صنعوا ثورة نوفمبر وصوتوا لصالح الديمقراطي الاجتماعي في انتخابات يناير. ووجهت هذه القوة بمقاومة مسلحة متكررة، بلغت ذروتها في أبريل بإعلان جمهورية سوفيتية قصيرة العمر في بافاريا، كان لها جيشها الأحمر المؤلف من خمسة عشر ألف مقاتل.

"روح الثورة"

شهور الحرب الأهلية في ألمانيا كانت أيضا شهور اضطراب في بقية أوروبا، على الإجمال. كتب رئيس الحكومة البريطاني **لويد جورج Loyd George** إلى نظيره الفرنسي **كليمنصو Clemenceau**، في مارس:

> **أوروبا كلها تجتاحها روح الثورة... وكامل نظامها القائم، بمظاهره السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية هو موضع تساؤل من قبل جماهير السكان، من أقصى أوروبا إلى أقصاها[٦].**

وأعرب **هاوس House**، ممثل الولايات المتحدة في باريس، عن مخاوف مشابهة، سجلها في يومياته: "البلشفية تكسب أرضا في كل مكان... نحن نجلس فوق كومة بارود، وقد تشعلها شرارة، في يوم ما"[٧].

والسبب المباشر لقلقهم كان استيلاء نظام سوفيتي في هنجاريا، يقوده **بيلا كون Bela Kun**، الذي سبق له أن كان أسير حرب في روسيا. انهار النظام القومي الليبرالي الذي تأسس في **1918**، بعد عجزه عن منع تشيكوسلوفاكيا، ورومانيا من الاستيلاء على أجزاء من البلاد، وحلت محله حكومة من الشيوعيين والديمقراطيين الاجتماعيين، استولت على السلطة بشكل سلمي. فرضت هذه الحكومة إصلاحات داخلية وتأميمات، وحاولت شن حرب ثورية ضد تشيكوسلوفاكيا ورومانيا، آملة بالحصول على إسناد من الجيش الأحمر الروسي، شرقا، ومن هبة للعمال في النمسا، غربا.

لم تستول حكومات ثورية على السلطة في أي مكان آخر، لكن بالوقت ذات لم يكن الموقف مستقرا، في أي مكان. فقد احتوت جميع الجمهوريات القومية في أوروبا الوسطى والشرقية على أقليات إثنية ساخطة على النظام الجديد. ففي تشيكوسلوفاكيا كان الناطقون بالألمانية أغلبية في أقاليم لا يستهان بمساحتها، والناطقون بالهنجارية أغلبية في أقاليم أخرى. واشتملت رومانيا ويوغسلافيا على أقليات ضخمة ناطقة بالهنجارية. وكانت للنمسا ويوغسلافيا منازعات ممرورة مع الإيطاليين حول الحدود، كما نشبت خلافات كهذه بين بلغاريا ورومانيا. وتواصل القتال بين القوات البولندية والقوات الألمانية في سيليجا، وانفجرت حرب شاملة بين تركيا واليونان، مع عمليات تطهير عرقي واسعة النطاق، على الجانبين. وقد كانت في تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا أعداد كبيرة من العمال ذوي الميول الثورية، معارضين للتوجهات القومية لحكومتي البلدين.

وفي أبريل **1919** قاد الثوريون محاولة للعمال العاطلين لاقتحام البرلمان. ولم يكن من السخف تصور أن تلتحم الثورة في هنجاريا مع الثورة في روسيا، شرقا، ومع بافاريا السوفيتية، عبر النمسا، غربا، لتقلب كامل الأوضاع في الإمبراطوريتين السابقتين، الألمانية والنمسوية – الهنجارية.

لكن ذلك لم يكن ليحدث. فقد استخدم الديمقراطيون الاجتماعيون في النمسا لغة، أقرب نوعا ما، إلى لغة اليسار، من لغة نظرائهم الألمان، لكنهم كانوا يماثلونهم من حيث المعارضة العنيدة لمواصلة الثورة. وقد أقنعوا مجالس العمال في فيينا بالسماح بسحق الاحتجاجات، مُؤَمِّنين بذلك نجاة الرأسمالية النمسوية. بالوقت ذاته فحكومة بودابست الشيوعية – الديمقراطية الاجتماعية لم تُشكِّل مجالس عمال حقيقية. واعتمدت على الضباط القدامى لقيادة جيشها، ووقعت في خطأ جوهري عندما استعدت الفلاحين، عندما عجزت عن توزيع أراضي المزارع الكبرى المسيطرة على الريف. وانهار النظام بعد **133** يوما، عندما تخلى عنه الديمقراطيون الاجتماعيون، فاتحين الباب أمام ديكتاتورية يمينية بقيادة **الأدميرال هورثي Admiral Horthy**.

لم يقف الغليان في **1919** عند حدود الإمبراطوريات المهزومة. فقد تأثر المنتصرون أيضا، وإن بشكل أخف، كما هي العادة. اهتزت الإمبراطوريتان البريطانية والفرنسية بسبب تمردات الجنود الذين أجبروا على البقاء لفترة، قبل عودتهم لأوطانهم. والجيوش التي جرى توجيهها لسحق الثورة الروسية لم تكن بمنأى عن الاضطراب– فقد رفضت القوات البريطانية، والفرنسية، والأمريكية في آرخانجل خوض المعارك، فيما تعين إخلاء القوات الفرنسية في أوديسا، وفي غيرها من موانئ البحر الأسود بعد أن أعلنت التمرد[٨].

بالوقت ذاته كانت هناك موجة متصاعدة من الاضطرابات بين عمال الصناعة، في بريطانيا ذاتها. فقد أفضت الإضرابات في القطاع الهندسي إلى صدامات ممرورة مع الشرطة في جلاسجو، وإلى ما يشبه الإضراب العام الذي وحد بين الكاثوليك والبروتستانت في بلفاست. وأضربت الشرطة في ليفربول ولندن. وبصعوبة، تفادت الحكومة وقوع إضراب لعمال المناجم، ببذل وعود أخلفتها، فيما بعد، لكنها عجزت عن تفادي وقف شبكة السكة الحديد، لتسعة أيام.

وأصيبت الحكومة بالرعب، بسبب "التحالف الثلاثي" بين نقابات عمال المناجم، والنقل، والسكة الحديد، في يناير **1920**. وكتب أمين عام مجلس الوزراء(٩) يقول "الوزراء... يبدو أنهم حل بهم الفزع لدرجة غير عادية مطلقا".

لم تشارك إسبانيا في الحرب، لأن حكامها انقسموا بين متعاطفين مع الألمان في البلاط، ومتعاطفين مع بريطانيا وفرنسا في أوساط البورجوازية (والحزب الاشتراكي بقيادة بابلو إيجليسياس). لكن تصاعد الأسعار دمر مستويات معيشة عمالها الصناعيين والزراعيين. وقع إضراب عام واسع النطاق في صيف **1917**، ولم ينجح، وتفجرت موجة نضالية جديدة، على مر الأيام، في **1918**.

وقد عرفت السنوات الثلاث من **1918** إلى **1920** باسم "**الثلاثية البلشفية**" **Trienio Bolchevista**، في جنوب إسبانيا، حيث كانت الحيازات الضخمة تشتغل بقوة عمالة موسمية، على أساس اليومية. كانت هناك موجة متصاعدة من الأنشطة التنظيمية، والإضرابات، والمواجهات، والاجتماعات"(١٠)، شجعت عليها أخبار تقول إن العمال في روسيا كانوا يوزعون أراضي الحيازات الكبيرة على فقراء الفلاحين. وكتب الروائي الأمريكي **دوس باسوس Dos Passos** يقول: "هنا، كما في كل مكان آخر، أصبحت روسيا الشعلة الهادية"(١١). اكتسحت المنطقة ثلاثة إضرابات كبرى، فاحتل عمال الزراعة الأرض، وأحرقوا منازل الملاك المتغيبين، بل ومشعلين النار في الحقول، في بعض الأحيان. وأُعلنت، في بعض البلدات، "جمهوريات على النمط البلشفي"، واحتاج الأمر، في بعض الأحيان، إرسال قرابة عشرين ألف جندي، لوقف اندفاعة الحركة(١٢). ولم يقتصر الجيشان على الجنوب. فإبان أسبوع من الإضرابات غير العمال أسماء شوارع مختلفة، إلى "لينين" و"السوفيتات" و"ثورة أكتوبر"، وأدت اضطرابات واسعة بسبب الخبز إلى نهب مائتي محل في مدريد(١٣). وكان النضال الأشد خطرا هو ما شهدته كتالونيا في **1919**. أضرب العمال واحتلوا مشروع **لاكاناديينسه La Canadiense** الذي كان

يمد برشلونه بمعظم احتياجاتها من الطاقة، فتعطلت المواصلات العامة وغرقت المدينة في الظلمات. وأضرب قرابة سبعين بالمائة من مصانع النسيج بالمدينة، كما أضرب عمال الغاز والماء، فيما مارس اتحاد الطباعين "رقابة حمراء". وأعلنت الحكومة حالة الطوارئ، وحبست ثلاثة آلاف من المضربين. لكن ذلك لم يحل دون وقوع ما يشبه الاستسلام، من جانب أصحاب العمل. ووقعت عودة قصيرة للعمل، حتى فجرت الحكومة إضرابات جديدة برفضها الإفراج عن بعض المضربين المعتقلين. وجاءت الحكومة إلى المدينة بقوات مسلحة بأسلحة أوتوماتيكية، وجندت ثمانية آلاف متطوع من البورجوازيين، وأغلقت مقار النقابات، وسحقت إضرابا عاما، خلال أسبوعين. وبتتابع الأحداث انقصم ظهر الحركة العمالية في كتالونيا، مع قيام مسلحين استأجرهم أصحاب العمل بإطلاق النار على الناشطين النقابيين. ورد على ذلك أعضاء الكونفدرالية الوطنية للعمل **CNT**، من أمثال **جارثيا أوليفر Garcia Oliver**، و**فرانشيسكو آسكازو Francisco Ascaso**، و**بوينافينتيورا دوروتي Buenaventura Durutti**، باغتيال شخصيات من الطبقة الحاكمة. ولم تفض أفعالهم هذه إلا إلى مزيد من التشظي للقوى العمالية. لكن بقي لدى الطبقة العاملة في كتالونيا حقد طبقي عميق، تفجر عبر نوبات تواصلت طوال السبعة عشر عاما التالية(١٤).

لم يقف تصاعد النضالات العمالية في **1919** عند حدود أوروبا، فقد شهدت الولايات المتحدة أضخم تحرك، حتى ذلك الوقت، لنظم عمالها الصناعيين غير النقابيين، في منظمات نقابية، مع إضراب ممرور شمل ربع مليون عامل في صناعة الصلب. وانفجرت في أستراليا "سلسلة إضرابات أكثر كلفة من كل ما سبقها، فأُهْدِر... في **1919** قرابة **6.3** مليون يوم عمل، بسبب نزاعات عمالية"(١٥). وشهدت وينيبيج في كندا إضرابا عاما، كجزء من موجة إضرابات عمت غرب كندا والسحل الشمالي الغربي للولايات المتحدة.

وبلغت الاضطرابات الثورية ذروتها في غرب أوروبا في **1920** مع وقوع نضالات حاسمة في ألمانيا وإيطاليا.

وأنزلت سلسلة الحروب الأهلية في ألمانيا خسائر فادحة بالعمال وهم ينتقلون من المنظور البرلماني للمنظور الثوري- والتقدير المعتاد لمن ماتوا هو عشرون ألفا. لكن الحكام التقليديين للبلاد كانوا لا يزالون غير سعداء، وشعر كثيرون منهم بأن لديهم من القوة الآن ما يسمح لهم بالتخلص من الديمقراطيين الاجتماعيين، ليمسكوا هم بالسلطة. وفي الثالث عشر من مارس اقتحمت القوات برلين، لتعلن إسقاط الحكومة وتعيين موظف كبير في الخدمة المدنية، كبديل عنها.

وانتقل البلطجية الذين استأجرهم الديمقراطيون الاجتماعيون من مهاجمة اليساريين إلى مهاجمة هؤلاء القادة. كانت تلك خطوة مضت لأبعد مما يجب، وكان لها تأثير ممرور بين القواعد العمالية التي قبلت بالأعذار القديمة التي تقدم بها الديمقراطيون الاجتماعيون، تبريرا للعمل مع الجنرالات. ودعا رئيس الاتحاد الرئيسي للنقابات العمالية، **ليجيين Legien** إلى إضراب عام، واستجاب العمال في عموم ألمانيا.

لكن الاستجابة لهذا النداء، في المناطق الرئيسية، لم تقف عند الامتناع عن العمل. فقد شكل الناس مجالس عمالية جديدة، وحملوا السلاح، وهاجموا تشكيلات القوات التي عُرِف عنها التعاطف مع الانقلاب. وتدفق آلاف العمال، الذين امتلك بعضهم خبرة عسكرية، لتشكيل جيش أحمر، طرد الجيش القومي **الرايخسفير Reichsweir** من أكبر منطقة صناعية في البلاد. وانهار الانقلاب خلال أيام. وعاد الوزراء الديمقراطيون الاجتماعيون إلى برلين، وصدرت عنهم بعض الشقشقات اليسارية، قبل أن يعودوا لربط مصيرهم بالرايخسفير، وهو يطبق أساليبه الدموية لاستعادة "النظام" في الرور(١٦).

وفي إيطاليا عُرِف العامان **1919** و**1920** بـــ"العامين الأحمرين". بدأ العمال موجة إضرابات، وتدفقوا على الحزب الاشتراكي، الذي ارتفعت عضويته من

خمسين ألفا إلى مائتي ألف، كما تدفقوا على النقابات. وتوالت الموجات الثورية. وشهد صيف **1919** إضرابا عاما، لثلاثة أيام، تضامنا مع روسيا الثورية. وفي ربيع **1920** شن عمال الصناعات المعدنية إضرابا ممرورا، وإن كان غير ناجح، استهدف الحصول على اعتراف أصحاب العمل بمجالس العمال في المصانع - وهي التي اعتبرها الثوريون المتحلقون حول صحيفة **أنطونيو جرامشي Antonio Gramsci**، **أورديني نوفو Ordine Nuovo** ، بداية ظهور السوفيتات.

وصلت النضالية ذروتها في أغسطس. رد عمال الصناعات الهندسية في ميلانو على قرار وقف العمل باحتلال المصانع. وفي غضون أربعة أيام انتشرت الحركة لتعم الصناعات الهندسية في البلاد، بكاملها، ولتشمل أربعمائة ألف عامل: "حيثما وُجد مصنع، أو رصيف للشحن، أو مصنع للصلب، أو ورشة حدادة، أو مسبك يشتغل فيه عمال **الصناعات المعدنية metallos**، كانت تظهر حركة احتلال للمنشأة"(١٧) وحذا مائة ألف عامل آخرون حذو عمال الصناعات المعدنية. لم يعد الناس يرون في ذلك مجرد نضال اقتصادي. بدأوا يصنّعون الأسلحة ويخزنونها في المصانع. حافظوا على استمرار الإنتاج لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يؤسسون مجتمعا جديدا يسيطر عليه العمال: "اعتبرت هذه المئات من ألوف العمال المسلحين منهم وغير المسلحين، ممن يعملون وينامون ويقومون بالحراسة في المصانع، أن الأيام الاستثنائية التي يعيشونها هي "الثورة في حالة فعل"(١٨)

أصيبت الحكومة بالشلل. وفي الجنوب، مضى الفلاحون العائدون من الحرب، تلقائيا، إلى توزيع الأراضي. وتمرد الجنود في آنكونا لكي لا يذهبون للحـــرب في ألبانيا. وخشي رئيس الوزراء **جيوليتي Giolitti** من إشعال حرب أهلية لن يتيسر له كسبها، وقال في مجلس الشيوخ:

> **للحول دون احتلال المصانع، يتعين أن أنشئ حاميات عسكرية في كل مصنع من... الستمائة مصنع في قطاع الصناعات المعدنية،...**

لتتألف الحامية في المصنع الصغير من مائة جندي، ومن عدة آلاف في كل مصنع كبير. ولكي أحتل المصانع، فلا بد لي من نشر كل ما تحت يدي من قوات! فمن الذي سيراقب النصف مليون عامل خارج مصانعهم؟ من شأن هذه أن تصبح حربا أهلية[١٩].

وبدلا من ذلك راح يعمل بافتراض أن زعماء اتحادات عمال الصناعات المعدنية سيقبلون بنتيجة سلمية للنزاع، وأن قادة الحزب الاشتراكي لن يعترضوا على قرارات الزعماء النقابيين. وكان هذا من شأنه أن يترك لأصحاب العمل الحرية لمواصلة الحرب ليوم آخر. وتبين أنه محق. قرر الحزب الاشتراكي أن احتلالات المصانع هي مسئولية القيادات النقابية، وتقرر في انعقاد خاص لكونفدرالية الاتحادات العمالية، بثلاثة أصوات ضد صوتين، رفض الدعوة للثورة والتوصل لاتفاق مع أصحاب العمل. وشعر عمال الأشغال المعدنية في المصانع الكبرى، وهم العمود الفقري للحركة، بتراجع في الروح المعنوية وبالهزيمة. لقد حاربوا من أجل الثورة، ولم يتجاوز ما فازوا به تحسينات ثانوية في الأجور وفي شروط العمل.

ثورة في الغرب؟

يثبت الجيش الأحمر في الرور واحتلالات المصانع في إيطاليا كذب القول بأنه لم تنشأ في أوروبا الغربية أي احتمالات للثورة – وأن كل ذلك كان خيالات في عقول البلاشفة في روسيا. ففي الصيف والربيع من العام **1920** انخرطت في النضالات أعداد هائلة من العمال الذين ربَوْا في مجتمع رأسمالي، واعتبروه أمرا مسلما به، وتحولوا مع هذه النضالات إلى رؤية اشتراكية ثورية لكيفية إدارة المجتمع. فلم تكن الثورة العالمية وهما في أغسطس **1920**، مع اقتراب الجيش الروسي الأحمر من وارسو، ومع ذكرى هزيمة "انقلاب كاب" في عقل كل عامل ألماني، ومع عمليات احتلال وشبكة للمصانع في إيطاليا.

لم تحدث الثورة، والمؤرخون يتناقشون، منذ ذلك الحين، حول السبب في أن الثورة في روسيا لم تتكرر. ومن الواضح أن جانبا من مسببات ذلك يرتبط بالفروق الموضوعية بين روسيا والغرب. ففي معظم بلدان الغرب، استغرق نمو الرأسمالية فترة تاريخية أطول من تلك التي استغرقها في روسيا، مع مزيد من فرص تطوير بُنى اجتماعية تدمج الناس في حكمها. وبخلاف روسيا، ففي معظم بلدان الغرب، إما أن الفلاحين جرى منحهم الأرض (كما هو الحال في جنوب ألمانيا أو في فرنسا) أو أنهم جرى محوهم كطبقة (كما في بريطانيا)، ومن ثم فلم يعودوا قوة يحسب لها حساب تتوفر على إمكانية تحدي النظام. وكانت غالبية دول الغرب، أيضا، أكثر كفاءة من جهاز الدولة القيصرية المتهالك، وكانت من ثم أقدر على الخروج من محنة الحرب في حالة أفضل.

لكن لا يمكن لعوامل موضوعية كهذه أن تفسر كل شيء. وكما رأينا، فقد تحرك ملايين العمال في الغرب باتجاه أفعال ومواقف ثورية، حتى وإن وقع ذلك بعد عامين من وقوع التحول ذاته في روسيا. لكن التحول باتجاه موقف ثوري، أو حتى الانخراط في عمل ثوري ليس مماثلا، بالضبط، لتفجير ثورة. فهذا يحتاج ما يفوق الرغبة في التغيير. يحتاج هيئة من الرجال الذيم يملكون الإرادة والفهم الضروريين لتحويل الرغبة إلى واقع– الإرادة والفهم اللذين توفرت عليها ثورات بورجوازية كبرى، في الجيش النموذجي الجديد عند **كروموِيل Cromwell**، وفي يعاقبة **روبسبيير Robspierre**. ففي الشهور الحاسمة من العام **1920** لم يكن هناك وجود لهيئات كهذه في ألمانيا أو إيطاليا.

تنامت الحركات الاشتراكية في أوروبا، بشكل عام، في سنوات الهدوء الاجتماعي النسبي بين **1871** والسنوات الأولى من العقد الأول، من القرن العشرين. وكسبت هذه الحركات تأييدا من الناس الذين أسخطتهم الفروق الطبقية في المجتمع، لكنه كان، بالأساس، تأييدا سلبيا. أنشأوا كيانا متكاملا من المؤسسات – اتحادات نقابية، جمعيات للرفاه الاجتماعي، تعاونيات، نواد عمالية – تعارض المجتمع القائم،

ميدئيا، وتتعايش معه، في الممارسة. وبإدارة هذه المؤسسات، ضمنوا حياة مستقرة، بل وقدرا من القبول بهم كممثلين منتخبين، منحهم إياه الأعضاء الأكثر ليبرالية في الطبقة الحاكمة. كانوا في وضع مشابه، من بعض النواحي، لوضع التجار وسكان المدن القروسطيين، الذين قرنوا سخطهم على السادة الإقطاعيين بميل إلى محاكاتهم في السلوكيات والأفكار. وقد تسامح كثيرون من المنتمين للشرائح الدنيا من الطبقات الإقطاعية مع هذا الميل، لأنهم اعتبروا التراتبيات القائمة أمرا مسلما به. وهكذا انتشر الميل بين الشرائح الدنيا في الحركة العمالية، في غالب الأحوال، للقبول بسلوكيات قادتهم.

وقد نشأت عن الإضرابـــات الكبيرة التي وقعت في السنوات السابقة على الحرب، مباشرة، تيارات نضالية وثورية تحدت هذه التوجهات، وتسببت الحرب بمزيد من الانشقاقات. وغالبا ما تضافر رفض التوجهات الإصلاحية السائدة مع رفض الحرب، رغم أن إصلاحيين، مثل برنستاين وكيرت أيزنر كانوا رافضين للحرب. ومع نهاية الحرب، ظهرت ثلاثة تيارات متمايزة.

كان هنـــاك، أولا، الديمقراطيون الاجتماعيون المؤيدون للـــحرب من نوع إيبرت شايديمان – نوسكه، الذين كان قبولهم بالحرب جزءا لا يتجزأ من القبول بالرأسمالية. وثانيا، كان هناك الثوريون الرافضون للحرب باعتبارها التعبير الأكثر بربرية عن الرأسمالية، والذين اعتبروا الثورة الطريق الوحيد للتخلص نهائيا من الحروب. وثالثا، كانت هناك جماعة كبيرة للغاية وغير محددة الشكل، صارت تعرف باسم"الوسط" أو "الوسطيين"، وكان أوضح تعبير عنهم هم الديمقراطيون الاجتماعيون في ألمانيا. ومعظم قادتهم كانوا يقبلون بالنظرية وبالممارسات الاشتراكية التي كانت موجودة قبل الحرب، ورأوا مستقبلهم في العمل النقابي أو البرلماني، في إطار الرأسمالية.

وإبان الحرب، طلب الوسطيون من الحكومات القائمة التفاوض حول السلام، مفضلين ذلك على تهييج الجماهير الذي قد يضر بالمجهود الحربي. وبعد الحرب

استخدموا، في بعض الأحيان مصطلحات يسارية، مع إصرار دائم على أن أهداف الاشتراكية لا يتعين تحقيقها إلا بوسائل "نظامية". وعلى نحو يكشف نمطية هذه التوجهات، حاول **هيلفردينج Hilferding** من حـــزب الديمقراطيين الاجتماعيين المستقلين صوغ مقترحات دستورية تمزج بين السوفيتات والبرلمان. وكررت هذه المقترحات خططا لحل وسط سلمي يعطل تصاعد نشاط العمال لصالح الجانب الأخر. وكما قال الاشتراكي الثوري **يوجين ليفينيه Eugen Leviné** أمام المحكمة، التي قضت بإعدامه لأنه قاد السوفيت البارفاري: "يبدأ الديمقراطيون الاجتماعيون عملا ما، ثم يركضون ويخونوننا؛ لقد ابتلع المستقلون الطعم، ينضمون إلينا ثم يتخلون عنا، وبعد ذلك يجري إيقافنا، نحن الشيوعيين، في مواجهة الحائط. نحن الشيوعيين، كلنا، موتى في إجازة"[٢٠].

لوحظ أن المنظمات الوسطية تنامت سريعا في أجواءِ ما بعد الحرب. كان لديهم قادة برلمانيون معروفون جيدا وصحافة كبيرة، واجتذبوا أعدادا كبيرة من العمال الممرورين والنضاليين. وربما كان للديمقراطيين الاجتماعيين المستقلين، في نوفمبر **1918** عشرة أضعاف ما لدى رابطة سبارتاكوس، بقيادة روزا لوكسمبورج من الأعضاء.

وكان الحزب الاشتراكي الإيطالي من نوعية الديمقراطيين الاجتماعيين الألمان. فمقاربة زعمائه من السياسة كانت، في الجوهر، برلمانية، وإن استخدموا لغة ثورية وأراد بعضهم، على الأقل، تحولا في المجتمع. احتوى الحزب أيضا على عناصر لا تخفي أنها إصلاحية - أشهرهم البرلماني البارز فيليبو **تُراتي Filippo Turati**. وتنامت عضوية الحزب بدرجه هالة، مع احتدام الصراعات، لكنه عجز عن تأمين نوعية القيادة القادرة على تقْنية الغضب والنضالية عند العمال باتجاه هجمة ثورية على الدولة. واعترف أشهر قادة الحزب، وهو سيراتي **Serrati**، بعد ثمانية أشهر من احتلالات المصانع بأنه "فيما تحدث الكل عن الثورة، لم يكن أحد مستعدا لها"[٢١]. وأقر **بييترو نيني Pietro Nenny** الذي بقي قيادة

بارزة في الحزب، طوال الستين عاما التالية، بأن "الحزب لم يكن سوى آلة انتخابية هائلة، مجهزة فقط لأغراض النضال [البرلماني] الذي كانت ترفضه، نظريا"(٢٢). وتذكر **أنجلو تاسكا Angelo Tasca**، الناشط من تورين كيف أن "منهج منظمات العمال"...راوح بين توجيه نصائحه بالهدوء إلى "الجماهير المهتاجة... وبين الوعد بالثورة"(٢٣). "أصبحت الحياة السياسية في إيطاليا اجتماعا مطولا واحدا يشهد تبديد رأسمال 'الثورة القادمة' وسط دفق من الكلمات المحمومة"(٢٤).

أدرك قادة الثورة الروسية أوجه النقص عند الجناحين الأوسط والأيمن في الحركة الاشتراكية البرلمانية، وطالبوا بتكوين أحزاب شيوعية جديدة في كل بلد انضم إلى الأممية الشيوعية الجديدة. لكن القمع والاضطراب في سنوات الحرب كانا يعنيان أن المؤتمر الأول للأممية لم يكن لينعقد قبل مارس **1919**، وحتى في ذلك التاريخ كان تمثيل أوروبا، ناهيك عن بقية أنحاء العالم، محدودا للغاية. ولكن المؤتمر الثاني في يوليو وأغسطس **1920** التجمع التمثيلي الحقيقي.

وقد أظهرت الأحزاب التي بعثت بممثليها قوة الشعور الثوري بين عمال أوروبا. وقد فعلت ذلك أحزاب التيار الرئيسي في إيطاليا، وفرنسا، والنرويج. وحضر ممثلو الاجتماعيين الديمقراطيين المستقلين في ألمانيا، وممثلون من الكونفدرالية الوطنية للعمل في إسبانيا، بل ومن حزب العمال المستقل في بريطانيا، والحزب الاشتراكي في الولايات المتحدة. وكانت إحدى الرسائل الرئيسية التي وجهها الحزب- والمتضمنة في "**21** شرطا" لعضوية الأممية، أن تلك الأحزاب لن تكون ثورية حقا إلا إن غيرت أساليب عملها وغيرت قياداتها. وتحديدا، لم يعد بوسعها أن تبقي بين أعضائها أمثال كاوتسكي في ألمانيا، وتُراتي في إيطاليا، ومكدونالد في بريطانيا.

وتسببت الشروط بشجارات هائلة، ورفضتها كثرة من قادة الوسطيين. ولم تقبل غالبية الاجتماعيين الديمقراطيين في ألمانيا، وغالبية الحزب الاشتراكي في

فرنسا، ومعهما أقلية في إيطاليا، بالتصويت لصالح التحول إلى "أحزاب شيوعية" من نمط جديد، إلا بعد انشقاقات بسبب هذه المسألة.

لكن التحركات في هذا الاتجاه جاءت متأخرة عن اللحظة التي كان يمكن لها أن تؤثر فيها على النضالات الكبرى في ألمانيا وإيطاليا في **1920**. وتفاقمت أزمة جديدة في ألمانيا في **1923**، مع احتلال القوات الفرنسية الرور، وتصاعد معدلات التضخم بمعدلات فلكية، واستقطاب عم البلاد بين يمين ويسار، وأول تنام لنازية هتلر، وإضراب عام ناجح ضد حكومة **كونو Cuno** المحافظة. لكن حتى في تلك اللحظة، برهن التقليد الاشتراكي البرلماني المحافظ، الذي يعود لفترة ما قبل الحرب، أنه مـــا زال مسيطرا، حتى بين بعض أكثر الثوريين نضالية. وشكل القـــادة الشيوعيون "حكومتي عمال" برلمانيتين بالتحالف مع الديمقراطيين الاجتماعيين في ولايتين، هما ثورينجيا وساكسونيا، كان المفترض أنهما ستستخدمان كمنصتي انطلاق لهبة ثورية – لكنهم تراجعوا عن التخطيط للهبة، حتى وإن بدا أن غالبية الطبقة العاملة كانت مؤيدة لها[٢٤].

وقد رفض الاشتراكيون الإصلاحيون الثورة لاعتقادهم بأن زوال خطر الثورة ستعقبه عودة الأمور لما كانت عليه، بتوسع سلمي للرأسمالية وانتشار للديمقراطية. وأظهرت الأحداث في إيطاليا كم كانوا مخطئين.

الثمن الفادح: الفاشية الأولى

في وقت احتلال المصانع في **1920** كان موسوليني شخصية معروفة على المستوى الوطني في إيطاليا- إذ اشتهر بأنه الصحفي الاشتراكي المثير للغبار الذي قطع علاقته بالحزب لأنه أيد الحرب. لكن أتباعه كسياسي كانوا قليلين، ولم يخرجوا عن دائرة الثوريين السابقين الذين انقلبوا شوفينيين وطنيين مع شرائح من

محاربين سابقين على الجبهة، اعتقدوا أن إيطاليا حُرمت من حقها في مساحة من الأراضي النمسوية وعلى امتداد الساحل اليوغسلافي. وشكلت عدة عشرات منهم أولى **الوحدات القتالية الفاشية fascio de combattimento**، في مارس **1919**، لكنّ أداءهم في الانتخابات في ذلك العام كان بائسا للغاية، ووقفوا على حافة المشهد، عاجزين عن أي فعل، فيما خاض عمال إيطاليا مجابهة مع أصحاب العمل والحكومة.

وقد تحولت طبيعة الفرص المتاحة لموسوليني كنتيجة لعجز حركة احتلال المصانع عن التحول إلى ثورة. تراجعت الروح المعنوية لدى العمال، فيما كان تصاعد معدلات البطالة يلتهم مكاسب "السنتين الحمراوين". بقي أصحاب العمل شديدي التلهف على تلقين الحركة العمالية درسا لا تنساه، وبحث رئيس الوزراء "الليبرالي" جيوليتي عن ثقل موازن، في مواجهة اليسار. وعرض موسوليني خدماته. وقد كانت أقسام من المشروعات التجارية الكبرى، ومثلها في السر حكومة جيوليتي، تزود موسوليني بالمال – وأصدر وزير الحرب نشرة دورية أبلغ فيها ستين ألفا من الضباط المتقاعدين بإمكانية حصولهم على ثمانين بالمائة من رواتبهم إن هم انضموا لحركته[٢٦]. وشكل جيوليتي تحالفا انتخابيا ليمين الوسط أعطى موسوليني **35** مقعدا في البرلمان في مارس **1921**. وبالمقابل، بدأت الجماعات المسلحة التابعة لموسوليني تهاجم المراكز المحلية لليسار وللقوى النقابية، بداية بوادي نهر البو، حيث كان عمال الزراعة والمزارعون بالمحاصصة منخرطين في إضرابات ممرورة ضد أصحاب الحيازات.

كانت جماعات تضم خمسين أو ستين فاشيا، تصل إلى القرى أو البلدات، على متن الشاحنات، لتحرق قاعات "بيت الشعب" الاشتراكية، ولتخترق صفوف الإضراب، وتعاقب الثوريين بضربهم وصب زيت الخِرْوَع في حلوقهم، ثم يندفعون

مغادرين المنطقة وهم يزأرون، مدركين أن الشرطة ستمنحهم وقتا كافيا للإفلات. ونادرا ما كان الاشتراكيون وأعضاء النقابات يتمكنون، وهم المرتبطون بوظائف والموزعون بين قرى شديدة التباعد، من الرد بالسرعة الكافية على هجمات كهذه. وكان بوسع الفاشيين أن يشعروا بالأمان، لعلمهم أن الشرطة تحرص على أن لا تصل إلا بعد أن يغادروا، وبأن رجالها مستعدون "لاعتبار القتل نوعا من الرياضة"[٢٧].

وقد كان كل نجاح يولد نجاحا آخر، بالنسبة للفاشيين. نجحوا في تعبئة أصحاب الحيازات الزراعية، ضباط الحاميات، طلاب الجامعات، موظفين، مستأجرين، مهنيين، وتجار، أخذوهم من المدن في حملاتهم على الريف[٢٨]. وزاد عدد الفرق الفاشية من **190** في أكتوبر **1920**، إلى **1000** في فبراير **1921**، ثم إلى **2300** في نوفمبر من ذلك العام[٢٩].

لكنهم لم يكونوا قد بلغوا، بعد، مرحلة القوة الكاملة. حرصت حكومة جيوليتي على أن تستخدم الفاشيين، لا أن تكون أداة بأيديهم - وكانت لا تزال تملك القدرة على وقفهم حيث هم. وعندما فتح أحد عشر جنديا النار على مجموعة من **500** شخص من الفاشيين في سارزانا، في يوليو **1921** ولى الفاشيون الأدبار[٣٠]. في تلك الفترة، بدأ العمال تشكيل قواتهم شبه العسكرية "شجعان الشعب" **arditi del popolo**، استعدادا للهجوم على الفاشيين. واعترف أحد القادة الفاشيين، وهو بانشيللي **Banchelli** بأن الفرق الفاشية لم تعرف "كيف تدافع عن نفسها"، عندما رد الناس على الهجوم بالمثل[٣١]. ووقع تأزم، لم يدم طويلا، في صفوف الحركة الفاشية، مع استقالة موسوليني من الهيئة التنفيذية لأنه "مكتئب"[٣٢].

وأنقذه موقف قادة الحركة العمالية. وقع الاشتراكيون الإصلاحيون بقيادة تراتي، ومعهم اتحاد النقابات الرئيسي، وهو **الكونفدرالية العامة للشغل CGL** معاهدة سلام مع الفاشيين. وبقي من يفترض أنهم الأكثر يسارية بين قادة الحزب

الاشتراكي الرئيسي، الذين نشأت قطيعة بينهم وبين توراتي، سلبيين، مكتفين بإدانة "شجعان الشعب". ورفض الزعيم الشيوعي في تلك الفترة **أماديوبورديجا Amadeo Bordiga** أن يقر بأي اختلاف بين الفاشيين وبقية الأحزاب البورجوازية، واعتزل النضال وأدان "شجعان الشعب".

وتمكن موسوليني من الانتظار حتى يمارس ملاك الأراضي وكبار رجال البيزنيس ضغطا على الحكومة لتغيير مواقفها، ليخرق بعد ذلك الهدنة ويواصل الهجمات على منظمات العمال في الوقت الذي يختاره. وعندها لم تقتصر الهجمات على القرى وبلدات الريف، بل امتدت لمقار اليساريين، لمكاتب الصحف، وقاعات الاتحادات العمالية في المدن الكبرى.

وأخيرا حاول القادة الرسميون للحركة العمالية الرد على الهجمات في **1922**. شكلوا "تحالفا عماليا" من كل الاتحادات، ودعوا لإضراب عام في يوليو، بعد هجمات على مقارهم في رافينا. ولكن في وقت شهد ركودا اقتصاديا، وارتفاعا في معدلات البطالة، فإن إضرابا عاما لثلاثة أيام لم يكد يمثل حافزا كافيا لامتناع كبار رجال البيزنيس عن تمويل موسوليني – وبما أن الإضراب لم تصحبه تعبئة ممنهجة لجماعات العمال، بغرض الصراع مع الفاشيين على السيطرة على الشارع، بقي موسوليني، بعد الإضراب، على قوته قبله.

وسمح له تراجع الروح المعنوية، بعد فشل الإضراب، بمد نفوذه إلى مناطق مثل، ميلانو، وأنكونا، وجنوا، حتى بعد أن ثبتت إمكانية المقاومة، عندما أجبر "شجعان الشعب" الفاشيين على التراجع في بارما. وفي أكتوبر **1922** كان موسوليني قد أصبح قويا بما يكفي لأن يقلب الطاولات على جيوليتي والليبراليين البورجوازيين. وعندما عرضوا عليه دخول الوزارة هدد بأن الفاشيين من أتباعه سوف يزحفون على روما، ما لم توضع الحكومة تحت سيطرته. وكان هذا مجرد تبجح من جانبه؛ لو أرادت الدولة وقفه عند حده، لفعلت ذلك بسهولة. لكن

الجنرالات وكبار رجال البيزنيس لم يرغبوا بذلك، فعينه الملك رئيسا للحكومة، وبدلا من الزحف على روما، جاء موسوليني بالقطار من ميلانو.

وبرهنت البورجوازية الإيطالية على أنها تعتبر الحفاظ على الامتيازات والأرباح أهم من مبادئ الديمقراطية، عندما سعد الحزب الليبرالي على تمكين موسوليني من الحصول على أغلبية في البرلمان، وقبل بمناصب وزارية في حكومته الأولى.

ولم تكن البورجوازية وحدها هي التي تعتقد أن موسوليني سوف يأتي بـــ"النظام" والاستقرار للبلاد. وكما نقرأ في أحد التأريخات للفاشية":

> **باستثناء الشيوعيين وكل الاشتراكيين، تقريبا، رحب البرلمان كله، بمن فيه من الديمقراطيين المناهضين للفاشية واشتراكيي الكونفدرالية العامة للشغل، بحكومة موسوليني، متنفسين الصعداء، كأنهم يشهدون نهاية كابوس. فالحرب الأهلية، كما قال الناس، قد انتهت؛ والمأمول أن تتصرف الفاشية، أخيرا، بشكل قانوني[٣٣].**

والحقيقة أن الكابوس كان قد بدأ لتوه. وبعد أن أصبح موسوليني في الحكم، بدأ التنسيق بين الشرطة والفاشيين. وبالعمل معا، تمكنوا من تفكيك منظمات الطبقة العاملة، تاركين السياسيين والمثقفين الليبراليين الذين لا يملكون ثقلا يتيح لهم مواجهة عنف الفاشية. وبقيت مظاهر الديمقراطية، لبعض الوقت، لم يجر الانتقاص منها، مع بقاء حتى النواب الاشتراكيين والشيوعيين قادرين على التعبير عن آرائهم في البرلمان، ولكن ليس خارجه. لكن السلطة الحقيقية صارت بيدي موسوليني، ولم تعد ممثلة بالمؤسسات الدستورية.

وتبين ذلك، على نحو دراماتيكي في **1924**. قتل أذناب موسوليني برلمانيا بارزا من الاشتراكيين الإصلاحيين هو **ماتيوتي Matteotti**. وفقد الفاشيون، لفترة

وجيزة كثيرا من مؤيديهم السابقين، وبحسب بعض التقديرات، "في الأسبوع التالي على وقوع الجريمة كان يمكن إسقاط الحكومة بسهولة"[٣٤] لكن المعارضة البرلمانية حصرت نفسها في مغادرة القاعة، احتجاجا، لتشكل جمعيتها الوطنية المعروفة باسم "**أفنتينى**" **Aventine** [نسبة إلى تل أفنتينو **Aventino** أحد التلال السبعة التي تقوم عليها روما - المترجم]. لم تكن المعارضة البرلمانية مستعدة للاضطرابات الاجتماعية التي قد تنشب حال مطالبتها بعصل جماهيري ضد الحكومة، فاستسلم معظم النواب للفاشيين، وعادوا لمواقعهم في البرلمان مع بداية **1925**.

وأصبح موسوليني مدركا لحقيقة أنه لن يحاسب على أي تجاوز، فتحول بإيطاليا إلى الحكم الشمولي، وأصبح هو **الدوتشي Duce**، أو الزعيم. وحاز نجاح موسوليني إعجاب كل الطبقات الحاكمة في أوروبا. وكان من دواعي سرور السياسي البريطاني المحافظ ونستون تشيرشل **Winston Churchill** أن يمتدحه[٣٥]، وسرعان ما ظهر له مقلدون. وكان بين هؤلاء شخصية صاعدة في الدوائر الوطنية المناهضة للسامية في ميونيخ -أدولف هتلر.

الثمن الفادح: بذور الستالينية

العجز عن نشر الثورة ترك روسيا معزولة، وتعين عليها أن تقاسي، ليس فقط حصارا ماديا، بل وكل عذابات غزو خارجي من قرابة ستة عشر جيشا، وحرب أهلية، ودمار، ومرض، وجوع. وتراجع الإنتاج الاقتصادي ليصبح **16** بالمائة فقط مما كان عليه في **1916**، والبقية الباقية من الطبقة العاملة التي بقيت في المدن لم تكد تتمكن من الحصول على الطعام، إلا بالسفر إلى الريف والدخول في مقايضات مع الفلاحين. ومع انتشار التيفوس وظهور أكلة لحوم البشر، زاد استمساك البلاشفة بالسلطة عبر نظام الحزب الواحد، وليس باعتبارهم ممثلي طبقة

عاملـــة تكاد تكون غير موجودة. وقدرتهم على مجرد البقاء تقول الكثير عن شجاعتهم كثوار، وعن قوة الاحتمال لدى العمال الذين ظلوا يكونون معظم الحزب. لكن ذلك لم يحُل دون جعلهم يدفعون الثمن السياسي للبقاء.

وظهر ذلك جليا في مارس **1921** عندمـــا انتفض البحارة في كرونشتـــات، الحصن البحري قبالة بتروجراد (بطرسبورج)، موجهين اللوم للحكومة الثورية على مستوى الفقر في البلاد. كانت كرونشتات أحد أهم مراكز قوة البلاشفة في **1917**، لكن العناصر المكونة لها اختلفت عندما ذهب المناضلون القدامى للحرب مع الجيش الأحمر، وحل محلهم رجال جاءوا لتوهم من الريف. لم يكن بوسع الانتفاضة أن تطرح برنامجا لمعالجة الفقر، على اعتبار أن هذه لم تكن أزمة رأسمالية نشأت عن تراكم الثروة بجوار تفاقم الفقر، بل كانت أزمة بلد بكامله، نشأت عن حرب أهلية، وغزو خارجي، وحصار. لم تكن هناك طبقة واحدة تعيش حياة الوفرة فيما يموت الآخرون جوعا، وإن بقي التفاوت في درجات الجوع. كان جنرالات النظام القديم، الذين لم تمر على هزيمتهم في الحرب الأهلية سوى شهور قليلة، يرقبون الفرصة للعودة. وبمرور الوقت أنشأ بعضهم علاقات ودية مع بعض متمردي كرونشتات. لم يكن الوقت يعمل لصالح الحكومة الثورية. كان الجليد المحيط بالحصن يذوب وسرعان ما سيصبح من الصعب إعادة الاستيلاء عليها[٣٦]. كل هذه العوامل لم تترك للبلاشفة خيارات كثيرة، تتجاوز قمع الانتفاضة – وهي حقيقة أدركتها المعارضة "العمالية" داخل الحزب البلشفي، الذين كانوا في طليعة المنادين باجتياز الجليد والهجوم على البحارة. لكن كرونشتات بقيت علامة على حالة التعاسة التي فرضتها العزلة والتدخل الخارجي على الثورة. فلم يعد بوسعها البقاء سوى بأساليب هي أقرب إلى اليعقوبية، منها إلى بلشفية **1917**.

وكان محتما أن تترك هذه الأساليب أثرها على أعضاء الحزب البلشفي. عمقت سنوات الحرب الأهلية، لدى الكثيرين، مقاربة تسلطية لا تكاد تتسق مع الكلام عن ديمقراطية عمالية. وكان لينين مدركا لذلك، عندما قال في مناظرة

داخلية، في شتاء **1920-1921** "دولتنا دولة عمال، ذات تشوهات بيروقراطية"[٣٧]. ووصف نظام الدولة بأنه"مستعار من القيصرية ويكاد لم يمسسه عالم السوفيت... آلية بورجوازية قيصرية"[٣٨]. وأثر ذلك على مواقف كثرة من أعضاء الحزب: "دعونا نتطلع إلى موسكو. هذه الكتلة من البيروقراطيين — من يقود من؟ **4.700** شيوعي مسئول يقودون كتلة البيروقراطية أم أن العكس هو الصحيح؟"[٣٩].

وانعقد المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية في صيف **1921**. كان الوحيد الذي يشهد تجمع وفود كاملة الثورية، على نحو ما. كان كثير منهم منتشين بوجودهم على أرض الثورة. ورغم أن لغة الثورة بقيت، كما بقي بلاشفة كثيرون مخلصين لمثلها، فالحزب في كلّيته لم يتمكن من البقاء محصنا من آثار العزلة، والتسلطية، والاعتماد على البيروقراطية القديمة. وقد كتب كارل ماركس في **1851** يقول: "إن البشر يصنعون التاريخ" ولكن ليس "في ظروف يختارونها". وهذه الظروف، بدورها، تحول الكائنات البشرية ذاتها. كانت البلشفية تتحول ببطء، تحت ضغط الأحداث، إلى شيء غير ما كانت عليه، حتى بعد أن تبلورت الأممية الشيوعية، كمنظمة متماسكة. ذلك الشيء الذي تحولت إليه كان ما سيدعى ستالينية، على رغم أن جوزيف ستالين لم يمارس سلطة حقيقية قبل **1923** أو **1924**، ولم تتأت له سلطة مطلقة إلا في **1928-1929**.

الهوامش

(١) بحسب ما جاء في:

J Joll, Europe Since 1870 (London, 1990), p237.

(٢) حول هذه النقطة، وللمزيد من التفصيلات حول الثورة في النمسا الناطقة بالألمانية، انظر:

F L Carsten, Revolution in Central Europe 1918-19 (London, 1972), pp22-32.

(٣) لمزيد من التفاصيل والمصادر حول هذا وغيره من مظاهر الثورة الألمانية، انظر كتابي:

The Lost Revolution, Germany 1918-1923 (London,1982).

(٤) بحسب ما قالته روزا ليفيني ماير التي كانت آنذاك في مستشفى في برلين. انظر ما كتبته في:

Leviné (London, 1973), p80.

(5) E Hobsbawm, The Age of Extremes (London, 1994), p68.

(٦) كما جاء في:

E H Carr, The Bolshevik Revolution, vol 3 (Harmondsworth, 1966), pp135-136.

(٧) كما جاء في:

E H Carr, The Bolshevik Revolution, vol 3, p135.

(٨) التفاصيل في:

H Carr, The Bolshevik Revolution, vol 3, p134.

(٩) كما جاء في:

E Wigham, Strikes and the Governmemt 1893-1981 (London, 1982), p53.

(10) G H Meaker, The Revolutionary Left in Spain 1914-1923 (Stanford, 1974), p134.

(١١) كما ورد في:

G H Meaker, The Revolutionary Left, p141.

(12) G H Meaker, The Revolutionary Left, p142.

(13) G H Meaker, The Revolutionary Left, p143.

(١٤) لمعرفة تفصيلات عن هذا الإضراب، انظر:

G H Meaker, The Revolutionary Left, pp158-161and 165-168, and G Brennan, The Spanish Labyrinth (Cambridge, 1974), pp70-71.

يرى ميكر Meaker أن الإضراب أسفر عن هزيمة للعمال، في حين يرى برينان Brennan أنه كان "غير حاسم". وبالمقابل فإن بي بيجيز P Pages يرى أنه انتهى لمصلحة العمال. انظر ما كتبه في:

Andreu Nin, Su Evolución Política (Madrid, 1975).

(15) I Turner, Industrial Labour and Politics (London, 1965), p194.

(١٦) القصة كلها مروية بذكاء في:

Erhard Lucas, Märzrevolution 1920 (Frankfurt, 1974).

ولملخص للأحداث، انظر كتابي:

The Lost Revolution, ch 9.

(17) P Spriano, The Occupation of the Factories, Italy 1920 (London, 1975), p60.

(18) P Spriano, The Occupation of the Factories, pp21-22.

(١٩) ورد النص الكامل للخطاب في:

R Leviné-Meyer, Leviné.

(٢٠) رسالة إلى جاك ميزنيل Jacques Mesnil في أبريل 1921، وردت في:

P Spriano, The Occupation of the Factories, p132.

(٢١) كما جاء في:

P Spriano, The Occupation of the Factories, pp129-130.

(22) A Rossi (pseudonym for Tasca), The Rise of Italian Fascism (London, 1938), p68.

(23) A Rossi, The Rise of Italian Fascism, p74.

(٢٤) لمناقشة حول حقيقة الطابع الثوري للموقف، انظر كتابي:

The Lost Revolution, ch 13.

(٢٥) بحسب ما جاء في:

A Rossi, The Rise of Italian Fascism, pp82, 99.

(26) A Rossi, The Rise of Italian Fascism, p126-127.

(27) A Rossi, The Rise of Italian Fascism, p103.

(٢٨) الأرقام كما تجدها في:

A Rossi, The Rise of Italian Fascism, p126-127.

(29) A Rossi, The Rise of Italian Fascism, p148.

(٣٠) كما جاء في:

A Rossi, The Rise of Italian Fascism, p145.

(31) A Rossi, The Rise of Italian Fascism, p147.

(32) A Rossi, The Rise of Italian Fascism, pp229-231.

(33) G Carocci, Italian Fascism (Harmondsworth, 1975), p27.

(34) G Carocci, Italian Fascism, p32.

(٣٥) انظر:

A D Harvey, Collision of Empire (Phoenix, 1994), p511.

(٣٦) أفضل تقرير عن هذه الأحداث موجود في:

P Avrich, Kronstadt 1921(New Jersey, 1991).

(37) Lenin, Collected Works, vol 32 (Moscow, 1965), p24.

(٣٨) كما جاء في:

M Schachtman, The Struggle for the New Course (New York, 1943),p150.

(٣٩) في خطاب لينين أمام المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الروسي (البلاشفة) في:

V I Lenin, Collected Works, vol 33 (Moscow, 1976), p288.

- ٤ -

الثورة في العالم الكولونيالي

في مطلع القرن العشرين سيطرت حفنة من الطبقات الحاكمة على العالم كله. تدفق التاريخ الإنساني عبر قناة ضيقة شكلتها قلة من دول أوروبا. والحرب نفسها كانت التعبير الأقصى عن ذلك –حرب عالمية نشأت، بالأساس عن الطموحات الإمبراطورية لحكام بريطانيا، وألمانيا، وفرنسا.

ولكن مع الاقتراب من نهاية الحرب كانت موجة من التمردات تجتاح العالم الكولونيالي وتهدد سلطة هؤلاء الحكام: فبعد هبة مسلحة في دبلن في **1916** دارت رحى حرب عصابات في كل أنحاء أيرلندا، في الفترة **1918-1921**؛ تصاعدت التظاهرات والإضرابات ضد الحكم البريطاني في الهند؛ وقع ما يشبه الثورة ضد الاحتلال البريطاني في مصر؛ غليان وطني في الصين، بدأ باحتجاجات طلابية في **1919** ووصل ذروته بنشوب حرب أهلية في الفترة **1926-1929**.

تعود مقاومة التسلط الغربي إلى ما قبل الحرب. فاستعمار إفريقيا لم يتحقق إلا كنتيجة لسلسلة حروب مريرة؛ الحكم البريطاني في الهند اهتز بقوة التمرد الكبير في **1857**؛ واجتاحت الصين موجة من الهجمات ضد المصالح والممارسات الغربية، مع الانتقال إلى القرن الجديد، فيما عرف في الغرب باسم "تمرد الملاكمين" **Boxer Rebellion**.

لكن موجات المقاومة هذه تميزت بأنها اشتملت على محاولات لاستعادة النظم المجتمعية التي انصاعت للقوى الأجنبية، في المقام الأول.

وبحلول القرن العشرين سعت تيارات مقاومة جديدة إلى أن تتعلم وتحاكي مناهج الرأسمالية الغربية، حتى وإن تبنت طروحات تقليدية. وفي قلب هذه التيارات كان هناك طلاب، ومحامون، ومعلمون، وصحفيون - وهي جماعات تلقى أعضاؤها دراساتهم بلغة الحكام الأجانب، وتزيوا بزي الأوروبيين، وتقبلوا قيم الرأسمالية الأوروبية، لكن كانت لديهم تطلعات سدت الطريق أمامها سياسات السادة الكولونياليين. في كل مدينة مستعمـرة كان هؤلاء موجودين بالألـوف، وكانت تظاهراتهم تجتاح الشوارع، مجتذبة إليها أعدادا أكبر، من أناس ذوي توجهات أكثر تقليدية.

وفي الهند، التي كانت أهم بكثير من المستعمرات الأخرى كافة، بالنسبة لبريطانيا، نشبت حركة مقاومة، بطول البلاد وعرضها، مع انتصاف العشرية الأولى من القرن العشرين، عندما عمدت السلطة الإمبريالية، كجزء من سياسة "فرق تسد" التي اتبعتها، إلى تقسيم أكبر أقاليم شبه القارة الهندية، وهو إقليم البنغال، إلى منطقتين مسلمة وهندوسية. واشتملت حركة المقاومة على مقاطعة للبضائع البريطانية، تحت شعار "**Swadeshi**" ويعني "امتلك البلاد"، وإضرابات عن العمل، وتظاهرات، وصدامات مع القوات التي قادها ضباط بريطانيون. ووحدت الحركة بين منظمة كانت، فيما سبق، معتدلة وتعتمد على الطبقات الوسطى المهنية الناطقة بالإنجليزية، وهي المؤتمر الوطني الهندي، وبين شخصيات مثل **بي جي تيـلاك B G Tilak** الذي جمع إلى الاستعداد للسكوت على أساليب "الإرهاب" تشجيـع الطبقات العليا من الهندوس على معاداة المسلمين، باعتبار أن الهندوسية هي "التراث الأصيل" للهند. لكنّ أقسامـا واسعة من الطبقات الهندية المائـزة بقيت مستمسكة بالصلة مع بريطانيا. وعندما نشبت الحرب العالمية، شجع كل من تيلاك ومهاتما غانـدي (الذي عـاد إلى الهند من جنوب إفريقيا في **1915**) المجهود الحربـي البريطاني. ووجدت السلطات من المجندين ما يكفي لزيادة الجيش إلى مليوني رجل، وأرسلت معظمهم لدخول المذبحة الدائرة في أوروبا.

أفضى الجو العام الجديد في الصين إلى انهيار إمبراطورية المانتشو. فقدت عناصر الطبقات المتوسطة، القديمة والجديدة، ممن تعلموا في أوروبا ثقتها في الإمبراطورية التي عجزت عن تجنب ما فرضته عليها القوى الاستعمارية واليابان من "امتيازات" متزايدة الضخامة، ومعاهدات جائرة. وتبع التمرد العسكري في **1911** إعلان الجمهورية، واختيار **صن يات صن Sun Yat-sen**، العائد من المنفى لتوه، رئيسا لها. كان صن قد أنفق عشرين عاما في تشكيل منظمات سرية ملتزمة بالعمل من أجل الاستقلال الوطني والديمقراطية الليبرالية. لكن السلطة أفلتت من قبضته، ولم يمر شهر إلا وكان يسلم السلطة لواحد من قدامى الجنرالات الإمبراطوريين، وهو الجنرال الذي نصب نفسه ديكتاتورا، وحل البرلمان.

وفي مصر تعالت موجة وطنية معادية للكولونيالية البريطانية، في مطالع القرن العشرين، وسحقتها الحكومة بحظر الصحف، وبالحكم على القادة بالسجن والنفي.

الهبة الأيرلندية

إذا كانت الهند أكبر مستعمرات بريطانيا، فإن أيرلندا كانت أقدمها، وكانت معاناتها في منتصف القرن التاسع عشر تضاهي معاناة أي مستعمرة في آسيا أو إفريقيا. وفي أيرلندا نشبت أولى الهبات ضد الإمبراطوريات الكولونيالية، في اثنين الفصح في العام **1916**.

طوال أكثر من قرنين كانت معارضة الحكم البريطاني في أيرلندا تقوم على تقليدين، أحدهما وطني دستوري، كان يستهدف انتزاع الموافقة على حكم ذاتي محدود ("الحكم المحلي" **Home Rule**) من بريطانيا، عبر الفوز بمقاعد في البرلمان البريطاني. وكان الثاني حركة جمهورية، ملتزمة بالتحضير لتمرد مسلح عبر تنظيم تحت الأرض، وهو الأخوية الجمهورية الإيرلندية "الفنيانيون **Fenians**" [نسبة إلى المنظمة الأسطورية فيانا **Fianna** المؤلفة من مقاتلين شجعان – المترجم].

وحتى قيام الحرب لم يصب أي من النهجين نجاحا. وانتصرت الدولة البريطانية، بسهولة، على مختلف المؤامرات والتمردات التي قام بها الفنيانيون، وأودعت قادتهم السجون. ولم يكن الوطنيون الدستوريون أسعد حظا. ففي ثمانينيات القرن التاسع عشر حصلوا على تأييد مبدئي لمبدأ "الحكم المحلي" من الجناح الليبرالي في الطبقة الحاكمة البريطانية. لكن هذا الجناح لم يف بوعوده، حتى في **1812-1814** عندما أقر مجلس العموم البريطاني قانون الحكم المحلي. وبدلا من ذلك، فقد راح يراوغ لكسب الوقت، مع تعبير المحافظين عن رؤيتهم للحكم الذاتي باعتباره خطرا على الدستور البريطاني، ومع معارضة **الموالين Loyalists** "**البرتقاليين**" **Orange**، الذين استوردوا السلاح من ألمانيا، علنا، ومع إعراب كبار الضباط في الجيش، إبان "**تمرد كوراج**" **Curragh Mutiny** عن أنهم لن يُفعّلوا قانون "الحكم المحلي". ورغم ذلك، فعندما اندلعت الحرب في **1914** سارع الوطنيون الدستوريون لمساندة المجهود الحربي البريطاني، وأقنعوا ألوفا من شباب أيرلندا بالتطوع في الجيش البريطاني.

ثم استولى بعض المتمردين المسلحين في يوم عيد الفصح، في العام **1916**، على البنايات الحكومية في وسط دبلن، كان أهمها مكتب البريد العمومي. معظم المشاركين كانوا من الجمهوريين يقودهم الشاعر والمدرس **بادرايك بيرس Padraic Pearse**، لكن انضمت إليهم أعداد محدودة من ميليشيا مسلحة هي **جيش المواطنين الأيرلندي Irish Citizen Army**. وقع هذا بعد تسعة أشهر من واقعة غلق أماكن العمل في دبلن التي نظمها **جيمس كونوللي James Connolly**، مؤسس الاشتراكية الأيرلندية والمنظم السابق لحركة عمال العالم الصناعيين في الولايات المتحدة.

ارتبكت الهبة، خالف قائد إحدى المجموعات المشاركة الأوامر المتصلة بالتعبئة، وخفض عدد المشاركين بمقدار الثلثين. وأفشلت القوات البريطانية إمرار

أسلحة ألمانية. وأهم من ذلك كله، تعامل سكان دبلن مع الهبة بلا مبالاة. ولهذا فإن ثوريا بولنديا منفيا هو كارل راديك **Karl Radek** وصف ما جرى بأنه انقلاب محبَط. وبالمقابل، وصف لينين، وكان هو أيضا لا يزال منفيا، هذه المحاولة بأنها بداية لسلسلة هبات مناهضة للحكم الكولونيالي سوف تهز القوى الأوروبية.

ويقينا، فقد كان مقدورا للحركة أن تهز الحكم البريطاني في أيرلندا، فيما بعد. وخلقت التدابير التي اتخذها البريطانيون، الذين فقدوا السيطرة على أعصابهم، لسحق الحركة – قصف وسط دبلن من بوارج في البحر، وإعدام قادة الهبة بعد أن استسلموا تحت راية بيضاء – عداء للحكم البريطاني في أيرلندا. وتعمق العداء في**1918**، عندما أعدت بريطانيا لإدخال نظام التجنيد في أيرلندا. واكتسح مرشحو الحزب الجمهوري الإيرلندي سين فين **Sinn Fein** [وتعني "نحن أنفسنا" – المترجم] الملتزمون بمقاطعة البرلمان البريطاني كافة الدوائر في الانتخابات العامة، نهاية **1918**، مع خسارة الاتحاديين **Unionists** لنصف المقاعد في منطقة ألستر الشمالية. واجتمع نواب سين فين ليعلنوا أنفسهم برلمانا جديدا "**دايل**" **Dail** لجمهورية إيرلندية، مع تعيين أحد قادة **1916**، وهو **إيمون دي فاليرا** **Éamon De Valera** رئيسا للجمهورية. وبالوقت ذاته، نظم المتمردون المسلحون أنفسهم كقوة لحرب العصابات، هي الجيش الجمهوري الأيرلندي، بقيادة الموظف السابق **مايكل كولينز** **Michael Collins**، وأعلنوا ولاءهم للبرلمان الأيرلندي. وعملوا معا على جعل حكم أيرلندا مستحيلا، بمقاطعة المحاكم البريطانية ومحصلي الضرائب البريطانيين، وبالعمل المسلح وتوجيه ضربات للقوات البريطانية، أينما ذهبت.

ورد البريطانيــون بكل القسوة المميزة لثلاثة قرون من تشييد النظــام الإمبراطوري، فسجنــوا القادة الإيرلنديــن المنتخبين، وأعدموا متهمين بالتمرد، واستخدموا عصابات القتلة لاغتيال الأشخاص الذين قد تكون لهم ميول جمهورية، وأطلقوا نيران أسلحة آلية على حشد من جمهور كرة القدم، وأنشأوا قوة "**الأسود**

والأسمر" Black and Tan المرتزقة، التي اقترفت أعمالا بشعة بحق المدنيين، بإحراق مركز مدينة كورك. ولم يجد كل هذا العنف بشيء، لا في الشمال الشرقي حيث طارد الكاثوليك طائفيون من البروتستانت سلحتهم القوات البريطانية، لطردهم من وظائفهم ومن مساكنهم، وانتهى بهم الأمر إلى فرض الاستسلام على الوطنيين من السكان.

وتفيد التقارير عن اجتماعات مجلس الوزراء البريطاني(١) بأن الطبقة الحاكمة لم تكن تعرف ما يتعين عليها عمله. كانت المسألة الأيرلندية مصدر حرج دولي، لأنها كانت مسألة اهتم بها السياسيون الأمريكيون الذي أرادوا إسقاط الإمبراطورية البريطانية. وسببت هذه المسألة مشاكل سياسية هائلة في بريطانيا، إذ إن شريحة واسعة من الطبقة العاملة البريطانية هي من أصل أيرلندي. بل وخلقت مشكلات في أنحاء أخرى من الإمبراطورية، عندما تمرد في الهند الجنود الإيرلنديون في كتيبة كونوت رينجرز البريطانية. وعلى رغم ذلك، بقي معظم وزراء الحكومة البريطانية يعتبرون أي تنازل لصالح الوطنية الأيرلندية خيانة للإمبراطورية، وتشجيعا على التمرد في المستعمرات الأخرى.

وأخيرا، وقع رئيس الوزراء البريطاني **لويد جورج Lloyd George** في **1921** على مخرج من الأزمة. ففي مفاوضات مع وفد إيرلندي يقوده كولينز، هدد بتطبيق سياسة الأرض المحروقة التي تقوم على قمع شامل، ما لم يوافق الإيرلنديون على إبقاء المقاطعات الشمالية الست تحت الحكم البريطاني، وعلى أن تكون لبريطانيا قواعد في موانئ معينة، مع الحفاظ على يمين الولاء للتاج البريطاني. وتحت ضغوط من أقسام في الطبقة الوسطى، كانت تخشى ما قد تسببه حرب شاملة لممتلكاتها، قبل كولينز بالحل الوسط وكسب أغلبية في البرلمان الأيرلندي. ورفض دي فاليرا ذلك الحل، كما رفضته غالبية الجيش الجمهوري الأيرلندي (**IRA**)، معتبرة أنه عمل

خياني. وانفجرت الحرب الأهلية بين المجموعتين، بعد استجابة كولينز للضغوط البريطانية، وقبل بأسلحة من بريطانيا، وطرد أعضاء الجيش الجمهوري الإيرلندي من أبنية سيطروا عليها في دبلن. وبحلول **1923**، عندما انتهى الجمهوريين إلى إسقاط السلاح، فعلت استراتيجية لويد جورج فعلها على نحو تام.

كان في أيرلندا نوع من الحكومة المستقلة، لكنها كانت تحكم منطقة شديدة الفقر، معزولة عن المنطقة الصناعية حول بلفاست، ولم يكن لديها ما يطمئنها إلى إمكانية تجاوز الآثار المدمرة لكولونيالية بريطانية استمرت مئات السنين. وحتى عندما وصل دي فاليرا للسلطة، بالانتخاب، في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين لم تحدث تحولات جوهرية تذكر، باستثناء التخلص من المزيد من رموز السيطرة البريطانية. وطوال نصف قرن، لم يكن أمام الشباب طريق لتأمين مستقبلهم سوى بالهجرة إلى بريطانيا أو الولايات المتحدة. ولم يكن في الحياة، بالنسبة لمن لم يهاجروا سوى فقر مدقع، من جهة، وخضوع لإملاءات عقيمة من الكنيسة الكاثوليكية، من جهة أخرى.

بالوقت ذاته، بقي شمال أيرلندا، حتى **1972** خاضعا لحزب الاتحاديين الذي سيطر عليه ملاك الأراضي والصناعيون الذين استخدموا تعصب طائفة البرتقاليين ليقلبوا الغالبية البروتستانتية من العمال والمزارعين على الأقلية الكاثوليكية. وكان جيمس كونوللي، الذي أعدم بعد تمرد **1916**، قد تنبأ بأن التقسيم سوف ينشأ عنه "كرنفال رجعي على جانبي الحدود". وأثبتت الأحداث أنه كان محقا. نجحت الإمبريالية البريطانية في اللعب على مخاوف الطبقات المتملكة في أيرلندا، لتخرج من دون أن تصاب بخدش، تقريبا، من أول تحد يواجه سلطتها. وكان هذا درسا طبقته، فيما بعد، في أماكن أخرى.

الحركة الوطنية الهندية

أصيبت الحركات الوطنية في الهند، والصين، ومصر بالشلل في بداية الحرب. ولكن بنهايتها، كانت تلك الحركات قد تنامت وتكثفت. ساعدت الحرب ملايين الأسيويين والأفارقة على التواصل المباشر مع الرأسمالية الحديثة. حارب الجنود الهنود على الجبهة الغربية، وفي بلاد ما بين النهرين، وفي جاليبولي. وجرى استخدام ألوف من المصريين، والصينيين، والفيتناميين، في دور مساعد، كعمال، على مختلف الجبهات. وأعطت الحرب أيضا دفعة قوية للصناعات المحلية، بعد أن أوقفت الصراعات المسلحة تدفق الواردات، وخلقت أسواقا جديدة هائلة الاتساع لإمدادات الحرب.

جاءت الصناعات الجديدة معها ببداية التحولات في البُنى الطبقية ذاتها التي جاءت بها الثورة الصناعية في أوروبا- تحويل من كانوا فلاحين، وحرفيين، وعمالا موسميين إلى طبقة عاملة حديثة. كانت تلك الطبقة لا تزال تمثل شريحة صغيرة من مجمل السكان العاملين- أقل من نصف بالمائة في حالة الصين. لكن الحجم بحد ذاته كان ضخما. فقد كان في الهند قرابة **2.6** مليون عامل[٢]، وقرابة مليون ونصف مليون عامل في الصين[٣]، مركزين في مدن لها موقع مركزي بالنسبة للاتصال والإدارة، مثل كلكتا وبومباي، ومثل كانتون وشنجهاي-حيث كانت الطبقة العاملة، بالفعل، قرابة خمس السكان. وبحسب ما قاله **شيزنو** **Chesneaux** في تأريخه للحركة العمالية في الصين، "تمكنت الطبقة العاملة من أن يكون لها ثقل مؤثر، يفوق بكثير ما تسمح به نسبتها إلى الحجم الإجمالي للسكان"[٤].

بالنسبة للطلاب، والمثقفين، والطبقات المتوسطة المهنية أصبح هناك حليفان محتملان في أي تحد للقوى الإمبريالية وللمتعاونين معهم محليا. كان هناك الرأسماليون المحليون الذين كانوا يريدون دولة يمكن أن تدافع عن مصالحهم ضد

الأجانب، وكان هناك العمال الذين كان لديهم ما يتشكّون منه من الشرطة، والمديرين، والمشرفين الأجانب.

طرأت هذه التحولات في ذات الوقت الذي زادت فيه الحرب من أعباء جماهير السكان، الذين لم تكن الحياة بالنسبة لهم سوى نضال متصل ضد الجوع والمرض. وكانت ضرائب الحرب تعني تدفق مائة مليون إسترليني من الهند إلى خزائن الإمبراطورية – وهي التي تحصلت من رفع الضرائب وزيادة الأسعار، التي نزلت بثقلها على العمال وعلى فقراء الفلاحين، على السواء(٥).

وانفجر الغضب المكتوم في صدور الهنود، على شكل موجة هياج اجتاحت شبه القارة في الفترة **1918-1920**. وانتشر إضراب لعمال النسيج في بومباي ليشمل **125** ألف عامل. وانفجرت مشاغبات بسبب نقص الغذاء في بومباي، ومدراس، وبنغال، واحتجاجات عنيفة من المدنيين ضد مقرضي الأموال في كلكتا. وانتشرت التظاهرات الجماهيرية، والإضرابات، وأعمال الشغب في كثير من بقاع الهند(٦). وأمر جنرال يدعى داير قواته بفتح النار على ألوف المتظاهرين داخل منطقة مسيجة هي حديقة جاليانوالا **Jallianwala Bagh** في آمريستار، فقتلوا ثلاثمائة وتسعة وسبعين شخصا وجرحوا ألفا ومائتين. وفجرت المذبحة المزيد من التظاهرات، والهجمات على مقار الحكومة وخطوط التلغراف. وشهدت الشهور الستة الأولى من **1920** أكثر من مائتي إضراب، شملت مليوني ونصف مليون عامل. وأشار تقرير حكومي إلى تآخٍ غير مسبوق بين الهندوس والمسلمين...وحتى الطبقات الأدنى تناست خلافاتها. ظهرت مشاهد تآخ غير عادية. قبل الهندوس الماء من أيدي مسلمين، علنا، وحدث الشيء نفسه من المسلمين(٧).

ولكن الطابع النضالي للاحتجاجات كان ما أقلق قادة الحركة الوطنية، التي كان المهاتما غاندي الأوسع نفوذا بين شخصياتها. كان ابنا لأحد وزراء الحكومة في إمارة صغيرة، وقد أتم دراسة القانون في لندن. لكنه وجد في التزيي بزي

الفلاحين وبالتركيز على موضوعات دينية ما يساعده على تجسير الهوة الثقافية، بين الطبقات المهنية من الناطقين بالإنجليزية وبين الجماهير الضخمة من القرويين الهنود-بطريقة لم تتح للشاب جواهر لال نهرو المتعلم في هارو، والذي لم يكن يجيد الهندية. بالوقت ذاته، كانت لغاندي صلات وثيقة مع مجموعة من الرأسماليين الهنود الذين تطلعوا إلى أن يساند حزب المؤتمر قضيتهم المتمثلة بحماية الأسواق.

وكان الحفاظ على الائتلاف بين مصالح كهذه يعني خفض مستويات الهياج الذي كان يهدد بالانتقال من صراع مع الرأسماليين البريطانيين إلى صراع مع الرأسماليين الهنود. وكانت إجابة غاندي تتلخص بالتركيز على أن يبقى عدم التعاون مع السلطات، سلميا ومنضبطا. وأصبح الرجل الذي كان يدعو، قبل أربع سنوات، لمساندة البريطانيين في حربهم مع ألمانيا، داعية لعدم العنف **ahimsa**، باعتباره مسألة مبدئية. ووضعت قيود مشددة، حتى على هذا اللاتعاون- السلمي، حتى لا يتحول إلى صراع طبقي. فقد رفض غاندي الدعوة للامتناع عن دفع الضرائب العامة، لأن ذلك قد يفضي إلى امتناع الفلاحين عن دفع الإيجارات لملاك الأراضي **Zamindars**.

لكن حركة مثل تلك التي اجتاحت الهند في الفترة **1918-1921** لم يكن ممكنا ضبطها على النحو الذي أراده غاندي. ضمن مستوى العنف الذي مارسته قوات الشرطة والجيش البريطانية على الهنود، من ناحية، ومستوى المرارة المترسبة في نفوس الملايين من الفلاحين والعمال وفقراء المدن، من ناحية أخرى، أن يتحول الاحتجاج السلمي، مرة تلو الأخرى، إلى مجابهات عنيفة-كما حدث في أحمد آباد، وفيراجمان، وخيدا، وآمريستار، وبومباي. وفي فبراير **1922** حل الدور على تشاوري تشاورا، وهي قرية في بيهار. فتحت الشرطة النار بعد تضارب مع متظاهرين، رد الناس بإحراق مركز الشرطة، وبقتل **22** من الكونستابلات، وبالمقابل قُتل **172** فلاحا[٨]. ومن دون تشاور مع أي أحد في حزب المؤتمر، بادر غاندي إلى وقف الحركة الاحتجاجية بكاملها، وأعطى السلطات البريطانية فرصة

لالتقاط الأنفاس، كانت بأمسّ الحاجة إليها. اعترف لورد لويد حاكم بومباي، فيما بعد بأن حركة الاحتجاج "أثارت فينا الرعب" وأنها كانت "على مبعدة خطوة من النجاح"(٩). وهكذا صار متاحا لهم أن يضربوا الحركة بكل قوة وأن يعتقلوا غاندي. وانتكست الحركة لعشر سنوات. وأسوأ من ذلك، بدت الانقسامات تبرز، بعد أن صارت كل طائفة تقف وحدها في مواجهة السلطة البريطانية. ونشبت الصدامات الممرورة بين الهندوس والمسلمين، في مختلف أنحاء شبه القارة، في منتصف عشرينيات القرن العشرين، وفي نهايتها.

الثورة الصينية الأولى

كان مد الحركة الوطنية في الصين أشد قوة مما كان في الهند، مع قيام الطبقة العاملة الصناعية بدور أكبر في- وإصابتها، بالنهاية، بهزيمة أفدح.

في الرابع من مايو **1919** وصلت الأنباء إلى الصينيين بأن القوى، التي خرجت منتصرة في الحرب، منحت اليابانيين الامتيازات، التي كانت لألمانيا في بلادهم، على الرغم من وعد الرئيس وودرو ويلسون بـــ"حق تقرير المصير للشعوب". كانت شركات يابانية، وبريطانية، وفرنسية تسيطر بالفعل على السكة الحديد، والموانئ، والأنهار، والممرات المائية، وكانت لها الحصة العليا من عائدات الضرائب والجمارك، في حين تولت الشرطة والقوات العسكرية الأجنبية حفظ "النظام" في المناطق الرئيسية الخاضعة لـــ"الامتيازات" في المدن الكبرى. وعرف العالم كله أن لافتات في الحدائق العامة في شنغهاي تقول "لا يُسمح بدخول الكلاب والصينيين". بالوقت ذاته، وبمساندة من مختلف الدول، اقتسم بقية البلاد الجنرالات المتنافسون الذين تصرفوا باعتبارهم أمراء حرب. كان كثير من مثقفي البلاد قد وضعوا ثقتهم في الليبرالية الأمريكية للخروج بالصين من هذه الأوضاع، ثم شعروا بأنها تخلت عنهم.

أصبحت تظاهرات الطلاب هي الوسيط المحفز للتعبير عن مشاعر ملايين الناس. اتخذوا قرارات، تدفقت جماعاتهم على الاجتماعات والتظاهرات، قاطعوا البضائع اليابانية، وإضرابا قاده الطلاب في شنجهاي. واقتنع الطلاب، والمهنيون من الطبقة الوسطى، وأعداد متزايدة من العمال الصناعيين بضرورة عمل شيء ما لوقف اقتسام مناطق البلاد بين القوى الإمبريالية ووقف التدهور الاقتصادي في الريف.

كانت هناك بالفعل "حركة انبعاث" بين جماعات الطلاب والمثقفين. آمنت هذه الجماعات بأن الصين شهدت في ماضيها لحظات بدأت تزدهر فيها أفكار تضاهي أفكار عصر التنوير الغربي، وأن قوى الأرثوذكسية الكونفوشية خنقتها. وانطلقت هذه الجماعات تبني على أساس من هذه التقاليد البديلة، بتعبير هو شيه **Hu Shih**، أحد قيادييها، "لكي تغرس في وعي الناس نظرة جديدة للحياة، تحررهم من قيود التقاليد، وجعلهم يطمئنون[١٠] إلى العالم الجديد وحضارته الجديدة. اجتاح هذا الشعور عقول وقلوب مئات الألوف من الطلاب والمدرسين في مؤسسات التعليم الحديثة الطراز[١١]. وتلقوا قدرا من العون من الرأسماليين الصينيين، وتماهوا في غالب الأحوال مع حزب صن يات – صن، **الكومنتانج Kuomintang**. لكن، بالوقت ذاته كان للثورة الروسية تأثير عميق على بعض الطلاب والمثقفين، الذين بدءوا يتساءلون حول إمكانية أن تلقي الماركسية ضوءا على حقيقة ما يجري في بلادهم. تنامى تأثير الماركسية مع تنامي دور الطبقة العاملة الوليدة في الإضرابات وعمليات المقاطعة المتصاعدة الكثافة "مؤثرة على كل الأقاليم وكل فروع الصناعة"[١٢].

وأظهرت سلسلة من الإضرابات في **1922** إمكانات هذه الحركة. وانتشر الإضراب الذي أعلنه ألفان من البحارة في هونج كونج، على رغم فرض الأحكام العرفية، حتى نجح إضراب **120** ألفا في إجبار أصحاب العمل على الاستسلام. لم ينجح الإضراب الذي نظمه خمسون ألفا من عمال مناجم كماس **KMAS** التي

يمتلكها البريطانيون. هجمت قوة الشرطة الخاصة بالمنجم، ومشاة البحرية البريطانيون، وجيوش تابعة لأمراء الحرب على عمال المناجم، واعتقلت قادتهم النقابيين. وعلى رغم ذلك، فقد ساعد التأييد الذي أظهره العمال، والطلبة، والمثقفون، بل وبعض أقسام البورجوازية المضربين على الصمود وقتا كافيا للفوز بزيادة في أجورهم. وقد فضت الشرطة الصينية أول إضراب واسع نظمته العاملات- عشرون ألفا من العاملات في مصانع خيوط الحرير- وحوكمت قائدات الإضراب أمام محكمة عسكرية.

وبلغت الصدامات بين الشرطة البريطانية والعمال، في المصانع المملوكة لبريطانيين في هانكو **Hankou**، ذروتها، بأن أردى أحد أمراء الحرب خمسة وثلاثين من عمال السكة الحديد قتلى بإطلاق الرصاص عليهم، ونفذ الإعدام في سكرتير إحدى النقابات لرفضه مطالبة المضربين بالعودة للعمل. أوقفت هزائم كهذه تقدم حركة العمال، لكنها لم تخنق روح المقاومة. وبالأحرى فقد عززت الوعي الطبقي، والتصميم على خوض النضال، كلما سنحت الفرصة لذلك.

وهذا ما حدث في السنوات **1924-1927**. أصبحت كانتون في الجنوب بؤرة نشاط المثقفين الوطنيين. أنشأ صن يات – صن حكومة دستورية هناك، لكن سلطتها كانت مهتزة، وكان يبحث عن مساندة أوسع. طلب من روسيا السوفيتية المساعدة في إعادة تنظيم الكومنتانج ودعا عددا من أعضاء الحزب الشيوعي الصيني للانضمام إليه. وظهرت أهمية هذه المساندة حين حاول الرأسماليون "الكمبرادور" المتصلين بمصالح بريطانيا أن يستخدموا ضده قواتهم المسلحة الخاصة، المؤلفة من مائة ألف من المتطوعين التجار **Merchant Volunteers**. وهب لنصرته مؤتمر مندوبي العمال الذي يقوده الشيوعيون. وساعد جيش منظمات العمال التابع لهم في التغلب على المتطوعين التجار، فيما عطل عمال الطباعة الصحف الموالية لهم.

ومرة أخرى جرت البرهنة على قوة الدمج بين الاحتجاجات العمالية والمطالبات الوطنية، في وقت لاحق من العام **1925** خارج كانتون. أغلق الإضراب العام كل الفعاليات في شنجهاي بعد أن أطلقت الشرطة النار على المتظاهرين تأييدا لإضراب في مصانع القطن المملوكة لليابانيين. ولمدة شهر حاصر نقابيون يحملون العصي والهراوات للسيطرة على حركة البضائع، واحتجاز من حاولوا فض الإضراب، فيما قامت إضرابات وتظاهرات، بغرض إظهار التضامن، في أكثر من اثنتي عشرة مدينة أخرى. وأصيبت هونج كونج بالشلل لمدة **13** شهرا بسبب إضراب كبير آخر، رفع مطالب وطنية (مثل المساواة في المعاملة بين الصينيين والأوروبيين) وأخرى اقتصادية. وجرى تقديم المأكل والمسكن في كانتون لعشرات الألوف من المضربين في هونج كونج، حيث تجاوزت مسئولية لجنة الإضراب مجال النشاط المعتاد لمنظمة نقابية... فخلال صيف **1925** أصبحت اللجنة، بالحقيقة، أشبه بحكومة عمالية– وبالفعل، فالاسم الذي كان يشر به إليها آنذاك...كان "الحكومة – رقم2". وكان تحت تصرف اللجنة قوة مسلحة تتألف من عدة ألوف من الرجال(١٣).

وساعد الإضراب على خلق جو بدأت القوى الوطنية في كانتون تشعر فيه بقوة تمكنهم من الزحف باتجاه الشمال ضد أمراء الحرب المسيطرين على بقية البلاد. وفي أوائل صيف **1926** بدأ الزحف المعروف باسم" الحملة على الشمال". هذه الحملة التي قادها الجنرال **تشيانج كاي تشيك Chiang Kai Shek** كان عمودها الفقري يتمثل في مجموعة من الضباط تخرجوا لتوهم في أكاديمية التدريب الروسية **هوامبوا Whampoa**. وسارع أعضاء في جيش العمال الذي نشأ كقوة أحاطت بإضراب هونج كونج بالانضمام إلى الحملة بوصفهم متطوعين.

كان الزحف باتجاه الشمال انتصارا، من الناحية العسكرية. لم تقدر جيوش أمراء الحرب، التي حافظ على تماسكها الفوز بانتصارات قصيرة المدى أحرزها

مرتزقة، على مواجهة الحماس الثوري للقوات الزاحفة. أضرب العمال في المدن التي يسيطر عليها أمراء الحرب، مع اقتراب "الحملة على الشمال". وفي هوباي وهونان، سلحت النقابات نفسها، وأصبحت حكومات "عمالية"، إلى حد تجاوز ما مضت إليه الحكومات العمالية في كانتون إبان إضراب هونج كونج[١٤]. وفي مارس1927 كانت الحملة تقترب من شنجهاي. وانفجر إضراب عام شمل ستمائة ألف عامل، وسيطرت على المدينة هبة انفجرت قبل وصول تشيانج كاي تشيك[١٥]. أصبحت السلطة على المدينة بأيدي حكومة يسيطر عليها زعماء العمال، وإن كان بين أعضائها وطنيون من البورجوازية الكبيرة. ولعدة أيام، كان الوقف يوحي بأن ما من شيء يمكن أن يوقف تقدم الوطنيين الثوريين، باتجاه القضاء على سلطة أمراء الحرب، وإنهاء سيطرة القوى الخارجية، ووضع نهاية لما تعانيه البلاد من تشرذم، وفساد، وفقر.

لكن هذه الآمال كان مقدرا لها ألا تتحقق، تماما كما جرى للآمال في أيرلندا والهند، ولأسباب مشابهة. لقد اعتدت انتصارات "الحملة على الشمال" على الأجواء الثورية التي شجع عليها تقدمها. لكن ضباط الجيش جاءوا من شريحة اجتماعية أفزعتها هذه الأجواء. جاءوا من عائلات تجارية وملاكية تتكسب من استغلال العمال، وفوق ذلك، من الأحوال التعيسة للفلاحين. وكانوا مستعدين لاستخدام حركة الفلاحين كورقة مقايضة وهم يناورون من أجل السلطة- وكانوا مستعدين للتضحية بهذه الحركة، وكأنها قطعة شطرنج. كان تشيانج كاي تشيك قد انقض، بالفعل، على حركة العمال في كانتون، باعتقال عدد من المناضلين الشيوعيين وبالتضييق على النقابات[١٦]. وها هو يستعد لتدابير أكثر جذرية في شنجهاي. سمح لقوات التمرد المنتصرة بأن تسلمه المدينة، وبعدها التقى الأثرياء من التجار والمصرفيين الصينيين، بممثلي القوى الأجنبية، وبالعصابات الإجرامية في المدينة. ورتب لقيام العصابات بغارة، قبل الفجر، على مكاتب الأجنحة اليسارية الرئيسية في الحركة النقابية. ونُزِع سلاح حراس الإضرابات واعتُقِل قادتهم. وأُطلِقت نيران

البنـــادق الآلية على المتظاهـــرين، ومات ألـــوف الناشطين في عهد من عهـــود الإرهاب. ومنظمات الطبقة العاملة، التي كانت تهيمن على المدينة، قبل أيام، جرى تدميرها(١٧).

انتصر تشيانج كاي تشيك على اليسار، ولكن ذلك لم يتحقق إلا بثمن محدد هو التخلي عن كل إمكانية لاقتلاع النفوذ الأجنبي أو سيطرة أمراء الحرب. وبعد أن تبددت الحماسة الثورية التي ميزت المسيرة من كانتون إلى شنجهاي، لم تعد أمامه طريقة لكي يجعل من نفسه السيد الاسمي للبلاد إلا بتنازلات لمن عارضوا الطموحات الوطنية الصينية. وعلى امتداد ثمانية عشر عاما تلت، اشتهرت حكومته بالفساد، وبسيطرة العصابات، وبالعجز عن التصدي للغزاة الأجانب.

وانطوت هذه الأحداث على برهان مأسوي، على أن القادة الوطنيين من الطبقة الوسطى سوف يخونون حركتهم، إن كان هذا هو الثمن الذي يتعين دفعه ليبقى العمال والفلاحون حيث هم. وكان هذا، أيضا، إشارة إلى شيء آخر- إلى التخلي عن المبادئ الثورية من جانب من كانوا يقودون روسيا في تلك اللحظة، فهم من نصحوا العمال الصينيين بأن يثقوا بتشيانج كاي تشيك، حتى بعد ما فعله بهم في كانتون.

وكانت تجربة الثورة الوطنية في مصر، من حيث الجوهر، مماثلة للتجارب التي مرت بها الصين، والهند، وإيرلندا. فقد شهدت مصر الغليان الجماهيري ذاته، في أعقاب الحرب، كما شهدت تحالفا، تجسد في واقع الأحوال، بين الوطنيين من الطبقة المتوسطة وجماعات المضربين من العمال الصناعيين في شركات الترام وشبكات السكة الحديد. وفرضت الفورانات النضالية المتكررة على البريطانيين تقديم تنازل محدود – حكومة ملكية تركت للبريطانيين القرارات الرئيسية. ورغم ذلك، أدار حزب الوفد، الذي يعد القوة الرئيسية في الحركة الوطنية، ظهره لنضالات العمال، ليُطرد من الحكم، بقوة المتواطئين مع البريطانيين، لأنه لم يمتلك القوة الكافية للدفاع عن نفسه.

ثورة المكسيك

وعلى الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، مرت المكسيك باضطرابات مشابهة، مع انفجار الحرب في أوروبا. كانت تتمتع باستقلال اسمي منذ انتهى الحكم الإسباني في **1820**. لكن عددا محدودا من المكسيكيين ذوي الأصول الإسبانية **criollos**، من عائلات المستوطنين التي تتألف منها النخبة، واصل السيطرة على الكتل الكبيرة من جماهير الهنود والمُهَجَّنين **mestizos**، وشهد العهد الممتد لثلاثة وثلاثين عاما من رئاسة **بورفيريو دياز Porfirio Diaz**، بديكتاتوريته المتصاعدة، تنامي السيطرة الأجنبية على الاقتصاد، وخاصة من الولايات المتحدة. كانت معدلات النمو، في السنوات الأولى من القرن العشرين، مرتفعة بما يكفي لأن يتحدث بعض الناس عن "معجزة"[١٨] مكسيكية، حتى مع طرد أعداد هائلة من أراضيهم المشاع التقليدية، كما عانى قسم كبير من الطبقة العاملة (قرابة الثمانمائة ألف في **1910**، من إجمالي خمسة ملايين ومائتي ألف عامل[١٩]) من تدهور ظروفهم المعيشية[٢٠]. وانتعشت أحوال الرأسماليين المكسيكيين، في تلك الفترة، باعتبارهم الشركاء الصغار، والغاضبين في بعض الحالات، للرأسمال الأجنبي. ثم ضربت المكسيكَ الأزمةُ الاقتصادية العالمية في **1907**، فتبدد حلمها بالانضمام لنادي الدول المتقدمة.

ونجح **فرانشيسكو ماديرو Francisco Madero**، وهو ابن عائلة من ملاك المزارع، ومصانع النسيج، والمناجم في الحصول على تأييد من الطبقة الوسطى لخلع الديكتاتور، وتأمين بؤرة للسخط الجماهيري. وانفجرت التمردات المسلحة، التي قادها في شمال البلاد لص المواشي السابق **فرانشيسكو فيللا Francisco Villa**، وقادها في الجنوب مزارع صغير هو **إيميليانو زاباتا Emiliano Zapata**. خرج الديكتاتور إلى المنفى، وانتُخب ماديرو رئيسا.

لكن مطالبات جيش الفلاحين بقيادة زاباتا، بتوزيع أراضي الملكيات الكبيرة، أزعجت مؤيدي ماديرو من الأثرياء – وأزعجت حكومة الولايات المتحدة – بأكثر مما أزعجتهم سلوكيات الديكتاتور المخلوع. وأعقبت ذلك سلسلة من المعارك الدموية المطولة. وتصادم جيش ماديرو مع جيوش الفلاحين الشمالية والجنوبية، قبل أن يقتل ماديرو بيد جنراله **هويرتا Huerta**، بمساندة من سفير الولايات المتحدة. وشكل اثنان من أثرياء الطبقة الوسطى، وهما **كارانزا Caranza** و**أوبريجون Obregon** جيشا دستوريا لوقف تقدم ماديرو. وألحق زاباتا وفيللا الهزيمة بهويرتا، واحتلا مكسيكو سيتي.

وتُظهر صورة فوتوغرافية شهيرة في نوفمبر **1914** زاباتا وفيللا، معا، في القصر الجمهوري. كانت تلك ذروة الثورة، لكنها كانت نهايتها، أيضا. عجز قادة جيش الفلاحين عن تأسيس سلطة وطنية. لم يكن لديهم برنامج لتوحيد العمال والفلاحين حول مشروع لتثوير البلاد، وإن كان زاباتا أوشك على الاقتراب من برنامج كهذا. جلَوْا عن العاصمة، راجعين إلى قواعدهم المحلية في الشمال والجنوب للانخراط في مقاومة غير فعالة للجنرالات الدستوريين، الذين رفضوا تنفيذ إصلاح زراعي حقيقي.

ولم تكن النتيجة ثورة مضادة فورية، كما جرى بعد ذلك بإثني عشر عاما في الصين. واصل كارنزا وأوبريجون الكلام بلغة الثورة، لمقاومة ضغوط الولايات المتحدة، ولتقديم وعود للجماهير بالاستجابة لمطالبهم. ولم يستعد الرأسماليون في المكسيك شعورهم بالأمن إلا بعد أن اغتيل زاباتا في **1919**. وحتى بعد ذلك واصل سياسيون من الطبقات الوسطى استثمار المشاعر التي أثارتها الثورة، لمصلحتهم، فحكموا البلاد وكأنها دولة الحزب الواحد عبر "الحزب الثوري المؤسسي". لكن بقيت المكسيك بلدا آمنا للرأسمالية.

واستخلص ليون تروتسكي، وهو يكتب من موسكو في **1927** الدروس من هذه التمردات التي وقعت فيما نسميه الآن العالم الثالث، منطلقا من تعليقات ماركس على ما جرى في ألمانيا بعد **1848**، ومن تحليله هو [تحليل تروتسكي - المترجم] لما جرى في روسيا بعد **1905**. وكان محللون سابقون لاحظوا النمو "غير المنتظم" للرأسمالية- للطريقة التي تأسست بها، في بعض أنحاء العالم، قبل أن تنتشر في أماكن غيرها. ونقل التركيز إلى "النمو **المشترك** وغير المنتظم"[٢١].

وجاءت طروحات تروتسكي على النحو التالي: خلق نشوء الرأسمالية نظاما دوليا يؤثر حتى على المناطق الأكثر تخلفا، من الناحية الاقتصادية. فمزق الطبقات الحاكمة التقليدية، ونسف الطبقات الوسطى التقليدية. وأفضت سيطرة الطبقات الكولونيالية الحاكمة، ورأس المال الأجنبي، ومن صناعات البلاد التي تحقق فيها التقدم، إلى شل نمو الطبقات الرأسمالية المحلية. وتطلعت الطبقة الوسطى لتحطيم هذه الأغلال لمصلحتها هي، بأن حاربت من أجل دولة وطنية كاملة الاستقلال. لكن ذلك انطوى على خطر إيقاظ طبقات تخشاها، ذلك أن نظم النقل الحديثة، وجزر الصناعة الحديثة خلقت طبقات عاملة متعلمة ونضالية، وأخرجت ملايين الناس من العزلة في قراهم. وأفضى الخوف من هذه الطبقات بـــ"الرأسمالية الوطنية" وبكثير من عناصر الطبقة المتوسطة إلى نسيان عدائهم للطبقات الحاكمة القديمة، أو للقوى الكولونيالية. فما من سبيل سوى "الثورة الدائمة" التي تكون المبادرة فيها للطبقة العاملة، التي تجر وراءها مرارات الفلاحين، لتحقيق المطالب الوطنية والديمقراطية، التي لا تقدم لها البورجوازية الوطنية سوى تأييد لفظي.

هذا ما جرى في روسيا في **1917**. لكنه لم يحدث في مكان آخر من العالم الثالث. في نهاية الحرب، كانت الإمبريالية البريطانية، وهي أقوى نظام إمبريالي في العالم، جريحة بعد ما جرى في أيرلندا، والهند، والصين، ومصر، لمواكبته

اضطرابات صناعية كبرى في بريطانيا نفسها، ومخاضا ثوريا عنيفا في كل أنحاء أوروبا. لكن بقيت لبريطانيا إمبراطورية كولونيالية استولت على ما كان لألمانيا في إفريقيا وعلى معظم الممتلكات العربية للإمبراطورية العثمانية. وجرى الحفاظ، على نحو مشابه، على الإمبرياليات الفرنسية، والبلجيكية، والهولندية، واليابانية، وكذلك على الإمبريالية الأمريكية التي ظهرت حقيقتها جلية، ما أضاف إلى قدرة الرأسمالية على إعادة ترسيخ استقرارها.

الهوامش

(١) انظر، على سبيل المثال، يوميات توم جونز، الذي عمل أمينا لمجلس الوزراء، في:

T Jones, Whitehall Diaries, vol III, Ireland 1918-25 (London, 1971).

(٢) أرقام العام 1921 المأخوذة عن الإحصائيات الرسمية، في:

R Palme Dutt, Guide to the Problem of India (London, 1942), p59.

(3) J Chesneaux, The Chinese Labor Movement 1919-27 (Stanford, 1968), p42.

(4) J Chesneaux, The Chinese Labor Movement, p47.

(٥) انظر:

B Stein, A History of India (London, 1998), p297.

(٦) هذا الوصف منقول عن:

R Palme Dutt, Guide, p112;

وتجد توصيفات مماثلة في:

B Stein, A History, p304, and M J Akbar, Nehru (London, 1989), pp116-118.

(٧) الهند في1919، طبقا لما جاء في:

R Palme Dutt, Guide, p113.

(٨) لتقارير مختلفة عن هذه الحالة، انظر:

B Stein, A History, p309, and M J Akbar, Nehru, pp152-152.

(٩) كما جاء في:

M J Akbar, Nehru, p154.

(10) Hu Shih, extract from 'The Chinese Renaissance', translated in F Shurmann and O Schell, Republican China (Harmondsworth, 1977), p55.

(١١) الأرقام الواردة في:

J Chesneaux, The Chinese Labor Movement, p11.

(12) J Chesneaux, The Chinese Labor Movement, p156.

(13) J Chesneaux, The Chinese Labor Movement, p293.

(14) J Chesneaux, The Chinese Labor Movement, p325.

(١٥) لمزيد من التفاصيل، انظر:

J Chesneaux, The Chinese Labor Movement, pp356-361; and H Isaacs, The Tragedy of the Chinese Revolution (Stanford, 1961), pp130-142.

وتمثل هذه الهبة، أيضا، خلفية رواية آندريه مالرو: "قدر الإنسان"، بمثل ما أن إضراب هونج كونج هو خلفية روايته "الفاتحون".

(١٦) لتقارير حول هذا الانقلاب، انظر:

J Chesneaux, The Chinese Labor Movement, pp311-313; and H Isaacs, Tragedy, pp89-110.

(١٧) تدور أحداث رواية آندريه مالرو على خلفية تمثلت بهذه الأحداث، وينتهي الأمر بالشخصية الرئيسية أن ترقب لحظة تقذف بها قوات تشيانج كاي تشيك إلى الفرن.

(١٨) انظر تقارير حول الفترة في:

R E Ruiz, The Great Rebellion: Mexico 1905-24 (New York, 1982), pp120-122, and A Gilly, The Mexican Revolution (London, 1983), pp28-45.

(19) R E Ruiz, The Great Rebellion, p58.

(٢٠) بحسب ما جاء في:

A Gilly, The Mexican Revolution, p37;

ولأرقام ترسم صورة مماثلة، انظر:

R E Ruiz, The Great Rebellion, pp59, 63.

(٢١) انظر:

L Trotsky, The Third International After Lenin (New York, 1957), and Permanent Revolution (London, 1962).

— ٥ —

·العشرينيات الذهبية·

"العصر الجديد"، "عصر الجاز"، "العشرينيات الذهبية"- هكذا أشادت الميديا وسياسيو التيارات الرئيسية بالولايات المتحدة في عشرينيات القرن العشرين، التي خرجت من الحرب وهي أكبر اقتصاد في العالم، مواصلة ازدهارها، فيما راحت بريطانيا وألمانيا تمزق إحداهما الأخرى، وهي تشتري كثرة من استثمارات بريطانيا وراء البحار، وتتنامى حتى يصبح إنتاجها في **1928** ضعف ما كان عليه في **1914**.

وصحب النمو ما بدا للناظر تحولات سحرية في حياة أعداد هائلة من مواطنيها. فاختراعات العقدين، الأخير من القرن التاسع عشر والأول من العشرين، لم تعد محصورة في قلة من الأغنياء، بل اتسعت استخداماتها لتصبح في متناول أعداد هائلة من الناس- المصابيح الكهربائية، الجراموفون، الراديو، السينما، المكنسة الكهربائية، الثلاجة، التليفون. كانت مصانع هنري فورد تطرح أولى السيارات من الإنتاج الكبير، موديل تي **T model**، وبعد أن كانت السيارة لعبة الرجل الغني، صارت تشاهد في شوارع الطبقات الوسطى، بل وعند بعض أقسام الطبقة العاملة. وتزايد تكرار مروق الطائرات فوق الرءوس، وقلصت مدة الرحلات العابرة للقارات من أيام إلى ساعات، للقلة المحظوظة. وبدا كما لو أن الناس جرى انتشالهم، بين ليلة وضحاها، من الظلام، والصمت، ومحدودية الحركة، إلى عالم جديد من الضوء الفوري، والصوت المتواصل، والحركة السريعة.

وكشفت عبارة: "عصر الجاز" عن مدلول التحول. كانت هناك دائما أشكال موسيقية شعبية. لكنها ارتبطت بنطاقات محلية بعينها، وبثقافات بعينها، طالما عاش معظم الناس في عزلة نسبية، بعضهم عن بعض. والأشكال الموسيقية الوحيدة التي كانت دولية أو عابرة للأقاليم كانت "الأشكال الكلاسيكية"، المخصصة لطبقات مستغلة متحركة نسبيا، وكذلك أشكال الموسيقى الدينية، أحيانا. وبدأ نمو المدينة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يغير ذلك الأمر، بما جاء به من قاعات الموسيقى والرقص، ومن نوادي الغناء، والنوتات الموسيقية المطبوعة. لكن الجراموفون والراديو خلقا حقلا ثقافيا جديدا ذا قابلية لاستيعاب شيء يعبر عن إيقاعات العالم الصناعي، وحركية حياة المدينة، وعذاب الوجود المُجزأ، في عالم محوره السوق. هنا يمكن أن تجد جذور الجاز، أو على الأقل، الجاز المخفف الذي أصبح أساس الموسيقى الشعبية الجديدة. تخلق من انصهار تعابير فردية مائزة، في شعبيات إفريقية وأوروبية، عند من كانوا عبيدا في الجنوب الأمريكي، وهم يكدحون تحت إملاءات الإنتاج السلعي. وجيء به إلى الشمال، مع موجة هائلة من الهجرة من حقول القطن والتبغ إلى مدن أقوى الرأسماليات في العالم. ومن هناك، اجتذب ملايين الناس، من كل الخلفيات الإثنية، على تباينها، ومن كل البلدان، على اختلافها، وهم يمضون إلى الأمام بقوة التراكم الرأسمالي.

حدث هذا كله عندما أصبح الركود والبطالة مجرد ذكرى، وبدأ الناس يعتبرون الازدهار أمرا مفروغا منه. وعبر الاقتصادي الأمريكي **ألفين هانسن** **Alvin H Hansen** عن الرؤية الشائعة، عندما كتب في **1927** يقول إن "أمراض الطفولة" التي انتشرت عندما كانت الرأسمالية في مرحلة الشباب "يجري تخفيف وطأتها" وأن "طبيعة الدورة التجارية تتغير"(١). وقال اقتصادي آخر هو **برنارد باروخ** **Bernard Baruch**، في حوار مع مجلة **أميركان ماجازين** **American Magazine** في يونيو **1927** "يبدو أن الاقتصاد العالمي يقف على مشارف قفزة كبرى للأمام"(٢).

وتصورت الطبقات الوسطى أيضا أن صراعات الماضي صارت ذكرى بعيدة. ففشل إضراب عمال الصلب في **1919** جعل المنظمة النقابية "الاتحاد الأمريكي للشغل" تفقد كل تصميم على توسيع عضويتها لأبعد من الدوائر الضيقة للعمال المهرة. فقد أنهت سلسلة من الإجراءات البوليسية التي أمر بها المدعي العام بالمر **Palmer**، ومن سيصبح فيما بعد رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالية، إدجار هوفر **Edgar Hoover**، إلى القضاء على المناضلين القدامى في حركة "عمال العالـــم الصناعيين" والمناضلين الجدد فـــي الحزب الشيوعي. وأصبح العمـــال الراغبون في تحسين أوضاعهم لا يجدون أمامهم سوى وضع كل ثقتهم في "الحلم الأمريكي" المتمحور حول النجاح الفردي، كما فعل **فاريل دوبز Farell Dobbs** الذي سيصبح فيما بعد زعيما لإضراب للتروتسكيين، عندما صوت لصالح الجمهوريين، وخطط لفتح دكان، وتطلع لأن يصبح قاضيا[٣]. وأعلن كبار الاقتصاديين، ورجال الأعمال، والسياسيون، مثل جون جي راسكوب **John J Rascob**، رئيس اللجنة القومية لحزب الديمقراطي ومدير جنرال موتورز أنه "يتعين أن يصبح كل واحد غنيا"، زاعمين أن ذلك قابل للتحقق لكل من يضع **15** دولارا يوميا كاستثمار في الأسهم والسندات[٤].

بل وبدا أن هناك أملا لأفقر الفقراء في الولايات المتحدة. فتدفقت حثالة المتبطلين في المجتمع الزراعي من البيض والمزارعين بالمحاصصة من السود، آبالاكيا للبحث عن عمل في ديترويت، وشيكاجو، ونيويورك. كانت تلك هي السنوات التي شهدت "نهضة هارلم"، عندما كان حتى الجيتو الشمالي يبدو مشعل أمل لأحفاد العبيد. كانت المرارة والغضب الهائلان باقيين في صدور السود. لكن جرت تَقْنِيَتُه، بالأساس، عبر حركة ماركوس جارفي **Marcus Garvey**، الذي كان يدعو لبرنامج لانفصال السود، وللرأسمالية السوداء، ولـــ"العودة إلى إفريقيا" مع

تجنب أي صراع مباشر مع النظام الأمريكي. وبالنسبة لمن لم ينظروا لأبعد من السطح، بدا أن "الحلم الأمريكي" بات مقبولا من الجميع، بدر في هذا الشكل أو ذاك، مع النمو الهائل وغير المسبوق في أعداد المتعاملين بالأسهم والسندات.

وتأخر وصول المرحلة الجديدة وعصر الجاز إلى أوروبا. فأزمة **1923** في ألمانيا – عندما بدا أن الحكم سيئول، إما للاشتراكيين أو للنازيين – تبعتها فترة قصيرة من تضخم متوحش. وعندئذ منحت القروض المقدمة من الولايات المتحدة ("خطة داوس" **Dawes Plan**) الرأسمالية قبلة الحياة. ارتفعت مستويات الإنتاج الرأسمالي لتتجاوز مستويات **1914**، وبدا أن الاستقرار السياسي تمت استعادته. وأعادت انتخابات **1928** حكومة ائتلاف ديمقراطي اجتماعي، في حين لم يحصل نازيو هتلر على أكثر من اثنين بالمائة من الأصوات، والشيوعيون على **10.6** بالمائة. في صيف **1928** كان زعيم الديمقراطيين الاجتماعيين الألمان هيرمان موللر **Hermann Müller** منتشيا بالثقة، وهو يقول: "اقتصادنا راسخ، ونظام الرفاه الاجتماعي لدينا راسخ، وسوف ترون كيف أن النازيين، والشيوعيين مثلهم، سوف تستوعبهم الأحزاب التقليدية"(٥).

كانت بريطانيا قد اجتازت، قبل عامين ونصف العام من التأزم في ألمانيا، أزمة اجتماعية كبرى. عقد وزير الخزانة البريطاني وينستون تشيرشل العزم على أن يرمز لاستعادة بريطانيا قوتها بتثبيت سعر الإسترليني، في مواجهة الدولار، عند مستواه قبل الحرب. وكانت النتيجة زيادة كُلفة الصادرات البريطانية وتصاعد البطالة في الصناعات الرئيسية. وعملت الحكومة على تفادي تزايد الكلفة بخفض عام للأجور وزيادة ساعات العمل، بدءا بعمال المناجم. ورفض اتحاد عمال المناجم ذلك، ومُنع أعضاؤه من دخول محال عملهم في مايو **1926**. ودعا زعماء نقابيون آخرون للإضراب العام تضامنا مع عمال المناجم، لكنهم أوقفوه بعد تسعة

أيام، مستسلمين في حزن، على رغم فعالية الإضراب، وتاركين أصحاب العمل ينكلون بالناشطين ويدمرون أسس التنظيم النقابي، في صناعة بعد الأخرى.

وبمجرد تجاوز أزمة الرور والإضرابات في بريطانيا، بدأت نغمة العصر الجديد تحدث أثرها على أفكار التيار الرئيسي في أوروبا. فبوسع الطبقات الوسطى الاستفادة من السلع الاستهلاكية المتنوعة الجديدة التي تتدفق من مصانع الإنتاج الكبير، وبدا أن الأمر لن يستغرق وقتا طويلا قبل أن ينتقل ذلك إلى الطبقات العاملة. وإذا كانت الولايات المتحدة قد نجحت في تلافي التأزم الاقتصادي، فبوسع أوروبا أن تفعل مثلها. وفي ألمانيا كان **فيرنر سومبات Werner Sombat** يردد ما سبق إليه **هانسن Hansen**، حين قال: "عرفت الحياة الاقتصادية في أوروبا توجها واضحا إلى أن تحدث التيارات المتعادية توازنا فيما بينها، فتتراجع ثم تختفي، بالنهاية"[٦]. وحتى لا يبقى برنستاين خارج الصورة، قال إن نبوءاته، حول انتقال الرأسمالية، سلميا، إلى الاشتراكية هي في طريقها للتحقق. وكتب: من السخف وصف جمهورية فيمار **Weimar Republic** بأنها "جمهورية رأسمالية". "لقد أسفر قيام الكارتلات والاحتكارات عن تعزيز السيطرة العمومية، وهو ما سينتهي إلى تحويلها لشركات عامة"[٧]. وحتى في بريطانيا، حيث وصل طاعون البطالة اجتياح المناطق الصناعية القديمة، احتفل مؤتمر الاتحادات النقابية بالذكرى السنوية الأولى لهزيمة عمال المناجم بالدخول في سلسلة محادثات مع أصحاب العمل الرئيسيين، وهي المحادثات المعروفة باسم محادثات موند – تيرنر. وكان الهدف أن يحل محل الصراع" تعاون... لتحسين كفاءة الصناعة ورفع مستوى حياة العمال"[٨]. وشكلت الحكومة أقلية عمالية، مستندة إلى دعم من الليبراليين في **1929**.

وتأثرت الجماعة الحاكمة في روسيا بفكرة أن الرأسمالية تحقق لها الاستقرار. وفي **1929** اعتمد الشخصان المتمتعان بسلطة متصاعدة داخل صفوف هذه الجماعة، وهما الأمين العام للحزب الشيوعي جوزيف ستالين والمُنَظِّر

نيكولاي بوخارين، على هذه الفكرة، لتبرير مذهبهما الجديد الزاعم بأنه يمكن تحقيق الاشتراكية في بلد واحد. حققت الرأسمالية لنفسها الاستقرار، بحسب زعمهما، ما جعل الثورة أمرا غير وارد[٩]. ودفع بوخارين، مستعيرا مصطلحات الديمقراطي الاجتماعي هيلفردينج، بأن الغرب دخل مرحلة "رأسمالية منظمة"، سمحت بتوسع اقتصادي سريع وقللت كثيرا احتمالات نشوب الأزمات[١٠].

ميلاد الجديد

إذا كان الرأي العام والثقافة الشعبية لدى الطبقات الوسطى، ظهرا في **1926** بمظهر يوحي بأنهما استعادا الثقة التي كانت لديهما قبل الحرب، فقد كانت هذه الاستفاقة غير راسخة. فقد رأى جيل من شباب أوروبا كيف تمرغت أوهامهم في أوحال الفلاندرز، ولم يكن من السهل نسيان ذلك. كان الجو العام أقرب إلى التشكك الذي يبرر التسامح مع الذات أكثر من كونه أملا تجدد.

ووجد ذلك انعكاسه في"الفن الراقي"– التصوير بالزيت، النحت، الموسيقى الجادة، والأدب– في تلك الفترة. وحتى قبل الحرب كان هناك تحد تمثل بتشكك الأقلية في الاعتقاد المريح بانتظام التقدم. بدا أن ميكنة العالم سلاح ذو حدين – فهي أظهرت قدرة وديناميةً لا مثيل لهما، من جهة، ومزقت أي تصور عن سيطرة الكائنات البشرية على انتظام حيواتها، من جهة ثانية. وظهرت تيارات فلسفية وثقافية وضعت أي فكرة عن التقدم موضع المساءلة، وأناطت باللاعقلانية دورا مركزيا. ولقيت هذه التوجهات تشجيعا، باعتبارها تطورات في الفيزياء النظرية (نظرية النسبية الخاصة في **1905**، ونظريتها العامة في **1915**، و"مبدأ اللايقين" عند **هايزنبرج Heisenberg**، كنسخة من فيزياء الكم، في منتصف العشرينيات) دمرت النموذج الميكانيكي للكون. وبالوقت ذاته، بدا أن شعبية التحليل النفسي تدمر الإيمان بالعقل، الذي كانت له، في وقت مضى، أهمية حتى لدى فرويد ذاته[١١].

وحاول الفنانون والكتاب التوصل إلى طريقة تمكنهم من التعامل مع العالم الجديد المحيط بهم، عبر ثورة في الأشكال الفنية والأدبية. كانت"الثورة" تستند إلى التباس متأصل- يتصل بكل من الإعجاب بميكنة العالم والنفور منها. وولد ما أصبح يدعى"الحداثة". وتميزت بالتأكيد على الشكلانية **formalism** وعلى الدقة الرياضية، وأيضا على نشاز ينشأ عن التصادم بين صور وأصوات متنافرة، وعلى تحلل الفردي والاجتماعي إلى أجزاء متشظية. وكانت الثقافة العليا، حتى انتصاف القرن التاسع عشر (يرى الناقد الماركسي الهنجاري جورج لوكاتش أن **1848** هو التاريخ الفارق)، تركز على محاولات الأبطال والبطلات من الطبقة الوسطى السيطرة على العالم المحيط بهم، حتى وإن منيت المحاولات بفشل مأسوي[١٢]. أما الثقافة العليا، بعد الحرب العالمية الأولى، فقد ركزت على اختزال الأفراد، ليصبحوا دمى صغيرة متشظية، تعبث بها قوى تفوق قدرتهم على السيطرة – كما يظهر، مثلا، في روايتي **كافكا Kafka**، "المحاكمة" و"القلعة"، وفي أوبرا "لولو" عند **بيرج Berg**، وفي قصيدة تي إس إليوت "الأرض الخراب"، وثلاثية دوس باسوس "الولايات المتحدة"، وفي المسرحيات الأولى لبيرتولت بريخت، وفي رسوم بيكاسو في مرحلة "التكعيبية التحليلية".

لكن التشظي الداخلي في الأعمال الأدبية والفنية، الذي كان، ببساطة، انعكاسا للتشظي المحيط بالكتاب والفنانين، تركهم ساخطين، فحققوا قدرا من النجاح في محاولتهم إدخال الأجزاء المتناثرة في نموذج شامل جديد، يجعل الإنسانية تستعيد مكانها وسط عالم مميكن. وأفضت صعوبة تحقيق ذلك، في واقع هو ذاته متشظ ومنزوع الإنسانية، بكثير منهم إلى خلاصات سياسية. فقد تبنى "المستقبليون" **Futurists** الإيطاليون، في العشرينيات من القرن العشرين اللاعقلانية العمياء للفاشية، في حين تبنى المستقبليون الروس محاولة الثورة الروسية إعادة صوغ العالم. وحاول معظم الحداثيين، طوال فترة لا يستهان بها من عشرينيات القرن، التهرب من الاختيار بين البديلين، عبر طلائعية واعية بذاتها،

فصلتهم عمدا عن الثقافة الشعبية، حتى وإن استعاروا بعض صـــورها. ربمـــا لـــم يشاركوا معاصريهم أوهام تلك السنوات، لكنهم لم يفعلوا الكثير لتحديها علنا. وأيـــا كان انقشاع أوهام "العشرينيات الذهبية" عن عقولهم، فقد بقيت "حـــداثتهم" مُـــسلَّمة بفرضياتها.

كان العالم قد مر بأكثر من عشر سنوات من الحرب، والثورة، والصعود الكولونيالي. لكن مع حلول **1927** كانت دوائر الطبقات الحاكمة العالمية قد أجمعت على أن الأزمة تم تجاوزها. ولم يكن هناك منشقون كثيرون عن هذا الإجماع عندما أعلن الرئيس الأمريكي كوليدج **Coolidge** في ديسمبر **1928** أن "الكونجرس الأمريكي لم ينعقد قط، من قبل، وهو يتطلع إلى مستقبل أسعد من ذلك الذي نطالعه الآن". وكانت قلة من الناس هي التي لديها أدنى شعور بالرعب القادم.

الهوامش

(١) كما ورد في:

F Sternberg, The Coming Crisis (London, 1947).

(٢) كما ورد في:

J K Galbraith, The Great Crash (London, 1992), p95.

(٣) انظر مقدمة:

F Dobbs, Teamster Rebellion (New York, 1986).

(٤) انظر مقدمة:

J K Galbraith, The Great Crash, pp77-78.

(٥) كما جاء في:

J Braunthal, In Search of the Millennium (London, 1945), p270

وانظر أيضا وصف أندريه جورين André Guerin لقادة الاتحادات النقابية، الذين اعتنقوا النموذج الأمريكي في فرنسا، في أواخر العشرينيات من القرن العشرين، في:

A Guerin, Front Populaire, Révolution Manquée, (Paris, 1997), pp79-80.

وتناقض هذه التعبيرات عن التفاؤل ما يذهب إليه إيريك هوبزبوم E Hobsbawm من أن الكل كانوا يرون، منتصف العشرينيات وحتى نهايتها، أن الأزمة لم تختف، انظر:

E Hobsbawm, The Age of Extremes (London, 1994), p91.

(٦) كما جاء في:

F Sternberg, The Coming Crisis.

(٧) انظر:

P Gay, The Dilemma of Democratic Socialism (New York, 1979).

(8) George Hicks to 1927 TUC conference, quoted in R Miliband, Parliamentary Socialism, p149.

(٩) انظر التقرير حول طروحات ستالين ويوخارين في 1925 ، في:

R B Day, The'Crisis' and the 'Crash' (London, 1981), pp80-81.

(١٠) تجد موجزا لطروحات بوخارين في 1928، في:

R B Day, The 'Crisis' and the 'Crash', pp156-159

كان ستالين قد أدى حركة بهلوانية أخرى، في ذلك الوقت، زاعما أن الانهيار الوشيك للرأسمالية كان يعني إمكانيات تتيح للشيوعيين الغربيين القيام بتمردات فورية– وهي رؤية يماثل خطلُها خطل رؤية بوخارين.

(١١) يبدو فرويد، في كتابه "الحضارة والسخط" **Civilisation and its Discontents**، الذي صدر في العشرينيات من القرن العشرين، متقبلا لفكرة أن الحضارة لا تساعد البشر على التوافق مع غرائزهم، على نحو عقلاني.

(١٢) انظر، على سبيل المثال:

G Lukács, The Historical Novel (London, 1962) and Studies in European Realism (New York, 1964).

يرى لوكاتش أن الرواية "الواقعية" قبل **1848** تستسلم، من جهة، للطبيعية الميكانيكية، وللسيكولوجيانية الذاتية، من جهة أخرى. وينتهي به هذا إلى رفض مندفع لمعظم أدب القرن العشرين. لكن يبقى ممكنا القبول برؤيته المركزية، من دون تبني خلاصاته.

- ٦ -

الكساد الكبير

انهارت آمال عصر الجاز يوم "الخميس الأسود"، **24** أكتوبر**1929**. في ذلك اليوم، انهارت سوق الأسهم الأمريكية بما يقارب الثلث. وخسر المضاربون الأغنياء، الذين ضاربوا بكل ثرواتهم، كل شيء، ونقلت الصحف أخبار **11** حالة انتحار في وول ستريت. فقدت أعداد كبيرة من الناس مدخرات العمر. كانت تلك نهاية مرحلة، بالنسبة لأولئك الذين آمنوا بمبدأ "أموال من دون مقابل".

كان الانهيار تعبيرا عن نواقص عميقة التجذر في النظام. كانت الاقتصادات الألمانية، والبريطانية، والأمريكية قد بدأت بالتراجع، عند حدوث الانهيار[1]. والآن بدأ إنتاجها يغطس، وخاصة في الولايات المتحدة، التي بدا أنها الأسرع إلى الانهيار. وبنهاية **1930** كان إنتاجها أدنى منه في الكسادات السابقة التي تلت الحرب. ادعى الرئيس الأمريكي الجديد **هربرت هوفر Herbert Hoover** أن "الازدهار على مسافة خطوة"، لكن الكساد واصل النزول للأعماق. وإذا كانت الأحوال قد ساءت في **1930**، فإنها كانت أسوأ في **1931** و**1932** مع إفلاس خمسة آلاف بنك محلي في الولايات المتحدة وبنكين رئيسيين في ألمانيا والنمسا. وتراجع الإنتاج الصناعي العالمي، بنهاية **1932**، بمقدار الثلث، والإنتاج الصناعي في الولايات المتحدة بنسبة **46** بالمائة.

لم يحدث، من قبل، أن جاء الكساد بهذا العمق، أو بقي كل هذه المدة. وبعد ثلاث سنوات من بدايته لم تكن قد ظهرت علامات تعاف. وفي الولايات المتحدة

وألمانيا كان ثلث قوة العمل، عاطلا بغير وظائف، وفي بريطانيا، ضربت البطالة خمس القوى العاملة. لم يكن العمال الصناعيون وحدهم الذين يقاسون في الولايات المتحدة وألمانيا. فقد وجد أصحاب الياقات البيضاء، الذين اعتبروا أنفسهم طبقة وسطى، أنهم ملقى بهم فوق أكوام النفايات، وأثقلت ضغوط البنوك كواهل المزارعين، في حين تراجعت أسعار محصولاتهم.

ومثل ما تحولت حرب في أوروبا إلى حرب عالمية، تحول الكساد في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية إلى كساد عالمي. دمر بلدان العالم الثالث التي جرى صوغ اقتصاداتها على نحو يكفل تأمين الأغذية والمواد الخام. فجأة، لم يعد هناك سوق لمنتجاتها. والناس الذين جرى اجتذابهم، قبل وقت قصير، إلى عالم المال صاروا لا يجدون مدخلا إليه، وإن بقوا عاجزين عن العثور على مصدر آخر للإعاشة.

ولم تضرب الأزمة الطبقات المستَغَلة وحدها. فقد نشرت الخراب في أوساط الطبقات الحاكمة أيضا، بعد أن أعلنت مؤسسات راسخة وعريقة إفلاسها. وحل الرعب بالممولين، خيفة أن يلحقوا بصفوف المفلسين، وشهد رجال الصناعة أرباحهم تتبخر مع اختفاء الأسواق. فاستداروا للدولة يطلبون منها إبعاد المنافسين الأجانب، ووقعت تخفيضات متتالية للعملات الوطنية، كمحاولة من رأسماليي كل دولة لخفض أسعار منافسيهم. وراح البلد تلو الآخر، يفرض التَّعْرِفات والحصص، ويفرض الضرائب على الواردات ويحُد منها. بل إن بريطانيا، وهي قلعة التجارة الحرة منذ **1846**، استقر خيارها على هذه الأساليب. نزلت التجارة الدولية إلى ثلث ما كانت عليه في **1928**. ولكن على الرغم من الخرافات التي روج لها بعض السياسيين والاقتصاديين من ذلك الحين، فلم تكن القيود على التجارة هي التي نشأ عنها الكساد- الذي كان قد اتخذ مسارها قبل اللجوء إليها بفترة – ولكن الكساد هو الذي نشأت عنه القيود.

مزق الكساد حيوات أولئك الذين كانوا المراقبين المعدمين لـــ"العشرينيات الذهبية". كنت تراهم يهيمون في شوارع المدن الكبرى في الغرب، بوجوه شاحبة، مرهقة، ثياب مهترئة، في طريق الذهاب، إلى مطابخ الشوربة [المقابل الغربي لموائد الرحمن، عندنا – المترجم]، أو الإياب منها. وكانوا يشاهَدون أيضا في حقول الفلاحين، في بقية أنحاء العالم، خائفين من أن يفقدوا أراضيهم، قلقين من أن أسعار محصولاتهم لن تكفي لسداد ديونهم أو ضرائبهم، ومحاولين البقاء على قيد الحياة، اعتمادا على ما زرعوه بأنفسهم. وقد تمكن أولئك الذين اعتبر الرأسماليون أنهم الأقل تقدما، وهم فلاحو زراعة الكفاف الذين كانوا ولا يزالون على هامش الاقتصاد النقدي، من النجاة بصورة أفضل. أما من اعتمدوا على بيع قوة عملهم، فلم يعد لديهم ما يركنون إليه. حتى طريق الهرب القديم، بالهجرة إلى الأمريكتين فقد سدته البطالة الجماعية.

في لندن، وشيكاغو، وبرلين، وباريس؛ في جلاسجو، ومارسيليا، وبرشلونة؛ في كلكتا، وشنجهاي، وريو، ودبلن، والقاهرة، وهافانا– في كل مكان، البؤس ذاته، في كل مكان مرارة يمكن أن تتحول أملا أو أن تنفجر يأسا جنونيا.

كانت ثلاثينيات القرن العشرين زمن الاقتتال بين الأمل واليأس في شوارع كل مدينة. كانت عشرية لفت كل من الثورة والثورة المضادة يدها على عنق الأخرى. وانتهت إلى انتصار للثورة المضادة، التي قذفت بالعالم إلى هوة حرب أخرى، صحبتها أفعال بربرية توارت معها مذابح **1914-1918** ذاتها.

روسيا: الثورة تنقلب رأسا على عقب

كانت الشيوعية طرفا واحدا استفاد من الكساد في الغرب وفي العالم الثالث. برهن الكساد على صحة ما ذهب إليه الاشتراكيون الثوريون قبل عقد ونصف عقد من الزمان، وكان الشيوعيون أنشط المحاربين ضد الآثار التي ترتبت على الكساد. قـــادوا مظاهـــرات العاطلين عن العمل، التي هاجمتهـــا الشرطة بالهـــراوات،

في نيويورك، وشيكاغو، ولندن، وبيركنهيد، وبرلين، وباريس. خاضوا نضالات دفاعية يائسة ضد خفض الأجور في المناجم في فايف، وجنوب ويلز، وفي حقول الفاكهة في كاليفورنيا، ومصانع السيارات في باريس. وقفوا أمام المحاكم في الهند البريطانية لإنشائهم اتحادات نقابية، وحاولوا إنشاء جيوش لحرب العصابات في الهند، وأنشأوا تنظيمات في مدن الصفيح في جنوب إفريقيا الخاضعة لحكم البيض، وخاطروا بحياتهم في مواجهة العنصرية في الجنوب الأمريكي.

وقد تُدْعَى ثلاثينيات القرن العشرين، أحيانا، العشرية الحمراء بسبب ما شهدته من انجذاب كثرة من المثقفين إلى الشيوعية. فبحلول العام **1933** كانت الشيوعية تجتذب إليها أناسا من أمثال **جون شتاينبك John Steinbeck**، ودوس باسوس، **وتيودور درايسر Theodore Dreiser**، **وجيمس تي فاريل James T Farrell**، **وريتشارد رايت Richard Wright**، **وداشييل هاميت Dashiell Hammett**، والروائي الاسكتلندي **لويس جراسيك جيبون Lewis Grassic Gibbon**، وكتاب إنجليز مثل **دبليو إيتش أودن W H Auden**، **وكريستوفر إيشروود Christopher Isherwood**، والروائي الفرنسي **أندريه جيد André Gide**، والكاتب المسرحي الألماني بيرتولت بريخت. وبجوار هؤلاء كثرة من شخصيات أقل شهرة، حالوا كتابة روايات "بروليتارية"، منتقلين بمسرح **"الدعاية التحريضية" agitprop** إلى الجماهير، ومعبرين عن أنفسهم في مجلات أدبية صغيرة. وكان ميل المثقفين إلى اليسار تعبيرا عن توجه أعرض كثيرا بين الناس الذين بحثوا عن بديل لبشاعات الكساد، وهو توجه تجده بين أقلية من عمال المصانع، والواقفين في طوابير إعانة البطالة في كل مكان. معظمهم لم ينضم قط لأحزاب شيوعية، لكنهم اعتبروا أن الشيوعية هي البديل، وإن لم يحملوا أنفسهم على اعتناقها.

وبالنسبة لمعظم الناس، لم يكن ممكنا، في الثلاثينيات، التمييز بين الشيوعية وبين الاتحاد السوفيتي، وكانت الشيوعية تعني إعادة أداء ثورته، في مكان آخر.

وعلى رغم ذلك، فعندما وقع انهيار وول ستريت، لم يكن تبقى شيء، تقريبا، من ثورة **1917** في روسيا.

وكما رأينا، كان لينين، قبل وفاته في **1924**، قد أشار في تعليقاته إلى تشوهات و**بقرطة** **bureaucratisation**، تقاسي منهما دولة العمال. وبلغت الاثنتان درجة مرعبة من النمو، مع انتصاف العشرينيات من القرن العشرين. فالنظام الثوري لم يتمكن من التعافي من الدمار المادي والمصاعب الجمة التي تسببت بها الحرب الأهلية إلا بتقديم تنازلات للرأسمالية الداخلية، وقد عرفت هذه التنازلات باسم "**السياسة الاقتصادية الجديدة**" **New Economic Policy** أو **NEP**. وتبع هذه التنازلات ارتفاع بطيء لمستويات معيشة جماهير السكان. لكن صحب ذلك أيضا تنامي نفوذ شرائح من السكان معادية لروح ثورة **1917** – من صغار الرأسماليين، والصغار من "رجال السياسة الاقتصادية الجديدة"، فلاحون كولاك ميسورون، يوظفون غيرهم كعمالة مأجورة. بقيت الصناعة بأيدي الدولة، لكنها خضعت لضغوط السوق، وصحب تعافي الإنتاج الصناعي ارتفاع نسبي في معدل البطالة. وفيما كان **65** من العاملين في الإدارة يصنفون كعمال، في **1922**، فقد نزلت نسبتهم إلى **36** في **1923**[٢].

وإذا كان النظام قد بقي اشتراكيا، على نحو ما، حتى وفاة لينين، فلم يكن ذلك بفضل قاعدته الاجتماعية، ولكن لأن صانعي القرار على القمة كانت ولا تزال لديهم طموحات اشتراكية. وكما كتب لينين "تتقرر السياسة البروليتارية للحزب الآن، ليس بقوة القاعدة، ولكن بقوة السلطة الهائلة وغير المنقسمة للأقسام الصغيرة لما يمكن أن يسمى "الحرس القديم" للحزب[٣]. ولكن عندما تمدد لينين على فراش موته، كان "الحرس القديم" بقوة التأثيرات التي راحت تنهش بقية الحزب. وكان آخر عمل سياسي أقدم عليه لينين هو تدوين شهادة تحض على إزاحة ستالين من منصبه كأمين عام للحزب، بسبب تعامله البيروقراطي الفج مع أعضاء الحزب

الآخرين. واختارت الجماعة المسيطرة على قيادة الحزب، المكونة من زينوفييف، وكامنييف، وبوخارين، وستالين، تجاهل هذه الشهادة وإبقائها سرا[٤].

وقد كانت الظروف التي وجدوا أنفسهم فيها تجرهم بعيدا عن مبادئ ثورة **1917**. فقد اعتمدوا على جهاز بيروقراطي لتسيير شئون البلاد، واعتمد العاملون في هذا الجهاز، بدورهم، على تقديم تنازلات للميسورين من الفلاحين، ولكتلة النظام الاقتصادي الجديد، وللشريحة الجديدة من رجال الصناعة "الحمر". كان اهتمامهم باسترضاء هذه الجماعات يفوق اهتمامهم بمصالح العمال الذين صنعوا الثورة.

ونشأت عن ذلك انشقاقات داخل الحزب، بل وداخل قيادته. وفي الفترة **1920-1921** بدأت مجموعة تدعو نفسها "المعارضة العمالية" تعلن في المؤتمرات، وفي مطبوعات الحزب (التي كانت ولا تزال متاحة لهم) وفي ربع مليون نسخة من كراسة (طبعوها في مطابع الحزب) أن العمال يخسرون مواقعهم. لكن المجموعة عجزت عن تقديم أي طروحات عملية لمعالجة الإملاق الشامل الذي حل بالبلاد. وفي **1923-1924** نشأت معارضة أوسع، برسالة مفتوحة وقع عليها **46** من قدامى البلاشفة، تنتقد بقرطة الحزب. التأمت هذه "المعارضة اليسارية" حول تروتسكي، رئيس سوفيت **1905** في بطرسبورج، ومنظم تمرد أكتوبر، ومؤسس الجيش الأحمر. ودفعت هذه المعارضة بأن الطريق الوحيد للأمام يتمثل في ثلاث مجموعات مترابطة من التدابير – التوسع في الصناعة، بحيث يزيد ثقل الطبقة العاملة، وتعزيز ديمقراطية العمال، وإنهاء التوجهات البيروقراطية داخل الحزب والدولة. هذه التدابير وحدها هي التي كان يمكن أن تحفظ على دولة العمال عافيتها، إلى حين انتشار الثورة عالميا.

وتدفق على المعارضة سيل جارف من المهَانات التي لم يعرفها الحزب من قبل. ومقابل كل مقالة تعرض وجهة نظر المعارضة في صحافة الحزب، ظهرت

عشرة مقالات صادرة عن القيادة تندد بها. وتوالت الانتقادات الساخرة تندد بـ"التروتسكية"، وجرى تنزيل تروتسكي نفسه من موقعه المهم كقائد للجيش الأحمر، إلى منصب ثانوي كوزير للعلوم والتكنولوجيا، في حين راح ستالين يراكم السلطة المتزايدة في يديه.

وتَبَيَّن مدى استفحال الطابع البيروقراطي في الحزب في **1926**، عندما اختلف ستالين وبوخارين مع زينوفييف. فالتنظيم المحلي في بتروجراد، الذي بقي حتى تلك اللحظة، مساندا له فيما يقارب الإجماع، صار يندد به، وبدرجة مماثلة من الإجماع. وهكذا تعرض زينوفييف ومؤيدوه للنوع ذاته من الهجمات، الذي سبق أن تعرض له تروتسكي و"المعارضة اليسارية".

وعند هذه النقطة عبر ستالين وبوخارين عن الاتجاه البيروقراطي المحافظ الغالب على معظم الحزب، باعتناق مبدأ جديد، تماما يدعى "الاشتراكية في بلد واحد". قبل ذلك كان كل القادة البلاشفة متفقين على أنه، وإن كان بوسع العمال أن ينشئوا دولتهم في بلد واحد، فلن يكون بوسعهم التقدم نحو الاشتراكية على ذلك الأساس. فالتغلب على موروث خمسة آلاف عام من المجتمع الطبقي لن يتيسر إلا باستخدام كل أساليب الإنتاج التي خلقتها الرأسمالية الصناعية الحديثة- وهذه الأساليب موجودة على نطاق عالمي، لا في بلد واحد، وبالتأكيد ليس في بلد متخلف مثل روسيا. وقد تعين على الثورة أن تمضي باتجاه الانتشار أو تموت.

لم يؤكد لينين على هذه النقطة في مناسبات عديدة، فحسب، بل وأصر ستالين نفسه، في كتابه "لينين واللينينية"، المنشور في **1924** على أن:

> **المهمة الرئيسية للاشتراكية – تنظيم الإنتاج الاجتماعي- لا تزال أمامنا. هل من الممكن إنجاز المهمة، هل يمكن أن يتحقق الانتصار النهائي للاشتراكية في بلد واحد من دون تضافر جهود البروليتاريا في عديد الدول المتقدمة؟ لا هذا مستحيل... فمن أجل**

انتصار نهائي للاشتراكية، من أجل تنظيم إنتاج اشتراكي، فإن جهود بلدًا واحد، وخاصة بلد فلاحيًا مثل روسيا، هي غير كافية(*).

لكن يتضح المدى الذي مضى إليه ستالين في التعويل على النظرية الماركسية وعلى الصرامة العلمية، أنه في الطبعة التالية من الكتاب حذف أداة النفي "لا" [من عبارة "لا هذا مستحيل" – المترجم] وحذف عبارة "غير كافية"!

مثل ستالين وبوخارين جماعة حاكمة تخاف كل ما من شأنه تهديد تميزها البيروقراطي، وتحاربه. وكانت سمتها الرئيسية هي القصور الذاتي والرضا عن النفس. وهذه الفكرة التي تقول إن بوسع روسيا تجاهل العالم الخارجي، والاعتماد على مواردها هي، وكما جاء في عبارة مشهورة قالها بوخارين، "تبنى الاشتراكية بسرعة الحلزون"، كانت فكرة تناسب مزاجا كهذا. ولهذا السبب، سارع كل موظف في الحزب، من المنخرطين في صفقات مع المديرين الصناعيين، ومع الفلاحين الميسورين، أو التجار طالبي الثراء السريع، إلى تأييد ستالين وبوخارين في هجومهم على من حاولوا تذكيرهم بديمقراطية العمال وبالثورة العالمية. وهذا ساعد الجماعة الحاكمة على اللجوء إلى تدابير قمعية متصاعدة ضد المعارضة، مستخدمين الشرطة لتفريق تظاهرة مؤيدة للمعارضة، نظمها عمال بتروجراد في الذكرى العاشرة لثورة أكتوبر[٦]، وإلى طرد المعارضة من الحزب، ونفيهم إلى مناطق قصية، وترحيل تروتسكي من الاتحاد السوفيتي، بالنهاية.

وعلى رغم ذلك كله، بقي الجو العام في روسيا في **1928** مختلفا عما آل إليه في الثلاثينيات – وهو أمر تتجاهله أعمال كثيرة حول معسكرات الاعتقال الجماعي في إطار نظام الكولاك الذي أنشأه ستالين. انحسر الرعب الأحمر، بعد الحرب الأهلية. ولم يكن في المعسكرات في **1928** سوى ثلاثين ألف معتقل، ولم يكونوا مجبرين على الشغل، ولم يكن النظام قد تحول إلى الشمولية بعد.

وكما كتب **مايكل رايمان Michael Reiman**، بناء على دراسة لأرشيفات ذلك العهد:

> **على الرغم من استمرار القمع، وبخاصة القمع السياسي، في الانتشار، فقد جرى التخلي، تقريبا عن تقانة القمع الجمعي الوقائي. وتأسس إطار سلمي اعتيادي يقوم على القانونية ومراعاة الإجراءات المشروعة. كانت الحياة المدنية تواصل العودة للظهور، يوميا. واستعادت مرحلة السياسات الاقتصادية الجديدة ثقافتها المائزة، بمطاعمها، ومحلات الحلوى الخاصة بها، وبأشكال الترفيه المختلفة. وتنامت أيضا حياة فنية وأيديولوجية أكثر ثراء... وعرف العمال... بالفعل، الجوانب الإيجابية في قوانين النقابات الجديدة، وحقوق العمال الجديدة، والشروط الأكثر حرية للإشراف في المصانع... سلطة ستالين كانت لا تزال محدودة، لم تكن مطلقة(٧).**

لكن البنية الكلية التي دافع عنها ستالين وبوخارين انطوت على أوجه ضعف متأصلة، برزت بمجرد إقصائهما المعارضة. وقد اعتمد استقرارها على قدرة الفلاحين على مواصلة تقديم إمدادات الحبوب الغذائية للمدن، حتى وإن نزل مستوى إنتاج السلع الصناعية عن الحد الكافي لإشباع حاجاتها، وعلى تخلي القوى الرأسمالية الغربية عن أحلام العودة بالأمور إلى ما قبل الثورة، بالقوة العسكرية. وبالحقيقة، فقد استحال استمرار أي من الشرطين. فمع تزايد ثراء أقسام من الطبقة الفلاحية، تزايد ما يطلبونه من الدولة، وبادروا إلى الفعل الذي قد يضمن لهم تحصيله. كما أن القوى الرأسمالية العالمية، التي بقيت الرغبة في اقتسام العالم هي المحرك لها، لم تتخل عن الرغبة في اقتسام السيطرة على روسيا.

وتبلورت المسألتان في منتصف 1928. بدأ الفلاحون يرفضون بيع الحبوب الغذائية للمدن، وقطعت بريطانيا، التي ظلت حتى ذلك الحين، الشريك التجاري

الرئيسي لروسيا، علاقاتها الدبلوماسية معها، وفرضت ما يشبه الحظر على التجارة معها. ووفقا لتأويلات رايمان:

> **أحدث التحول في الموقف الدولي تحولات داخلية خطيرة في الاتحاد السوفيتي. وقع تخريب شديد لسلطة قيادة الحزب... وأصبح التشوش وفقدان الاتجاه محسوسين، في الدوائر السياسية وفي قيادة الحزب... تلبستها عصبية وتوجس متزايدان[٨].**

وانقسمت الجماعة الحاكمة لنصفين. أراد بوخارين اليائس أن يبقى كما كان. لكن هذا كان يستدعي تنازل البيروقراطية عن جانب من سلطاتها المحلية لاسترضاء الفلاحين، والتخلي عن كل أمل حقيقي في مقاومة المطالب الخارجية مستقبلا. في البداية بدا ستالين مُضيَّعا لا يعرف ما يتعين عليه فعله، لكنه تَحرك بعد ذلك، باتجاه سياسة يمكن أن تؤمن للبيروقراطية فرصة تعزيز سلطتها، داخليا وخارجيا- ففرض التصنيع، الذي تعين دفع نفقاته بالاستيلاء على الحبوب الغذائية من الفلاحين بالقوة. وسياسة كهذه كانت ترضي من يسيِّرون المشروعات الصناعية. وتقول إحدى الدراسات عن تلك الفترة: "كان التوجه نحو مزيد من التوسع، مدفوعا بقوة الموظفين والمديرين – الذين أصبح كثيرون منهم أعضاء في الحزب- بقدر ما كان مدفوعا بقوة قيادة الحزب"[٩]. وهذا التوجه هو الذي أمَّن الوسيلة لإنتاج الدبابات، والبوراج الحربية، والطائرات، والأسلحة الآلية، على نفس مستوى إنتاجها في الدول الغربية، وتجنب مخاطر الهجمات الخارجية.

وقد أصر ستالين على أن:

> **إبطاء وتيرة التصنيع تعني التخلف عن الركْب، ومن يتخلف عن الركْب يُهزَم...نحن وراء الدول المتقدمة بما يتراوح بين خمسين ومائة عام. ويتعين علينا أن نسد هذه الفجوة في عشر سنوات، وإلا سحقونا[١٠].**

وقد توفر الطريق البيروقراطي إلى التصنيع الإجباري، بهدف مضاهاة القدرات العسكرية الغربية، على المنطق الخاص به. فارتفع إنتاج "السلع الاستثمارية" **investment goods** – المصانع، والآلات، والمواد الخام، التي تستخدم لإنتاج المزيد من المصانع، والآلات، والمواد الخام – على حساب السلع الاستهلاكية. وارتفع معدل الاستثمارات المخصصة لإنتاج وسائل إنتاج، من **32.8** بالمائة في **1927-1928**، إلى **53.3** بالمائة في **1932**، وإلى **68.8** بالمائة في **1950**(١١). لكن هذا كان يعني أن السلع التي احتاجها الفلاحون، مقابل قيامهم بإطعام الكتل المتنامية للعمال الصناعيين، لم يجر إنتاجها.

وكانت الطريقة الوحيدة للحصول على الغذاء هي استخدام مزيد من القوة مع الفلاحين. وطبق ستالين هذا المنطق، بالانتقال من الاستيلاء على الحبوب الغذائية إلى الاستيلاء على الأراضي. ومثّل إضفاءُ الطابع الجمعي على الأراضي– وهو بالحقيقة تجريد الدولة للفلاحين من أراضيهم – الوجة الآخر للتصنيع الجبري. وقد أسفر ذلك عن زيادة الفائض بما يسمح بإطعام الحضر، والبيع في الخارج لشراء الماكينات الأجنبية. لكنه أسفر أيضا عن تراجع في إجمالي الإنتاج الزراعي.

وتسبب إضفاء الطابع الجمعي بمصاعب جمة للفلاحين. فقد جرى التنديد بملايين الفلاحين الصغار والمتوسطين، بوصفهم كولاك، وحشرهم على شاحنات الماشية لترحيلهم. وقاسى عشرات الملايين الجوع مع مصادرة محصولاتهم من الحبوب الغذائية. وعانى الفلاحون أيضا انخفاضا في مستويات المعيشة، التي نزلت بمعدل خمسين بالمائة في ست سنوات(١٢). ولم يكن ممكنا ممارسة القمع على الكتلة الأكبر من السكان، إلا بنظام بوليسي غير مسبوق. تعين قمع كل احتجاج، بغير رحمة. وتعين إغلاق كل قناة يمكن استخدامها للتعبير عن الطبقة العاملة أو الفلاحين. وأُخضعت الاتحادات العمالية، كلية، للدولة. وتم جر أعداد هائلة من

الناس إلى معسكرات العمل، حتى تضاعف الموجودون فيها لعشرين ضعفا، في 1930، عما كان عليه في 1928.[٣] وأي قسم من البيروقراطية أظهر أيا من علامات التعاطف مع العمال أو الفلاحين، تعين عقابه عقابا شديدا- ومعهم أي من المثقفين الذين - ولو من غير قصد - أنتجوا روايات، أو قصائد، أو قطعا موسيقية، يمكن أن تكون بؤر احتجاج. واختفت المناظرات داخل الحزب، لتحل محلها إدانات طقسية لآخر صور "الزيغ". كما حل محل التجريبية الفنية التي شهدتها العشرينيات، انصياع ممل سُمّي بطريق الخطأ "الواقعية الاشتراكية". وبعد أن كانت الإعدامات نادرة، في الفترة بين الحرب الأهلية و1928، صارت أمرا معتادا. فجرى إعدام عشرين ألفا ومائتين وواحد من الأشخاص في 1930- وهو ما يزيد عن ضعف من أعدموا بعد نهاية الحرب الأهلية، في 1921. ووصل الإجمالي المرعب ذروته في 1937، ليبلغ العدد 353,074- ما يقارب أربعين ضعفا مقارنة بما كان في 1921[٤].

ولم تكن المحاكمات الصورية - التي حكمت على الناس بالإعدام أو بحياة كالموت في معسكرات العمل - مجرد ردع للآخرين. فتصوير المتهمين بصورة "تروتسكيين عملاء للأجانب" على تحويل غضب الجماهير بعيدا عن النظام، وتوجيهه، بدلا من ذلك إلـــى "مخربين" مزعومين. وشملت ذروة الإرهـــاب في 1936-1937 الحكم بإعدام كل من تبقى من أعضاء اللجنة المركزية التي تشكلت مع لينين في 1917، باستثناء ستالين، وأليكساندرا كولوناتي Alexandra Kollonati التي صارت سفيرة ستالين في السويد، وليون تروتسكي، الذي نجا لأنه في المنفى، ليغتاله أحد عملاء ستالين في 1940.

ولعشرات السنين ظل مناصرو ستالين يزعمون أنه وريث لينين، الذي حقق ما تطلع إليه لينين في 1917. وهذا ادعاء لم يزل يكررونه، ولو لإبراز دلالات هي سلبية بأكثر مما هي إيجابية، كثير من مناصري الرأسمالية الغربية اليوم. لكن

ستالين تعمد أن يكون بلاشفة **1917** أول ضحايا إرهاب منتصف الثلاثينيات. ففي **1939**، لم يكن في الحزب الشيوعي السوفيتي سوى **14** بالمائة ممن كانوا أعضاء فيه في **1917**، وواحد من ستة ممن كانوا فيه في **1920**[٤٥]. وكما أكد ليون تروتسكي، مرارا، فمع بعد الستالينية عن أن تكون استمرارا للينينية، يفصل بين الاثنتين نهر من الدم.

وكان منطق ستالين مماثلا لمنطق أي رأسمالي يواجه منافسة من منافس أكبر- أن يطلب من عماله الإقدام على كل "تضحية" يمكن تصورها، ليصمدوا للمنافسة. وبالنسبة لستالين، كانت الطريقة لـ "اللحاق بالغرب" هي بتطبيق كافة أساليب "التراكم البدائي"المستخدمة في كل مكان آخر. فقد قامت الثورة الصناعية في بريطانيا على سَوْق الفلاحين إلى خارج أراضيهم عبر التسييجات والإخلاءات؛ وأنهى ستالين سيطرة الفلاحين على الأرض بتطبيق "جماعية" الزراعة، ما أجبر الملايين على الهجرة للمدن. وقد حققت الرأسمالية البريطانية تراكم الثروة عبر الرق في الكاريبي وفي أمريكا الشمالية؛ وحشر ستالين ملايين الناس في معسكرات العبودية، في نظام الكولاك. ونهبت بريطانيا الهند، وإيرلندا، وإفريقيا؛ وحرم ستالين الجمهوريات السوفيتية غير الروسية من حقوقها، ورحّل ملايين الناس لآلاف الأميال. اشتملت الثورة الصناعية البريطانية على حرمان العمال من حقوقهم الأساسية، وجعل الرجال، والنساء، والأطفال يعملون **14** ساعة و**16** ساعة، يوميا؛ وحذا ستالين حذوهم، فألغى استقلال النقابات، وأطلق الرصاص ليقتل المتظاهرين. والفارق الوحيد ذو المغزى هو أنه، فيما احتاجت الرأسمالية الغربية مئات الأعوام لاستكمال تراكمها البدائي، سعى ستالين إلى تحقيق ذلك لروسيا في عقدين. ولهذا كانت القسوة والبربرية مُرَكَّزَتَيْن.

لم تنجح بيروقراطية ستالين في إدراك ما فات روسيا بمجرد استنساخ رأسمالية "السوق" الصغيرة النطاق في إنجلترا إبان الثورة الصناعية. كان بوسعها

أن تنجح عسكريا لو أن صناعتها كانت بحجم الصناعات الغربية. لكن لم يكن هناك وقت يسمح بانتظار المؤسسات الصغير حتى تنمو، وهي تبتلع بعضها بعضا. كان يتعين أن تتدخل الدول لكي تصل بالإنتاج للمستوى المطلوب. كان ما تحتاجه روسيا احتكارات رأسمالية الدولة، وليس المؤسسات الخاصة الصغيرة، وتعين أن تنسق الدولة بين مجمل مكونات الاقتصاد، مخضعة إنتاج أي شيء لضرورات التراكم.

واعتبر معظم الناس أن النظام الذي نشأ عن ذلك هو نظام اشتراكي، ولا يزال كثيرون يعتبرونه كذلك. ذلك أن الستالينية كسرت العمود الفقري للرأسمالية الخاصة في روسيا، وبعد ذلك فعلت الشيء ذاته في أوروبا الشرقية والصين. لكن أساليبها كانت شديدة الشبه بأساليب اقتصاد الحرب في الغرب. خططت كما كانوا يخططون، لكي تبقى مستويات الاستهلاك الجماهيري منخفضة، في حين راحت تبني الصناعات الثقيلة وتنتج السلاح.

وانبهر الغربيون الذين شهدوا ذلك في ثلاثينيات القرن العشرين بنجاحات الاتحاد السوفيتي، وكذلك كان شعور كثير من المراقبين من العالم الثالث، وهم يرقبون التقدم الصناعي السريع للاتحاد السوفيتي في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. وبدا أنه، مهما كانت عيوب الستالينية فقد تمكنت من الإفلات من الأزمات المتكررة التي رُزِئت بها بقية بلدان العالم. وزار روسيا في منتصف الثلاثينيات الفابيّان **سيدني Sidney وبياتريس ويب Beatrive Web**، المعاديان طوال حياتهما للثورة. وبلغ بهما الانبهار أنهما وضعا كتابا بعنوان: "الاتحاد السوفيتي: حضارة جديدة؟". وفي الطبعة الثانية زاد انبهارهما، فأسقطا علامة الاستفهام.

لكن كان من المستحيل أن يهرب الاتحاد السوفيتي من العالم الذي وجد نفسه فيه، حتى في ثلاثينيات القرن العشرين. سمحت الإدارة الحكومية للصناعات بالتوسع، في وقت انكمشت فيه الصناعة في بقية بلدان العالم، لكن ذلك كان له

مقابل باهظ دفعه الشعب. بل إن الكساد العالمي كان له تأثير مباشر. موّل ستالين مشتريات الآلات من الخارج ببيع الحبوب الغذائية في أوكرانيا وكازاخستان. وعندما انهارت الأسعار في 1929 تعين عليه مضاعفة كمية المبيعات، ومات بسبب الجوع ما لا يقل عن ثلاثة ملايين فلاح استولت الدولة على ما لديهم من الحبوب الغذائية.

التخلي عن الثورة العالمية

لم تكن الستالينية مجرد استجابة للعزلة. هي أيضا كرست العزلة. أدت نظرية "الاشتراكية في بلد واحد" إلى فرض سياسات على بقية الأحزاب الشيوعية في العالم أدت إلى تضييع فرص الثورة.

وإبان مرحلة أولى من تحالف اتحاد ستالين – بوخارين أصبح البحث عن شركاء محترمين في الغرب يعني العناق الحار مع مؤتمر الاتحادات النقابية **TUC** عبر "اتفاقية نقابية أنجلو – سوفيتية"، حتى ومؤتمر الاتحادات النقابية يخون القوى المنخرطة في الإضراب العام. ولقي النقابيون البريطانيون تشجيعا على رفع الشعار"كل السلطة للمجلس العام لمؤتمر الاتحادات النقابية"، على رغم أن نظرة خاطفة على تاريخ قادة الحركة النقابية البريطانية، كافية لتبيان الكيفية التي يمكن أن يستغلوا بها سلطة كهذه.

في الأشهر ذاتها، كان البحث عن حلفاء في الشرق يعني امتداح تشيانج كاي تشيك. وحتى بعد أن هاجم العمال في كانتون، بقي ستالين وبوخارين يطلبان من الشيوعيين الصينيين أن يضعوا ثقتهم فيه[١٦].

وقع تحول في السياسات المتوقعة من الأحزاب الشيوعية الأجنبية، عندما تحولت "الاشتراكية في بلد واحد" من كونها "اشتراكية بسرعة الحلزون" إلى تصنيع

مفروض بالقوة. فوجئوا في **1928** بأنهم يجري تبليغهم بأنهم في "المرحلة الثالثة" الجديدة من التقدم الثوري. وأصبح العدو الرئيسي هو الجناح اليساري ذاته، داخل الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية والاتحادات النقابية التي كان القادة الروس يكيلون لها كل ذلك المديح، قبل أشهر قليلة. وأعلن ستالين وأتباعه أن هؤلاء الناس هم الآن "فاشيون اجتماعيون" لا يقلون خطرا عن أقصى اليمين. وأصبح إلزاما على الشيوعيين في كل مكان أن يصوبوا معظم بنادقهم إليهم، ويرفضوا التحالف معهم تحت أية ظروف، وأن يكونوا- إذا لزم الأمر- اتحادات نقابية منشقة عليهم.

والقادة الجدد الذين قبلوا بمثل هذه السياسات جرى فرضهم على الأحزاب الشيوعية الأجنبية، فوقع في كل مكان، تقريبا، طرد قادة قدامى رفضوا هذه السياسات. فما الدوافع وراء هذا التحول **360** درجة، من جانب ستالين؟ يعود جانب من مبررات ذا التحول إلى الرغبة في التغطية على ما ارتُكب من أخطاء في بريطانيا وفي الصين. فبعد حظر انتقاد تشيانج كاي تشيك على الشيوعيين الصينيين، وهو يستعد لذبحهم، في مارس **1927**، حثهم ستالين وبوخارين على محاولة الاستيلاء على السلطة في كانتون في نوفمبر. كانت موازين القوة في غير صالحهم، تماما، وكانت النتيجة حمامات دم، لكن ذلك خلق أجواء تجعل من الصعب انتقاد ستالين وبوخارين على تحفظهما البالغ. وكانت لهذا التحول وظائف أخرى أيضا. فالشعور بالحاجة إلى نضال بطولي يائس، دوليا، تناسب مع السعي اليائس لتصنيع روسيا، بغض النظر عن تأثير ذلك على حياة ملايين البشر. وساعد هذا التحول ستالين أيضا على اقتلاع كل من يمكن أن ينتقد ما يجري في روسيا من المنخرطين في الحركة الأممية. وضمن التحويل النهائي للأحزاب الشيوعية الأجنبية إلى أدوات للسياسة الخارجية الروسية.

وكانت "المرحلة الثالثة" كارثية بالنسبة للأحزاب الأجنبية. فالأزمة التي نشبت في **1929** أحدثت تحولا نحو الراديكالية، في أوساط قلة لا يستهان بها من

العمال، وخلقت تعاطفا متزايدا مع الدعاية الشيوعية حول شرور الرأسمالية. لكنها جعلت كثرة من العمال تتعلق بالأمن المتمثل في الأحزاب والنقابات الديمقراطية الاجتماعية المستقرة. وظهر الاتجاه إلى الراديكالية، عادة، بين العمال الشباب والعاطلين، حيث إن التظاهرات التي ووجهت بقمع دموي من جانب الشرطة كانت الوسيلة الفعالة الوحيدة أمام العمال العاطلين للتعبير عن غضبهم. وبالمقابل، فأولئك العمال الذين كانت لديهم وظائف كانوا، في الغالب يخشون فقدها، لدرجة تجعلهم يصغون للدعوة إلى الاعتدال الصادرة عن القادة النقابيين والبرلمانيين.

وهؤلاء العمال كانوا ممرورين أيضا. وعندما لم يكن أصحاب العمل يتركون لهم خيارا سوى الإضراب، كانوا يفعلون ذلك بأكبر قدر من التشدد. لكن مراراتهم كانت تبقى محتبسة، في العادة، لا يجري التعبير عنها إلا عندما تتاح فرصة الصدام القادر على تحقيق النتائج المرغوبة. وكان من الممكن للتشققات التي أحدثتها الأزمة في الطبقة العاملة أن تسفر، فجأة، عن إمكانيات جديدة لنضالات العمال، وهي إمكانيات انطوت عليها أيضا التحولات الاقتصادية الإيجابية، على قصر مدتها، وهي التي كانت تجعل المؤسسات توظف المزيد من العمال. وهكذا شهدت السنوات التالية على **1929** كثيرا من التحولات الفجائية لأشكال النضال المتشدد: إطاحة الثوريين الإسبان بالملكية والإحياء الهائل لحركة العمال؛ اضطرابات ثورية في كوبا؛ تصاعد هائل في اليسار الفرنسي، يفضي إلى تشكيل حكومة "جبهة شعبية" واحتلال المصانع الرئيسية؛ وميلاد الحركة النقابية الجماهيرية في الولايات المتحدة، ما انتهى إلى احتلال أكبر مصانع إنتاج السيارات في العالم، وهي مصانع جنرال موتورز.

لكن هذا لم يترافق، بشكل فوري، مع حدوث الأزمة، في أي مكان في العالم– فقد وقع فاصل زمني، امتد عامين، أو أربعة، أو ستة– ولم يسفر ذلك، في

أي مكان في العالم، عن مجرد إنهاء النفوذ القديم للاجتماعيين الديمقراطيين والاتحادات النقابية، بين ليلة وضحاها. وكان المعتاد أن تحتفظ أقسام من قادة الديمقراطيين الاجتماعيين بنفوذها أو أن يزداد ذلك النفوذ، لبعض الوقت، بتبني رطانة أكثر يسارية من ذي قبل. ومن كانوا ينددون بأولئك القادة، باعتبارهم "فاشيين اجتماعيين" كان يجري عزلهم من قبل من اتبعهم من العمال.

كان هذا هو الخطأ الذي اقترفته الأحزاب الشيوعية، طوال ست سنوات، تقريبا، تحت تأثير الستالينية. اجتذبت هذه الأحزاب من دفعت بهم الأزمة باتجاه الراديكالية. لكنها قادتهم إلى معارك لم يكن بوسعهم أن يكسبوها وهم مقطوعو الصلة بالوسط العمالي الواسع المتأثر بالديمقراطيين الاجتماعيين وبالاتحادات النقابية. بقيت أقلية صقلتها المعارك، من الحزبيين، تواصل القتال رغم الصعاب. لكن كثرة من الأعضاء، وهم الكتل الرئيسية في الغالب، انفصلت وابتعدت، بعد أن أجبرت على الاستسلام، بقوة الصعاب، والجوع، والاضطهاد الـذي لاقوه مـن أصحاب العمل. وتبرهن على ذلك أرقام عضوية الأحزاب الشيوعية. فقد تراجعت العضوية في الحزب التشيكوسلوفاكي من **91.000** في **1928** إلى **35.000** في **1931**، وتراجعت العضوية في الحزب الفرنسي من **52.000** إلى **36.000**، وفي الحزب الأمريكي من **14.000**إلى **8.000**، وفي البريطاني من **5000** إلى **2.500**[١٧].

لكن الحزب تنامى في بلد واحد – في ألمانيا. فقد كانت تأثيرت الأزمة في ذلك البلد أخطر منها حتى في الولايات المتحدة، حيث إن كثرة ممن فقدوا وظائفهم بسبب الكساد، كانوا قد فقدوا مدخراتهم، بسبب التضخم، قبل سبع سنوات، في حين أضر ارتفاع معدلات الفائدة بالطبقة الوسطى، وصغار رجال الأعمال والمزارعين، بكل قسوة. ووسط شعور، اجتاح المجتمع كله، بأن التأزم الاقتصادي والاجتماعي يستحيل تجاوزه، ارتفعت عضوية الحزب في **1928** من **124000** إلى **206 000** في

1938، وارتفعت القوة التصويتية للشيوعيين من **3.2** ملايين في **1928** إلى **4.6** ملايين في **1930** وإلى **5.9** ملايين في نوفمبر **1932**.

لكن قسما بالغ الضخامة من أعضاء الحزب تألف من العاطلين: فحوالي **51** بالمائة من الأعضاء في برلين كانوا بلا وظائف في **1930**، مقابل **40** بالمائة يعملون في مصانع، وما لا يزيد عن **17** بالمائة من أعضاء الحزب في ألمانيا كانوا مستعدين للقيام بنشاطات حزبية في أماكن عملهم في **1931**(١٨). وفوق ذلك، كان الإقبال على عضوية الحزب مرتفعا لدرجة لا تصدق، بالغا أربعين بالمائة في برلين(١٩). وبالوقت ذاته، فعلى رغم أن الديمقراطيين الاجتماعيين كانوا يخسرون أعدادا من ناخبيهم، فقد بقيت لديهم القدرة على الفوز بـــ **7.2** مليون صوت في نوفمبر **1932** وحصلوا على **84** بالمائة من مقاعد اللجان في المصانع، مقابل **4** بالمائة فقط للشيوعيين(٢٠).

لقد عزل الشيوعيون أنفسهم عن جماهير العمال، عندما نددوا بالديمقراطيين الاجتماعيين، معتبرين إياهم فاشيين اجتماعيين، لأن جماهير العمال، على تشوشها، بقيت راغبة في أن تفعل شيئا ما بخصوص الأزمة الاقتصادية وراغبة في مقاومة نازية هتلر. فالنتائج التي ترتبت على اتباع تعليمات هتلر، لم تكن فقط ضارة بالحزب الشيوعي، بل وكارثية بالنسبة للإنسانية.

طريق هتلر إلى السلطة

سيطرت الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية، من نوع حزب العمال، على الحكم في أكبر بلدين من بلدان أوروبا في وقت انهيار وول ستريت في أكتوبر

1929. في بريطانيا اعتمد العمالي رامسي ماكدونالد على الليبراليين لتشكيل حكومة أقلية، في وقت سابق من ذلك العام، في حين ترأس الديمقراطي الاجتماعي موللر "ائتلافا واسعا" ضم إليه الأحزاب البورجوازية "المعتدلة"، في العام الذي سبق.

ولم تكن لدى أي من الحكومتين فكرة عن كيفية مواجهة الأزمة التي احتوتهما في العام 1930. فقد كان تصاعد البطالة يعني تصاعد الإنفاق على المعونات. وكان خفض الإنتاج الصناعي يعني تراجع الإيرادات الضريبية. بدأت الحكومات تقاسي من عجز في الموازنة. ووقع البلدان في اضطرابات تمويلية – طالب مصرفيون أمريكيون بسداد قروض "خطة داوس" التي أعطت دفعة للاقتصاد الألماني منتصف العشرينيات، وبدأ الممولون يقامرون، على أساس تقلبات سعر الصرف الدولي للاسترليني. وطالب رئيسا البنكين الوطنيين، وهما شاخت **Schacht** في ألمانيا (الذي عُيِّن قبل خمس سنوات كممثل للجناح الليبرالي في الطبقة الحاكمة) ومونتاجيو نورمان **Montagu Norman** في بريطانيا (من عائلة بارينج المصرفيين) أن تخفض كلفة مبالغ التأمينات التي تخرج منها إعانات البطالة. ووقعت انشقاقات في الحكومتين، بسبب هذه الضغوط. في ألمانيا عجز وزير المالية – وهو رودلف هيلفردنج الذي كان في يوم ما الماركسي النمسوي والديمقراطي الاجتماعي المستقل – عن احتمال الضغوط، وسقطت الحكومة في مطالع 1930. وفي بريطانيا عمد ماكدونالد ووزير خزانته فيليب سنودن **Philip Snowden** إلى الخروج من حزب العمال، والانضمام إلى المحافظين، ضمن حكومة وطنية.

كانت حدة الأزمة في بريطانيا أقل منها في ألمانيا والولايات المتحدة. كانت الصناعة البريطانية لا تزال متمتعة بامتيازات في دخول الأسواق الضخمة، بفضل الإمبراطورية. لكن الأسعار كانت تتراجع بأسرع من تراجع الأجور والرواتب،

وازدهرت الطبقة الوسطى، حتى عندما كان العمال المتعطلون يعانون، في المناطق الناعية القديمة في الشمال، وفي اسكتلندا وجنوب ويلز. وخفضت الحكومة الوطنية المرتبات وإعانات البطالة في القطاع العام، مثيرة بذلك شغبا بين العاطلين عن العمل، وتمردا قصيرا في البحرية، وموجة غضب بين جماعات مثل معلمي المدارس. لكن الحكومة نجحت، بسهولة، في البقاء برغم الأزمة، وأنزلت الهزيمة بحزب العمال في الانتخابات في **1931** وفي **1935** وأقنعت القسم الرئيسي في الرأسمالية البريطانية بأن هناك طريقا للخروج من الأزمة. وكان أعضاء الطبقة الحاكمة، ممن كانوا مستعدين لاعتماد النسخة البريطانية من الفاشية لدى **أوزوالد موزلي Oswald Mosley**، في **1933** و**1934** (مثل عائلة روذرمير، التي عُرف عن صحيفتها "الديلي ميل" أنها أعلنت "مرحبا بالقمصان السود") كانوا، في العموم، قد تخلوا عنها في **1936**.

اختلفت الأمور في ألمانيا، إلى حد بعيد. ارتفع معدل البطالة عن نظيره في بريطانيا بخمسين بالمائة، وسقط قسم كبير من الطبقة الوسطى في هوة الفقر الشديد. وأفضت هذه الأزمة إلى طفرة في التأييد الذي صار ينعم به حزب أدولف هتلر الوطني الاشتراكي (النازي). وارتفع عدد من يصوتون لصالحه من **810.000** إلى أكثر من ستة ملايين في **1930** ثم تضاعف عددهم ليصبحوا **37.3** بالمائة من إجمالي الأصوات، في يوليو **1932**. لكن النازيين لم يكونوا مجرد حزب انتخابي، لم يكونوا كذلك بالأساس. ففي صلب تنظيمهم محاربو الشوارع شبه العسكريين– قوات العاصفة **SA**– الذين بلغ عددهم في **1930** مائة ألف رجل، ثم صار أربعمائة ألف في منتصف **1932**. هؤلاء البلطجيون المسلحون كانوا ناذرين أنفسهم للقتال ضد من اعتبروهم مسئولين عن الأزمة الاجتماعية – بالهجوم على رأس المال التمويلي الذي افترضوا أنه "يهودي"، من جهة، وعلى حركة الطبقة العاملة التي افترضوا أنها "ماركسية" و"يهودية"، من جهة أخرى. وقد كان وجود هذه القوة المسلحة، المستعدة

للقتال من أجل السيطرة على الشارع وإنزال الهزيمة بكل المنظمات الأخرى، هي ما ميز النازية والفاشية عن بقية الأحزاب البورجوازية الراسخة.

وأول تنظيم ناجح من هذا النوع كان ذلك الذي أسسه موسوليني في إيطاليا بعد **1920**. وقد ربطت بين أعضائه أيديولوجية وطنية بأكثر مما كانت معادية لليهود (وكان بعض قادة الفاشية، مثل عمدة روما في العشرينيات، من اليهود، ولم ينتشر العداء للسامية بين الفاشيين الإيطاليين إلا بعد تحالفهم مع هتلر في نهايات الثلاثينيات). ولكن في مسائل أخرى، شق موسوليني الطريق الذي تعين على هتلر أن يتبعها.

برز حزب هتلر، في البداية في عام الأزمة، في **1923**، مع الاحتلال الفرنسي للرور ومع التضخم الكبير. كان مركزا لتنظيمات إرهابية يمينية، وجماعات مناهضة للسامية، وأعضاء سابقين في الفرايكوربس، ممن تجمعوا في مدينة ميونيخ، في بافاريا. لكن محاولتهم الاستيلاء على السلطة في المدينة في نوفمبر **1923** منيت بالفشل الذريع، وبدأت أوضاع الحزب بالتراجع مع اختفاء ظروف التأزم. وفي **1927-1928** كان حزب هتلر قوة انتخابية هامشية، إذ لم تكن تزيد عضويته عن عدة آلاف، وكانت المشاجرات بين قادته لا تنتهي. ثم منحه انفجار الأزمة الاقتصادية العالمة دفعة هائلة.

وراحت أعداد متزايدة من الناس تقبل على هتلر، متخلية عن الأحزاب البورجوازية "المعتدلة"، لأن هذه الأحزاب كانت تحكم في ظروف أزمة دفعت إلى الفقر والإفلاس، ليس فقط بالعمال ولكن أيضا بكثير من مؤيديها من الطبقة الوسطى. وفي مدينة ثالبورج الصغيرة، مثلا، قفز عدد الناخبين الذين صوتوا للنازي، في ثلاث سنوات، من **123** ناخبا إلى **4200** ناخب، على حساب الأحزاب البورجوازية الأخرى[٢١].

وكما كان الحال مع الفاشية الإيطالية، فقد كان نازيو هتلر حزبا من أحزاب الطبقة الوسطى. قسم كبير من أعضاء الحزب، قبل صعود هتلر للسلطة، كانوا من

أصحاب الأعمال (**17.3** بالمائة)، أو من ذوي الياقات البيضاء (**20.6** بالمائة)، أو من الخدمة المدنية (**6.5** بالمائة). زادت نسبة هذه الفئات إلى مجمل الأعضاء في الحزب النازي عن نسبتهم إلى مجمل السكان بما يراوح بين خمسين وثمانين بالمائة – وأن يُنْظَر إليهم جميعا باعتبارهم مائزين اجتماعيا، على نحو أكبر مما هو اليوم. كان بين العمال من انضم إلى النازيين، ولكن بمعدل يقل خمسين بالمائة عن نسبتهم إلى مجمل السكان[٢٢]. صحيح أن النازي وجد من يصوت لصالحه من الطبقة العاملة. لكن كثرة من هذه الأصوات كانت أصوات عمال زراعيين، في مناطق مثل شرق بروسيا، حيث فشلت محاولات التنظيم النقابي، بعد الحرب مباشرة، ولم يكد يوجد أي من التقاليد السياسية للطبقة العاملة؛ أو كانت أصوات العمال في البلدات الصغيرة، حيث بلغ نفوذ الطبقات الوسطى أعلى مستويات قوته؛ أو أصوات العاطلين العمل، الذين عاشوا حالة التَّذَرِّي، واجتذبتهم المنافع التي تتحقق بالانضمام للنازي، وخاصة لقوات العاصفة[٢٣]. وهذا يظهر عبثية محاولات إنكار طابع الطبقة الوسطى المميز للنازية – على نحو ما يفعل مايكل مان **Michael Mann**، مثلا، عندما يزعم أنه "لا تقوم أدلة قوية على ارتباطات بين التصويت للنازي وبين الطبقة"[٢٤].

ولكن لماذا انجذبت الطبقات الوسطى للنازي وليس لليسار؟ يعود هذا، في جانب منه، إلى التلقين المذهبي المعادي للاشتراكية، الذي تواصل لعدة عقود. فقد تربى أصحاب الأعمال وذوو الياقات البيضاء على الاعتقاد بتفوقهم على العمال اليدويين، فتزايد ميلهم إلى التعلق بما يفصلهم عن العمال، خاصة بعد أن اشتدت الأزمة. وكانت المرارات التي جاشت بها صدورهم، ضد الحكومات والمتمولين، لا يضاهيها سوى خوفهم من الطبقات الأدنى منهم مكانة. لكن ذلك لم يحل دون تقبل كثرة منهم فكرة أن نوعا من التحول نحو الاشتراكية بدا محتوما في الفترة الثورية **1918-1920**.

كان العامل الآخر في ذلك الموقف يتمثل بسلوك اليسار ذاته. لم يتعلم الديمقراطيون الاجتماعيون الألمان شيئا من تجربة من سبقهم من الإيطاليين. وبدلا

من ذلك، راحوا يكررون، وبصورة مملة، القول بأن "ألمانيا ليست إيطاليا". في **1927** أصر كاوتسكي على ذلك، زاعما أنه في بلد متقدم صناعيا، يستحي أن يتكرر النجاح غير المسبوق الذي تحقق لها في إيطاليا" حيث اجتذبت... أعدادا كبيرة من البروليتاريا الرثة المستعدة لخدمة أهداف الرأسمالية"(٢٥). وقبل أيام قليلة من وصول هتلر لمنصب المستشارية، في يناير **1930**، كان هيلفردينج يكرر هذا الكلام. وقد كان يستمسك بالدستور الألماني وهو يقول إن الديمقراطيين الاجتماعيين أجبروا النازيين على الانضواء تحت لواء "الشرعية" التي ستهزمهم- كما ظهر في رفض الرئيس هندنبيرج طلب هتلر تشكيل الحكومة في الصيف الماضي. وكان يقول "بعد المأساة الإيطالية تأتي المهزلة الألمانية... هذه علامة انهيار النازية"(٢٦).

انتهى التركيز على العمل الدستوري بالديمقراطيين الاجتماعيين الألمان إلى اتباع سياسة "تسامح" إزاء الحكومات المتعاقبة التي تولت الحكم إبان أسوأ فترات الأزمة، بعد تخليهم عن الحكم في **1930**. مارست هذه الحكومات، التي ترأسها برونتج **Brüning**، يليه فون بابن **von Papen**، وأخيرا فون شلايتشر **von Schleicher** السلطة من دون استناد إلى أغلبية برلمانية، معتمدة على سلطة المرسوم الرئاسي. وأفضت التدابير التي اتخذوها إلى تكرر الهجمات على الظروف المعيشية للعمال والطبقات الأدنى – فقد فرض قرار واحد من برونتج خفض الأجور بعشرة في المائة، لكن ذلك لم يوقف تدهور الاقتصاد وما رافقه من صعاب. وبسياسة "التسامح" التي اتبعوها، كان الديمقراطيون الاجتماعيون يقولون، بالنتيجة، أن الجوع والمشقة هما كل ما يمكنهم تقديمه. تركوا الميدان مفتوحا أمام النازيين للاستفادة من تأييد من تخلوا عن الأحزاب البورجوازية القديمة.

وبدا كما لو أن الديمقراطيين الاجتماعيين يفعلون كل ما بوسعهم لتيسير الأمور لهتلر. شيدوا نوعا من منظمة للدفاع عن النفس، **الرايخسبانر** **Reichsbanner** (راية الأمة – المترجم) المؤلفة من المناضلين وأعضاء الاتحادات

الرياضية والمنظمات الشبابية الاشتراكية. توفرت لهذه المنظمة القدرة على تعبئة مئات الألوف. لكنهم أصروا على أن ذلك كان لأغراض دفاعية فقط، ولن تستخدم إلا إذا تعدى النازيون على الدستور– لكنها لم تستخدم قط. وكانوا يسيطرون أيضا على حكومة الدولة البروسية، وعلى قوة كبيرة من الشرطة الجيدة التسليح. استخدموا الشرطة لإطلاق الرصاص على المتظاهرين الشيوعيين، في أول مايو (يوم عيد العمال) **1929** في برلين، فقتلوا **25** وحظروا التظاهرات النازية في جميع أنحاء بروسيا في **1930** و**1930**. لكن توجههم الدستوري هو ذاته ما جعلهم يتخلون عن ذلك السلاح، عندما بلغ الخطر النازي درجة مرتفعة في صيف **1932**. ففي الانتخابات الرئاسية في ذلك العام لم يتقدموا بمرشح لهم، لكنهم حضوا ناخبيهم على التصويت للرئيس المسن هندنبيرج – الذي كافأهم بالاتفاق مع فون بابن، الذي كان يتفاوض سرا مع هتلر، على إصدار مرسوم رئاسي بإسقاط حكومة الديمقراطيين الاجتماعيين في بروسيا. وبكل رقة انصاع الديمقراطيون الاجتماعيون لذلك، متخلين عما كانوا يدعون أنه أقوى الحصون بوجه النازية. وهكذا أصبحت للوحدات الهجومية في قوات الصاعقة حرية الاستعراض العلني، خالقة الانطباع بحركة دينامية كلية القدرة، يمكنها، بشكل ما، التخلص من الشروط التي جعلت الحياة بالغة الصعوبة، وطرد المعارضة من الشارع. ويصعب أن تجد ما يفوق ذلك تناقضا مع جمود حركة الديمقراطيين الاجتماعيين، في مواجهة أسوأ كساد عرفه الشعب.

ولا غرو أن تصاعد قلق الناشطين في أوساط الديمقراطيين الاجتماعيين. وكما كتب مؤرخ صعود النازية في بلدة ثالبورج، عن الديمقراطيين الاجتماعيين في أوائل **1933**:

> **... توقع الكثيرون استيلاء النازي على السلطة. خططوا للقتال، لكن لم يعد واضحا لديهم ما هو الشيء الذي سيقاتلون من أجله. من أجل جمهورية الجنرال فون شلايتشر أو فون بابن؟ من أجل**

ديمقراطية الحكم بالمرسوم الرئاسي؟ وإبان يناير 1933 الرمادي لم يعقد الديمقراطيون الاجتماعيون في ثالبورج أي اجتماع، ولم تصدر باسمهم خطابات. ماذا كان يمكنهم قوله؟(٢٧)

عجز الديمقراطيين الاجتماعيين عن الحركة ترك الميدان خاليا للنازيين. لكن لم يكن بوسع النازيين الصعود للسلطة على ظهور ناخبيهم وحدهم. فأعلى نسبة حصدوها من أصوات الناخبين بلغت **37.1** بالمائة، وفقدوا، بالفعل، مليوني صوت، في الفترة بين يوليو ونوفمبر **1932**. وحتى مع وجود هتلر في منصب المستشارية، ومع التخويف الشامل للمعارضة، لم يتجاوز ما حصدوه من الأصوات في مارس **1933**، **43.9** بالمائة. وفي أواخر **1932** كان **جوبلز Goebbels** يشكو، في مذكراته، من أن عجز النازيين عن الاستيلاء على السلطة نشر الإحباط في صفوفهم، وأدى إلى تخلي الألوف عن عضوية الحركة.

ما مكن النازيين من السلطة كان قرار الممثلين الرئيسيين للطبقة الحاكمة الألمانية بتسليمها لهم. فمنذ زمن طويل، وأقسام واسعة من المصالح التجارية الكبرى تزود النازيين بالمال، على اعتبار أنهم ثقل موازن ونافع، في مواجهة اليسار والنقابات. وتولى أحد كبار ملاك الصحف، وهو **هوجنبيرج Hugenberg** "تخفيف... وطأة الأزمات المالية... التي عانى منها هتلر، في سنواته الأولى"(٢٨). وفي **1931** أصبح رجل الصناعة الكبير في الرور **فريتز تايسن Fritz Thyssen** "من أنصار النازي المتحمسين"(٢٩)، فيما تصاعد تعاطف الرئيس السابق للبنك الوطني شاخت **Schacht** معهم(٣٠).

ولكن بقيت الأقسام الرئيسية في الرأسمالية الألمانية، حتى **1932**، مؤيدة لحزبين خاضعين، بدرجة تزيد أو تقل، لسيطرتهم — ساند كبار الصناعيين حزب الشعب الألماني (وريث الحزب الوطني الليبرالي قبل الحرب)، وساند **هوجنبيرج** وأصحاب الحيازات الزراعية الكبيرة الحزب الوطني الألماني. لم تكن لديهم ثقة

بالحزب النازي، لأن كثرة ممن ضربهم الفقر من المنتمين للطبقة الوسطى في الحزب – وبعض قادته– لم يكن يقتصر هجومهم على التنظيمات العمالية "الماركسية"، بل وكانوا يطالبون بـــ"ثورة وطنية" على المصالح التجارية الكبرى.

وعندما ضرب الكساد العالمي المصالح التجارية للرأسمالية وقلل أرباحها، بدأت وجهات النظر تتغير في أقسام واسعة من الرأسمالية. وحتى أغلبية الصناعيين ممن لم يمولوا هتلر ولم يثقوا بحركته التي تنامت بين صفوف الطبقات الوسطى التي نزل بها الفقر، من دون أن تعتمد على الصناعيين، بدأوا يشعرون بإمكانية استخدام النازيين لتحقيق أغراضهم. وكما خلصت إحدى الدراسات: "أدى تفاقم الصعاب الناشئة عن الكساد إلى اقتناع معظم قادة الطبقة العليا بضرورة التخلص من معاهدة فرساي، وبإلغاء التعويضات، وأن قوة العمال يجب القضاء عليها، حتى يتيسر التغلب على الكساد... وفي صيف **1931** تبنى كبار رجال القطاع التجاري التصور الذي يعتبر جمهورية فيمـــار "نظام العار" مطالبيـــن بـــ"ديكتاتورية وطنية"[٣١].

آمن بهذه الرؤية رجال الصناعة في الرور، وأصحاب الحيازات الزراعية الكبيرة، وهيئة الضباط في القوات المسلحة. وكانوا قريبين أيضـا، في أمور كثيرة، من السياسات التي طرحها هتلر. وزاد التقارب عندما تخلص هتلر من **أوتو شتراسر Otto Strasser**، أكبر من جهر بالترويج لمقاربة "الثورة الوطنية"، وحضر مؤتمرا مشتركا مع "الحزب الوطني"، وحزب الشعب، ورجال الصناعة، ومجموعات كبار ملاك الأراضي، في هارزبورج في سبتمبر **1931**، وبعد ذلك "خاطب قادة الصناعة في الرور" في يناير **1932**[٣٢].

وتزايد اطمئنان رجال الصناعة إلى أن هتلر لن يضر بمصالحهم، في حين اعتبر بعضهم قوات الصاعقة التابعة له أداة نافعة، لتحطيم حركة العمال. وبحلول

خريف 1932 كان معظم رجال الصناعة يؤمنون بضرورة أن يكون النازيون في الحكم إذا كان للدولة أن تتبع السياسات التي يريدونها، وأن تكون لديها القوة اللازمة لإضعاف مقاومة حركة الطبقة العاملة. لكنهم بقوا منقسمين حول مدى أهمية الحضور النازي. أرادت الأغلبية أن تبقى المناصب الرئيسية في الحكومة بأيدي من يثقون بهم من السياسيين المنتمين للأحزاب البورجوازية القديمة، من أمثال فون بابن. ولم يكن من يدفعون باتجاه استلام هتلر للسلطة سوى أقلية بين هؤلاء. وكان موقفهم يقوم على الحاجة لهتلر، ككلب حراسة يحمي ممتلكاتهم، وككل كلب حراسة يتعين السيطرة عليه بسلسلة محكمة. لكن هتلر لم يكن ليقبل بذلك، وبدأت ميول كبار رجال البيزنس تتحول بعد أن تبين أن حكومة الجنرال شلايتشر غير قادرة على تلبية احتياجاتهم. وحتى وإن لم يتحمس كثيرون من رجال الصناعة للعَرِّيف السابق، المدعي الأهمية، ولخطبه الملتهبة، فقد بدأوا يتقبلون أنه الوحيد الذي يسيطر على القوات القادرة على استعادة استقرار البورجوازية. وعقد فون بابن نفسه لقاء مع هتلر في بيت أحد رجال البنوك. وكان قد صرح للسفير البريطاني، قبل ذلك بعدة أيام بقوله" ستكون كارثة لو أن حركة هتلر انهارت أو تم سحقها، لأن النازيين هم، بالنهاية، حائط الصد الأخير بوجه الشيوعية"(٣٣).

كان كبار ملاك الأراضي، وكبار رجال البيزنيس المؤيدين لهتلر مثل شاخت وتايسن، وأقسام من القيادة العليا العسكرية يضغطون، بالفعل، على الرئيس هندنبيرج، ليحل الأزمة السياسية بتعيين هتلر مستشارا. ألقى فون بابن بثقله وبثقل الأقوياء من رجال الصناعة المعتمدين عليه، لتفعيل هذه الضغوط. بقيت أقسام من كبار رجال الصناعة تساورها الشكوك، لكنهم لم يبدوا مقاومة لهذا القرار، وبمجرد تصعيد هتلر للمنصب، صاروا مستعدين لتمويل الانتخابات التي دعى إليها لتعزيز

موقعه في البرلمان (وللتغلب على الأزمة في صفوف الحركة النازية)[٣٤]. ولم يكن هتلر لينجح في إحراز أي تقدم لو لم ينجح في تنظيم حركة جماهير الطبقة الوسطى، بقدر من التعارض مع التفضيلات المباشرة لأقسام رئيسة من كبار منظمات الأعمال في ألمانيا. لكنهم، بالنهاية، اعتبروا أن وصوله للسلطة أفضل من استمرار غياب الاستقرار السياسي- وبالتأكيد أفضل كثيرا من انهياره وانزياح المشهد السياسي في ألمانيا باتجاه اليسار.

صعد هتلر لمنصب المستشارية في الحادي والثلاثين من يناير **1933**. أرادت كثرة من أنصار الديمقراطيين الاجتماعيين أن تقاتل. ويتحدث **براونتال** **Braunthal** عن:

> **... أقوى البراهين على عزم العمال الألمان على المقاومة. وفي الأصيل والمساء، في الثلاثين من يناير، انفجرت تظاهرات عمالية جماهيرية تلقائية وعنيفة في المدن الألمانية. وفود من المصانع...من كافة أنحاء البلاد، وصلت في اليوم ذاته، إلى برلين، متوقعة أوامر الاشتباك[٣٥].**

وعلى رغم ذلك، قرر قادة الديمقراطيين الاجتماعيين الألمان أن هتلر وصل السلطة، بشكل "دستوري"، وعلى أتباعهم ألا يفعلوا شيئا! وتباهت صحيفتهم اليومية فورفارتس **Vorwärts** بأن "الديمقراطيين الاجتماعيين والجبهة الحديدية تقفان راسختين، على أرضية دستورية وقانونية، ضد الحكومة وتهديدها بالانقلاب"[٣٥أ]. وبذل الحزب غاية جهده في الحؤول ضد مقاومة "لم تنضج بعد" للنظام الجديد.

وكان بوسع الحزب الشيوعي أن يستثمر الرغبة في المقاومة بين صفوف قواعد الديمقراطيين الاجتماعيين، طوال السنوات الثلاث السابقة. لكن قادة الحزب رفضوا أن يطلبوا من قادة الديمقراطيين الاجتماعيين أن ينضموا إليهم في مقاومة

مشتركة لصعود النازي، من **1929** وحتى **1933**، إما بسبب غبائهم، أو استجابة لستالين. والأفراد الذين بدأت تساورهم الشكوك أطيح بهم من مواقع النفوذ. ووصل الأمر غاية العبث في صيف **1931**. نظم النازيون استفتاء على إسقاط حكومة الديمقراطيين الاجتماعيين في بروسيا. وبأوامر من ستالين، أعلن الشيوعيون أن ذلك الاستفتاء "استفتاء أحمر"، وأوعزوا لأعضاء الحزب بالتصويت لصالح إسقاط الحكومة! ويصعب تصور موقف أكثر حرصا على استعداء قواعد الديمقراطيين الاجتماعيين، الذين كانوا يتطلعون للشيوعيين من أجل استلهام طرق مقاومة النازية.

لا يعني هذا أن الشيوعيين تحالفوا، بأي شكل من الأشكال، مع النازية، كما يقال أحيانا. ففي أماكن مثل برلين، خاض الشيوعيون معارك شوارع، يوميا، لوقف صعود النازي[٣٦]. لكنهم كانوا يفعلون ذلك بمعزل عن تيارات عريضة كان يمكن أن تؤيدهم.

وكما تواصل جبن الديمقراطيين الاجتماعيين، تواصل جنون القادة الشيوعيين حتى بعد أن وصل هتلر للسلطة. لم يتعلموا مما جرى في إيطاليا، وتصوروا أن النازيين سيتصرفون كأي حكومة بورجوازية أخرى في السلطة. أصروا على أن الديكتاتورية النازية غير مستقرة، بالأساس، ومن المرجح أن تكون قصيرة العمر[٣٧]. وكان شعارهم "بعد هتلر: نحن". وفي موسكو تحدثت صحيفة الحزب "البرافدا" عن "النجاح المتصاعد للحزب الشيوعي الألماني"، في حين كتب، في إزفستيا، راديك المعارض الذي أصبح طوع بنان ستالين عن "هزيمة تشبه الهزيمة في مارن، ستحل بالنازي"[٣٨].

وفي تناغم مع هذا المنظور، طُلِب إلى الشيوعيين في ألمانيا أن يبقوا في وضع الهجوم، مع حملة واسعة من المنشورات والعرائض المرفوعة ضد الحكومة

الجديدة. لكن الهتلرية اختلفت عن أي حكومة بورجوازية أخرى، تحديدا، لأنها تمتعت بتأييد من كتلة جماهيرية مستعدة للهجوم الكاسح على أي من عناصر المقاومة في الطبقة العاملة، ولتصيد المناضلين، ولضمان أن يفصل أصحاب العمل الناشطين النقابيين، وللانضمام إلى الشرطة السرية لتدمير مراكز معارضة النظام. وأي فرد وقع على عريضة كان عرضة للضرب بأيدي العناصر الهجومية في قوات الصاعقة، وللاعتقال من قبل الشرطة.

وخلال أيام قليلة كانت القوات شبه العسكرية التابعة للنازيين يجري دمجها في جهاز الدولة. وعملت القوة الهجومية للصاعقة مع الشرطة في الهجوم على تجمعات الطبقة العاملة، خارج العمل. وفي السابع والعشرين من فبراير تعلل النازيون بحريق في البرلمان "الرايخستاج" لحظر نشاط الحزب الشيوعي، وحجب مطبوعاته، وجر عشرة آلاف من أعضائه إلى معسكرات الاعتقال الجماعي.

تواصل الغباء الجبان لدى الديمقراطيين الاجتماعيين إلى النهاية. اعتقدوا أن القمع الذي استهدف الشيوعيين قد لا يمسهم إلا مسا خفيفا، وطردوا من الحزب من تكلموا عن مقاومة سرية. بل ووعد قادتهم النقابيون بالتعاون مع النازيين لتحويل يوم الأول من مايو إلى "يوم العمل الوطني". وفي الثاني من مايو نقل النازيون هؤلاء القادة النقابيين أنفسهم إلى معسكرات الاعتقال، هم أيضا.

وبين صعود هتلر إلى المستشارية وبين قيام الحرب في **1939** بلغ عدد من أودعوا السجون في قضايا سياسية **225.000**، وفي بعض التقديرات أن "قرابة مليون من الألمان، قاسوا عذابات ومهانات معسكرات الاعتقال، لمدد متفاوتة"[٣٩].

ولم تكن منظمات العمال هي وحدها التي تقاسي. فبعد أن فاز هتلر بتأييد حزبي البيزنيس الكبير – الحزب الوطني، وحزب الشعب – لهجمته ضد الشيوعيين،

والديمقراطيين الاجتماعيين، والنقابات، استدار إليهما وأجبرهما على القبول بدولة الحزب الواحد. واستخدم إرهاب الدولة لإنهاء استقلال التنظيمات، على اختلاف أنواعها، وإن كانت محترمة ومنتمية للطبقة الوسطى - جماعات المحامين، اتحادات المهنيين، بل وحتى الكشافة كانوا يعانون. وإن أبدى أي منهم مقاومة عمدت الشرطة السياسية - الجستابو - إلى ترحيل بعض قيادييهم إلى معسكرات الاعتقال الجماعي. وأسكت الخوف كل الألسنة عن الجهر بمخالفة السياسات الشمولية."

لكن النظام النازي بقي متفقا، على نحو مباشر، مع البيزنيس الكبير وهيئة ضباط الجيش. بقي هذان الفريقان بمنأى عن العنف النازي، مع حرية زيادة الأرباح أو تعظيم القدرة العسكرية، في حين أُعطِي النازيون السيطرة على وسائل القمع وعلى الحياة السياسية بكاملها. وأصبح التحالف ممهورا بالدم، بعد ذلك بعام، في "ليلة السكاكين الطويلة"، عندما استخدم هتلر قوات الحماية الخاصة به SS لقتل قادة قوات الوحدات الهجومية، قوات الصاعقة، الذين أثار كلامهم عن "ثورة ثانية" مخاوف الجنرالات ورجال الصناعة. وبالمقابل، سمح الجنرالات ورجال الصناعة لهتلر أن يستولي على الرئاسة ويجمع السلطات السياسية كافة في يديه.

الهوامش

(١) انظر:

C P Kindelberger, The World in Depression (London, 1973), pp116-117, 124;

وانظر أيضا:

L Corey, The Decline of American Capitalism (London, 1938), p184.

(٢) وردت الأرقام في:

E H Carr, The Interregnum (London, 1984), p39.

(٣) كما جاء في:

M Lewin, Lenin's Last Struggle (London, 1969), p12.

(٤) وحتى تروتسكي لم يظهر تحديا فوريا للقرار.

(٥) هذه المقتطفات مأخوذة من:

J G Wright's translation of L Trotsky, The Third International After Lenin (New York, 1957), p36.

وترجمة هذا العمل إلى الإنجليزية موجودة في المكتبة البريطانية.

(٦) هناك تقارير حول هذه الاحتجاجات في:

V Serge, Memoirs of a Revolutionary, and M Reiman, The Birth of Stalinism: the USSR on the Eve of the 'Second Revolution' (London, 1987).

وأنا أيضا سمعت الراحل هاري ويكس يصف تجربته الشخصية حول هذا الموضوع، كدارس في مدرسة تدريبية تابعة للكومنتيرن في روسيا.

(7) M Reiman, The Birth of Stalinism, p2.

(8) M Reiman, The Birth of Stalinism, p12.

(9) E H Carr and R W Davies, Foundations of a Planned Economy, vol 1 (London,1969), p313.

(١٠) ورد في:

I Deutscher, Stalin (London, 1961), p328.

(١١) ذكرت الأرقام مع المصادر في:

T Cliff, Russia: A Marxist Analysis (London,1964), p33.

(١٢) ذكرت الأرقام مع المصادر في:

T Cliff, State Capitalism in Russia (London,1988), p53.

(١٣) ذكرت الأرقام مع المصادر في:

T Cliff, State Capitalism, p42.

(١٤) نُقلت هذه الأرقام عن:

R W Davies, 'Forced Labour Under Stalin: The Archive Revelations', in New Left Review 214 (November-December 1995).

(١٥) وردت الحسابات التي انتهت إلى هذه الأرقام، مع مصادرها في:

T Cliff, State Capitalism, p130.

(١٦) خطاب ستالين الذي ألقاه في موسكو في الخامس من أبريل 1927، كما ورد في:

H Isaacs, Tragedy, p162.

(١٧) وردت الأرقام مع المصدر في:

P Frank, Histoire de l'Internationale Communiste (Paris, 1979), p634.

(١٨) وردت الأرقام في:

E Rosenhaft, Beating the Fascists, the German Communists and Political Violence, 1929-33 (Cambridge, 1983), pp44-45.

(١٩) بحسب مسئول في الحزب، كما جاء في:

Beating the Fascists, p45.

(٢٠) الأرقام منقولة عن:

Rote Fahne, 2 February 1932, quoted in L Trotsky, Fascism, Stalinism and the United Front, 1930-34 (London, 1969), p39.

(21) W S Allen, The Nazi Seizure of Power: The Experience of a Single German Town,

1930-35 (Chicago, 1965), p292.

(٢٢) تجد توزيع كامل أعضاء الحزب، بحسب الطبقة والفئة العمرية في:

J Noakes and G Pridham, Nazism 1919-45, Volume 1, The Rise to Power 1919-34(Exeter, 1983), pp84-87.

(٢٣) انظر، على سبيل المثال:

M H Kele, Nazis and Workers (North Carolina, 1972), p210.

ويحاول ميهلبرجر، الذي يسعى لإنكار أن النازيين كانت لديهم قاعدة في الطبقة المتوسطة، بأن جاذبية النازية في أوساط العمال وجدت، أساسا، بين العمال المنافسين والعاطلين. انظر:

D Mühlberger, Hitler's Followers (London, 1991), pp165, 177, 205.

(24) M Mann, 'As the Twentieth Century Ages', New Left Review 214, November-December 1995, p110.

(25) K Kautsky, 'Force and Democracy', translated in D Beetham, Marxists in the Face of Fascism (Manchester, 1983), p248.

(26) R Hilferding, 'Between the Decisions', translated in D Beetham, Marxists, p261.

(27) W S Allen, The Nazi Seizure of Power, p142

(28) A Schweitzer, Big Business in the Third Reich (Bloomington, 1963), p107.

(29) J Noakes and G Pridham, Nazism, p94.

(٣٠) وفقا لما يقر به تيرنر الذي يتشكك في أن هتلر صعد إلى السلطة بمساندة من البيزنيس، كما جاء في:

H A Turner, German 656 PAGES 474 TO 486Business and the Rise of Hitler (New York, 1985), p243.

(31) A Schweitzer, Big Business, p95.

(٣٢) انظر:

A Schweitzer, Big Business, pp96-97, 100.

يزعم تيرنر أن موقف رجال الصناعة إزاء هتلر كان أكثر فتورا مما تذهب إليه التقارير الصحفية. لكنه يقر، بالفعل، بأن هتلر توجه بالخطاب إلى جمهور ذي نفوذ في أوساط البيزنيس. انظر:

H A Turner, German Business, p172.

(٣٣) كما جاء في:

F L Carsten, Britain and the Weimar Republic (London, 1984), pp270-271.

(٣٤) تيرنر نفسه لا يملك أن يُخطّئ هذا السرد لسير الأحداث. ولمصادر إضافية، انظر:

I Kershaw (ed), Why Did Weimar Fail? (London, 1990), and P D Stachura, The Nazi Machtergreifung (London, 1983).

وتجد عرضا شاملا لكل الطروحات ذات الصلة، من وجهة نظر ماركسية، في:

D Gluckstein's excellent The Nazis, Capitalism and theWorking Class (London, 1999), ch 3.

(35) J Braunthal, History of the International, vol II (London, 1966), p380.

(٣٥ أ): الطبعة المسائية لصحيفة فورفارتس، بتاريخ الثلاثين من يناير 1933، والتي نقل عنها:

E B Wheaton, The Nazi Revolution 1933-85 (New York, 1969), p223.

(٣٦) تجد تقريرا ممتازا حول ذلك في:

E Rosenhaft, Beating the Fascists.

(٣٧) انظر:

A Merson, Communist Resistance in Nazi Germany (London, 1986), p29.

(٣٨) كما جاء في:

J Braunthal, History of the International, p383.

(39) A Merson, Communist Resistance, p61.

-٧-

أمـل مشنـوق: 1934 - 1936

أحدث حجم الانتصار الذي حققته النازية في ألمانيا موجة من الصدمات في مختلف أنحاء أوروبا. فكك هذا الانتصار أقوى حركة للطبقة العاملة في العالم، في ليلة وضحاها، تقريبا. كان درسا سارعت القوى اليمينية، في أماكن أخرى، إلى تعلمه، وحاولت المنظمات العمالية استيعابه، وإن تعسر ذلك على القيادات التي أصرت على صلابة المقاربة الدستورية التي ظنوا أنها لا تُهزم، أو التي آمنت بقرب انتصار الشيوعية.

فيينا 1934

جاءت أولى التحركات المنسقة من جانب اليمين، لاستنساخ بعض أساليب هتلر، في **1934** في النمسا، وفرنسا، وإسبانيا. احتملت الطبقة الحاكمة النمسوية سيطرة الديمقراطيين الاجتماعيين على الحكومات الائتلافية، في الفترة التي تلت سقوط الإمبراطورية النمسوية، مباشرة في **1918-1919**، نظرا لوجود جيشان ثوري متواصل، في الدول المجاورة، ومجالس قوية للعمال والجنود في النمسا ذاتها، وهي أمور لم يكن ممكنا لأحد سوى الديمقراطيين الاجتماعيين أن يوقف تطلعها للسلطة. وكما كتب، بعد ذلك، أحد الديمقراطيين الاجتماعيين "كادت أحزب الطبقة الوسطى النمسوية أن تصبح عقيمة، ووقعت مهمة الدفاع عن الديمقراطية النمسوية على عاتق الديمقراطيين الاجتماعيين"[1]. وبمجرد أن هدأت الأوضاع، خرج

الديمقراطيون الاجتماعيون من الحكومة، وركزوا على استخدام سيطرتهم على مجلس مدينة فيينا لتحسين الأحوال المعيشية للعمال. كانت فيينا قلعة الحزب، كموطن لعدد من أعضائه بلغ ستمائة ألف، من ثلاثة ملايين من البالغين من سكان البلاد، ففازوا باثنين وأربعين بالمائة من الأصوات في الانتخابات العامة.

لكنّ السياسيين اليمينيين الكاثوليك سيطروا على الريف وتمتعوا بأغلبية في البرلمان. وباستلهام النجاحات التي حققها موسوليني في العشرينيات في إيطاليا، أنشأوا قوات شبه عسكرية خاصة بهم، وهي **الحرس الوطني Heimwehr**، التي تزايدت صداماتها مع قوة الدفاع التابعة للديمقراطيين الاجتماعيين، **فيلق الحماية الجمهوري Republikanischer Schutzbund**.

وارتفعت الروح المعنوية لدى الفاشيين في النمسا بعد انتصار هتلر في ألمانيا، على رغم أن ذلك قسمهم إلى فريقين- فريق يريد للنمسا أن تندمج مع ألمانيا، وآخر يريد دولة كاثوليكية متحدة مع إيطاليا. واستغل **دولفوس Dollfuss**، زعيم الفريق الثاني، الموقف في أوائل مارس **1933** ليتخلص من البرلمان وليحكم كديكتاتور بقانون الطوارئ.

وأقدم دولفوس على إجراء رمزي ضد النازيين الموالين لألمانيا، لكنه استهدف، بالأساس، الحركة العمالية:

> **جرى حل فيالق الدفاع الاشتراكية، حُرمت فيينا الخاضعة لحكم اشتراكي، من حصة معتبرة من دخلها، بغير وجه حق؛ وصدرت الأوامر للعمال الاشتراكيين بالانضمام لحزب دولفوس الجديد "الجبهة الوطنية"، وإلا فقدوا وظائفهم... وأعلن دولفوس، رسمياً، عن خطة لإلغاء نهائي للديمقراطية البرلمانية، ولإعادة بناء النمسا لتكون دولةً مسيحيةً، فيدراليةً، تقوم على قاعدة من جماعات المصالح Christian, corporate and federal state**[٢].

وكان الديمقراطيون الاجتماعيون يتباهون، بعد **1919** بأنهم أقرب لليسار من الديمقراطيين الاجتماعيين الألمان، وأكثر منهم استعدادا لمناهضة اليمين. وتباهوا أيضا بأن ذلك حد من فرص انتشار الشيوعية في الأوساط العمالية في النمسا وأضعف حركة الطبقة العمالية فيها، كما أضعفها في ألمانيا. لكن موقفهم من انقلاب دولفوس تلخص في ألا يفعلوا شيئا.

كانوا في موقف قوة. برهنت الطبقة العاملة غلى قوتها، قبل أيام قليلة فقط، عندما حقق عمال السكة الحديد انتصارا واضحا في إضراب شامل. ولكن الديمقراطيين الاجتماعيين كانوا يأملون أن يؤلف دولفوس، بكيفية ما، جبهة مناهضة للنازية بالتحالف معهم. طلبوا من عناصرهم أن يتأهبوا للعمل، على ألا يفعلوا شيئا "قبل الأوان".

وبقي الحال على هذا لأحد عشر شهرا، كان دولفوس أثناءها يواصل هجمات تدريجية وممنهجة، والديمقراطيون الاجتماعيون مستمرون في مطالبة عناصرهم بالصبر. وفي اجتماع لألف من موفدي عمال المصانع في فيينا، رفض زعيم للديمقراطيين الاجتماعيين المطالبات بالعمل الفوري، قائلا: "ما دامت أقل فرصة لتجنب بشاعات حرب أهلية باقية، فنحن ملزمون باستغلالها، بحكم الشرف والضمير"[٣]. وكما كتب الديمقراطي الاجتماعي **براونتال Braunthal**، مستعيدا ما جرى:

> **شعر العمال النمسويون بخيبة أمل وإحباط شديدين. وأصبح هذا الشعور الكئيب أشد عمقا، بسبب تكتيكات المراوغة التي اتبعتها الهيئة التنفيذية للحزب، إزاء المد المتصاعد للفاشية النمسوية[٤].**

وبقيت لدولفوس حرية المبادرة إلى تصرف حاسم ضد الاشتراكيين، في اللحظة التي يختارها. وفعل ذلك في الرابع والعشرين من فبراير **1934**، بعد أن أعلن نائبه"سوف نبدأ تنظيف النمسا. وسوف نفعل ذلك على أكمل وجه"[٥].

في الصباح الباكر، جاءت الشرطة لتفتش عن السلاح في المقر الرئيسي للاشتراكيين في لينز. قاوم العمال الموجودون، وبدأ إطلاق النار. فبعد ذلك بثلاث ساعات أضرب عمال الكهرباء في فيينا – وكانت تلك هي الإشارة المتفق عليها سلفا للإضراب العام... وعندئذ بدأ إطلاق النار في فيينا. بدأت الحرب الأهلية.

استمرت أربعة أيام. وبدا أن كل أشكال النحس الممكنة كانت تنتظر العمال. حملت السلاح قلة من العمال الاشتراكيين، معظمهم أعضاء في **فيلق الدفاع الجمهوري Schutzbund** – في حدود ما كان متاحا من السلاح... ولم يتيسر توجيه دعوة رسمية لإضراب عام، حيث لم يتنبه أحد إلى ضرورة الترتيب مع عمال الكهرباء لاستخدام المطابع الاشتراكية. تعاطفت جماهير العمال مع المحاربين من فيلق الدفاع الجمهوري، لكنهم لم يُضْرِبوا. أصابهم الإحباط، وهبطت روحهم المعنوية، فبقوا يعملون، فيما كانت المدافع والبنادق الآلية تتغلب على جماعات صغيرة من العمال الاشتراكيين، على مسافة قريبة... وفي السادس عشر من فبراير انتهى القتال. نفذ الإعدام شنقا بأحد عشر رجلا... واضطرت الحركة العمالية النمسوية للنزول تحت الأرض[٦].

وعلى الرغم من الهزيمة، فإن حقيقة أن الحركة العمالية النمسوية، بالنهاية، ردت على العنف الفاشي بالعنف، ولم تستسلم له، ببساطة، كما جرى في ألمانيا، صارت ملهمة لمناهضي الفاشية في بلدان أخرى. وأصبحت عبارة "الأفضل أن نكون فيينا، لا برلين" شعارا تبلور حوله يسار جديد، في كثير من الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية.

وفي النمسا ذاتها، تشبث أتباع دولفوس بالسلطة لأربع سنوات، في نظام يوصف أحيانا بأنه "لاهوتي – فاشي". ثم توصل موسوليني في **1938** إلى صفقة مع هتلر، فاستولت القوات الألمانية على البلاد وسط تهليل من حشود الطبقة الوسطى، وجرى تحول كامل إلى النازية.

كانت الأحداث في ألمانيا قد برهنت على أن الحركة العمالية لا يسعها أن توقف تقدم النازية، ما لم يكن قد جرى تحضيرها للقتال، في شكل موحد. ثم برهنت الأحداث في النمسا على أن الوحدة ليست كافية بحد ذاتها – كان لا بد من جهوزية للقتال.

فرنسا والجبهة الموحدة

بدت باريس قريبة، هي الأخرى، من حرب أهلية في فبراير **1934**. واجهت الحكومات المتعاقبة، من الحزب الراديكالي، المنتمي للوسط، الأزمة الاقتصادية العالمي بسياسات تستهدف وقف التضخم، بخفض أجور مستخدمي القطاع العام ومدخولات الفلاحين، الذين كانوا لا يزالون يمثلون أغلبية السكان. وبالوقت ذاته، تورطت شخصيات قيادية، في الحزب الحاكم، في سلسلة من فضائح البنوك.

أسفر السخط الشعبي عن تنامي أجواء الفوضى، مع إضرابات من العاملين في الخدمة المدنية، وتظاهرات من أصحاب الدكاكين وصغار رجال الأعمال، وأعمال عنف واسعة النطاق من الفلاحين. وتمكن أقصى اليمين، المنظم حول "روابط" شبه عسكرية مختلفة، من الاستفادة من ذلك، فنظم الاستعدادات في مختلف الشوارع، واجتذب أنصارا متزايدي العدد من الطبقة الوسطى، للمزيج الذي يدعو إليه، من الوطنية، والكاثوليكية المتطرفة، والتنديد بالممولين "الفاسدين" ومعاداة السامية.

وفي مطلع العام **1934** كان أقصى اليمين يأمل بمحاكاة الانتصار الذي حققه هتلر قبل عام. وفي السادس من فبراير دعا أنصاره إلى تظاهرة كبرى في باريس ضد حكومة الحزب الراديكالي، المنتمية إلى يسار الوسط، والتي تشكلت تحت رئاسة **إدوارد دالادييه Eduard Daladier**، قبل فترة قصيرة. وكان هدفهم هو غزو مقر البرلمان وإحلال حكومة يمينية محل حكومة دالادييه، لينفتح أمامهم الطريق إلى السلطة.

وتلت ذلك ليلة من القتال الشديد، مع تبادل لإطلاق النار بين الشرطة والمتظاهرين، ما انتهى إلى سقوط أربعة عشر قتيلا، و**1435** جريحا. واستقال دالادييه في اليوم التالي، مخافة ألا يتمكن من فرض النظام، وحلت حكومة من يمين الوسط، من الراديكاليين، محله. لكن أقصى اليمين برهن على قدرته على تغيير الحكومة، بالقوة، وبدا أن فرنسا ماضية إلى الطريق التي سبقتها إليها إيطاليا وألمانيا.

كان اليسار الفرنسي، فيما سبق، قد أظهر مستوى من عدم القدرة على الرد المماثل لمستوى العجز عند اليسار في أماكن أخرى. تقبل الحزب الاشتراكي **(SFIO)** وجود الحزب الراديكالي في الحكم، بالقدر الذي تقبل به الديمقراطيون الاجتماعيون الألمان حكومة بروننج. وكرر الشيوعيون هراء "المرحلة الثالثة" التي تقول إن الحزب الاشتراكي "فاشيون اجتماعيون". وفي الثالث من فبراير مع تصاعد عنف التعبئة اليمينية، صدرت صحيفة الحزب الشيوعي "لومانيتيه" **L'Humanité** بعنوان رئيسي يقول "لا للخوف"، في حين كانت قد ذكرت في الخامس من فبراير أن الخيار بين الفاشيست والحكومة كالخيار بين "الطاعون والكوليرا"[٧]. وعندما دعا الحزب الشيوعي إلى الاحتجاج في التاسع من فبراير، ما أدى إلى اشتباك مع الشرطة وتسعة قتلى، فعل ذلك منفردا، وبادعاء أن التظاهر كان ضد الفاشيين وضد "القتلة" في حكومة دالادييه التي سقطت[٨].

ودعا اتحاد العمال الرئيسي في فرنسا، وهو الكونفدرالية العامة للشغل **CGT**، لإضراب عام في الثاني عشر من فبراير، ودعا الحزب الاشتراكي، منفردا، إلى تظاهرة. وفي اللحظة الأخيرة، فقط، قرر الحزب الشيوعي أن يتظاهر هو أيضا، ولكن بعيدا عن التنظيمات الأخرى. ولم يكن يعلم أحد، علم اليقين، ما سيحدث عندما تلتقي التظاهرات. خشي الناس من أن يتقاتلوا، كما حدث من قبل. وبدلا من ذلك فمع اقترابهم من بعضهم بعضًا، بدأت تتردد الشعارات المنددة بالفاشية ذاتها، وذابوا في تظاهرة واحدة. وطبقا لأحد التقارير "أطلق هذا اللقاء

حماسا محموما، انفجارا لصيحات البهجة. وتصفيقا، وأناشيد، وصيحات تقول "الوحدة! الوحدة!"(٩).

وأوقف نجاح الإضراب العام والتظاهر الموحد تقدم اليمين. وحقق اتفاق رسمي بين الشوعيين والاشتراكيين إلى مكاسب للطرفين في الانتخابات على حساب الراديكاليين. بالوقت ذاته، نشأ عن الدمج بين الكونفدرالية العامة للشغل وبين فصيل منشق قاده الشيوعيون إلى زيادة عضوية النقابات. وانتشرت في البلاد لجان مناهضة الفاشية كمنافس لليمين في السيطرة على الشارع.

ثم مضى الحزب الشيوعي إلى ما هو أبعد من ذلك في تحوله السياسي. نادى بتحالف، ليس فقط مع الاشتراكيين، ولكن مع الحزب الراديكالي أيضا، على أساس أن ذلك الحزب وإن كان حزبا بورجوازيا فهو حريص على بقاء الجمهورية. وعندما حصلت الجبهة الشعبية، التي ضمت الشيوعيين، والاشتراكيين، والراديكاليين، أغلبية في برلمان **1936**، زعمت أن ذلك هو الدليل القاطع على صحة مقاربتها. يقينا، كان أداء اليسار طيبا في الانتخابات. ولأول مرة يجد الاشتراكيون أنفسهم أكبر حزب في الجمعية الوطنية، في حين ارتفعت عضوية الشيوعيين من عشرة إلى ستة وسبعين. وتمكن الزعيم الاشتراكي **ليون بلوم Leon Blum** من تشكيل حكومة تضم **18** اشتراكيا و**13** راديكاليا. لم يدخل الشيوعيون الحكومة، لكنهم كانوا يصوتون لصالحها في الجمعية الوطنية.

لكن التوجهات المسيطرة على الشارع وعلى ورش العمل كانت أكثر إثارة للإعجاب من الحكومة الاشتراكية – الراديكالية – بالنهاية، امتلك الحزبان في الجمعية العمومية عددا من المقاعد كان يكفي لتشكيل الحكومة في أي لحظة، في السنوات الأربع السابقة. وبلغت سلسلة من التظاهرات اليسارية الضخمة ذروتها باحتفالية ضمت ستمائة ألف إنسان لإحياء ذكرى كومونة باريس. بدأت أكبر سلسلة من التظاهرات في تاريخ فرنسا كله، قبيل تشكيل حكومة بلوم مباشرة. وما بدأ

كتظاهرات مبعثرة وقصيرة الأمد، وإن كانت منتصرة، في أنحاء مختلفة من فرنسا – لوهافر، تولوز، كوربفوا – تحول، فجأة في **26** مايو، إلى حركة قوية، عندما أضرب عمال الصناعات الهندسية في ضواحي باريس واحتلوا المصانع. وفي الثامن والعشرين من مايو امتد الإضراب إلى مصنع سيارات رينو الضخم في بيلانكور في باريس وجرى احتلاله، ومع نهاية الأسبوع بلغ عدد العمال المشاركين في الإضراب سبعين ألفا.

وبعد فتور تسببت به عطلة عيد العنصرة، اتسعت حركة الاحتلالات، منتقلة من مشروعات الصناعات الهندسية لكل أنواع المشروعات الصناعية وفي جميع أنحاء البلاد – لمصانع الشوكولاتة، لورش الطباعة، لمواقع التشييد، لورش الحدادة، بل وحتى للمحال التجارية الكبيرة في باريس، حيث لم تكن نقابات وحيث كان العمال يتجنبون الكلام معا. وفي شمال فرنسا وحده جرى احتلال ألف ومائة وأربعة وأربعين مشروعا، تضم مائتين وأربعة وخمسين ألف مستخدم. وقارن السفير البريطاني الموقف بما جرى في روسيا في **1917**، معتبرا أن بلوم يقف حيث وقف كيرينسكي[١٠].

وأصبح أصحاب العمل، الذين مالوا إلى الترحيب بتقدم اليمين المتطرف قبل عامين، يشعرون باليأس وهم يحاولون دفع بلوم لإنهاء الإضطرابات ولو مقابل تنازلات ضخمة لصالح العمال. وفي لقاء خاص، بمقر إقامة رئيس الوزراء في السابع من يونيو، وقعوا اتفاقا لتأسيس فوري لعقود عمل، وعلاوات هائلة في الأجور، وانتخاب موفدين عن العمال في كل المصانع التي تزيد العمالة فيها عن عشرة عمال. وبعد ثلاثة أيام تقدمت الحكومة بمشروع قانون للبرلمان، يقر إجازة مدفوعة الأجر لمدة أسبوعين، وينزل بساعات العمل إلى أربعين ساعة في الأسبوع. وأقر مشروع القانون في زمن قياسي بلغ سبعة أيام. وحتى مجلس الشيوخ، المنتخب على أساس غير ديمقراطي ضمن لليمين قوة في صلب التشريع،

لم يجرؤ على الاعتراض. وبين العمال كان هناك شعور بالحاجة إلى ما يتجاوز مجرد زيادة الأجور، وتقصير ساعات العمل، والعطلة المدفوعة الأجر. كانوا يريدون تغيير المجتمع ككل. واستمرت الإضرابات حتى الحادي عشر من يونيو، عندما تدخل الحزب الشيوعي عبر خطاب ألقاه زعيمه موريس توريز **Maurice Thorez**. زعم توريز أنه، بما أن "الاستيلاء على السلطة غير وارد الآن" فلا محيص عن العودة للعمل، وقال "من الضروري أن نعرف كيف ننهي إضرابا"(١١).

وبدا أشد العمال نضالية، أولئك الذين اعتبروا أن الشيوعيين هم أقصى اليسار، مترددين وهم يعلنون قبولهم العودة للعمل وفقا للشروط المطروحة. ما جرى حقق لهم مكاسب مادية- على رغم أن التضخم كان سيبدأ بقضم الزيادات في رواتبهم، في القريب العاجل. لكن السلطة بقيت بأيدي الشرطة، والجنرالات، وكبار موظفي السلك المدني، الذين أظهروا تعاطفهم مع أقصى اليمين في السنوات السابقة. كما بقيت السيطرة على الصناعة والتمويل بأيدي الرأسماليين، الذين سيحاولون النكوص عن التنازلات التي قدموها في يونيو، بمجرد أن تتغير توازنات القوة.

كان توريز محقا في أن الظروف لم تكن نضجت بعد لاستيلاء العمال على السلطة، بأكثر مما كانت ناضجة في فبراير أو حتى في يوليو **1917**. لكن الظروف كانت تسمح بتفعيل الشعار الذي رفعوه، على نحو طقسي، حتى عامين مضيا- لإنشاء السوفيتات، وتكوين وفود عمالية قادرة على تحدي سلطة الدولة والمشروع الكبير. لكن توريز لم يشر حتى إلى ذلك، على الرغم من أن التوجه العام بين العمال كان يشير إلى استعداد لتقبل مثل هذا النداء.

ولم يكن هذا التجاهل مجرد مصادفة. فالتخلي عن عبثية سياسات "المرحلة الثالثة" نتج عن تحولات في تفكير الكومنترن (الأممية الشيوعية) في موسكو، وعن هذه التحولات، أيضا، جاء تبني سياسة جبهة شعبية تقوم على تحالف مع

حزب بورجوازي موال للرأسمالية. كان ستالين يريد حلفاء لسياساته الخارجية، لتعزيز التحالف الدفاعي مع الاتحاد السوفيتي الذي وقعته حكومة **لافال Laval** المنتمية ليمين الوسط في **1935**. وبدا أن التأييد الشيوعي لحكومة "ليبرالية" رأسمالية يسهل تحالفات كهذه. وبناء على ذلك، دفع الكومنترن بأن تلك هي الطريقة "العملية" الوحيدة لسد الطريق بوجه الفاشية - وإن كانت الطروحات التي صدرت عنه لم تختلف عما طرحه برنستاين قبل أربعين سنة.

لم يكن بوسع الشيوعيين التحالف مع حزب مثل الحزب الراديكالي من دون التخلي عن كل بديل ثوري للأزمة التي حلت بالنظام العالمي. أصبح الكلام عن تحول ثوري إحالة على مستقبل بعيد، في حين "تقبلوا" وجود حكومات ملتزمة بسلامة النظام الرأسمالي، بأمل أن يحول ذلك دون انشداد الرأسماليين لبدائل اقترحها أقصى اليمين. لكن هذا القبول كان يعني تجميد الحركة الثورية للعمال، حتى يفقد العمال روحهم المعنوية ويستشعر الرأسماليون القدرة على المبادرة بالهجوم.

وأقيم احتفال بحركة الجبهة الشعبية في الرابع عشر من يوليو **1936**. احتفل قرابة مليون إنسان بذكرى الثورة الفرنسية بالتظاهر في باريس، في حين تظاهر الألوف بتلك المناسبة في مختلف مدن فرنسا. تزيى الناس بأزياء سنوات الثورة. ورفعت صور ضخمة لأبطال الثورة وعصر التنوير - روبسبيير، فولتير، مارات، فيكتور هوجو. وقف زعيم الحزب الراديكالي دالاديه، على منصة الخطابة، بجوار توريز وبلوم. وحمل عمال رينو شعار الحزب الراديكالي، ومعه شعارا الحزبين الشيوعي والاشتراكي. وكان الهدف من ذلك هو إقناع الناس بأنهم، إذا وقفوا معا بغض النظر عن الانتماء الحزبي أو الطبقي، متماهين مع الجمهورية الفرنسية، فسوف يتبدد كابوس الفاشية. كانت هذه هي السياسات"العملية" للوحدة في إطار الجبهة الشعبية. وبعد ذلك بثلاثة أيام وقعت أحداث في مختلف أنحاء منطقة البرانس، كنت بمثابة اختبار لـ"السياسات الواقعية" هذه. نفذ الجنرالات في إسبانيا انقلابا على الحكومة الجمهورية، مستلهمين النجاحات التي حققها الفاشيون في

ألمانيا وإيطاليا، فبادرت الحكومة إلى طلب السلاح من فرنسا لتدافع عـــن نفـــسها. أراد ليون بلوم تقديم السلاح المطلوب، لكن كبار السياسيين الراديكاليين اشتطوا في المعارضة. وفي الثلاثين من يوليو طمأن بلوم مجلس النـــواب إلـــى أن فرنـــسا لا ترسل سلاحا للحكومة الإسبانية، وتم إقرار سياسة "عدم التدخل"- حتى وإن كـــان هذا تخليا عن حكومة جمهورية منتخبة تتعرض لهجمات من قوات تستلهم الفاشـــية وتسلحها إيطاليا وألمانيا. وأبدى الحزب الشيوعي اعتراضا شديدا على موقف بلوم. بل وامتنع عن التصويت في اقتراع في البرلمان على سحب الثقة، فـــي ديـــسمبر **1936** ولكن لم يكن لديه خيار آخر، ما دام يفضل التمسك بالائتلاف مع الليبـــراليين على إطلاق حركة لمواجهة الرأسمالية الفرنسية.

كانت تلك سياسة عاجزة عن أن تحدث أثرا على المستوى الداخلي، بقدر عجزها عن التأثير دوليا. لم يكن الراديكاليون مستعدين للتجاوب مع إصلاحات تحقق مصالح العمال، ما دامت موجة الإضرابات مستمرة- وقد بقيت مستمرة معظم النصف الثاني من **1936**، وإن بوتيرة أهدأ مما كانت عليه في مايو ويونيو. وبنجاح قادة الحزبين الشيوعي والاشتراكي، وقادة الكونفيدرالية العامة للشغل، في تهدئة الأجواء، بدأ الراديكاليون يطالبون بإجراءات انكماشية لمعالجة أعراض الأزمة الاقتصادية. وبعد أن جربوا تدابير لتحقيق الانتعاش، بخلق وظائف جديدة عبر تقصير أسبوع العمل، مثلا، بدأ بلوم يجاري الراديكاليين في أوائل **1937**، معلنا "وقفة" في برنامجه للتوسع والإصلاح، لكن ذلك لم يكن كافيا.

استقال في يوليو **1937** بعد أن رفض مجلس الشيوخ مشروع قرار مالي تقدم به وسط أزمة مالية نشأت عن هرب رأس المال للخارج. بالوقت ذاته، أظهرت الدولة محدودية التأثير الذي حل بها نتيجة لرُقْية حكومة الجبهة الشعبية – فتحت الشرطة النار على تظاهرة معادية للفاشية في ضاحية باريسية في مارس **1937**، فقتلت ستة متظاهرين.

وطوال الشهور التسعة التالية بقيت تحكم فرنسا حكومات الحزب الراديكالي، بمشاركة الاشتراكيين. وبدأ كساد جديد في الولايات المتحدة، حتى قبل أن ينتهي الأول، وتمثل رد فعل الحكومة باللجوء إلى الأسلوب الراديكالي القديم، بخفض الإنفاق – وهو إجراء لم يكن له إلا أن يهبط بمعنويات من تعلقت آمالهم بحكومة الجبهة الشعبية. وعاد بلوم لمنصبه لستة وعشرين يوما، بسبب أزمة نشأت عن زحف هتلر على النمسا وانهيار السياسة الخارجية الفرنسية في أوروبا الشرقية، ثم حل دالادييه محله. عندئذ شعر أصحاب العمل بأن لديهم من القوة ما يكفيهم للهجوم على العمال، ومضت حكومة دالادييه باتجاه التراجع عن أحد أهم إصلاحات السنتين السابقتين – خفض ساعات العمل لتصبح أربعين ساعة أسبوعيا. وتدخلت الشرطة لقمع الإضرابات والاحتلالات التي تلت ذلك. وفي مصانع رينو دارت معركة استمرت عشرين ساعة بعد أن اقتحم المصنع 1500 من الشرطة المسلحة(١٢). وأجبرت الشرطة العمال المهزومين على مسيرة خارج المصنع أدوا فيها التحية النازية وهتفوا "تحيا الشرطة"(١٣).

وكما يسجل جوليان جاكسون في تأريخه لتلك الفترة:

> **الجبهة الشعبية التي ولدت من رحم إضراب عام في 12 فبراير 1934 ماتت في إضراب عام في 30 نوفمبر 1938. ومن التناقضات الغريبة، أن إضراب 12فبراير وضعت خطته الأساسية كاحتجاج على إجبار دالادييه على الاستقالة، في حين جاءت الدعوة لإضراب 30 نوفمبر لإعلان الاحتجاج على سياسات العمل التي اتبعها دالادييه(١٤).**

بدت الجبهة الشعبية في أولى مراحلها منعشة للآمال، وشهدت الأحزاب اليسارية والنقابات نموا متسارعا. نمت عضوية الحزب الشيوعي من تسعة وعشرين ألفا في 1939 إلى تسعين ألفا في فبراير 1936، وإلى 288 ألفا في ديسمبر من العام ذاته، ونمت عضوية الشبيبة الشيوعية من 3500 إلى 25 ألفا، ثم إلى 100

ألف. ونمت عضوية الحزب الاشتراكي من **131** ألفا في **1936** إلى **202** ألف في **1936** ونمت عضوية الشبيبة الاشتراكية من **11.320** في **1934** إلى **640.56** في **1937** والكونفدرالية العامة للشغل من **785.700** في **1935** لقرابة الأربعة ملايين في **1937**(١٥).

لكن في **1938** بدأ انقشاع الأوهام التي أحاطت بالجبهة الشعبية يحدث أثرا معاكسا، وبدأت عضوية الأحزاب اليسارية بالتناقص والتأييد لها يتراجع. الآلاف من حالات الفصل والاضطهاد، عقب هزيمة الإضراب في نهاية **1938**، دمرت الأحزاب والنقابات، وراحت عضويتها تتراجع(١٦).

ومع قيام الحرب العالمية الثانية، في أغسطس التالي، كانت الطبقة الحاكمة في فرنسا في وضع قوة سمح لها بأن يكون لها برلمان جرى انتخابه وسط موجة من السعادة الغامرة، تماما كما جرى قبل ثلاث سنوات، وبأن تعلن حظر الحزب الشيوعي وطرد نوابه. وبعد ذلك بتسعة أشهر، صوت ذلك البرلمان- ذو الأغلبية الاشتراكية، لصالح منح **سلطات ديكتاتورية للمارشال بيتان Marshal Pétain** الذي شكل حكومة تضم عناصر فاشية للتواطؤ مع النازيين الألمان الذين احتلوا النصف الشمالي من البلاد.

ولا يزال هناك مؤرخون، بينهم **إيريك هوبزبوم Eric Hobsbawm**، يشيرون إلى الجبهة الشعبية باعتبارها مثالا على الكيفية التي يمكن بها لليسار أن يصمد لهجمة من اليمين. ومن المؤكد أن التجربة الفرنسية ليست مصداقا لهذا القول. لا شك أن وحدة مقاتلي اليسار الفرنسي أجبرت اليمين على الانتقال لوضع الدفاع في **1934**. لكن محاولة التحالف مع أحد أحزاب التيار الرئيسي للرأسمالية في **1936** ترتبت عليه الآثار ذاتها، التي ترتبت على سياسة "التسامح" التي اتبعها الديمقراطيون الاجتماعيون في ألمانيا، من حيث تمكين اليمين من استعادة المبادرة بعد كمون وجيز. والأمر المثير للحزن، أن هذا هو ما جرى أيضا في ثالثة التجارب لمقاومة الفاشية، في إسبانيا في ثلاثينيات القرن العشرين.

إسبانيا: الفاشية والثورة والحرب الأهلية

كتب المؤلف الإنجليزي جورج أورويل عن برشلونة في **1936**:

> **كانت أول مرة أرى فيها مدينة تعتلي الطبقة العاملة فيها صهوة الجواد. من الناحية العملية، فكل بناية، أيا كان حجمها، استولى عليها العمال. على كل دكان أو مقهى لافتة تقول إنه مشروع جماعي: حتى ماسحو الأحذية أضفي عليهم الطابع الجماعي وطليت صناديقهم بالأحمر والأسود.**
>
> **الجرسونات ومشرفو المحلات كانوا ينظرون إلى وجهك مباشرة ويعاملونك معاملة الند للند. اختفت لبعض الوقت أساليب الحديث الخانعة وحتى المتكلفة. لم تكن هناك سيارات خاصة؛ تم الاستيلاء عليها كلها.**
>
> **وكانت توجهات الحشود هي أغرب ما في الأمر، على الإطلاق. في المظهر الخارجي كانت تبدو مدينة لم يعد فيها، عمليا، وجود للطبقات الموسرة.**
>
> **وفوق كل شيء كان هناك إيمان بالثورة وبالمستقبل، شعور بانتقال مفاجئ إلى عصر المساواة والحرية. كان البشر يتصرفون كبشر وليس كتروس في عجلة الرأسمالية[١٧].**

قبل ذلك، بما لا يزيد عن أربعة أشهر، كانت القوات العسكرية الإسبانية بقيادة **الجنرال فرانكو General Franco** قد حاولت الاستيلاء على السلطة. أفشلت الهبات العمالية محاولاتهم في أكثر من نصف البلاد. أعقبت ذلك حرب أهلية– ذروة ست سنوات من صراع طبقي متصاعد الحدة.

سمحت هزيمة حركة العمال في مطالع العشرينيات بأن يحكم البلاد ديكتاتور هو **بريمو دي ريفيرا Primo de Rivera**، لنهاية ذلك العقد. اعتمد على العسكريين لسحق المقاومة وتمكن من الحول دون تنظيم العمال النضاليين أنفسهم. خرجت غالبية القادة الفوضويين – النقابيين والشيوعيين إلى المنفى. لكن ريفيرا لم تكن له

قاعدة اجتماعية كبيرة تخصه وتعين عليه أن يوازن بين جماعات مختلفة في البلاد، بل وأن يتعاون مع الزعيم الاشتراكي النقابي **لارجو كابالليرو Largo Caballero.** وانهارت ديكتاتوريته الضعيفة في الثلاثينيات، لعجزه عن مواجهة تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية. بعد ذلك بعام، حقق اليسار انتصارا كبيرا في الانتخابات المحلية، وتنازل الملك عن العرش، وأعلنت الجماهير المتحمسة الجمهورية في برشلونة، ثم في مدريد.

حكمت البلاد حكومة جمهورية بورجوازية طوال العامين التاليين، تولى كاباللليرو منصب وزير العمل فيها. كانت حكومة بذلت كثيرا من وعود الإصلاح، ولم تنجز سوى القليل – وعلى سبيل المثال، فإصلاحها الزراعي لم يستفد منه سوى ألفين من بين مليوني فلاح. وكانت هناك خيبة أمل واضحة عندما أطلقت الشرطة النار على فلاحين احتلوا الأرض في قرية كاسا فييجاس في الجنوب، وفضوا تظاهرات في مدن مثل برشلونة.

ولكن مجرد الكلام عن الإصلاح كان يكفي لاستعداء الطبقات العليا. انفصل قسم من الجمهوريين البورجوازيين ليتحالفوا مع حزب جديد هو "كونفدرالية اليمين المستقل" **CEDA** الذي حظي بمساندة من كبار ملاك الأراضي، وقوى معينة في عالم البيزنيس، وكبار ضباط الجيش، والملكيين، ومن يجهرون بإعجابهم بموسوليني، وأساقفة الكنيسة الكاثوليكية، وكان زعيم الكونفدرالية يريد توليد نسخة كاثوليكية من الفاشية، على غرار ما كان يفعله دولفوس في النمسا، ونظم مؤتمرات جماهيرية تشبه مؤتمرات موسوليني وهتلر. وبدا واردا أن تصعد الكونفدرالية للسلطة بقوة انتصار انتخابي. بل إن قادة الحزب الاشتراكي وقادة الاتحاد العام للشغيلة **UGT** اعتبروا أن ذلك خطر ماثل، واتفقوا على معارضته بالفعل وليس بمجرد القول، واتحدوا مع بعض المنظمات العمالية الصغيرة لتكوين "تحالف عمالي".

وجاء العداء للكونفدرالية من العمال الصناعيين في المدن الرئيسية، ومن الأعداد الهائلة للعمال الزراعيين الذين يشتغلون نصف الوقت، في المزارع الكبيرة في الجنوب. لكن أقساما من الطبقة الوسطى شاركت هذه الفئات العداء للكونفدرالية، وخاصة في كتالونيا حيث كانوا يتحسبون لهجمة يمينية على الحكم الذاتي الذي يتمتعون به وعلى لغتهم. وعندما صعدت الكونفدرالية للحكم، بالنهاية، في أكتوبر **1934** لم يهب لمعارضتها سوى عمال المناجم في أوستورياس، في شمال البلاد، متسلحين بالديناميت، وقد سيطروا على المنطقة. ورفض الفوضويون النقابيون المسيطرون على قسم واسع من الحركة العمالية المشاركة في تحرك على المستوى الوطني، بسبب انعدام ثقتهم بجميع السياسيين، ووقف الوطنيون الكتالونيون على هامش المشهد في اللحظة الأخيرة، وقصر قادة الحزب الاشتراكي والحركة النقابية حركتهم الاحتجاجية على الإضراب العام لفترة قصيرة في مدريد. وتمكنت الحكومة من قمع إضراب عمال المناجم في أوستورياس، باستخدام قوات من مراكش الإسبانية تحت قيادة الجنرال فرانكو، وفرضت على المنطقة حكم الإرهاب. وفي بقية أنحاء البلاد أودع أعضاء الحزب الاشتراكي، وبينهم كاباليرو، والنقابيون السجون. وفيما بعد، أشار اليسار لتلك الفترة باسم "العامين الأسودين". لكن هزيمة الحركة العمالية في إسبانيا في **1934** لم تكن مماثلة لتلك التي وقعت في النمسا في العام ذاته. عجزت الحكومة اليمينة عن حل الأزمة السياسية، وقضت عليها الخلافات. وفي أوائل العام **1936** دُعي إلى الانتخابات، مجددا، في أجواء استقطاب طبقي واحتقان سياسي.

بالوقت ذاته، صارت فكرة الجبهة-الشعبية، كما عرفتها فرنسا، ذات تأثير على أقسام واسعة من اليسار. وأطلق الحزب الشيوعي الصغير، الذي كان فيما مضى معارضا للتعاون مع الحزب الاشتراكي ومع الفوضويين النقابيين، حملة

تدعو بقوة لاتحاد الجميع مع البورجوازيين الجمهوريين. وقوبلت هذه الأفكار بحماس من جانب الجناح اليميني في الحزب الاشتراكي، وخاضت الانتخابات قائمة مشتركة من المرشحين الاشتراكيين، والشيوعيين، والجمهوريين البورجوازيين. بل إن الفوضويين النقابيين حثوا مؤيديهم على التصويت لهذه القائمة بأمل أن يتم الإفراج عن مناضليهم المسجونين.

وضمن النظام الانتخابي فوز الجبهة الشعبية بأغلبية ساحقة من المقاعد، بمشاركة من ناخبين لم يزد عددهم عن عدد من شاركوا في انتخابات **1933** إلا بهامش ضيق. تألفت الحكومة من السياسيين الجمهوريين أنفسهم الذين أصابوا الناس بخيبة أمل بالغة في الفترة **1931-1933**. لكن ضغوط الشارع أجبرتهم على إطلاق سراح المسجونين السياسيين اليساريين، وعمت الفرحة العارمة أوساط اليسار. وأسفرت الثقة التي شعر بها العمال إلى موجة متنامية من الإضرابات والتظاهرات. وتدفق الناس على كونفدرالية الشغل التابعة للفوضويين النقابيين وعلى الاتحاد العام للشغيلة التابع للحزب الاشتراكي، وانعطف الحزب الاشتراكي نحو اليسار، بقوة. أعلن كاباليرو أن الشيوعيين ضموه لصفوفهم وهو في السجن، وأعلن "الثورة التي نريدها لا يمكن إنجازها سوى بالعنف"[١٨]. وأشار إليه شباب الاشتراكيين باعتباره "لينين إسبانيا" وهم يرفعون قبضاتهم مرددين شعارات "عاشت جمهورية العمال" و"الجيش الأحمر"[١٩].

تصاعد القلــق بين القــوى المحافظــة في البلاد، وتدفــق الناشطــون من كونفدرالية اليمين المستقل على تنظيم أكثر صراحة في توجهه الفاشي وهو الفالانج (الكتائب)، وشن بلطجيون يعملون لصالح الطبقات العليا هجمات على اليسار. وشاعت أنباء عن أن كبار ضباط الجيش يعدون لانقلاب، لكن الحكومة لم تفعل شيئا سوى إجراء حركة تنقلات للضباط. وفي ما لا يزيد عن أربعة أشهر، قتل

269 شخصا، وجرح 1287 في صدامات في الشوارع، وتعرض 381 مبنى للهجوم أو جرى تدميرها، ووقع 43 هجوما أو اقتحاما لمكاتب الصحف، ووقع 146 هجوما بالقنابل(٢٠).

وأخيرا تحرك اليمين، في ليلة 17-18 يوليو. حاول الجنرالات السيطرة على كل مدينة في إسبانيا ومراكش الإسبانية. استبد الخوف بالحكومة الجمهورية لدرجة أعجزتها عن أي فعل، بل إنها أصدرت بيانا أنكرت فيه وجود محاولة انقلابية. واستقال رئيس الحكومة **كويروجا Quiroga**. وحاول من خلفه على المنصب التوصل لتسوية مع المتمردين، ثم استقال بعد تصاعد التظاهرات العمالية العدائية.

توقع العسكريون أن يستولوا على السلطة خلال ساعات. وأمَّن لهم جبن حكومة الجبهة الشعبية واضطرابها الفرصة التي احتاجوها. ولكن رد فعل العمال أربك حساباتهم. دعت اتحادات العمل الاشتراكية والفوضوية النقابية إلى إضراب عام. لكن العمال لم يكتفوا بمجرد التوقف السلبي عن العمل. ففي معظم مدن وبلدات إسبانيا الرئيسية تحركوا للسيطرة على الثكنات وتجريد القوات من سلاحها. وحمل المناضلون من النقابات الاشتراكية والفوضوية النقابية ومن الأحزاب العمالية السلاح، حيثما تسنى لهم أن يجدوه. وفي بعض الحالات نجحوا في أن يضموا لصفوفهم أقساما من الحرس الهجومي الموالي للجمهورية، بل ومن الحرس المدني المعادي، في الأصل، للحركة العمالية، كما جرى في برشلونة. وحالفهم النجاح، في معظم الحالات، حيثما تحركوا بحسم، من دون تردد أو ميل نحو الضباط اليمينين.

ولم يحقق الانقلاب نجاحات سوى في المدن التي نجح فيها ضباطه في إقناع القيادات العمالية بولائهم للجمهورية. وفي أماكن مثل إشبيلية، وقاديش، وسرقوسه،

وأوفييدو، تعين على الضباط أن ينتظروا حتى يتفرق العمال المسلحون، لكي يعلنوا الانقلاب ويطلقوا النار على المقاومين[٢١]. كان هذا هو الثمن الذي تعين على العمال أن يدفعوه لأنهم وضعوا ثقتهم في تلك الأقسام من النخبة الحاكمة التقليدية ممن زعموا أنهم "جمهوريون". ولأن تلك الثقة لم تكن شاملة لم تنجح قوات فرانكو إلا في الاستيلاء على نصف البلاد، وليس على البلاد كلها، في يوليو **1936**.

وفي الأماكن التي جرى فيها سحق الحركة لم يكن أتباع فرانكو وحدهم الذين حلت بهم الهزيمة: "الدولة التي وقعت بين مطرقة القوات المتمردة وسندان الجماهير الشعبية المسلحة، تطايرت شظايا"[٢٢]. وعلى رغم أن الحكومة بقيت في مقرها الرسمي في مدريد، كانت السلطات الحقيقية في المحليات بأيدي لجان ثورية عديدة. والعمال الذي سيطروا على السلطة في منطقة ما وظفوها لمصالحهم: جرى الاستيلاء على المصانع وإضفاء الطابع الجماعي عليها؛ بدأ الفلاحون توزيع الأراضي، مدركين أن ميليشيات العمال سوف تحميهم؛ اعتقل العمال المسلحون الوجهاء المحليين الذين لهم تاريخ من العداء لمطالبهم. ومع تفكك الجيش، بدا أن البورجوازية قُضي عليها في معظم المناطق الجمهورية؛ وهذ هو السبب في ظهور الأحوال التي لمسها أورويل في برشلونة. صارت السلطة الفعالة بأيدي المنظمات العمالية، في حين احتفظت الحكومة الرسمية بسلطة معطَّلة. وانطبق ذلك أيضا على سلطة الحكم الذاتي في كتالونيا، أهم المناطق الصناعية. دعا رئيسها كومبانيس **Companys** قادة أقوى التنظيمات العمالية في كتالونيا، وهو الكونفدرالية الوطنية للشغل لاجتماع قال لهم فيه:

> **أنتم سادة المدينة وسادة كتالونيا، لأنكم هزمتم الجنود الفاشيين وحدكم... أنتم الفائزون وكل شيء في قبضتكم. إن كنتم لا تحتاجونني، إن كنتم لا تريدونني أن أكــون رئيسا، قولوا ذلك الآن، وسوف أصبح مجرد جنــدي في النضال ضـــد الفاشية"[٢٣].**

كانت هناك حالة ازدواج في السلطة، كما جرى في الثورة الروسية في **1917**، وفي بعض مراحل الثورة الألمانية في **1918-1920** – باعتماد الحكومة الرسمية على شبكات من لجان وتنظيمات ثورية في تسيير الأمور. لكن الحكومة الجمهورية كانت متميزة على اللجان الثورية في أمر واحد. كانت لها بنية مركزية لم تكن للجان. وكانت هذه مسألة حيوية. كانت الجيوش الفاشية مركزية، ومن ثم قادرة على اتباع استراتيجية واحدة في مختلف أنحاء البلاد. واحتاج المناهضون للفاشية إلى أن تكون لهم هم أيضا بِنْية مركزية، وإلا تمكنت القوى الفاشية من الانتصار عليهم بتوجيه قواتها إلى نقاط ضعف القوى المعارضة، على الجبهة، مدركة أن المناهضين للفاشية لن يكون بوسعهم تحقيق تمركز لقواتهم لمواجهة الهجمات.

كان يمكن تحقيق هذا التمركز للقوى المناهضة للفاشية بتوحيد اللجان. كانت هناك لجان تنسيق بين اللجان المناهضة للفاشية في كثير من المحليات. ولكن لم تكن هناك لجنة قائمة لكل اللجان والميليشيات وممثلي العمال في عموم إسبانيا، على غرار السوفيتات في روسيا في **1917**.

وتعود علة هذا القصور إلى سياسات لجان العمال. فقد أصر أكثر هذه التنظيمات قوة، وهو تنظيم الفوضويين النقابيين على أن مركزية السلطة ستتضمن سحق العمال بقوة دولة جديدة. واعتبروا من الخطأ السير على ذلك الطريق الآن. وبتعبير أحد قادتهم وهو **سانتيلان Santillan**، فإن "الديكتاتورية كانت تصفية الشيوعية التحررية، التي لا تتحقق إلا بحرية الجماهير"(٢٤). وبدلا من السير على هذا الطريق، فقد دعوا لترك حكومة كامبانيس سليمة لا تُمَس، والقبول بتعاون معها. وحتى الزعيم الأكثر اقتدارا والأكثر نضالية بين زعماء الكونفدرالية العمالية للفوضويين النقابيين وهو **بوينا فينتورا دوروتي Buenaventura Durutti**، الذي خاض غمار هَبَّتَيْن غير موفقتين ضد حكومتين جمهوريتين، لم يجادل في ذلك. لعب دوروتي دورا حاسما في سحق الفاشيين في برشلونة، وكان بطل عمال المدينة،

وتأتّى له أن يقود جيشا تألف تلقائيا، من عشرات الألوف من العمال، اجتاح حدود كتالونيا، داخلا إلى آراجون، قاصدا مدينة ساراقوسة التي كانت تحت سيطرة الفاشيين. لكنه لم يكن مستعدا لمواجهة مسألة السلطة، وترك لرفاقه في الكونفدرالية حركة اقتسام السلطة مع الحكومة الجمهورية البورجوازية برئاسة كومبانيس.

صحيح أن كونفدرالية الفوضويين النقابيين في كتالونيا خلقت ثقلا موازنا، على نحو جزئي، مع الحكومة. شكلت لجنة مركزية للميليشيات تضم ممثلين عن الكونفدرالية، وعن اتحاد النقابات الاشتراكية، وعن الحزب الاشتراكي، والحزب الشيوعي، و**حزب العمال للتوحيد الماركسي**POUM المنشق، و**اتحاد مزارعي الكروم** Rabassaires، وحزب كومبانيس. وتولت هذه اللجنة تنسيق النضال العسكري في المنطقة وكانت محط آمال العمال. ولكن لأنها تألفت من أحزاب، بأكثر مما تألفت من وفود تمثل العمال، والجنود، والفلاحين لم تعبر عن تلك الآمال تعبيرا كاملا. وكانت تترك، قاصدة، مسائل مهمة أخرى، وبخاصة التمويل والبنوك، لتصرف حكومة كومبانيس.

كان للحزب الاشتراكي واتحاد النقابات التابع له التأثير الأقوى على الحركة العمالية في مدريد، وسرعان ما أصبح للميليشيات التابعة لهما النفوذ ذاته الذي لكونفدرالية الفوضويين النقابيين في برشلونة. ولكن برغم كل ما قيل عن كبايليرو باعتباره "لينين إسبانيا"، فإن مؤيديه لم يتحركوا لتشييد بنية سلطة عمالية. وانحصر تاريخ تنظيمهم، بكامله، في العمل من أجل ممارسة الضغوط داخل مؤسسات المجتمع القائم. كان يستبد بهم الرعب من أي بنية تقوم على انتخاب موفدين يتيحون للفوضويين الضغط على العناصر القاعدية في تنظيماتهم. كان اليمين داخل الحزب الاشتراكي يحض على حل وسط فوري مع البورجوازيين الجمهوريين. ولم يكن اليسار بقيادة كاباليرو سعيدا بذلك، لأنه يذكر كم كان تعاونهم في الماضي مع الجمهوريين غير موفق. لكن اليسار لم تكن لديه إجابة عن التساؤل حول

الوسائل البديلة لتأسيس سلطة مركزية قادرة على مجابهة حركة الكماشة التي تقوم بها الجيوش الفاشية ذات البنية المركزية، باتجاه مدريد.

تأسس الحزب الشيوعي قبل ذلك بعام ونصف العام بهدف مواجهة افتقار الفوضويين النقابيين إلى السياسة ومواجهة إصلاحية الحزب الاشتراكي. لكن عمليات الطرد المتتالية أبعدت عن الحزب كل القادة القادرين على إثارة تساؤلات حول الخط الذي ترسمه موسكو الستالينية. وكان ذلك الخط، في تلك اللحظة، يحض على تعزيز جبهة شعبية مع الجمهوريين البورجوازيين. وفي حين وقعت كونفدرالية الفوضويين النقابيين ويسار الحزب الاشتراكي في حيرة حول ما يجب عمله مع الحكومة، كان الحزب الشيوعي والسفير الروسي يحضونهم على الانضمام لحكومة ائتلافية، والتخلي عن كل كلام عن الثورة والاقتصار على سياسة جمهورية ومعادية للفاشية، فقط. ودفعا بأن ذلك من شأنه أن يضمن تأييد الطبقات الوسطى، ومنع المزيد من الرأسماليين وأصحاب الأراضي من الانضمام للفاشيين، وإرضاء الحكومتين الفرنسية والبريطانية. وأن من شأنه أيضا توحيد جميع الميليشيات في جيش واحد ذي بنية مركزية، يقوده الضباط المحترفون الذين بقوا موالين للجمهورية.

وقد تشكلت حكومة من هذا النوع في مطلع سبتمبر. تولى كاباليرو رئاستها، لكن معظم وزرائها كانوا من الجمهوريين أو من يمين الحزب الاشتراكي. وكان شعارها "اكسبوا الحرب أولا، وبعد ذلك تحدثوا عن الثورة". كانت تلك مقاربة لم يقدر على مقاومتها لا قادة كونفدرالية الفوضويين النقابيين ولا اليسار الاشتراكي. فسرعان ما انضم ثلاثة من الفوضويين النقابين لحكومة كومبانيس في كتالونيا، وانضم بعدها أربعة للحكومة في مدريد.

اعتقد الاشتراكيون اليساريون والفوضويون النقابيون أن تأجيل استكمال الثورة من شأنه أن يُثبّت المكاسب التي حققتها الحركة العمالية وأن يضمن كسب

الحرب ويعزز التأييد من جانب الجمهوريين المعتدلين. لكن هذا، ببساطة، لم يكن ممكنا. فأكثر ما كان يريده الجمهوريون المعتدلون كان احترام الملكية الخاصة والحفاظ على تلك الأقسام التي بقيت على ولائها للجمهورية، بمنأى عن أي مساس بها من قبل القوى الثورية. واعتبروا أن استعادة "الجمهوريين" من ضباط الجيش وقيادات الشرطة لاحترامهم هو أقوى ضمان لحمايتهم من الثورة الاجتماعية.

لكن احترام الملكية الخاصة وصون جهازالدولة الإسبانية القديمة في **1936** لم يكن يعني فقط تقييد النضالات العمالية. بل كان يعني إجبار العمال، بطريقة ما – بالإقناع أو بالإرغام– بالتنازل عن المكاسب التي حققوها، والتخلي عن إدارة المصانع والمزارع التي سيطروا عليها في يوليو. كان يعني نزع سلاح العمال الذين اقتحموا الثكنات في يوليو، وتسليمه للضباط الذين وقفوا يتفرجون.

وذهب موظفو الحزب الشيوعي والجناح اليميني في الحزب الاشتراكي إلى أن أي محاولة من العمال للقيام بثورة اجتماعية من شأنه إشعال حرب أهلية في صفوف الجمهوريين. لكن محاولاتهم لجعل العمال يتنازلون عن مكاسبهم الاجتماعية هي، تحديدا، التي أوجدت عناصر الحرب الأهلية التي تحدثوا عنها.

وكانوا هم، لا الفوضويين ولا المتطرفين من حزب العمال للتوحيد الماركسي، من سحب الأسلحة من الجبهة لاستخدامها داخليا. هم الذين بدعوا الاحتراب عندما رفض العمال مغادرة المزارع التي جرى إضفاء الطابع الجماعي عليها، ورفضوا الامتثال لأوامر الحكومة البورجوازية التي جرى تحسين صورتها. وكانوا هم من بدأ الصدامات المسلحة التي أزهقت مئات الأرواح في برشلونة في مايو **1937**، عندما أصروا على الاستيلاء على بناية إدارة الاتصالات الخطية في المدينة الذي كانت ميليشيات الكونفدرالية التابعة للفوضويين النقابيين قد انتزعتها من الفاشيين قبل تسعة أشهر ونصف الشهر. وكانوا هم من أطلق الرعب

البوليسي ضد اليسار، وهو ما تضمن اغتيال قادة مثل **آندريس نين Andrés Nin**، وسجن آلاف من المناضلين ضد الفاشية. لم تكن هناك طريقة أخرى لإجبار طبقة عاملة على التخلي عن ثورتها والانتظار حتى "نهاية الحرب".

لكن التضحيات التي فرضت على العمال لم تكسب الحرب، بمثل ما أن تلك التي فرضها الديمقراطيون الاجتماعيون في ألمانيا، أو النمسا، أو فرنسا لم توقف تقدم الفاشية. فكل تنازل لصالح الأحزاب البورجوازية في إسبانيا الجمهورية أفاد منه الجنرال فرانكو.

وكان النموذج الدال على ذلك هو الذي ظهر في المدن الجمهورية عندما اشتد عليها الضغط. فالعمال الذين كان يعني استيلاء فرانكو على المدن أن يخسروا كل شيء، كانوا مستعدين للقتال حتى النهاية. أما الطبقات المالكة، فهي وإن لم تعلن ترحيبا إيجابيا بانتصار الفاشيين، كانت تدرك أن بوسعها التوصل معهم إلى ترتيب يناسب مصالحها. وهكذا فعندما تخلت البورجوازية الباسكية عن سان سيباستيان، رتبت لعدم تمكين مناضلي الفوضويين النقابيين من مواصلة النضال. شنت حربا أهلية داخل الحرب الأهلية، بإطلاق النار على "ممارسي النهب" وعلى "مشعلي الحرائق" وتاركة الأحراس المسلحة تقوم بدوريات في شوارع المدينة، لضمان تسليمها بكليتها إلى فرانكو. وتكرر النموذج ذاته في بيلباو، وفي سانتاندر، وفي جيجون[٢٤]. وفي أماكن أخرى، فالضباط الذين رَفعتهم الحكومة لمواقع قيادية انضموا للفاشيين في لحظات حرجة. وفي آخر أيام الحرب استولت طغمة من الجنرالات على السلطة في مدريد، بأمل مناقشة "الاستسلام السلمي" مع فرانكو، ومات ألفان أثناء القتال.

والتنازلات لصالح الهيبة البورجوازية كان لها ثمنها في حالات أخرى. فالأسطول الإسباني، بكامله تقريبا، اعتقل ضباطه وعارض الانتفاضة الفاشية في **1936**. وكان هذا بمثابة عائق صعب اعترض فرانكو، الذي كان يحاول نقل معظم

جيشه من مراكش إلى الأراضي الإسبانية. لكن حكومتي **جيرال Giral** وكاباليرو، في سعيهما للحصول على تأييد فرنسي وبريطاني، أمرتا الأسطول بالابتعاد عن طنجة، وأوقفت تدخله في خطوط الاتصالات الخاصة بفرانكو. والمنطق ذاته حال دون السعي لتحريك تمرد وراء خطوط فرانكو، بإعطاء مراكش (المملكة المغربية الآن – المترجم) ضمانا للاستقلال. لقد أرهقت الجيش الإسباني انتفاضات مناهضة للكولونيالية في العشرينيات، وكانت فرص تجديد النضال مرتفعة. وبدلا من ذلك، فحكومتا الجبهة الشعبية سعتا للحصول على رضا فرنسا وبريطانيا بمنح الدولتين امتيازات في مراكش الخاضعة لإسبانيا.

لكن محاولات استرضاء القوى الكبرى لم تحرز شيئا. رفضت بريطانيا وفرنسا تزويد الجمهورية بالسلاح، حتى عندما كانت إيطاليا وألمانيا تقدمان مساعدات ضخمة لفرانكو.

كان البحث عن هيبة البورجوازية يعني أيضا أن الجمهورية ليس لديها الكثير مما يمكن أن تقدمه لصغار الفلاحين الذين جرى تضليلهم فتطوعوا للحرب مع فرانكو وللأعداد الكبيرة من العمال المجبرين على الوجود داخل منطقته، بما فيهم الموجودون في مناطق ذات موروث نضالي مثل إشبيلية، وأوفييدو، وسرقوسة. ومن الملامح المدهشة لمشهد الحرب تدني مستوى المقاومة التي أظهرها أهل المناطق التي استولى عليها فرانكو– وهو ما يمثل تناقضا حادا مع ما جرى وراء خطوط الجبهة الخاضعة لجيوش البيض في الحرب الأهلية في روسيا.

وكان الحزب الشيوعي القوة الأنشط في معاداة السياسات المناهضة للثورة، بين قوى اليسار. لم تفعل قوته الأساسية ذلك لرغبتها في التقدم داخل المجتمع القائم، حتى وإن كان الحزب قد جند أعدادا كبيرة من المنتمين للطبقة الوسطى الذين كانت هذه هي دوافعهم. فالقوة الأساسية كانت تتألف من أناس مخلصين وشجعان، قبلوا الخط الستاليني الذي اعتبر أن النضال من أجل الثورة "غير عملي". وهكذا، ففيما

عارضوا المطالب الثورية، فقد حاربوا بحماس ثوري، دفاعا عن مدريد في خريف **1936**، مستخدمين لغة الطبقية لتجنيد العمال. لكن اللغة والسياسة كانتا مرتبطتين بسياسات كارثية، مثل السياسات التي اتبعها الديمقراطيون الاجتماعيون في أماكن أخرى في أوروبا. وبسحق الثورة في حصنها، في برشلونة، في مايو **1937**، فقد جعلوا من الصعب أيضا محاربة الفاشية. ودفعوا الثمن عندما زحف فرانكو، دون أن يجد من يوقف زحفه، على برشلونة في يناير **1939**، وتحول الجنرالات الجمهوريون إلى محاربة الشيوعيين بعد ذلك بأسابيع قليلة.

وهناك من يضع موضع التساؤل استخدام كلمة "فاشية" لوصف قوات فرانكو. حتى إن إيريك هوبزبوم يزعم أنه" لا يمكن وصف الجنرال فرانكو... بأنه نازي". وهؤلاء يركزون على الاختلافات بين "حركته" وبين الفاشيين الإيطاليين والنازيين الألمان. وبرأيهم، فلم تكن محاولة خلق حزب شمولي، على نمط الفاشيين وهو حزب الكتائب، سوى مكون واحد من مكونات الفاشية. وقد ضمت حركتــه أيضا ملكيين من الطراز العتيق، وجنرالات لم يكونوا يريدون سوى انقلاب بالإعلان **pronunciamento** من النوع الذي شاع في القرن السابق، كما ضمت ملاك أراض محافظين، وعناصر مخلصة للكنيسة، ومزارعين صغارا في نافار، من أتباع الحركة الكارلية **Carlist** التقليديين، الداعين للملكية في ظل عرش يتبع فرعا لأسرة بوربون، المتعلقين بمُثل تعود لأزمنة التفتيش.

وهذه محاجة باطلة، لأنها تتجاهل عملية "النمو المشترك وغير المتماثل" التي شرحها تروتسكي. فإسبانيا في ثلاثينيات القرن العشرين كانت بلدا متخلفا، طبقة ملاك الأراضي فيه متخلفة، وطبقة الرأسمالية متخلفة، وقواته المسلحة متخلفة، وكنيسته متخلفة. لكنه كان، بالوقت ذاته، جزءا من العالم الرأسمالي الحديث، وفيه مراكز صناعية متقدمة، وطبقة عاملة، وإن كانت صغيرة نسبيا فهي قوية، وقادرة على استخدام أحدث الأشكال الثورية للنضال. وقد ردت الطبقات

القديمة الحاكمة والمتوسطة بأحدث أشكال الاشتباك عند الثورة المضادة. وفي **1934** كان ذلك يعني استنساخ "الفاشية الكهنوتية" عند دولفوس، وفي عام **1936** الثوري كان ذلك يعني الفاشية الكاملة عند موسوليني وهتلر. لم يأت الاستنساخ كاملا، لأنه جمع بين تقاليد متباينة وطبقات مالكة متباينة، كبيرة وصغيرة. لكن النتيجة كانت حركة جماهيرية حقيقية، أنجزت ما لم ينجزه انقلاب عسكري من قبل– ليس فقط بهزيمة المعارضةن ولكن أيضا بتدمير الشبكات التنظيمية الأساسية للحركة العمالية. ويقدر عدد من أعدموا، بعد انتصار فرانكو، بحوالي نصف مليون شخص. وخرج أكثر من هذا العدد إلى المنافي. ولأكثر من عقدين بقي الجهر بوجهات نظر ليبرالية، ناهيك عن الاشتراكية، غير ممكن. ولم تستعد الحركة العمالية نشاطها إلا في أوائل الستينيات. وأولئك الذين نصبوا المتاريس في **1936** كانوا محقين في اعتبار من يحاربونهم فاشيين. وسياسيو الطبقة الوسطى الذين آمنوا بإمكانية المصالحة، على غرار ما جرى بين حكومات ملكية سابقة وانقلابات بالإعلان **pronunciamentos**، وقعوا في خطأ جوهري.

الهوامش

(1) A Sturmthal, The Tragedy of European Labour 1918-39 (London, 1944), p51.

(2) A Sturmthal, The Tragedy of European Labour, p172.

(٣) خطاب ألقاه قيادي ديمقراطي اجتماعي في فيننا في ذلك الوقت ونقل عنه براونتال في:

J Braunthal, In Search of the Millennium, (London, 1945) p280.

(4) J Braunthal, In Search of the Millennium, p280.

(٥) كما جاء في:

A Sturmthal, The Tragedy of European Labour, p176.

(6) A Sturmthal, The Tragedy of European Labour, p177.

(7) Jackson, The Popular Front in France, Defending Democracy 1934-38(Cambridge, 1990), p28.

(8) J Jackson, The Popular Front in France, p28.

(9) J Jackson, The Popular Front in France, pp5-6.

(١٠) الأرقام والعبارات منقولة عن:

J Jackson, The Popular Front in France, p88.

(١١) كما جاء في:

J Jackson, The Popular Front in France, pp10, 88.

(١٢) بحسب ما جاء في:

J Damos and M Gibelin, June '36 (London, 1986), p229

(١٣) بحسب ما جاء في:

J Jackson, The Popular Front in France, p112.

(14) J Jackson, The Popular Front in France, p13.

(١٥) وردت الأرقام في:

J Jackson, The Popular Front in France, pp219-220.

وانظر أيضا:

J Danos and M Gibelin, June '36, p214.

(١٦) لمعرفة أرقام من فصلوا أو منعوا من دخول مقر عملهم، انظر:

J Danos and M Gibelin, June '36, p230.

(17) G Orwell, Homage to Catalonia, (London, 1938).

(١٨) كما جاء في:

P Broué and E Témime, The Revolution and the War in Spain (London, 1972), p82.

(١٩) وصف تظاهرة أول مايو، في:

P Broué and E Témime, The Revolution, p81.

(٢٠) الأرقام منقولة عن خطاب لروبل، ورد في:

P Broué and E Témime, The Revolution, p84.

(٢١) انظر تقارير حول ما جرى في المدن الرئيسية في:

P Broué and E Témime, The Revolution, pp102-118.

(22) P Broué and E Témime, The Revolution, p121.

(٢٣) انظر الترجمة إلى الإنجليزية لتقرير عن الاجتماع كتبه الزعيم الفوضوي سانتيلان في:

P Broué and E Témime, The Revolution, p130.

(٢٤) انظر تقريرا عن خطاب ألقاه في أعضاء كونفدرالية الفوضويين النقابيين، بعد ذلك مباشرة، في:

R Fraser, Blood of Spain (Harmondsworth, 1981), p112.

انظر تقريرا متعاطفا مع الفوضويين النقابيين في:

J B Acarete, Durutti (Barcelona, 1975), pp176-179.

(٢٥) انظر التقرير عن الحرب في الشمال، في:

P Broué and E Témime, The Revolution, pp389-414.

- ٨ -

منتصف ليـــل القـــرن

"منتصف ليل القرن" هو العنوان الذي اختاره فيكتور سيرج لروايته التي نشرها في 1939، معبرا بها عن مشاعره حول ما جرى لآمال حياته، ولآمال البشرية ككل.

سُجن سيرج كفوضوي في فرنسا قبل الحرب العالمية الأولى، وكان قد شارك في حركة العمال إبان صعودها في برشلونة، وبعدها سافر إلى روسيا ليضع خدماته تحت تصرف الحكومة الثورية، وارتبط ذلك بعمله في خدمة الأممية الشيوعية في ألمانيا في **1923**. وبعد عودته إلى روسيا، انضم إلى معارضة الستالينية في منتصف العشرينيات، وأفضى ذلك إلى إجباره على قضاء ثلاث سنوات في مرحلة مبكرة من نظام الكولاك. وبفضل مفكرين يساريين في فرنسا، من أمثال **آندريه مالرو André Malraux**، تمكن من الهرب من روسيا قبل أن تبدأ حمامات الدم في منتصف الثلاثينيات، تاركا وراءه كثرة من الأصدقاء والرفاق تحت وطأة التعذيب وأحكام الإعدام. أصدقاء ورفاق آخرون كانوا في أيدي شرطة هتلر السياسية "الجستابو"، وهم أيضا واجهوا التعذيب والإعدام. وفي إسبانيا كان صديقه **يواقيم موران Joaquin Maurin** ينفذ حكما بالسجن عشرين عاما، في أحد محابس فرانكو، فيما اغتال عملاء ستالين في برشلونة. صديقا آخر هو آندريس نين. كانت الشمولية، على تباين أنواعها تجتاح أوروبا.

لم يكن سيرج الوحيد الذي تعين عليه أن يواجه هذا الواقع المخيف. آلاف مؤلفة من الناس الذين حاربوا من أجل عالم أفضل وجدوا أنفسهم في فخ نصبته

دول متنافسة: الشيوعيون الألمان سلمتهم شرطة ستالين للجستابو التابع لهتلر في **1940**؛ هرب اليهود البولنديون باتجاه الشرق، من وجه القوات الألمانية الزاحفة في **1939** ليجدوا أنفسهم سجناء الكولاك الروسي، واللاجئون من ألمانيا النازية أودعوا السجون، كجواسيس محتملين، في بريطانيا؛ الجنود الفارون من إسبانيا الجمهورية أودعوا معسكرات الاعتقال الجماعي في فرنسا الجمهورية؛ المستشارون الروس للجمهورية الإسبانية نفذ فيهم حكم الإعدام لدى عودتهم لموسكو، باعتبارهم "عملاء للفاشية".

وباعتباره تذكارا حيا لثورة **1917** جسَّد ليون تروتسكي كل ما تكرهه الحكومات، على اختلاف أنواعها. نفاه ستالين إلى تركيا، وطردته من فرنسا حكومة راديكالية، ومن النرويج حكومة ديمقراطية اجتماعية. دُفِع بابنته للانتحار في برلين، في الأسابيع الأخيرة قبل استيلاء النازيين على السلطة. مات أحد أبنائه في الكولاك، وآخر دس له السم أحد عملاء ستالين في باريس. وكان أن اغتيل تروتسكي نفسُه، بيد واحد من عملاء ستالين، في المكسيك في **1940**. وبالنسبة له كان التماثل بين النازية والستالينية بالغ الوضوح - الحزب الحاكم المهيمـن، المحاكمات الصورية، الشرطة السرية، معسكرات الاعتقال الضخمة، وحجب كل فضاء للتفكير المستقل أو للتعبير الفني المستقل.

لكنه خالف الرأي، الشائع هذه الأيام، الذي يعتبر الستالينية والهتلرية شيئا واحدا، من حيث الجوهر. فهذا رأي يمكن أن ينزلق بسهولة إلى ما يشبه دفاعا عن النازية، على أساس أنهم "لم يكونوا أسوأ" من أولئك الذين حاربوهم في الشوارع، في ألمانيا أو إسبانيا[1]. ويذهب تروتسكي إلى أن البُنَى السياسية المتماثلة تقوم على نظم اجتماعية متباينة المحتوى.

كان يؤمن بأن الاختلاف ينبع من أن الاتحاد السوفيتي بقي، على نحو ما، "دولة عمال"، وإن لحق به "تدهور بفعل البيروقراطية"، لأن الصناعة كانت مؤممة.

لكن هذا الجزء من طروحاته ليس محكما. فإذا لم يكن العمال مسيطرين على البُنى السياسية – وتروتسكي أكد ذلك، وهو محق في تأكيده – فهم ليسوا، بأي معنى من المعاني "المُلاك" لصناعة تديرها هذه البُنى. كانوا مستَغلَين، كغيرهم من العمال، في أي مكان آخر في العالم. لقد اغتيلت ثورة **1917** سياسيا واقتصاديا.

لكن ذلك لا يعني أنه أخطأ في تأكيده على الاختلاف بين الستالينية والنازية. فرأسمالية الدولة عند ستالين شيدتها طبقة حاكمة جديدة في بلد متخلف، دفعته الرغبة اليائسة في أن يكون لديه من القوة الاقتصادية والعسكرية ما يضاهي نظائرها عند منافسيه الأكثر تقدما إلى أن يركز في فترة زمنية وجيزة كل بشاعات "التراكم البدائي لرأس المال "التي صحبت نشوء الرأسمالية. وهذا هو السبب في استعباده الناس، وإعدامهم، وسجنهم، وترحيلهم، وتجويعهم. هذا هو الجوهر المنطقي للبارانويا والبربرية عند ستالين.

وبالمقابل، فالنازية نتاج رأسمالية صناعية نضجت بالفعل. وقد اعتبرت الطبقة الحاكمة الألمانية أن الطريقة الوحيدة لتجنب أزمة اقتصادية عميقة هي تسليم السلطة لحركة شمولية، تقوم على أوهام لا عقلانية لدى الطبقة الوسطى التي أصابتها الأزمة بالجنون. وبلغ هذا السياق ذروته، إبان الحرب العالمية الثانية، في "الحل النهائي"– في استخدام التقانات الصناعية الأكثر تقدما لإفناء ملايين البشر بسبب هويتهم الإثنية المفترضة، لا غير. أما ستالين فقد وضع ملايين الناس في معسكرات عمل، حيث مات واحد من كل عشرة بسبب إجهاد العمل. كانت لدى هتلر معسكرات مشابهة، ولكن بجوارها – وعلى نطاق أوسع كثيرا – أقام معسكرات الموت التي قُتِل الملايين فيها بالغاز، بكل بساطة. تورط كلاهما في البربرية، لكن نوعي البربرية بقيا مختلفين، بتطابق كل منهما مع مرحلة مختلفة من النمو الرأسمالي. قاسى الملايين بسبب الشوفينية الوطنية، والعداء للسامية، عندما لجأ إليهما ستالين لتعضيد حكمه، لكن الأغلبية نجت، لتروي ما حدث. وقلة من اليهود

أو الغجر الذين قاسوا في حكم هتلر هي التي تمكنت من النجاة. والتعبير "إبادة عرقية" يناسب الحالة الثانية، لا الأولى.

لا شك أن هذا لا يعني شيئا لمن ماتوا. لكن ترتبت عليه نتائج أوسع، وخاصة بالنسبة لمن ساندوا الأيديولوجيتين المتنافستين، في أماكن أخرى من العالم. تتألف نواة النازية من أناس أثارت حماسهم ملامحها البربرية، وأوهامها العنصرية القائمة على التطهير العرقي، وتقديسها "الدم والشرف". أما نواة الحركة الستالينية، في الغرب وفي العالم الثالث، فتألفت من أناس حاولوا أن يخفوا عن أنفسهم اعتمادها على الشمولية واستعدادها للجوء للشوفينية ولمعاداة السامية. تماهوا مع روسيا لأنهم أرادوا أشياء أفضل من لا إنسانية الرأسمالية وكانوا مقتنعين بأن تلك الأشياء موجودة في روسيا.

وهذه النقطة ترتبت عليها أمور مهمة. فالحركات النازية والفاشية المختلفة التي نشأت في الغرب وفي العالم الثالث نذرت نفسها لتحطيم تنظيمات الطبقة العاملة. وبالمقابل، حاولت الحركات الشيوعية مزج النضال من أجل حقوق العمال – وهو ما جعل الناس ينضمون إليهم، بالطبع – بالدفاع عن المتطلبات السياسية لحكام الاتحاد السوفيتي. حاول قادة هذه الحركات الموازنة بين الأمرين. وتكرر حدوث كوارث بسبب هذا الأمر الذي أفضى بالنضالات إلى هزائم – وهو ما يماثل النتائج التي ترتبت على سلوكيات الزعماء الديمقراطيين الاجتماعيين. لكن هذا لم يكن مماثلا للمحاولات الممنهجة لسحق الحركة العمالية، التي تميزت بها النازية.

أزمة الحلم الأمريكي

بالنسبة لليبراليين بدا أن هناك بارقة أمل واحدة وحيدة في منتصف الثلاثينيات. تمثل ذلك بالانتخابات الأمريكية التي أجريت عندما بلغ الكساد أسوأ

مراحله، في نهاية 1932، وهي الانتخابات التي أتت بكونجرس جديد يسيطر عليه الحزب الديمقراطي وبرئيس جديد هو **فرانكلين روزفلت Franklin D. Roosevelt**. يقينا، لم يكن هؤلاء الناس ثوريين، ولم يكونوا حتى إصلاحيين ديمقراطيين اجتماعيين من الصنف الأوروبي. كان الحزب الديمقراطي حزب مُلاك العبيد، وبقي حزب الانفصاليين البيض، وكبار القادة السياسيين الشماليين، ورأسماليين رئيسيين محددين.

لكن الجو المسيطر على الرأسمالية الأمريكية وعلى جماهير الناس في الولايات المتحدة، كان مثقلا باليأس في نهاية 1932. وجرى التعبير عن ذلك في شعور بضرورة عمل شيء ما، وإن كان غير مألوف، لتحريك الاقتصاد. بل إن الكونجرس نظر بجدية في مشروع بقانون لخفض أسبوع العمل إلى ثلاثين ساعة، كمحاولة لخلق المزيد من الوظائف. وبالنهاية نجح روزفلت في الحصول على موافقة على سلطات طوارئ اشتملت على ضوابط تضعها الدولة لتسيطر على الأنشطة الرأسمالية. اشتمل ذلك على ضمانات من نظام الاحتياط الفيدرالي لأرصدة البنوك، واستخدام أموال حكومية لشراء وتدمير محاصيل بغرض رفع الأسعار، وفيلق تعمير مدني لتأمين معسكرات عمل لصالح 2.3 مليون شاب عاطل، وشكل محدود من الضبط الذاتي للصناعة عبر الكارتلات لتنظيم مستويات الإنتاج والتسعير، ومقادير محدودة من إنتاج مباشر تقوم به الدولة عبر **هيئة وادي تنيسي Tennessee Valley Authotity** ، بل وتدابير سهلت على العمال تشكيل النقابات ورفع الأجور، بما يزيد الطلب الاستهلاكي. وأشعلت السرعة والشجاعة اللتان تجسدتا في هذه التدابير حماس من كانوا يعانون ويلات الكساد، وحماس الليبراليين السياسيين الذين كانوا يتطلعون إلى بديل للفاشية وللثورة الاجتماعية. وبدا أن هذه التدابير تمثل نقيضا حادا للإدارة السابقة، التي واجهت انتشار البطالة بإرسال خمسة وعشرين ألفا من القوات المسلحة ببنادق ثبتت عليها سونكيات، بقيادة الجنرال ماكارثر، في هيئة فارس

من الزمن الإقطاعي، لتفريق تظاهرة احتجاج نظمها محاربون قدماء عاطلون عن العمل. على الأقل، بدا أن روزفلت يُؤمِّن بعض الوظائف، ولو بأدنى معدل للأجر وفي ظروف بالغة السوء.

لكن تدابير روزفلت لم تكن مبتكرة ولا فعالة بالقدر الذي ظنه كثير من الناس. بقي روزفلت تقليديا للغاية، في أمر واحد – لم يستخدم الإنفاق الحكومي ليفلت من قبضة الأزمة. وفي الواقع، فقد خفض معاشات قدامى المحاربين، وقلص التوظيف في مصالح عامة. وكما كتب **كندلبيرجر Kindelberger** "بقيت الأدوات المالية المستخدمة للحد من البطالة محدودة الفعالية، مع بقاء الإدارة الديمقراطية برئاسة روزفلت ملتزمة بميزانية متوازنة"[٢]. ويشير كندلبيرجر أيضا إلى أن الاستثمار كان محتما أن يبدأ بالزيادة، عند نقطة معينة، من المستوى المنخفض لدرجة لا تصدق، الذي نزل إليه (من ستة عشر مليارا في **1929** إلى مليار واحد في **1932**)، وبدأت الزيادة بالفعل بمجرد أن بلغ مستوى العجز في البنوك أعلى نقطة له. وعلى أي حال، فقد حصل روزفلت على الائتمان اللازم لرفع الإنتاج من **95** بالمائة من المستوى الذي بلغه في منتصف العشرينيات، في مارس **1933** إلى **100** بالمائة في يوليو، وخفض البطالة من **13.7** مليون في **1933** إلى **12.4** مليون في **1934** و**12** مليون في **1935**. واعتقد كثيرون أن "الصفقة الجديدة" **New Deal** في عهد روزفلت حققت معجزات – وهي خرافة مستمرة ليومنا هذا. لكن شخصا واحدا من كل سبعة كان عاطلا في **1937** عندما بلغ الإنتاج، بالنهاية، المستوى الذي كان عليه قبل ثماني سنوات.

ثم شهد الاقتصاد في أغسطس**1937** "أعلى معدل للتراجع في تاريخ الولايات المتحدة" بخسارة "نصف المساحة التي اكتسبها بكثير من المؤشرات منذ **1932**"[٣]. تراجع إنتاج الصلب بأكثر من الثلثين في أربعة أشهر، وتراجع إنتاج المنسوجات القطنية بحوالي أربعين بالمائة، وأسعار منتوجات المزارع بنحو الربع.

لم يستمر الانتعاش الاقتصادي طويلا. لكنه اقترن بتحسن في الحقوق النقابية، فترتب عليه أثر جانبي واحد بالغ الأهمية. خلق شعورا جديدا بالثقة، لدى أقسام من الطبقة العاملة، في قدرتها على القتال. حدثت طفرة في عدد المنضمين للنقابات، وإن بقي العمال المضربون عرضة لهجمات قاسية من أصحاب العمل ومن الشرطة. وفي الشهور الستة الأولى من عهد صفقة روزفلت الجديدة، قُتل أكثر من خمسة عشر عاملا من المُضربين، وجرح مائتان، واعتقل المئات(٤). لكن تبين من ثلاثة إضرابات في **1934** كيف يمكن لهذه الثقة أن تمتزج بالمرارة التي تسبب بها الكساد لتنفجر في صورة نضالية لم يُعْرف لها مثيل منذ هزيمة إضراب عمال الصلب في **1919**. أعلن عمال قطع غيار السيارات في توليدو، وسائقو الشاحنات في مينيابوليس، وعمال الشحن في سان فرانسيسكو إضرابا ذا طابع متشدد، وتحدوا تعليمات قضائية، ودافعوا عن أنفسهم بوسائل مادية ضد رافضي الإضراب والشرطة، وحققوا انتصارات مدوية. وفوق ذلك، فقد كان المناضلون الاشتراكيـــون هم من قادوا كل واحد من هذه النضالات، التروتسكيـــون في مينيابوليس، والشيوعيون في سان فرانسيسكو، وأتباع القس السابق الراديكالي **أبراهام جوهانس موستي A J Muste** في توليدو. وضمن حصاد هذه المنازعات، بدأ النقابيون في صناعة السيارات المتصاعدة الأهمية يجندون أعضاء نقابيين، على نطاق واسع، وطالبوا بنقابة تقوم على صناعة السيارات ككل، لتحل محل نقابات الحرف القائمة، التي تقوم على أساس المهارات على خط الإنتاج.

ولم يفت على قيادات معينة في التيار النقابي الرئيسي مغزى ما يحدث. كانت عضوية نقاباتهم تتراجع منذ سنوات – بنزول عدد الأعضاء من أربعة ملايين في **1920** إلى ما يزيد قليلا عن المليون في **1933**– ومع هذا التراجع كانوا يفقدون نفوذهم في دوائر الحكومة والطبقة الحاكمة. وهكذا، بدأ البعض يرون طريقة لاستعادة النفوذ. ومضت جماعة منهم يقودها زعيم من قطاع عمال المناجم هو **جون لويلن لويس John Llewellyn Lewis** إلى إنشاء لجنة تنظيمية، هي مؤتمر المنظمات الصناعية **CIO**، بهدف تجنيد الملايين من عمال الإنتاج الكبير كأعضاء في النقابات الصناعية.

واستلهم العمال في عشرات من المواقع عملية تكوين المنظمة الجديدة باستنساخ الأساليب النضالية التي نشأت عنها نجاحات **1934**. وجلس العمال في مصانع جوديير وفاير ستون للإطارات في آكرون، بولاية أوهايو، لمنع الإدارة من وقف الإضراب في ديسمبر **1935** ويناير **1936**. وأحاطت حشود هائلة من العمال المضربين لمصنع جوديير لمنع الشرطة من إحضار محترفي فض الإضرابات(٥). وشهد ذلك العام أكثر من أربعين إضرابا أخرى، بجلوس العمال على أرضيات المصانع. بدأ أكبرها وأهمها في ديسمبر في مصانع **جنرال موتورز GM في فلنت، بولاية ميتشيجان**. وبنهاية الإضراب كان مائة وأربعون ألفا من مائة وخمسين ألف عامل قد شاركوا، إما بالجلوس على أرضيات المصنع، وإما بالمرابطة أمام الأبواب لمنع الحركة. وكما جرى في إضرابات أخرى في تلك الفترة، هُدِّدوا بإجراءات قضائية، وتعين عليهم الرد بالقوة على هجمات الشرطة المسلحة. ولكن، تعين في النهاية أن تعترف كبرى الشركات الأمريكية بالنقابة. وكما يكتب الناشط النقابي من تلك الفترة آرت برايس **Art Preis**، مستذكرا ما جرى:

> **انفتحت البوابات ليتدفق سيل الصراع الطبقي. ترددت الصيحة "اجلسوا" من طرف المنطقة لطرفها الآخر. وبعد شهر واحد من نهاية إضراب جنرال موتورز شارك قرابة 193 ألف عامل في 247 من عمليات احتلال المصانع؛ قرابة نصف المليون استخدموا هذا السلاح قبل نهاية 1937... انتشرت الاحتلالات في كل صناعة ومهنة...عمال السيارات في كرايسلر، البائعات في المحال، سعاة ويسترن يونيون، موظفو المطاعم والفنادق، صانعو القبعات النسائية، عمال تجليد الكتب، جامعو القمامة، صانعو الزجاج، وصانعو إطارات السيارات(٦).**

شارك في الإضرابات قرابة مليون وثمانمائة ألف عامل، ووقفت وراءه لجان المساندة، و"الاحتياطي النسوي" ممن تولين رعاية الأطفال وإطعامهم في غياب الأم المشاركة في الإضراب، وفرق قدمت الترفيه. ووصل الحجم الكلي لعضوية

النقابات سبعة ملايين، بنهاية 1937، بزيادة قدرها خمسة ملايين عما كان عليه قبل أربعة أعوام.

انطوت الإضرابات على إمكانيةِ تغييرِ كاملِ ثقافةِ الرأسماليةِ الأمريكية، بتحدي الفردانية المتغلغلة فيها- خرافة "الحلم الأمريكي" الذي يقول بأن بوسع كل واحد أن يواصل التقدم- والعنصرية التي كانت الوجه الآخر لكل هذا. وحيثما حققت النقابات نجاحا راحت تخلق ثقافة جديدة تقوم على العمل الجماعي، في أوساط العمال تلخصها الغنوة النقابية "تضامن إلى الأبد"، التي كنت تُغَنَّى في الاحتلالات- وبدأت تفكك العنصرية في مدن مثل ديترويت. كان مؤتمر المنظمات الصناعية المؤسسة الكبيرة الوحيدة في الولايات المتحدة التي تتيح الفرصة للسود، لـ"مشاركة حقيقية" بجوار البيض[٧].

مشكلة مركزية واحدة حالت دون التحقق الكامل لهذه الإمكانية – السياسات التي سادت مع تنامي الحركة النقابية. كانت الحركة النقابية الحِرْفية في السنوات التي سبقت 1936 حركة "لا سياسية". تقبلت الغالبية العظمى من قياداتها الرأسمالية الأمريكية باعتبارها أكثر طرق تنظيم المجتمع اكتمالا، وعقدت صفقات مع السياسيين المحليين المنتمين لأي من الحزبين. كان جون لويلن لويس، على سبيل المثال "جمهوريا فيما يتصل بالسياسة، ومن أتباع آدم سميث في الشئون الاقتصادية، وأوتوقراطيا في نقابته"[٨]. وكان قادة مؤتمر المنظمات الصناعية الجديد يعتقدون أن التحالف مع روزفلت ومع الحزب الديمقراطي هو ما يخدم قضيتهم.

وراقت لروزفلت فكرة أن يشارك مؤتمر المنظمات الصناعية في حملته الانتخابية، لكنه لم يكن مستعدا لإغضاب الرأسماليين الذين يؤيدونه هم أيضا. وظهر ذلك على نحو دراماتيكي في نهايات 1937 عندما انخرط لويس في أكبر عملية تعبئة تنظيمية حتى ذلك التاريخ – في صناعة الصلب. عين مؤتمر المنظمات الصناعية 433 من المنظمين طوال الوقت أو بنصف الوقت، ممن

مارسوا عملهم في 35 مكتبا إقليميا. وفي أعقاب إضراب جنرال موتورز، اعترفت كثرة من شركات الصلب بلجنة تنظيم عمال الصلب كنقابة، من دون مشاركة كبيرة من الأعضاء الجدد في النقابة. لكن المؤسسات الضخمة رفضت أن تفعل ذلك، وفي أواخر مايو دعت اللجنة التنظيمية لإضراب شارك فيه خمسة وسبعون ألف عامل. وردت الشركات بكل الوحشية التي أظهرتها في مواجهة إضراب عمال الصلب، في **1919**. هاجمت خطوط الواقفين على الأبواب لمنع حركة العمال، مستخدمة "بلطجية الشركة، والشرطة، والحرس الوطني... فقُتِل ثمانية عشر مُضرِبا، وجرح العشرات، واعتُقِل المئات[٩]. لم تقم اللجنة التنظيمية بإعداد العمال لمثل هذا الهجوم، لأنها وضعت ثقتها في الحكام والعمد من الحزب الديمقراطي، الذين أظهروا تعاطفا مع التوجه التنظيمي. ولهذا، فاللجنة التنظيمية "أخبرت العمال بأن جميع المسئولين العموميين في الصفقة الجديدة هم من أصدقاء العمال، وأن المضربين يتعين عليهم الترحيب بالحرس الوطني، وبقوات الولايات وبالشرطة، ممن أُرسِلوا لحفظ النظام"[١٠]. وانهارت الروح المعنوية عند العمال، تماما، عندما رأوا هؤلاء "الأصدقاء" يهاجمونهم بالهراوات والرصاص. وفي بنسلفانيا أعلن أول حاكم من الحزب الديمقراطي للولاية منذ أربعة وأربعين عاما الأحكام العرفية في مدينة صناعة الصلب، جونستون. أعادت قوات الولاية فتح المصنع، وأنزلت عدد الواقفين على الأبواب لستة، ودفعت إلى داخل المصنع بأعداد متزايدة من رافضي الإضراب. وفي يونجستن بولاية أوهايو، حيث كان يوجد أيضا حاكم من الحزب الديمقراطي، أطلق نواب الشريف النار على اثنين من الواقفين على مداخل المصنع فقتلوهما. وفي شيكاغو قتلت الشرطة التي أرسلها العمدة المنتمي لحزب الديمقراطي عشرة من المُضرِبين. وعندما تطلع قادة مؤتمر المنظمات الصناعية إلى روزفلت متوقعين أن يساعدهم، قال "لتحل اللعنة على بيوتكم"[١١]. توقفت أكبر حملة لتنظيم العمل النقابي في اللحظة التي كان الاقتصاد قد بدأ الانحدار باتجاه كساد جديد.

وفي العامين التاليين، قبل مؤتمر التنظيمات الصناعية بين صفوفه أربعمائة مشترك جديد أضيفوا إلى من انضموا إليه في الشهور الاثنين والعشرين الأولى. وفي **1939** كان عدد الإضرابات لا يزيد عن نصفها في عام **1937**. وفوق ذلك، فقد تزايد لجوء القادة النقابيين للتواطؤ مع أصحاب العمل، وللحد من التوترات بين الأعضــــاء. وفي اتحاد عمال السيارات بُذلت محاولة لمنع صدور أي مطبوعـــة لا توافق عليها القيادة، في حين لم يكن واردا إجراء انتخابات في نقابة عمال الصلب المشكلة حديثا، لخمس سنوات. وحلت محل النضالية العفوية التي عرفتها الفترة **1934-1936** سيطرة محكمة من أعلى.

حاول ناشطون كثيرون مقاومة هذا التوجه. ولكن، كما جرى في فرنسا وإسبانيا، اعترضت جهودهم مصاعب مصدرها سلوكيات الحزب الشيوعي. لعب ذلك الحزب دورا قياديا في نضاليات الفترة **1934-1937**، بعد أن اتخذت كثرة من ناشطيه مواقع تنظيمية في الحملة التي شنها مؤتمر المنظمات الصناعية لتنظيم العمال، واجتذبت شجاعتهم وجرأتهم أعدادا كبيرة من الأعضاء الجدد. وحتى **1935** كان الحزب الشيوعي يصر على أن روزفلت سياسي رأسمالي وأن الصفقة الجديدة خدعة. ثم غير مواقفه تماما ورحب بروزفلت وبديمقراطيي الصفقة الجديدة، ضمن النسخة الخاصة به من سياسات"الجبهة الشعبية". وعمل الحزب مع قادة النقابات لنشر أوهام حول هؤلاء السياسيين. واشتغل الحزب مع قادة النقابات للترويج لأوهام حول أدوار هؤلاء السياسيين، ولضبط قواعد المنظمات النقابية، حتى لا يقدم أي منهم على أمر يفسد العلاقة مع سياسيي الحزب الديمقراطي. واستمر هذا الأمر لعشر سنوات تالية، باستثناء فاصل زمني وجيز، أيام تحالف هتلر وستالين، في بداية الحرب العالمية الثانية. ومكن ذلك قادة القابات من إحكام السيطرة البيروقراطية على معظم النقابات – وهي سيطرة سيستخدمونها في الأربعينيات لإنهاء أي تأثير شيوعي.

ترتبت على سلوك كهذا نتائج سياسية مهمة. فقد وجد الكتاب، والفنانون، والموسيقيون، وصانعو الأفلام أنفسهم، فجأة، في مجتمع، هزه انهيار وول ستريت والكساد هزة عميقة. صارت كل القيم القديمة موضع تساؤل، وفقدت الطبقة الحاكمة القدرة على تحديد توجهاتها، مؤقتا، وفقدت الجماهير، وبينها أقسام من الطبقة الوسطى، ثقتها بالطبقة الحاكمة. وفي **1934**وما بعدها، انبثقت مجموعة قيم جديدة، بقوة حركة الإضراب وطفرة الحركة النقابية. لم ينحصر التأثير في الفنون والآداب الراقية، بل امتد أيضا إلى الفنون الجماهيرية مثل الموسيقى الشعبية ومصنع الأحلام في هوليوود- وذلك في اللحظة التي بدأت هذه الفنون الجماهيرية تمارس سطوة كونية.

وانعكس ذلك على أعمال كتاب مثل جون دوس باسوس، **وريتشارد رايت Richard Right**، **ورالف إليسون Ralph Ellison**، **وداشيل هاميت Dashiel Hamett**، **وجون شتاينبك John Steinbeck**، **وأعمال صناع الأفلام مثل تشارلي تشابلن Charlie Chaplin**، **وجوزيف لوزي Joseph Losey**، **ونيكولاس راي Nicholas Ray**، **وإيليا كازان Elia Kazan**، وعلى **أورسون ويلز Orson Welles الشاب**، **وعلى موسيقيين مثل آرون كوبلاند Aaron Copland**، **وودي جوثري Woody Guthrie**، **وبول روبسون Paul Robson**، **ديزي جيليسباي Dizzy Gillespie**، وحتى على **فرانك سيناترا Frank Sinatra** الشاب. ولكن مع الصفقة الجديدة كانت هناك فرصة لأن تعود تيارات منشقة إلى التيار الرئيسي. فقد كانت تؤمن وظائف في المشروعات الاتحادية، وأماكن في الصحف وفي برامج الإذاعة، وأتيحت أيضا فرص في هوليوود. ورأى ديموقراطيو الصفقة الجديدة في المثقفين، وكذلك في بيروقراطيي الحركة النقابية، شريحة يمكن استخدامها للمساعدة على فرض نموذج جديد للاستغلال على المجتمع ككل.

وحتى 1936 كان قسم واسع من مثقفي اليسار المثقفين يقاوم هذه الإغراءات، موضحين الفروق التي تفصل بين أهدافهم وأهداف روزفلت. وانصب التركيز على "الفن البروليتاري" الذي كان يعني على عيوبه من حيث النظرية والتطبيق معا، محاولة التواصل مع نضال الطبقة العاملة ومع جمهورها. وتغير ذلك بمجرد أن بدأ الحزب الشيوعي يساند روزفلت. فلم يعد يوجه الانعطافة العفوية لدى المثقفين نحو الراديكالية باتجاه الإطاحة بالنظام الاجتماعي كله، بل باتجاه ممارسة الضغوط داخل النظام الاجتماعي. وأحد تجليات هذا التحول تمثلت بتبني لغة "الأمريكانية" **Americanism** التي كانت تنحصر، تقليديا، باليمين - وأصبح شعار الحزب هو "الشيوعية هي أمريكانية القرن العشرين". وتمثل تجل آخر بتشجيع العاطفين من الكتاب وصناع الأفلام على تبني مواقف معتدلة، حتى يكتسبوا مراكز متقدمة ونفوذا داخل استوديُوهات هوليوود. وأضعف هذا الميول اليسارية لدى كثرة من الفنانين الذي مالوا للراديكالية، وشجعهم على تبني الخيار السهل المتمثل بتقديم تنازلات لهوليوود أو **تين بان آلي Tin Pan Alley**. [مجموعة المشتغلين بالموسيقى والغناء الشعبيين، نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين - المترجم].

ويشير جيمس تي فاريل، وهو واحد من أكثر روائيي الثلاثينيات اقتدارا إلى أن:

> **ساعد المناخ الثقافي للصفقة الجديدة الذي ظهر في أمريكا الثلاثينيات، والذي قدمت مثالا واضحا عليه كثرة من أفلام سينمائية، وتمثيليات إذاعية، وروايات، طوال فترة الحرب، على إنتاج ما يشبه أدبا شعبويا معنيا بالإنسان العادي. ويؤكد هذا التيار من الشعبوية الجديدة في الأدب والفن على قيم الأمريكانية، كوسيلة لتوحيد كل الأعراق، والمعتقدات، والطبقات. وبدلا من أدب يقدم وصفا لدخائل الفروق الطبقية... فقد أكد هذا الأدب، عموما وعلى نحو عاطفي، على تيمة theme أن العوام كائنات بشرية؛ واستخدم أيضا تيمة أن الأغنياء هم أيضا أمريكيون، وأنهم مثل العوام[١٢].**

وكان يمكن لاحتضان الحزب الشيوعي لروزفلت، أيضا، أن يسفر عن ارتدادات مثل ارتدادة البطل الأسود لرواية رالف إيليسون "الرجل الخفي". فهو يتخلى عن أوهامه عندما يطلب إليه الحزب (الذي يتخفى وراء غطاء شفيف، بوصفه "الإخوان" **The Brotherhood**) أن يوقف نضالات السود في هارلم، لأن الحزب "يعقد تحالفات مؤقتة مع جماعات سياسية أخرى، ويتعين التضحية بمصالح مجموعة واحدة من الإخوان، من أجل المصلحة الشاملة"[١٣]. وشجع الإحباط الذي استشعره كتاب مثل إليسون وريتشارد رايت، ناشطين من السود، بعد ذلك، على التفكير بأن الاشتراكيين ليسوا سوى مجموعة أخرى من البيض تسعى لاستخدامهم. بالوقت ذاته، أصبح مثقفون بيض، ممن كانت لهم إحباطاتهم، يشعرون بأن الاشتراكيين، كغيرهم من السياسيين، يستخدمون الآخرين. ووصل الحال بهذا التشكك عند بعضهم أن انقلبوا مساندين لمناهضي الشيوعية في حملات المطاردة التي عرفتها الأربعينيات والخمسينيات.

على أية حال، انتكس التوجه الأيديولوجي الذي تحدى الحلم الأمريكي، في الوقت الذي بدأ فيه ذلك الحلم يحقق سيطرة كونية، عبر الموسيقى الشعبية وأفلام السينما، على نحو يكاد يتماثل مع انتكاسة الحركة العمالية.

من الكساد إلى الحرب

أفضى الكســـاد إلى توترات بين الدول بمثل ما أفضى إلى توترات بين الطبقات. سعى حكام كل بلد إلى تخفيف الضغوط الواقعة عليهم، على حساب منافسيهم في الخارج. ومضوا، واحدا بعد الآخر، على طريق تشجيع مبيعات السلع المُصنَّعة محليا، بخفض قيمة العملة وإقامة الحواجز الجمركية المتمثلة بالتَّعْرفات. وكان السائد هو التوجه نحو الاكتفاء الذاتي **autarchy**– بإنتاج كل ما يمكن إنتاجه داخل حدود الدولة الوطنية.

وانخرطت الدولة أكثر من أى وقت مضى (باستثناء فترة الحرب العالمية الأولى) في أنشطة اقتصادية مباشرة- مقررة أهمية صناعات بعينها، بإجبار المؤسسات الناقصة الكفاءة على إغلاق أبوابها، وبإنشاء ملكية الدولة لقطاعات بعينها لتعزيز الفرص أمام قطاعات أخرى. بل إن حكومة المحافظين "الوطنية" البريطانية أممت توليد الكهرباء، والخطوط الجوية، وحقوق استغلال مناجم الفحم.

وفي بعض البلدان الأقل تقدما في أمريكا اللاتينية وأوروبا، مضى هذا السياق إلى غايات أبعد. فأسست حكومات "شعبوية" مثــل حكومة **فارجاس Vargas** في البرازيل وحكومـــة **بيرون Peron** في الأرجنتين قطاعات كبيرة مملوكة للدولـــة. ووضعت حكومة يمينية في بولندا خطة اقتصادية طويلة الأمد، وفي إيطاليا أنشأ موسوليني شركات تديرها الدولة، في محاولة لتخفيف آثار الأزمة الاقتصادية العالمية.

لكن بقي تناقض بين استخدام الدولة لتعزيز مركز كل جماعة من الرأسماليين الوطنيين، وبين رغبة كل الرأسماليين في الوصول إلى الموارد، وراء حدود الدولة الوطنية المفردة. وكانت الطريقة الوحيدة لمعالجة هذا التناقض هي التوسع في المنطقة التي سيطرت عليها الدولة. وأصبحت "الإمبراطوريات الرسمية" و"مناطق النفوذ" الرسمية أمورا بالغة الأهمية. وتمثل الاكتفاء الذاتي بـــ"كتل نقدية" سيطرت عليها القوى الكبرى – كتلة الدولار، منطقة الاسترليني، كتلة الذهب (المتمركزة على فرنسا وإمبراطوريتها) وكتلة المارك، والاتحاد السوفيتي. وكما أشار الاقتصادي آلفين هانسن **Alvin Hansen** في **1932:**

> **يحاول كل بلد تخليق منطقة نفوذ، لا يكون اقتحامها من جانب الرأسماليين من بلدان أخرى أمرا مرغوبا. وفي بعض الأحيان لجأت الولايات المتحدة للحصار البحري لتمنع الدول الأوروبية من تحصيل ديونها في أمريكا اللاتينية... وبالمثل فالتنافس المطول، والذي لم يحسم بعد، بين دول أوروبا، للسيطرة على إفريقيا،**

والشرق الأدنى، ومحاولة السيطرة غير المباشر، عبر المساعدات الاقتصادية، على دول البلقان، هو سجل لصراع واحتكاك دوليين ترتب على تغلغلات رأس المال الأجنبي(١٤).

ولم تكن مناطق النفوذ متناظرة. فقد سيطر الحكام في بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي على مناطق شاسعة. في حين أن ألمانيا، أكبر قوة صناعية في القارة الأوروبية، تمتلك مستعمرات، وكانت حركتها محصورة في الحدود الضيقة التي فرضتها عليها القوى الأخرى بمعاهدة فرساي، في نهاية الحرب العالمية الأولى. وكانت نتيجة الأزمة، كما رأينا، هي انخراط البيزنيس الألماني في حملة قوية تدعو للتخلص من القيود التي فرضت في فرساي. طالب باستعادة أقاليم ألمانية خسرتها ألمانيا لصالح بولندا، واستيعاب الدولة النمسوية الناطقة بالألمانية والأراضي التشيكية الحدودية **Sudetenland** ، ومواصلة السعي للهيمنة على جنوب شرق أوروبا. ولم يكن انتصار هتلر مجرد انتصار على العمال. كان انتصارا، بالوقت ذاته، للقوى الراغبة في حل أزمة الرأسمالية الألمانية، عبر سياسة توسع عسكري على حساب القوى الكبرى الأخرى.

ووافقت مجموعات القوى الصناعية الألمانية، بدرجات متفاوتة من الاقتناع، على التنسيق فيما بينها والقبول بالتخصيص المركزي للاستثمارات، وبسيطرة الدولة على التجارة الخارجية، وعلى توزيع الدولة لحصص من الموارد. والرأسمالي الكبير الوحيد الذي أظهر معارضة شديدة، وهو تايسن – أحد أول من مولوا هتلر– صادر الحزب النازي ممتلكاته وأُجبر على الهرب للخارج. وواصل الآخرون تواطؤا مربحا مع النازيين، حتى انهيار ألمانيا عسكريا في **1945**.

وشجع إنشاء اقتصاد أوتاركي/ اقتصاد اكتفاء ذاتي، على أساس رأسمالية دولة عسكرية، بدوره، على التوسع المسلح. فالصناعات المسلحة احتاجت المواد الخام والموارد. وتردد النظام النازي، بما لديه من ذكريات الهبات الثورية في

الفترة 1918-1920 في الضغط، على العمال الألمان، بأكثر مما يجب. زاد عدد ساعات العمل، وكثف ضغوط التشغيل، لكنه حاول أيضا زيادة المنتَج من السلع الاستهلاكية، بغرض خفض مستوى السخط بين العمال وبين الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى[١٥]. وكانت الطريقة الوحيدة المتاحة له للحصول على ما يحتاجه من المــوارد هي الاستيلاء على المزيــد من الأراضي. فقد كان بوســع الإنتاج الزراعي للنمسا، وصناعة الأسلحة التشيكية، وركائز الفحم البولندي، وثروات الصلب في الألزاس واللورين، والنفط في رومانيا سد الثغرات في الاقتصاد الألماني – كما كان يمكن لعمال تلك الأراضي – الذين كانت أجورهم أدنى بكثير من أجور العمال الألمان وظروف عملهم أقرب لظروف عمالة الرق، أداء الوظيفة ذاتها. كان هناك توافق بين احتياجات رأس المال الكبير وبين الأيديولوجية النازية، التــي طرحت مفهوم المجال الحيــوي **Lebensraum**، واعتبرت غير الألمــان **Untermenschen** كائنات أدنى من البشر.

وفي شرق آسيا تماثل مشروع اليابان مع المشروع الألماني، التي كانت قد استولت، بالفعل، على تايوان وكوريا كمستعمرتين، وأصبحت لها امتيازات واسعة في الصين. وفي **1931** تمثل رد فعلها على الأزمة الاقتصادية العالمية بالاستيلاء على منطقة منشوريا في شرق الصين. وبعد ذلك، في أواخر الثلاثينيات، غزت الحكومة، التي تشكلت في أعقاب انقلاب عسكري في طوكيو، الصين، وبدأت تمد بصرها على أجزاء من إمبراطوريات غربية في جنوب شرق آسيا – الهند الغربية الهولندية، المستعمرات البريطانية في الملايو، وبورنيو، وسنغافورة، والمستعمرات الفرنسية في الهند الصينية، والفلبين الخاضعة لإدارة أمريكية.

وعلى نطاق أضيق، حاولت إيطاليا موسوليني توسعة إمبراطوريتها الاستعمارية بالاستيلاء على إثيوبيا لتضيفها إلى أرض الصومال، وإريتريا، وليبيا، وكانت تأمل بفرصة للاستيلاء على ألبانيا، والساحل الأدرياتيكي ليوغسلافيا.

وحارت القوى الاستعمارية الراسخة- بريطانيا، وفرنسا، وهولندا، وبلجيكا- ولم تعرف كيف تتصرف. كانت لها مصالح متباينة: كانت بريطانيا وفرنسا تتصارعان على الهيمنة على الشرق الأوسط؛ وحرص قسم من الطبقة الحاكمة في الولايات المتحدة على خلع بريطانيا كقوة دولية مهيمنة، وأسس نفوذا ذا تأثير حاسم على المملكة العربية السعودية الغنية بالنفط؛ واهتمت فرنسا، بالأساس، بالحفاظ على حزمة تحالفات في شرق أوروبا، بهدف تحويل ألمانيا بعيدًا عن أي تحرك يستهدف حدودها. وكانت بين كل هؤلاء جماعات تعتبر النازيين حلفاء إيجابيين، في هجوم دولي على تنظيمات الطبقة العاملة وعلى اليسار. وإذا كان لديهم من يعتبرونه عدوا، فقد كان الاتحاد السوفيتي هو العدو، بأكثر مما كانت ألمانيا، أو إيطاليا، أو اليابان. وظهر ذلك جليا إبان الحرب الأهلية الإسبانية، حين سمحت الحكومات "الديمقراطية" في الغرب لهتلر وموسوليني بخرق "معاهدة عدم تدخل"، ما دام فرانكو لا يمثل خطرا على إمبراطورياتها.

وتمكنت إيطاليا من الاستفادة من هذه المشاعر عندما هاجمت إثيوبيا في 1935، وفعلت اليابان الأمر ذاته عندما احتلت منشوريا وهجمت على الصين. وفي ;1938 كان الدور على هتلر. فعندما ضم النمسا في مارس، ثم طلب بضم المناطق الحدودية التشيكية، التي يسكنها ألمان، في الصيف، لم تكن الأقسام المسيطرة في الطبقات الحاكمة في بريطانيا وفرنسا ترى في ذلك ما يدعوها للمخاطرة بحرب قد تتسبب بها معارضتها له.

كان هتلر عنصريا مصابا بخلل نفسي، يطمح إلى تأسيس ألمانيا "المطهرة" عرقيا، كقوة مركزية في أوروبا، وكقوة مسيطرة عالميا. لكن استراتيجيته في الثلاثينيات كان لها منطقها، من وجهة نظر الرأسمالية الألمانية. وعمليا، فقد اختبر المدى الذي قد تسمح القوى الإمبراطورية الأخرى بأن يمضي إليه وهو يوسع مناطق النفوذ الألمانية.

وقد عبر عن المنطق ذاته حين هدد بولندا في صيف **1939**، بعد اتفاقه السري مع ستالين على اقتسام البلاد في معاهدة **مولوتف ريبنتروب Molotov-Ribbentrop**. كان يعلم أن ألمانيا لا تملك الموارد الكافية لحملة شاملة تستمر لأكثر من شهرين. لكنه افترض أن بريطانيا وفرنسا لن تساندا بولندا كما لم تساندا التشيك. وبالنهاية، فالحكومة البريطانية قبلت في ديسمبر **1938** بأن تكون بولندا دائرة في فلك ألمانيا، وانتهت هيئة الأركان البريطانية إلى أنه لا يمكن الدفاع عن بولندا. كان هتلر يدرك أن بوسعه إخضاع البلاد في أيام قليلة. وقد اعتقد أنه لو تدخلت بريطانيا وفرنسا فسوف يكون بوسعه إلحاق هزيمة سريعة بفرنسا، وبعدها سوف يتوصل حكامها وحكام بريطانيا إلى تفاهم معه، ما دام لن يمس بإمبراطوريتيهما.

لكن الصواب جانبه في أمر واحد. تألفت جماعة في الدوائر البريطانية الحاكمة، أحاطت باستعماريين متشددين هما وينستون تشيرشيل وأنطوني إيدن، وآمنت بأن السيطرة الألمانية في قلب أوروبا خطر على الإمبراطورية البريطانية. وعلى سبيل المثال، فالحلم الألماني القديم بسيطرة تمتد عبر دول البلقان إلى الشرق الأوسط، تهدد آبار النفط وقناة السويس التي تصل بريطانيا بإمبراطوريتها في الهند. وجعلت تحركات هتلر الآخرين يتقاسمون المخاوف، فتولدت عن ذلك ضغوط تكفي لإعلان الحرب من جانب بريطانيا وفرنسا، عقب الهجوم الألماني على بولندا، ثم بعد ذلك بتسعة أشهر، منعت بريطانيا من القبول بفتوحات ألمانيا في أوروبا.

كانت حسابات هتلر الأخرى صحيحة. كانت الطبقة الحاكمة في فرنسا، وأقسام من الطبقة الحاكمة في بريطانيا تمضي إلى الحرب وهي مترددة. لم يفعلوا شيئا لمساعدة البولنديين- رغم أنهم عملوا على إجلاء قسم من الجيش البولندي لخدمة أغراضهم، فيما بعد. ثم أنفقت بريطانيا الشتاء البالغ الأهمية في **1939-1940** في مساندة حكومة فنلندية يؤيدها الألمان في حربها على روسيا. وتمكنت ألمانيا من استخدام فترة "الحرب الزائفة" هذه في استعداد **لهجوم كاسح Blitzkrieg** على

فرنسا، عبر هولندا وبلجيكا، بهدف إلحاق الهزيمة بالجيش الفرنسي قبل أن تنفد الموارد الألمانية المحدودة.

وكان هتلر محقا أيضا في توقع انتصار سريع على فرنسا. كسر هجوم ألماني ظهر الجيوش المتحالفة في بلجيكا وشمال فرنسا في أسبوعين من شهر مايو **1940**، مجبرا الجيش البريطاني على الجلاء عن دنكيرك، في نهاية الشهر، ودخل الجيش الألماني باريس في الرابع عشر من يونيو.

وكان هذا الانتصار هو الحافز الذي احتاجه موسوليني ليدخل الحرب إلى جانب ألمانيا، وهذا الانتصار هو الذي جعل هتلر مسيطرا، بغير منازع، على أوروبا الغربية والوسطى. أصبح بوسعه التمهل قبل أن يقرر اتجاه تحركه التالي، حتى بعد أن تبين سوء أداء قواته الجوية في المواجهات الجوية فوق جنوب بريطانيا (معركة بريطانيا) لدرجة تجعل غزو بريطانيا أمرا صعبا. وبعد عام من انتصاره على فرنسا استقر على خيار مختلف - ضربة صاعقة بقوة قاهرة ضد روسيا، متوقعا انتصارا سهلا قبل الشتاء.

طبيعة الحرب

نظر اليساريون والليبراليون في أوروبا وأمريكا الشمالية إلى الحرب باعتبارها حربا بين الفاشية والديمقراطية. وروجت في بريطانيا لهذه الرؤية صحف من نوع الديلي هيرالد (التي امتلكت الاتحادات النقابية نصف أسهمها)، والديلي ميرور، وإيفننج ستاندارد (التي امتلكها الاستعماري المخلص بيفربروك **Beaverbrook**، وإن كانت رئاسة تحريرها قد ذهبت سريعا إلى اليساري العمالي مايكل فوت **Michael Foot**) ومثل الصحيفة المنتمية لليسار الليبرالي نيوز كرونيكل وأكثر المجلات المصورة رواجا، وهي بيكتشر بوست. ولا يزال هذا الرأي يمثل

وجهة النظر السائدة اليوم. حتى إن إيريك هوبزبوم، في تأريخه للقرن العشرين، يدعوها حربا "بين ما كان يمكن أن يدعى، في القرن التاسع عشر، تقدما ورجعية"[١٦].

لكن لم يكن هذا ما حرك الشخصيات القيادية في معسكر الحلفاء. فتشيرشيل الذي دعا لحرب لا تبقي ولا تذر هو نفسه هتلر الذي حضر مذبحة أم درمان، والذي أرسل الجنود لإطلاق الرصاص على عمال المناجم في **1910**، وأمر القوات الجوية الملكية بضرب المتمردين الأكراد بالغاز السام في العراق الخاضع لبريطانيا، وهو نفسه الذي امتدح موسوليني. لقد هاجم حكومة المحافظين في الثلاثينيات لأنها منحت الهند حدا أدنى من الحكم الذاتي، وظل مصمما طوال سنوات الحرب على الامتناع عن تقديم أي تنازلات للحركات المناهضة للكولونيالية في المستعمرات البريطانية، على رغم أن ذلك كان يمكن أن يساعد المجهود الحربي. وأعلن "لم أصبح الوزير الأول للملك، لأشرف على تمزيق أشلاء الإمبراطورية البريطانية". وقال لروزفلت وستالين في يالتا" ما دام جسدي ينبض بالحياة، فلن يكون هناك سماح بنقل السيادة من بريطانيا لغيرها"[١٧].

ولم يكن زعيم القوة الكبرى الثانية التي تنضم للتحالف "المناهض للفاشية"، وهو جوزيف ستالين، أكثر ديمقراطية أو أكثر ليبرالية من تشيرشل. كان قد انتهى من ذبح معظم المنتمين لجيل البلاشفة الذين صنعوا الثورة، وأشرف على بشاعات التحول إلى الجماعية، بما سببه من مجاعات في أوكرانيا وكازاخستان. وفي **1939** توصل مع هتلر لصفقة اقتسام بولندا، واستعادة السيطرة على جمهوريات البلطيق التي منحها البلاشفة الاستقلال في **1917**. وامتدح الجنرالات الروس الذين أعادوا إخضاع الشعوب غير الروسية التي كانت تحكمها الإمبراطورية القيصرية، وعمد الحرب على هتلر باسم "الحرب الوطنية الكبرى" وليس "الحرب الكبرى ضد الفاشية". وقد دفعت قوميات غير روسية كثيرة ثمنا فادحا لتحوله إلى الشوفينية. قام ستالين بترحيل شعوب بكاملها، مثل تاتار القرم، والشيشان، وألمان الفولجا، لآلاف الأميال، إلى آسيا الوسطى والشرقية.

وكان ثالث القادة المناهضين للفاشية هو روزفلت. قبل دخول الحرب، كانت الإدارة الأمريكية تنتهز الفرصة لبناء إمبراطورية أمريكية "غير رسمية" تغطي بظلها على الإمبراطوريات الأوروبية الرسمية.

وكما يبين لنا المؤرخ **آلان جون بيرسيفال تايلور Alan John Percivale Taylor**:

> **في مارس 1941 أقر الكونجرس مشروع قانون من روزفلت يسمح بإعارة وتأجير المعدات العسكرية، وهو ما يعد أخطر ضربة سياسية في سياق الحرب. أصبحت الولايات المتحدة "ترسانة الديمقراطية" ولم تطلب المقابل. لكن تعين دفع ثمن باهظ، برغم كل شيء. جردت السلطات الأمريكية بريطانيا من احتياطي الذهب لديها، ومن استثماراتها وراء البحار. قلصت صادراتها، واقتحم رجال أعمال أمريكيون أسواقا بقيت، حتى ذلك الحين، بريطانية[١٨].**

بعد ذلك تَشَكَّى وزير الخارجية البريطاني أنطوني إيدن، من دون مواربة، من أن روزفلت كان يأمل بأن المستعمرات البريطانية السابقة "بمجرد تحريرها من سادتها، سوف تصبح معتمدة سياسيا واقتصاديا على الولايات المتحدة"[١٩].

كانت مشاجرة بين القوى الإمبراطورية في الشرق الأقصى هي التي جاءت بالولايات المتحدة، مباشرة، إلى الحرب. كانت اليابان متلهفة على توسعة إمبراطوريتها على حساب القوى الإمبراطورية الأخرى التي تسببت الحرب في إضعافها إلى أقصى الحدود، فبدأت بالتقدم جنوبا، من الصين إلى الممتلكات الفرنسية في الهند الصينية. لكن الولايات المتحدة كانت لها مصالحها الخاصة في المنطقة. كانت تسيطر على الفلبين، وكانت تعتبر تشيانج كاي شيك الصامد بوجه اليابان في غرب الصين عنصرا مناسبا لرأس المال الأمريكي. وبعد فشل محاولة لاقتسام النفوذ في الصين مع اليابانيين، فرضت الولايات المتحدة حصارا منع اليابان من الوصول

إلى مواد أولية كانت حاجتها إليها شديدة. وردت اليابان بالهجوم على الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور، مزيحة بذلك العائق الرئيسي من طريق الزحف الياباني جنوبا، للاستيلاء على المستعمرات الفرنسية، والهولندية، والبريطانية في جنوب شرق آسيا.

وقد كانت دوافع الناس العاديين للحرب على النازية شديدة الاختلاف عن دوافع تشيرشل، أو ستالين، أو روزفلت. كانت هناك كراهية صادقة للفاشية، خاصة بعد أن كشفتها أقسام من الميديا على حقيقتها، وغالبا للمرة الأولى. ولم يكن بوسع "الثلاثة الكبار" من قادة الحلفاء تجنب اللعب على هذه المواقف الشعبية. كان جناح تشيرشل من الطبقة الحاكمة يائسا في صيف **1940**. كان الجيش البريطاني قد فقد معظم عتاده الحربي، كان يتوقع (خطأً) أن يواجه بهجوم لا يقدر على رده، وما يقارب نصف الطبقة الحاكمة كان يميل لاتفاق مع هتلر، وفق شروط اعتبرها جناح تشيرشل مهينة. وكانت الطريقة الوحيدة لكي تتمكن المجموعة المحيطة بهتلر من البقاء في المشهد السياسي هي بالاعتماد على حزب العمال وعلى بيروقراطية الحركة النقابية. وهكذا جاءوا بالزعيم العمالي **روبرت آتلي Robert Atlee** نائبا لرئيس الحكومة، وبأهم زعماء الحركة النقابية **إرنست بيفن Ernest Bevin**، للإشراف على احتياجات العمال في إطار اقتصاد الحرب. ولم يكن بوسعها الحفاظ على وحدة حكومة كهذه، من دون التخلي عن الخطابيات الإمبريالية التي تبناها حزب المحافظين في الفترة السابقة على الحرب. وعوضا عن ذلك، راحت تتكلم عن"الحرية"، و"الديمقراطية"، و"حق الأمم في تقرير المصير". وتعين عليها أيضا أن تلعب لعبة اقتسام الموارد الغذائية الشحيحة، عبر نظام للحصص التموينية (أدى إلى تحسين تغذية الأقسام المعوزة من الطبقة العاملة، وإن بقي بوسع الأثرياء الاستمتاع بالطعام الفخم)، وبوعد بتحسين هائل في نظام الرفاه، بعد أن تنتهي الحرب. وكما بين النجم الصاعد في حزب المحافظين **كوينتن هوج Quintin Hogg** (**لورد هاليشام Lord Hailsham** بعد ذلك)، فلو لم تعط الحكومة الناس "الإصلاح"، لواجهت خطر "الثورة".

وأخذت أمور مماثلة بنظر الاعتبار في الولايات المتحدة، حيث استخدمت الحكومة لغة "مناهضة الفاشية" و"مناهضة الإمبريالية، وتبنت **إليانور روزفلت Eleanor Roosevelt** مختلف القضايا الليبرالية - وتناست هوليوود كراهيتها، في الفترة السابقة على الحرب، لأفلام مناهضة للنازية مثل "الديكتاتور الكبير" لتشارلي تشابلن.

بل وفي الاتحاد السوفيتي شهدت سنوات الحرب درجة من تخفيف الإرهاب الحكومي، على الرغم من الترحيلات الجماعية لأقليات وطنية. وعلى الأقل في دوائر المثقفين، ساد الشعور، لفترة وجيزة، بأن السنوات التالية على الحرب ستكون مختلفة- وهو شعور كشف عنه، على سبيل المثال، رواية فاسيلي جروسمان الرائعة "الحياة والقدر"، عن ستالينجراد ومعسكرات الموت الهتلرية.

وبرغم كل شيء، بقيت دوافع الحكام مختلفة تماما عن دوافع شعوبهم. وتبين ذلك في مسارات الحرب. فبين سقوط فرنسا في ربيع **1940** ونزول الحلفاء في جنوب إيطاليا في **1943**، دارت غالبية المعارك التي خاضتها القوات البريطانية في شمال إفريقيا. لماذا؟ لأن تشيرشل كان عاقدا العزم على التشبث بالمناطق المفضية إلى قناة السويس وإلى آبار النفط. ولم تكن ألمانيا فقط مصدر هواجسه، بل والولايات المتحدة أيضا، كما تبين من المعركة الدبلوماسية الممرورة بينه وبين روزفلت، حول العربية السعودية.

وكان غزو إيطاليا ذاته نتيجة لتهوس تشيرشل بالرغبة في الحفاظ على الهيمنة البريطانية على المتوسط. رفض توسلات من روسيا والولايات المتحدة لفتح جبهة ثانية في فرنسا، في الوقت الذي كانت أخطر معارك الحرب تدور رحاها في روسيا الغربية. وبدلا من ذلك، بقي يصر على أن إيطاليا والبلقان تمثلان "الخاصرة اللينة لأوروبا"- على الرغم من الأرض الصخرية التي تعني معارك دموية وتقدما بطيئا للغاية، للقوات الغازية.

وكانت نتيجة رفض تشيرشل الاعتراف بمبدأ استقلال الهند، أن انشغل ألوف الجنود، الذين قادهم البريطانيون، بسحق وحشي للمتظاهرين الهنود، في **1942**، بدلا من محاربة النازي، في وقت احتدام معركة ستالينجراد الحاسمة، وأن تألف "جيش تحرير" هندي ليحارب في صف اليابانيين. وأدى ذلك أيضا إلى مجاعة قتلت ثلاثة ملايين إنسان في البنغال.

أدت رغبة ستالين في اقتسام شرق أوروبا مع هتلر إلى تجاهل ستالين خطر هتلر على الاتحاد السوفيتي، وهكذا كانت جيوشه غير مستعدة بالمرة حين وقع الهجوم في **1941**. هذا الاهتمام بإدخال مزيد من الأقاليم في منطقة النفوذ السوفيتي هو ما جعله يأمر قواته بالوقوف موقف المتفرج في **1944**، حين كانت قوات هتلر تسحق هبة المقاومة البولندية في وارسو. ولم تتحرك القوات الروسية عبر نهر فيستيولا، للسيطرة على المدينة، إلا بعد أن اكتمل تدميرها.

وبالطريقة ذاتها، ألقت الولايات المتحدة بقنبلتيها النوويتين على هيروشيما وناجازاكى في آخر أيام الحرب، على الرغم مما سبق ذلك من إشارات إلى أن الحكومة اليابانية مستعدة للاستسلام. ضمن إسقاط القنبلتين أن يسبق الاستسلام تقدم القوات الروسية السريع عبر منشوريا التي احتلتها اليابان، لتُحْرَم روسيا من أي دور فعال في يابان ما بعد الحرب. وأوضحت هيروشيما وناجازاكي أيضا، في أبشع صورة ممكنة، قدرة الولايات المتحدة على ممارسة السيطرة الكونية.

سهلت القوى الثلاث، معا، على هتلر إحكام قبضته على ألمانيا. فقد عاملوا كل الألمان، لا النازيين وحدهم، باعتبارهم أعداء. فوضع مسئول كبير في الخدمة المدنية البريطانية هو **روبرت فانسيتارت Robert Vansittart** خططا لتدمير الصناعة الألمانية بالكامل، وتحويل ألمانيا لبلد زراعى فقير. ونفذت القوات الجوية الأمريكية والبريطانية سياسات قصف جوي شامل للمناطق المدنية، متسببة بعواصف نارية أحرقت وخنقت مائة ألف مدني في حواضر مثل هامبورج،

وكولوني، ودريسدن- وهذه مدينة لم تكن لها أهمية عسكرية أو استراتيجية. وفي روسيا دعت نشرات البروباجاندا التي دبجها الروائي إيليا إيرنبورج الناس قائلة "اقتلوا الألمان، اقتلوا الألمان، اقتلوا الألمان". مقاربة كهذه لم يكن من شأنها تحفيز العمال الألمان على أن ينقلبوا على حكامهم، وساعدت هتلر على الحفاظ على تماسك جيوشه للنهاية.

ذروة الوحشية

لا مجال للتشكك بوحشية حكام ألمانيا. كان احتلالهم لأوروبا الغربية احتلالا فظا، وسلوكهم في المنطق المحتلة من روسيا وبولندا بربريا، ومعاملتهم ليهود أوروبا ذروة البشاعة في القرن العشرين. لكن يبقى من الضروري أن نفهم كيف حدث ذلك.

تحركت السياسات النازية في غرب أوروبا وفي قسم كبير من شرقها بقوة دافعين رئيسيين- مواصلة السيطرة على البلدان المحتلة بأقل عدد ممكن من القوات، ونقل أكبر قدر ممكن من الأغذية والمواد الحربية إلى ألمانيا. وكانت أسهل الطرق لتحقيق ذلك هو التعاون مع النظم المحلية المتواطئة المستعدة للعمل بتعليمات من الألمان، واستخدام الشرطة المحلية لاقتلاع المعارضة وللإشراف على إرسال الأغذية والسلع. ولم يكن إنجاز ذلك أمرا صعبا، ما دامت أقسام واسعة من الطبقة الحاكمة في أوروبا كانت تعتبر الاحتلال الألماني أهون الشرين، مقارنة إلى الثورة أو إلى دمار الممتلكات بسبب استمرار الحرب. بل إن تلك الأقسام التي عارضت ألمانيا، من حيث المبدأ، تبينت الميزات العملية المتمثلة بالتكسب من التعامل معها.

ومكن نهب المناطق المحتلة الرأسمالية الألمانية من استغلال قوة العمل في معظم أنحاء أوروبا وسد نفقات الحرب، إضافة إلى تحقيق أرباح. وهذا مكنها أيضا

من تجنب ضربات، أشد إيلاما مما يجب، للعمال الذين كانت تخشاهم أكثر من غيرهم- الطبقة العاملة الألمانية التي هددت بثورة في **1918-19123** (وإن كان من الصعب وصف العمال الأمان بأنهم "مائزون" لأن مستويات معيشتهم تدهورت إبان الحرب، وجرى إرسالهم كمجندين للجبهة الروسية، حيث كان معدل سقوط القتلى مريعا). كان بوسع الرأسمالية الألمانية الاعتماد على السياسيين ورجال الأعمال المتواطئين في المناطق المحتلة، لتحقيق انضباط عمالهم، من غير حاجة لتحمل الألمان نفقات الضبط الباهظـــة - حتى وإن تعين أن تكون الحجة "افعلــوا هذا لإسكات الألمـــان، وإلا جاءوا وجعلوا الأمور أسوأ كثيرا". كان ذلك تطبيقا محكمـــا لاستراتيجية فَرِّقْ تَسُدْ.

لكن المشكلات ظهرت مع الوقت. تحمل عمال المناطق المحتلة عبئا يفوق الطاقة في نقل السلع إلى ألمانيا. وبمرور الوقت لم يعد متاحا لهم الحصول على طعام إلا في حدود ما يؤمن نصف احتياجاتهم اليومية من السعرات الحرارية. تنامي غضبهم، وخاصة مع ظهور خطر تجنيدهم للعمل بالسخرة في ألمانيا، في حين نعم حكامهم بالحيـــاة مع المحتلين. وفي السنـــة الثالثة للاحتلال بـــدأت الإضـــرابات، وهـــرب العمال إلى مناطق نائية لتجنب التجنيد، وتنامي المقاومة المنظمة. وتمثل رد الفعل الألماني بأن ضموا إلى سلطات الاحتلال العسكري الألماني، التي لم تتألف، بالضرورة، من نازيين ملتزمين، منظمات نازية مثل الشرطة السرية "الجستابو" التي لم تقف عند حد في استخدامها لأساليب الترويع. وفي بلدان مثل فرنسا، وسلوفاكيا، وكرواتيا، وهنجاريا تزايد اعتماد هتلر على الجماعات المحلية الفاشية والنازية، التي نفذت بكل اجتهاد أمورا من قبيل ترحيل اليهود. وباللعب على الموروثات المحلية المعادية للسامية، نجح النازيون في صرف مشاعر السخط التي تسببت بها المصاعب التي يقاسونها إلى أكباش فداء، مع منح مساكن اليهود وممتلكاتهم كرشوة للمتواطئين المحليين.

ومضى احتلال بولندا وفق نموذج مختلف وأشد سفالة. كان هدف النازي محو البلاد، بدمج القسم الغربي في سيليجا إلى ألمانيا، وطرد سكانه غير الألمان، مع الإبقاء على وسط بولندا تحت السيطرة العسكرية، باعتبارها "احتياطي عمالة" (خضع شرق بولندا للحكم الروسي منذ **1939-1941**). وكان هذا يعني تصفية القيادات التقليدية للدولة البولندية القديمة. كنت هناك ألوف مؤلفة من المتواطئين البولنديين، لكنهم عملوا بوصفهم موظفين تحت إشراف مسئولين ألمان. تمتعت الشرطة بسلطة أن تُحيِي وتميت، واستخدمت تلك السلطة. وكما يقول **كولكو Kolko** "كان الرعب الألماني في بولندا، منذ نشأته، "كاسحا وعشوائيا" واتصف "بانعدام كامل لإمكانية التوقع، وأخطار ماثلة في المدن"[٢٠]. فقرابة **5.7** مليون شخص (قرابة **16** بالمائة من السكان)، قُتلوا. وكان نصفهم من اليهود الذين سيقوا إلى جيتوهات مكدسة وجائعة في **1939**، ثم بدأ ترحيلهم في **1942** إلى معسكرات الموت. كان الجيتو مناسبا للرأسمالية التي تولت حكم بولندا لتنهبها، في حين عاني البولنديون (ومن بعدهم الليتوانيون، والبيلاروس، والأوكرانيون) لضمان تزويد ألمانيا بما تحتاجه من الطعام وقوة العمل، واستُخدِمت الانحيازات القديمة السابقة على زمن الحرب، لتحويل الغضب إلى الأقلية اليهودية التي كانت تعاني أكثر منهم. كان ذلك تطبيقا لمنطق فرق تسد القديم. لكنه كان يتسق أيضا مع الميثولوجيا العرقية للحزب النازي. قيل لجنود الاحتلال الألمان إنهم النخبة الآرية المصطفاة، فيما كان الآخرون أعراقا دنيا **Untermenschen**، وكان اليهود أدنى الأدنياء، جماعة غريبة يتعين أن تتطهر منها أوروبا.

ومع الهجوم الألماني على روسيا، تحت الاسم الكودي بارباروسا، في صيف **1941**، صعد الرعب إلى مستوى أعلى. أخذت القوات الألمانية الزاحفة على عاتقها تدمير بنية دولة العدو، كما فعلوا ببولندا، ولكن بدرجة أشد عنفا، وعلى مساحة أكثر اتساعا. وكانت هذه مهمة كلّفت بتنفيذها قوات العاصفة، ووراء خط الجبهة، بقتل كل القوميسارات الشيوعيين، و"العناصر اليهودية- البلشفية".

ولأول مرة، أصبح القتل الجماعي من المكونات الأساسية للمجهود الحربي. لكنه بقي قتلا جماعيا زعموا أن له وظيفة عسكرية - الحول دون إعادة تجميع القوى الموالية للروس للانخراط في حرب عصابات وتخريب. وهكذا، كان اليهود الذكور في سن القتال، في البداية، هم الذين يُقتَلون.

لم ينجح الجيش الألماني في بلوغ موسكو وإنزال الهزيمة بروسيا، على النحو الذي توقعه هتلر. تبعثرت مكوناته في خرابات السهول الثلجية في وسط أوروبا، وبعدها ووجه بأضخم المعارك وأشدها دموية، في تاريخ العالم، في ستالينجراد وكيرسك. كان عدد جيش عملية بارباروسا في البداية ثلاثة ملايين. ولم يحل العام **1945** إلا وكان عدد قتلى الألمان على الجبهة الشرقية ستة ملايين، في حين بلغ العدد الإجمالي لقتلى الروس **13** مليونا من الجنود وسبعة ملايين من المدنيين[٢١].

واجه الجنود الألمان ظروفا لم يتحسب لها قادتهم، على الإطلاق. شهدت الحرب وحشية لا تصدق، والجنود الذين عانوا وحشيتها كانوا مستعدين لتقبل القتل الجماعي للمدنيين الروس واليهود، بل وللمشاركة فيه، متعللين بأن من يقتلونهم كان يمكن أن يعززوا المقاومة. خلقت الحرب الرأسمالية السياق الذي يمكن أن تقع فيه أمور كهذه، وبقيت هذه الأمور منطقية وفق منطقهم الوحشي، الذي مكن القيادة النازية من التورط في سياسة ليست منطقية، حتى على هذا الأساس- محاولة استئصال كل سكان أوروبا من اليهود ومن غجر الروما، سرا. بدأت تشكيلات خاصة من فرق الموت شبه العسكرية التابعة لقوات العاصفة **SS Einsatzgruppen** قتل النساء والأطفال اليهود بمثل ما كانوا يقتلون رجالهم - خاصة عند غور "بابي يار" قرب كييف، حيث ذبحوا في سبتمبر **1941**، ثلاثة وأربعين ألفا منهم، عندما كان الجنرالات الألمان ما زالوا يتوقعون انتصارا سريعا. وضع المشروع في مؤتمر وانسي في يناير **1942**، بحضور **14** من قيادات الحزب النازي والدولة.

وضعوا آلية للتعرف على كل من هو يهودي الأصل في المناطق التي تسيطر عليها ألمانيا في أوروبا - وهم قرابة خمسة ملايين أو ستة - واحتجازهم كمجموعات، ونقلهم عبر مئات الأميال لمعسكرات خاصة، بزعم أن هذه هي عملية إعادة توطين، وإقناعه بدخول أبنية خاصة جرى قتلهم داخلها بالغاز، وبعد ذلك يجري التصرف ببقاياهم كأن هذه عملية صناعية على خط الإنتاج.

ومن زاوية الاحتياجات الاقتصادية أو الحربية الألمانية، فلم يكن في هذه السياسات أثر لمنطق. فكثير من الضحايا كانوا عمالا مهرة أو مهنيين يمكن استخدامهم لتحقيق أرباح أو لأغراض تتصل باقتصاد الحرب. وبدلا من ذلك، فعندما كان يجري تشغيلهم قبل إعدامهم كان ذلك يتم في صورة العمل بالسخرة، لأداء مهام شاقة لا تتناسب مع مهاراتهم. وقد أسفر نقل ملايين البشر، عبر مختلف أنحاء أوروبا عن ارتباك الحركة على الخطوط الحديدية، واستهلك من قطع الغيار ما كانت تحتاجه عمليات نقل الجنود، والأسلحة، والمعدات الصناعية. والبيروقراطيون الذين كان يمكن الاستفادة منهم، على نحو أكثر جدوى، انشغلوا بتخطيط وتنفيذ هذه العمليات. وعلى رغم ذلك، فقد استمرت يوما بعد يوم وأسبوعا بعد الآخر، حتى نهاية الحرب.

بل ولم يكن لذلك معنى، من الناحية الأيديولوجية، في أبسط صورها، كطريقة لتحويل مرارات جماهير الألمان باتجاه كبش فداء. فجماهير الألمان لم يُبَلَّغوا بها. كانت عملية سرية. لا بد أن ألوف من الناس علمت ببعض تفصيلات المحرقة اليهودية. وكثيرون غيرهم أحسوا بأن شيئا مريبا ما يجري، وتعمدوا تحويل أفكارهم بعيدا عنه[٢٢]. لكن ذلك لم يجعله وسيلة لكسب تأييد الجماهير للنظام.

ولا يكاد يكون هنا ما يدعو للدهشة. فقد تبين للقادة النازيين، قبل ذلك بزمن، أنهم وإن استطاعوا استغلال العداء للسامية الموجود في المجتمع الألماني، فهناك حدود حتى لذلك. وعلى سبيل المثال، فعندما أطلقوا عنف قوات العاصفة على

المحال والمشروعات التجارية اليهودية في ليلة البللور **Kristallnacht** في نوفمبر **1938**، تبين لهم أنها أثارت عداء الناس. فكثير من الأشخاص الذين كانوا مستعدين للوم اليهود على كثير من المشكلات التي يعانيها العالم، لم يسعدهم أن يشهدوا معاناة أفراد يعرفونهم. فانتشار العداء للسامية، كان موجودا بجوار عديد متنوع من الأفكار الأخرى التي تتحداه، وفي حالة تنافس مع هذه الأفكار. ولهذا حاز قادة شيوعيون وديمقراطيون اجتماعيون، من أصول يهودية، مثل كارل ماركس وروزا لوكسمبورج، ثقة أعداد كبيرة من العمال الألمان - على رغم أن كثرة من هؤلاء العمال كان يمكن أن تتأثر بموروثات ودعايات العداء للسامية. وهذا هو السر أيضا في أن فحص الدعاية النازية في السنوات الأخيرة من جمهورية فيمار يشير إلى أن هتلر لم يكن بوسعه الاعتماد على العداء للسامية وحده، وتعين عليه في بعض المناسبات تخفيف حدتها ليحصل على التأييد. وحتى بعد أن استولى النازيون على السلطة وأصبح بوسعهم قمع الآراء التي تتحدى العداء للسامية، وجدوا أنهم يجدون استجابة أفضل عندما يركزون على أمور مثل مكافحة البطالة، وإلغاء معاهدة فرساي، وتعزيز صورة هتلر كشخصية دولية.

لكن أهمية العداء للسامية كانت تكمن في أنها تساعد على تماسك النواة الداخلية لحزب النازي، وقوات العاصفة، ووحدات الحرس النازي، وتحفيزها والحول دون تراخيها، وركونها إلى التوجهات المحافظة أو القصور الذاتي. فهذه الفكرة اللاعقلانية هي التي خلقت لديهم الحافز للمخاطرة بمجابهة قوى اليسار في جمهورية فيمار. ولتنفيذ تعليمات هتلر، بعد قيام الرايخ الثالث. فبالنسبة لهم، كان اليهود وراء كل عثرة اعترضت ألمانيا. واستئصال اليهود كان يُنظَر إليه كضمانة للأقاليم التي يتم الاستيلاء عليها، مع تقدم الجيش الألماني باتجاه الشرق. وحتى عندما صارت الهزيمة وشيكة، بأواخر **1944** وأوائل **1945** فقد كان من الممكن النظر إلى قتل اليهود باعتباره انتصارا.

كانت الطبقة الحاكمة الألمانية بحاجة إلى من يعتنقون رؤى مختلة كهذه، لمعالجة الأزمة في الثلاثينيات. فهذا الاختلال أمن لها قوة تستطيع استخدامها لقمع تنظيمات الطبقة العاملة، وبعد ذلك تواصل اندفاعها باتجاه السيادة على أوروبا. بالمقابل، سُمح للنازيين بالتصرف وفقا لأوهامهم المختلة بإبادة ما يزيد على ستة ملايين من اليهود، والغجر، والمعاقين. والمؤسسات الكبرى- كروبس **Krupps**، وآي جي فاربن **I G Farben** وغيرهما، كانت مستعدة بكل سرور للمساعدة في تنظيم معسكرات الموت، ولاستخدام عمالة بالسخرة من تلك المعسكرات، حتى وإن لم تكن لبرنامج الإبادة مبررات مقبولة اقتصاديا. كانت النازية التحقق المخيف لنبوءة روزا لوكسمبورج – أن بديل الاشتراكية هي البربرية.

الأمل يتجدد

أتيح للنقيب الشاب في الجيش البريطاني دينيس هيلي أن يقول أمام مؤتمر حزب العمال في **1945** إنه عائد من مناطق في أوروبا تشهد بدايات "الثـــورة الاشتراكية":

> **الطبقات العليا في كل البلدان طبقات أنانية، عديمة الأخلاق، وغير ملتزمة بمبدأ، ومتهالكة. وتتطلع هذه الطبقات إلى الجيش البريطاني وللشعب البريطاني طلبا لحمايتها من الغضب المبرر للشعوب التي تخوض ضدها حربا سرية، طوال السنوات الأربع الأخيرة. ويجب أن نحول دون حدوث ذلك[٢٣].**

لم تفض الحرب إلى بشاعة ويأس فقط. فقد ولدت رد فعل عند من انهزموا وتدهورت معنوياتهم في السنوات الفاصلة بين الحربين. فظهرت حركات مقاومة، بدت وكأنها عينة للتحول الثوري الذي سيظهر في مناطق كثيرة في أوروبا.

عانت اليونان من الحرب بأكثر مما عانى بلد آخر في أوروبا، باستثناء بولندا وروسيا. أدى الاحتلال الإيطالي ومن بعده الألماني إلى وفاة واحد من كل عشرة أشخاص- مات نصفهم من الجوع[٢٤]. ظهرت جماعات المقاومة، بشكل عفوي في البداية، ثم تقاربت لتشكل منظمة وطنية غير محكمة التماسك، وهي جبهة التحرير الوطنية -جيش التحرير الشعبي اليوناني **EAM-ELAS** التي مارست سيطرة متصاعدة النفوذ على المناطق الريفية، وهددت خطوط الاتصال للجيش الألماني، وقيدت حركة الآلاف من الجنود الألمان.

في إيطاليا ساعد رجال الصناعة وملاك الأراضي في وصول موسوليني للسلطة في العشرينيات، وكانوا سعداء بالنظام حتى صيف **1943** عندما مني الجيش الإيطالي بهزائم فادحة وخسروا هم إمبراطوريتهم وراء البحار. ولما يقارب العقدين كانت المقاومة السرية الوحيدة هي مقاومة من فصائل شيوعية متشرذمة، ومن مناصري الحزب الاشتراكي، الذين حاولوا أن يكون لهم نوع من التنظيم الوطني، بدرجة أقل. وتجد في رواية **إجناسيو سيلوني Ignazio Silone**، والتي تصور محاولات عنصر اشتراكي يعمل تحت الأرض تأسيس شبكة اتصالات، صورة عن قسوة تلك السنوات. وجاءت المقاومة المعلنة في صورتها الأولى في **1943** عندما اندلعت في تورينو موجة إضرابات امتدت، رغم الاعتقالات، لجميع أنحاء شمال إيطاليا، وقد بلغ المشاركون فيها مائة ألف عامل. وتمثل السبب المباشر بالصعوبات التي نشأت عن ارتفاع الأسعار وعن تأثيرات القصف الجوي. لكن طليعة هذه الهبة تمثلت بعدد محدود من الشيوعيين الذين سيطرت عليهم ذكريات الحراك الثوري في **1918-1920**. وقال موسوليني للقادة الفاشيين إن التظاهرات ارتدت بحركته عشرين عاما إلى الوراء، وتساءل هتلر كيف يمكن السماح بمثل هذا العصيان[٢٥]. وبالحقيقة، فقد برهنت الإضرابات على أن الحرب كانت تفاقم أزمة اجتماعية أصبحت، بعد أن أفقرت شرائح عريضة من الطبقات الوسطى والدنيا، عصية على السيطرة بإجراءات قمعية.

وعند نزول القوات الأمريكية والبريطانية في صقلية في أوائل يوليو، بادئة زحفها البطيء باتجاه الشمال، كانت غالبية الطبقات العليا تخشى من أن تمتد إليها أزمة النظام، فتغرقها. واعتبر هؤلاء أن الطريقة الوحيدة للحفاظ على سلطتهم هي بالتخلص من موسوليني والتوصل لتفاهم مع الولايات المتحدة وبريطانيا. وشاركهم هذا الرأي أقرب معاوني موسوليني في المجلس الأعلى للفاشيين. وفي اجتماع خاص، بعد أسبوعين من الإنزال صوتت غالبية المجلس لصالح تخلي موسوليني عن السلطة. وفي اليوم التالي، قام الملك الذي سلم بنفسه السلطة لموسوليني في 1922 بإحلال **الجنرال بادوليو General Badoglio** محله. وهذا الجنرال هو قائد القوات الإيطالية التي اغتصبت إثيوبيا في 1935، وقد تولى وضع موسوليني قيد الإقامة الجبرية في منزله.

وتدفق الناس على الشوارع في روما، منتشين بانقشاع كابوس الفاشية. لكن الفرح كان سابقا لأوانه. فقد أبقت حكومة بادوليو على تحالفها مع ألمانيا لشهر آخر، فيما انخرطت في مفاوضات سرية مع الحلفاء. وفي الوقت ذاته، استخدمت القوة لسحق التظاهرات، فسقط 23 متظاهرا بنيران قواتها في أحد ميادين باري. وأمن سلوكها لألمانيا الوقت اللازم للدفع بقوات إلى إيطاليا. وعندما انتهى بادوليو إلى إعلان التفاهم مع الحلفاء، تمكنت ألمانيا من احتلال المناطق الريفية شمالي نابولي، مجبرة حكومته على الهرب من روما. وأطلقت قوات المظليين الألمان سراح موسوليني وأقامت حكومة عميلة (عرفت باسم "جمهورية سالو") في شمال إيطاليا.

وتخلقت بسبب الاحتلال الألماني حركة مقاومة جماهيرية ضخمة. كانت لها ثلاثة مكونات. جماعات من الأنصار المسلحين في الريف – بلغ عددهم تسعة آلاف في نهاية 1943 وزاد عن عشرين ألفا في العام التالي، ليصبح مائة ألف، بعد عام آخر. وكانت في المدن جماعات سرية مسلحة من الوطنيين، اغتالت مسئولين إيطـــاليين وألقت القنابل على جنود ألمان. وظهرت حركة مقاومة متناميـــة في

المصانع، نظمت إضرابا واسعا في جنوا بعد إطلاق النار على مسجونين سياسيين في يناير 1944، وإضرابا في ميلانو ضم ثلاثمائة ألف عامل، في مارس، وامتد إلى فنيتو، وبولونيا، وفلورنسا. وكان في مقدمة هذه الإضرابات العمال منخفضو الأجور والعاملات، وردت القوات الألمانية على ذلك بالاعتقالات والترحيلات الجماعية.

وتضافرت التيارات الثلاثة في أغسطس 1944، عندما انتزعت المقاومة من الجيش الألماني معظم فلورنسا، قبل وصول الحلفاء. ثم تكرر التضافر، على نحو مبهر، بعد ثمانية أشهر، للسيطرة على المناطق الصناعية الرئيسية الثلاث في البلاد- جنوا، وتورينو، وميلانو. في جنوا استولت انتفاضة قادتها جماعات المقاومة الحضرية المسلحة على أبنية حكومية في المدينة، وأحاطت بالقوات الألمانية، واستولت على إحدى الثكنات، وبمساعدة من جماعة مقاومة ريفية فرضت الاستسلام على الجنرال الألماني ومعه ألف وخمسمائة جندي. وفي تورينو:

> **تعين على سكان المدينة، وتحديدا على عمال المصانع، النهوض بكل أعباء القتال... واحتدمت المعركة حول المصانع التي احتلها العمال – لانسيا، وسبا، وجراندي موتوري، وفيات ميافيوري، وفيراري، وكثير غيرها. أظهر العمال تصميما على المقاومة... حتى الهجوم المضاد [من جانب مجموعة المقاومة الحضرية] الذي أباد بقايا القوات الفاشية[٢٤].**

وفي ميلانو اجتاحت الجماعات المسلحة الثكنات الفاشية. دار القتال حول المصانع الرئيسية وخاصة بيريللي، وبعد ذلك استولت الجماعات المسلحة، والأنصار، والعمال على المدينة، زاحفين عليها من الضواحي.

تشكلت جماعات المقاومة الأولى، في الغالب، على نحو تلقائي، وعززت تناميها الممارسات العنيفة من جانب الاحتلال الألماني وما ترتب على تلك الممارسات من مصاعب. هرب كثير من الشباب إلى الجبال لتجنب التجنيد أو للتهرب من

العمل بالسخرة في ألمانيا. ولكن مجرد انضمامهم للمقاومة دفع بهم باتجاه السياسات اليسارية. كان الكل في إيطاليا يعلمون أن الطبقات العليا هي التي ساندت موسوليني. وكان الكل يعلم بتواطؤ رجال الصناعة، بدرجة أو بأخرى، مع الاحتلال الألماني. وشهد الجميع، في صيف **1943** فشل الملك وبادوليو في أن يفعلا شيئا يحول دون الاحتلال الألماني.

وكان هناك شعور، يكاد يكون عاما، بين من اختاروا المقاومة، بضرورة حدوث تحولات جوهرية في المجتمع الإيطالي. انتشر هذا الشعور بين القوى التي هيمنت سياسيا على المقاومة. فنمت عضوية الحزب الشيوعي من خمسة آلاف عضو في يونيو **1943** إلى **410** ألف عضو في مارس **1945**، مع اجتذاب الحزب لأعداد هائلة من الناس الذين لم يعرفوا الكثير عن "خط" الحزب، وإن كانوا يريدون تغيير إيطاليا ويتماهون مع انتصارات الجيش الروسي في ستالينجراد. وبجوار الشيوعيين كان الحزب الاشتراكي القديم – الأقل حجما، والأقل تنظيما، والذي كان ما زال محتفظا بمجموعة من الإصلاحيين الحذرين، وإن استخدموا، كما فعلوا في **1918-1920**، لغة ثورية. وأخيرا، كان هناك "حزب العمل" الذي قادته شخصيات من الطبقة الوسطى، وإن كانت عضويته غير متجانسة، على رغم إصرارها على ضرورة القطيعة مع الماضي. ولم يكن غريبا أن يعرب وينستون تشيرشل عن قلقه من "بلشفية جامحة"، وأن يرى في الملك وبادوليو الحاجز الوحيد أمامها[٢٧].

اختلفت فرنسا عن اليونان وإيطاليا في شيء واحد. أول من نادى بالمقاومة السرية لم يكن اليسار، بعد أن صوتت غالبية نواب الحزب لصالح حكومة بيتان، وبعد أن عارض الحزب الشيوعي المقاومة، إبان فترة التحالف بين ستالين وهتلر، حتى صيف **1941**. جاء نداء المقاومة من ممثل للطبقة الحاكمة القديمة، وهو ضابط الجيش متوسط الرتبة شارل ديجول الذي فر إلى بريطانيا. لكن قوات "فرنسا الحرة"، التابعة لديجول والتي كانت قاعدتها في بريطانيا، كانت قوات

صغيرة الحجم، ولم تكن الولايات المتحدة راغبة في الاعتراف بديجول، وظلت تحاول، حتى نهاية **1943** التوصل لصفقة مع حكومة فيشي الموالية لألمانيا. وبمجرد أن غزت ألمانيا روسيا، أسس الحزب الشيوعي منظمة المقاومة الخاصة به، وهي منظمة الفرنكيين القناصة والأنصار الفرنسيين **Francs-Tireurs et Partisans Français (FTP)**. وسرعان ما أصبحت أكبر حجما من الديجوليين، حيث اكتسبت المقاومة لدى معظم الناس طابعا طبقيا. فقسم كبير من الطبقة العليا أظهر ما يقارب الترحيب بالقوات الألمانية في **1940**، ثم تعاون معهم بكل إخلاص. وكما جرى في اليونان وإيطاليا، فقد كانت الطبقات الأدنى هي التي احتملت عذابات الاحتلال. وقرابة ثمانية وثمانين بالمائة من المعتقلين في بادوكاليه وفي نور كانوا من أوساط الطبقات العاملة. وفي حين كان عمال السكة الحديد لا يزيدون عن واحد بالمائة من سكان بريتاني، فقد كانوا يمثلون سبعة بالمائة من عناصر المقاومة فيها. وعندما انتزعت المقاومة باريس من الجيش الألماني قبل وصول الحلفاء في **1944**، كان الكل يعلم أن عنصر السيطرة الرئيسي هو الحزب الشيوعي. وكما كان الحال في اليونان وإيطاليا، فقد كان السؤال الأهم هو ما إذا كان الحزب سيوظف مركزه للدفع باتجاه تحول ثوري أو للتوصل لصفقة مع ديجول لتبقى الرأسمالية.

الأمل يختنق مجددا

في مقطع شهير من مذكراته يستعيد ونستون تشيرشل تفاصيل لقائه مع ستالين في أكتوبر **1944** وكيف أنه قال له "فيما يخص بريطانيا وروسيا، فما رأيك في أن يكون لكم تسعون بالمائة من رومانيا، ولنا خمسون بالمائة في اليونان، ويكون لكل منا خمسون بالمائة تقريبا في يوغسلافيا؟"

ودون تشيرشل قائمة بالبلدان وبنسبة مائوية قبالة كل بلد، ووضع ستالين علامة كبيرة عليها.

وعلى الفور قلت له: "ألن يظن الناس أننا كنا شخصين خبيثين، ونحن نتصرف بأقدار ملايين البشر، بهذا القدر من اللامبالاة؟. دعنا نحرق الورقة". ورد ستالين:"لا. احتفظ بها معك"(٢٨).

لم يكن مقاتلو المقاومة في اليونان، وإيطاليا، وفرنسا هم من قرر مستقبل أوروبا، بل قررته لقاءات من هذا النوع. في مؤتمرات في طهران، ويالطا، وبوتسدام، اتفق ستالين مع تشيرشل وروزفلت على تقسيم أوروبا إلى مناطق نفوذ. لم تكن الولايات المتحدة سعيدة بهذا التقسيم في البداية. كانت تأمل باستخدام تفوقها الصناعي لتحويل العالم كله منطقة نفوذ أمريكية واحدة، مع حرية التجارة التي تفتح لها الأسواق في كل مكان(٢٩). ولم يكن ليرضى بذلك تشيرشل، الملتزم بالحفاظ على إمبراطورية تدار من لندن، ولا كان ستالين ليرضى به، ولديه الجيش الروسي الذي يريد أن يوازن بضخامته القوة الاقتصادية الأمريكية. وتولى الاثنان إقناع روزفلت بقبول القسمة التي ارتضياها.

كانت الصفقات ضربات إجهاض لحركات المقاومة. فهذه الصفقات أطلقت يد جيش ستالين في شرق أوروبا. ولم يكن ستالين ليسمح للشيوعيين في أي مكان بإرباك الترتيبات، بتفجير الثورات، حتى وإن توافق ذلك مع تطلعات الجماهير. وفي سبتمبر **1944** عبر عن ذلك، بوضوح، وزير خارجيته السابق **لتفينوف Litvinov**، لممثل الولايات المتحدة في روما: "نحن لا نريد ثورات في الغرب"(٣٠).

لم تكن هذه مجرد كلمات. في ربيع **1944** عاد زعيم الحزب الشيوعي الإيطالي **توليياتي Togliatti** من موسكو إلى إيطاليا، ليعلن أن حزبه سينضم إلى حكومة بوديليانو التي لم تحظ بأي احترام، لتبقى الملكية كما هي حتى نهاية الحرب(٣١). وفي موسكو أصر زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي موريس توريز على أن منظمة "الفرنكيين القناصة والأنصار الفرنسيين" الضخمة **FTP** التي يقودها الشيوعيون، يجب أن تندمج في المنظمة الديجولية الأصغر "القوات الفرنسية في

الداخل" **FFI** وتقبل بأن تكون القيادة لها. وبعد عودته إلى باريس في **1945** دعا المناضلين كافة إلى الكف عن مقاومة مؤسسات الدولة القديمة. وأصر على ضرورة أن تكون هناك"دولة واحدة، جيش واحد، شرطة واحدة"[٣٢].

في إيطاليا وفرنسا كانت استعادة النظام القديم سلمية على نحو ما. أما في اليونان فالمحصلة كانت حربا أهلية، بالنهاية، وإن لم يكن ذلك نتيجة مباشرة لمحاولة جادة من قادة المقاومة لإحداث تحول ثوري.

فقد ترك انسحاب الجيش الألماني في **1944** جبهة التحرير الوطنية – جيش التحرير الشعبي اليوناني **EAM-ELAS** مسيطرة على كامل البلاد، تقريبا. ولم يكن الأمر يحتاج لأكثر من تحريك محدود لقواتها لتستولي على أثينا. كانت المنظمة تعلم أن بريطانيا تنتوي فرض النظام الملكي القديم مع حكومة يديرها السياسيون من الطبقة الحاكمة القديمة الذين فقدوا كل صدقية. استخدمت بريطانيا القوة لإحباط محاولة تمرد على هذا الترتيب قام بها الآلاف من الجنود اليونانيين المنفيين في مصر. لكنها سمحت للقوات البريطانية وللحكومة الجديدة بالاستيلاء على المدينة[٣٣]. والقوات الوحيدة التي كان بوسع الحكومة الاعتماد عليها كانت الشرطة وجماعات يمينية تواطأت مع النازي وكانت مصرة على إذلال المقاومة. وفي أوائل ديسمبر طلبت الحكومة نزع سلاح المقاومة، في جميع أنحاء البلاد، فورا، وفتحت قواتها نيران الأسلحة الأوتوماتيكية على تظاهرة احتجاجية ضخمة في أثينا فقتلت ثمانية وعشرين شخصا وجرحت كثيرين غيرهم[٣٤]. ولم يكن أمام جبهة التحرير الوطنية– جيش التحرير الشعبي اليوناني خيار سوى الرد على العنف بالعنف، ووجد الجنرالات البريطانيون أنفسهم في مأزق صعب. ولفت **الفيلد مارشال أليكساندر Field Marshal Alexander** انتباه تشيرشل إلى أنه لن يكون بمقدوره سوى إعادة الاستيلاء على منطقة أثينا – بيرايوس.

وكان تشيرشل قد قال لأنطوني إيدن "آمل ألا يتردد الفيلق اليوناني في إطلاق النار عندما يتيسر ذلك" وأصدر أوامره **لسكوبي Scobi** وهو القائد البريطاني هناك بأن "لا يتردد في التصرف كأنه في مدينة جرى إخضاعها وتوشك القوى المحلية أن تنتفض متمردة عليه"[٣٥]. عند هذه النقطة طار تشيرشل إلى أثينا ليعلن أن "العملية البريطانية تحظى بموافقة الرئيس روزفلت والمارشال ستالين"[٣٦]. وقد انسحبت قوات جبهة التحرير الوطنية- جيش التحرير الشعبي اليوناني من العاصمة، وأعلنت حل نفسها رسميا بعد شهر، مقابل اتفاق لم تكن لدى الحكومة نية الالتزام به. وفي الثامن مارس قال ستالين لتشيرشل في يالطا "أثق تمام الثقة بالسياسات البريطانية في اليونان"[٣٧].

وسرعان ما بدأت القوات الحكومية تعتقل أي شخص كان له دور في المقاومة. وقد جرى سجن أو اعتقال ما لا يقل عن خمسين ألف شخص من أنصار جبهة التحرير الوطنية – جيش التحرير الشعبي اليوناني خلال العام **1945**، فيما نشطت القوات اليمينية شبه العسكرية تحت حماية حكومية. وقد كتب **كريستوفر مونتاجيو وودهاوس C M Woodhouse**، الذي أصبح فيما بعد عضوا في مجلس العموم عن حزب المحافظين: "حتى نهاية **1945**... كانت قوى اليمين هي المسئولة عن سفك الدماء"[٣٨].

ويذهب كثير من المؤرخين، حتى في أيامنا هذه، إلى أن قادة المقاومة في البلدان الثلاثة لم يكن أمامهم خيار سوى القبول بعودة الطبقات الحاكمة في فترة ما قبل الحرب. ولو حاولوا التخلص منها، لسحقتهم قوة الجيوش الأمريكية والبريطانية، كما يقال. ويقبل **بول جينسبورج Paul Ginsborg** بهذا الرأي فيما يخص إيطاليا، ويصر إيريك هوبزموم، بشكل أكثر عمومية، على أن" الشيوعيين لم يكن بوسعهم، في أي موقع شرقي تريسته،... أن يؤسسوا نظما ثورية"[٣٩]. لكن، وكما يقول جابرييا كولكو، وهو محق، فإن مثل هذه الآراء "تتجاهل، تماما، السياق

الأوسع للحرب مع ألمانيا، والمشكلات العسكرية الخالصة ذات الصلة، وكذلك المشكلات السياسية الهائلة التي كان يمكن أن تنجم في بريطانيا والولايات المتحدة، عن حروب مطولة تشنها الثورة المضادة"(٤٠).

ولم يكن التوجه السائد بين الجماهير البريطانية والأمريكية في 1944-1945 ليسمح لهم بأن يشنوا، بسهولة، حملات قمع واسعة. وقد تسببت التصرفات البريطانية في اليونان بعواصف سياسية كبرى في كل من بريطانيا والولايات المتحدة، وكانت هناك رغبة قوية في صفوف جيشيهما للعودة للوطن، بأسرع ما يمكن وهو توجه ظهر التعبير عنه في تمردات بين القوات البريطانية المتمركزة في مصر. وفوق كل شيء، فمن غير المحتمل، بالمرة، أن تقتصر حركة ثورية ما على بلد واحد. وكان أخشى ما يخشاه تشيرشل أن تنشب ثورة في اليونان فتتحول مصدر إلهام، في الاتجاه ذاته في إيطاليا- وإن حدث ذلك لكان من الصعب تصور ألا تتأثر فرنسا. وبالحقيقة، فحتى في ألمانيا، فإن انهيار النظام النازي في مايو 1945 تبعه مسارعة أفواج من العمال باتجاه ولاءاتهم الاشتراكية والشيوعية القديمة، بإنشاء لجان شعبية مناهضة للنازية، وبتولي إدارة المصانع التي هرب منها مديروها الموالون للنازية- حتى استعادت جيوش الاحتلال "النظام" بمساعدة سياسيين عادوا من المنفى معهم.

وكانت إعادة إقرار النظام القديم في اليونان، وإيطاليا، وفرنسا تعني أن من ازدهروا في ظل النظم الفاشية والمتواطئة سرعان ما عادوا لطرائقهم القديمة. وفي اليونان لم يمض وقت طويل حتى احتوى النسيان "الهدنة" بين الحكومة والمقاومة. وظهر المتعاطفون مع النازية والمتواطئون القدامى، في كل مستويات الجيش والشرطة، وبدأ الاضطهاد الممنهج لليسار إلى أن انفجرت حرب أهلية معلنة. وضمنت الأسلحة الأمريكية انتصار اليمين في الحرب الأهلية، فتولى الحكم عبر

انتخابات مزورة طوال الخمسينيات وأوائل الستينيات. ثم، في **1967** استولى المتعاطفون مع الفاشية والمتواطئون من رجال الجيش على السلطة، في انقلاب عسكري أرادوا به تجنب انتصار السياسيين من يسار الوسط في الانتخابات. ولم يتحقق لليونان ما يشبه ديمقراطية رأسمالية حقيقية إلا بعد أن انهار النظام الانقلابي في منتصف السبعينيات.

أما في إيطاليا فقامت مؤسسات برلمانية حقيقية، ولكن بقي تحتها جهاز الدولة بمكوناته القديمة، إلى حد بعيد. وتجلى ذلك بكل وضوح في مطالع السبعينيات، عندما عملت أقسام من الأجهزة السرية ومن القوات المسلحة مع الفاشيين على زرع القنابل بأمل تهيئة الأجواء لانقلاب.

وفي فرنسا تكشفت استمرارية جهاز الدولة في منتصف التسعينيات عندما حوكم قائد شرطة فيشي السابق في بوردو **موريس بابون Maurice Papon**، بتهمة ترحيل آلاف اليهود إلى معسكرات الموت. كان قد تمكن، بعد الحرب، من أن يصبح قائدا لشرطة باريس، وأصدر أمرا بهجوم على تظاهرة للجزائريين ما أسفر عن موت أكثر من مائة من المتظاهرين. لكن البشاعة الحقيقية لما ترتب على استمرارية جهاز الدولة تجلت خارج فرنسا. ففي الاحتفالات **بيوم انتصار أوروبا على النازية VE Day** (يوم الانتصار على ألمانيا) خرج ألوف العرب إلى الشوارع في سطيف الجزائرية، قبل استقلال الجزائر، ملوحين بالأعلام الخضراء والبيضاء، وهي أعلام المقاومة ضد الحكم الفرنسي. وفتحت الشرطة الفرنسية النار، فسقط في الاشتباكات التي تلت ذلك خمسمائة قتيل من الجزائريين ومائة من المستوطنين الفرنسيين[٤١]. وتكلف إصرار الدولة الفرنسية على الاحتفاظ بالمستعمرة إزهاق مليون من الأرواح، طوال الأعوام العشرين التالية. وفي فيتنام استولت على السلطة في البلاد، بعد استسلام اليابان، الحركة الوطنية فييتمنه **Vietminh** التي

قادها الشيوعيون. ونزلت في مدينة سايجون الجنوبية قوات بريطانية يقودها لورد ماونتباتن، فسلحت أسرى الحرب اليابانيين، واستخدمتهم لنزع سلاح مقاتلي فييتمنه، ثم سلمت المدينة للسلطات الكولونيالية الفرنسية. وبعد فترة هدوء قصيرة، حاول الشيوعيون أثناءها تطبيق الخط العام لستالين بالتعاون مع الفرنسيين، اندلعت حرب كان لها أن تستمر ثلاثين عاما، ويروح ضحيتها مليونان من الفيتناميين.

وتتماثل مآلات حركات التحرر في غرب وجنوب أوروبا مع ما جرى في منطقة النفوذ الروسية في شرق أوروبا. اتفقت القوى الغربية على إلحاق شرق بولندا بالاتحاد السوفيتي، تحت مسمى"غرب أوكرانيا"، وأحجمت عن التصرف عندما سمح ستالين للجيش الألماني بسحق انتفاضة وارسو، وبعد ذلك قبلت بـ"حكومة الشعب" التي عينها لتحكم البلاد. والمثل، أطلقوا يده في هنجاريا، رومانيا، بلغاريا، تشيكوسلوفاكيا، وألمانيا الشرقية. أفرطوا في الدعاية في الغرب حول الكوارث التي أنزلها ستالين بتلك البلدان، بقدر ما أفرط ستالين في الدعاية حول خطايا الغرب، ولكنهم لم يفعلوا شيئا ليوقفوه عند حده. وبقي الطرفان ملتزمين بالنقاط الرئيسية في اتفاقاتهما أيام الحرب، حتى **1989** حين انهارت الكتلة الروسية بسبب مشكلاتها الداخلية.

دولة واحدة في أوروبا لم تسقط داخل معسكرهم. تلك كانت يوغوسلافيا، حيث نجح الشيوعيون، بقيادة تيتو (الذي كان هو الآخر من أصول مختلطة، كرواتية وسلوفينية) في إنشاء حركة مقاومة متعددة الإثنيات، ضد كل من الاحتلال الألماني والفاشيين العنصريين الكرواتيين الأوستاش- وحصلوا على سلاح من الحلفاء لأنهم كانوا مستعدين لمحاربة الألمان، في حين رفض ذلك الملكيون الصرب من التشينيك. وقد نجح مقاتلوهم في السيطرة على البلاد وإنشاء نظام بقي - رغم محاكاته العمياء لنظام ستالين في البداية- مستمسكا بقاعدة استقلاله الراسخ. وتبين ذلك في **1948**،

عندما نأى تيتو بنفسه، فجأة، عن ستالين ليتبع سياسة عدم انحياز بقيت طوال الأعوام الأربعين التالية.

لم تكن الاتفاقات بين الغرب وروسيا قاصرة على أوروبا. فقد قسمت بريطانيا وروسيا إيران إلى منطقتي نفوذ أيام الحرب، واحتفظتا بقواتهما هناك لمدة عامين. وبقي اقتسام كوريا، بين الأمريكيين والروس مدة أطول- وفقا لخط فاصل رسمه الجنرال الأمريكي **ماك آرثر General MacArthur**. واختار كل منهما ديكتاتورا ليحكم النصف الذي يخصه: على أحد الجانبين قائد حرب العصابات المحدود التأثير **كيم إيل سونج Kim Il Sung**، وعلى الآخر اليميني الوطني **سنجمان ري Syngman Rhee**، الذي كان يمكن للولايات المتحدة أن تعتمد عليه في إنفاذ إرادتها. وكان تقسيم كوريا آخر التجليات الكبرى للتعاون بين الطرفين اللذين تحالفا إبان الحرب. وخلال خمس سنوات صار سببا لأضخم صدام بينهما.

الهوامش

(١) استخدم هذا الطرح، على سبيل المثال، الفيلسوف الألماني هايدجر كتبرير لعضويته في الحزب النازي: "في مواجهة لوم شديد ومبرر موجه لنظام أباد الملايين من اليهود، وجعل الرعب أمرا معتادا... لا يسعني إلا أن أضيف القول بأنه يتعين على المرء أن يضع الألمان الشرقيين محل اليهود" (رسالة إلى هربرت ماركيوز، في 20 يناير 1948) في:

RWolin,The Heidegger Controversy: A Critical Reader (London, 1993), p163.

(2) C K Kindelberger, The World in Depression, p233.

(3) C K Kindelberger, The World in Depression, p272.

(٤) تقرير الحقوق المدنية الأمريكي، كما نقل عنه:

A Preis, Labor's Giant Step (New York, 1982), p17.

(5) A Preis, Labor's Giant Step, p45.

(6) A Preis, Labor's Giant Step, p61.

(٧) انظر، على سبيل المثال:

B J Widick, Detroit, City of Race and Class Violence (Chicago,1972), p74.

(8) B J Widick, Detroit, p64.

(9) A Preis, Labor's Giant Step, p67.

(10) A Preis, Labor's Giant Step, p67.

(١١) كما جاء في:

A Preis, Labor's Giant Step, p70.

(12) J T Farrell, Selected Essays (New York, 1964).

(13) R Ellison, Invisible Man (Harmondsworth, 1965), p404.

(14) A H Hansen, Economic Stabilisation (New York, 1971), p76.

(١٥) لمعرفة الأرقام والتفصيلات، انظر:

T Mason, Nazism, Fascism and the Working Class (Cambridge, 1995), p114.

(16) E Hobsbawm, The Age of Extremes, p144.

(١٧) كما جاء في:

J Anderson, The United States, Great Britain and the Cold War, 1944-1947 (Missouri, 1981), p6.

(18) A J P Taylor, The Second World War (Harmondsworth, 1976), p86.

(١٩) كما جاء في:

J Anderson, The United States, p6.

(٢٠) لمعرفة الأرقام والتفصيلات، انظر:

T Mason, Nazism, Fascism and the Working Class (Cambridge, 1995), p114.

(21) E Hobsbawm, The Age of Extremes, p144.

(٢٢) كما جاء في:

J Anderson, The United States, Great Britain and the Cold War, 1944-1947 (Missouri, 1981), p6.

(23) A J P Taylor, The Second World War (Harmondsworth, 1976), p86.

(٢٤) كما جاء في:

J Anderson, The United States, p6.

(25) G Kolko, Century of War (New York, 1994), p253.

(٢٦) الأرقام وردت في:

G Kolko, Century of War, p207.

(٢٧) هذا النوع من التفكير المزدوج قدم له جونتر جراس توصيفا محكما في روايته "أيام الكلاب".

(٢٨) وفقا لاستشهادات في أعمال منها، على سبيل المثال:

Miliband, Parliamentary Socialism, p281.

(٢٩) وفقا لأرقام وردت في:

G Kolko, Century of War, p200.

(30) P Ginsborg, A History of Contemporary Italy (London,1990), p10.

(31) P Ginsborg, A History, p67.

(٣٢) وردت في:

G Kolko, Century of War, p294.

(٣٣) وردت في:

G Kolko, The Politics of War (New York, 1970), pp114-115.

(٣٤) للاطلاع على تقرير واف حول هذه المناقشات، انظر:

G Kolko, The Politics of War, pp346-347.

(٣٥) كما جاء في:

G Kolko, Century of War, p297.

(٣٦) للاطلاع على تقرير حول مؤتمره الصحفي، انظر:

G Kolko, Century of War, p297.

(٣٧) انظر، مثلا:

G Kolko, Century of War, pp187-188.

(٣٨) انظر:

D Eudes, The Kapetanios (London, 1972), p172.

(٣٩) للاطلاع على وصف كامل، انظر:

D Eudes, The Kapetanios, pp190-191.

(٤٠) انظر، على سبيل المثال:

G Kolko, Century of War, pp278-279, and The Politics of War, pp185-192.

(٤١) ورد وصف الاجتماع الذي قال فيه ذلك في:

G Kolko, Century of War, pp278-279, and The Politics of War, pp185-192.

- ٩ -

الحــرب البــاردة

احتفلت القوى الثلاث الكبرى بانتصارها على ألمانيا واليابان، بإنشاء منظمة دولية جديدة هي الأمم المتحدة. ووعد مؤتمرها التأسيسي في سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة في مايو **1945** شعوب العالم بنظام جديد يقوم على السلام والتعاون، من شأنه أن ينهي الحروب، إلى الأبد. وزعم المؤسسون أن المنظمة الجديدة سوف تختلف عن تلك التي سبقتها، في سنوات ما قبل الحرب، وهي عصبة الأمم، التي لم تتمكن من أن تفعل شيئا يحول دون اندلاع الحرب العالمية الثانية. ولمس هذا النداء عصبا حساسا عند الشعوب التي قاست، والتي حاربت من أجل ما تصورته عالما أفضل حقا.

لكن "فشل" عصبة الأمم لم يكن مصادفة – فهو نتيجة لِعَيْبٍ بنيوي. فقد أنشأت العصبة القوى المنتصرة في عام **1918**، كجزء من معاهدة فرساي التي اقتسموا بموجبها العالم فيما بينهم. ووصف لينين المؤتمر بأنه"مطبخ اللصوص"–وكما يقول المثل "عندما يختلف اللصوص...". ولم تكن الأمم المتحدة شيئا مختلفا، حتى وإن كان لها "مائدة الرحمن" التي أنشأتها في جنيف (والتي تشمل منظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسيف) ومنظمة الصحة العالمية، وغيرهما). فصنع القرار بقي بيد الأعضاء الدائمين الأربعة في مجلس الأمن[١]: بريطانيا، والولايات المتحدة، وفرنسا، وروسيا– وسيطر هؤلاء فيما بينهم على بقية العالم، وقمعوها واستغلوها.

بدأت الخلافات تدب بينهم، بالفعل، عند انعقاد مؤتمر سان فرانسيسكو. ناقش تشيرشل وضع خطط بهدف "تصفية روسيا"، وتسليح القوات الألمانية المهزومة،

لتشن هجوما مفاجئا "لتفرض على روسيا إرادة الولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية"(٢)، وهو اقتراح لم يكن جنرالاته، على ما يبدو، يأخذونه مأخذ الجد. أما الولايات المتحدة فلم تكتف بالكلام: فمن الواضح أن قرارها باستخدام القوة النووية ضد اليابان في أغسطس **1945** كان له هدف تحدد، في جانب منه على الأقل، برغبتها في أن تظهر لستالين، مدى القدرة التدميرية المتاحة لها.

وظل التوتر يتفاقم تحت السطح لأكثر من عام، في حين راحت كل قوة من القوى الكبرى تعزز مواقعها – بإعادة تنظيم صناعتها بعد أن انتهت الحرب، وتشرف على المناطق التي وقعت تحت سيطرتها من عالم ما بعد الحرب، وتخفض سقف التوقعات المحلية. سعت حكومة العمال البريطانية لاسترضاء موجة الراديكالية التي نشأت في **1945** بخطط لتحسين خدمات نظام الرفاه ولتأميم السكة الحديد والمناجم. ونشبت في الولايات المتحدة سلسلة إضرابات أوسع مما عرفته في **1936-1937**. وأشرفت قوات الاحتلال الروسية على تحويل ما كان أحزابا شيوعية صغيرة، قبل الحرب، إلى منظمات بيروقراطية ضخمة، في شرق أوروبا.

واحتاج حكام كل قوة من هذه القوى لنوع من التناغم الدولي كتغطية على تعزيز بُنى السيطرة. ففي فرنسا، وإيطاليا، بل وحتى في بريطانيا استفادت الحكومات من معارضة الشيوعيين للإضرابات. وفي أوروبا الشرقية كان مناسبا لستالين أن تحكم البلاد التي احتلتها قوات روسية حكومات ائتلافية، تضم شخصيات من قوى فترة ما قبل الحرب، من اليمين، والوسط، والديمقراطيين الاجتماعيين.

وانتقلت المشاحنات بين القوى الكبرى إلى العلن في **1946-1947**. فتح تشيرشل النار، بعد أن انتقل إلى المعارضة، في خطاب ألقاه في فلتون، بولاية ميسوري الأمريكية، في مارس **1946**، عندما أعلن "من ستيتن في البلطيق، وحتى تريسته في الأدرياتيكي، أُسْدِلَ على قارة أوروبا ستار حديدي". ولم يذكر، بالطبع،

الدور الذي لعبه هو، في تخليق هذا الوضع عبر صفقته مع ستالين في موسكو، قبل ذلك بعام ونصف، لا غير. ولم ير أي تناقض في هتافه من أجل "الحرية" و"الديمقراطية" في ولاية فيرجينيا التي حكمتها قوانين جيم كرو [شاعر ومغن أسطوري من القرون الوسطى – المترجم] للفصل العنصري. وبعد ذلك بعام ترجم الرئيس ترومان خطابات، تشيرشل إلى فعل، فتولى، بدلا من بريطانيا، مساندة النظام القمعي في اليونان المسئول عن اغتيال ألف وثلاثمائة من أنصار جبهة التحرير الوطنية – جيش التحرير الشعبي اليوناني، قبل عام.

وتلت ذلك مباشرة خطة مارشال لإنعاش الاقتصاد الأوروبي تحت الهيمنة الأمريكية. طرحت كعرض لمساعدة أوروبا، بما فيها المناطق الأوروبية الخاضعة للاحتلال الروسي. لكن والت ويتمان روستو **Walt Whitman Rostow**، الاقتصادي الذي اشتغل على تنفيذها – والذي لعب فيما بعد دورا في الحرب الأمريكية في فيتنام – يكشف عن أن الخطة كانت جزءا من "عملية هجومية" تستهدف تعزيز موقع المناطق التي بقيت خارج سيطرة ستالين[٣]. وخلال أسابيع من الإعلان عن الخطة، وبدفع من الولايات المتحدة، طردت أحزاب اليمين والوسط الشيوعيين من حكومتي فرنسا، وإيطاليا[٤]. وكانت هذه هي المكافأة التي تلقاها توريز وتولياتي على ما بذلاه من جهد، طوال أربع سنوات، لمعارضة الإضرابات (ومنه إضراب كبير في مصانع رينو في باريس، في الوقت الذي انفجرت فيه الأزمة الحكومية، بالضبط). وفي ربيع **1948** تدفقت الأموال الأمريكية على إيطاليا بهدف الحول دون فوز القائمة المشتركة للمرشحين الشيوعيين والاشتراكيين من الفوز في الانتخابات العامة – وبدأت الولايات المتحدة تجنيد فاشيين قدماء في المنظمة السرية **جلاديو Gladio** (انضوت بعد ذلك تحت مظلة الناتو)، كأداة يمكن استخدامها لو فاز مرشحو القائمة المشتركة.

واتخذ ستالين إجراءات مماثلة لتفادي احتمالات الانشقاق، في أوروبا الشرقية الخاضعة للاحتلال الروسي. وضع الجيش الروسي ضمانات تبقي تعيينات

الشرطة والشرطة السرية تحت سيطرته. وتلت ذلك سلسلة من الإجراءات للقضاء على كل مقاومة للإملاءات الروسية. بدأت تلك الإجراءات بطرد الوزراء غير الشيوعيين من الحكم، وأجبرت أحزاب الديمقراطية الاجتماعية على الاندماج مع الأحزاب الشيوعية، بغض النظر عن مشاعر أعضائها، ثم حوكم أعضاء الأحزاب الشيوعية الذين أظهروا شيئا من الاستقلالية عن توجهات ستالين (وبينهم كل من حارب في إسبانيا، تقريبا)، وسُجنوا، وأُعدِم بعضهم. كوستوف **Kostov** في بلغاريا، وراشجك **Rajk** في هنجاريا، وسلانسكي **Slansky** في تشيكوسلوفاكيا، أُعدموا جميعا. أما جومولكا **Gomulka** في بولندا، وكادار**Kadar** في هنجاريا، فأُلقِي بهما في السجن، فقط. لم يكن ستالين حريصا على استبعاد مناصري رأسمالية السوق فقط، بل كان يرتجف خوفا من ظهور نظم شيوعية يقودها مستقلون – خاصة بعد القطيعة مع يوغسلافيا تيتو في **1948**. وتبعت ذلك موجة من المحاكمات الصورية لزعماء شيوعيين في أوروبا الشرقية، ووجهت إليهم الاتهامات التي وجهت لتيتو، بأنهم "عملاء للإمبريالية" و"فاشيون".

وشهد صيف **1948** أوضح تعبير عما أصبح يشار إليه بأنه "الحرب الباردة"، بعد ذلك مباشرة. قُسّمت ألمانيا، وقسمت عاصمتها برلين كذلك، لأربع مناطق احتلال. ودمجت الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، المناطق التابعة لها في كيان واحد وأصدرت له عملة جديدة، ما أدى لقطيعة بين هذه المناطق وبين المنطقة الروسية. وردت روسيا بحصار أوقف حركة البضائع والأغذية المنقولة بالشاحنات وبالسكة الحديد إلى برلين الغربية الواقعة، كأنها لسان من الأرض، داخل المنطقة الروسية. ونجح جسر جوي ضخم، نظمته الولايات المتحدة وبريطانيا في الحفاظ على تدفق البضائع والأغذية – وأصبح ذلك الجسر الجوي جزءا من حملة أنجلو – أمريكية للدعاية، باسم "الدفاع عن الحرية".

وأمنت الحملة خلفية لحملة ضد الشيوعيين والناشطين اليساريين في الغرب. وفي الولايات المتحدة قضى قانون تافت – هارتلي **Taft-Hartley law** بأن تطهر

النقابات صفوفها من مسئوليها الشيوعيين؛ وطرد موظفون حكوميون (بينهم معلمو مدارس وأساتذة جامعيون) من وظائفهم لرفضهم التوقيع على "يمين الولاء"؛ وطردت لجنة مجلس الشيوخ للأنشطة غير الأمريكية برئاسة السناتور **جو ماكارثي Senator Joe McCarthy** من هوليوود الكتاب والمخرجين الرافضين للتنديد بكل ما له علاقة بالشيوعية. وكان الكاتب داشييل هاميت بين كثيرين سُجِنوا بزعم أنهم شيوعيون. ومُنِع تشارلي تشابلن من دخول البلاد، وبول روبسون من مغادرتها. وفي أجواء كئيبة حكم على **إيثيل Ethel وجوليوس روزنبرج Julius Rosenberg** بالإعدام على الكرسي الكهربائي، بزعم أنهما نقلا أسرارًا نووية لروسيا. وفي فرنسا وإيطاليا تمزقت الحركة النقابية بسبب انقسامات نشأت عن معاداة الشيوعية. وفي بريطانيا حظر عديد من النقابات على الشيوعيين تولي مناصب فيها.

وفي حين كان ذلك يحدث في الغرب، كان شرق أوروبا تُفرض عليه أسوأ صور الأيديولوجية الستالينية العقيمة، وكانت السجون ومعسكرات العمل في انتظار من يعترض.

وسرعان ما انتظمت الكتلتان في تحالفين عسكريين متنافسين هما الناتو وحلف وارسو، بينهما قطيعة اقتصادية، في معظم الأحوال. وفرضت الولايات المتحدة حظرا بالغ التنوع على الصادرات "الاستراتيجية" إلى الكتلة الشرقية، في حين كانت روسيا تصر على أن تبقى داخل الكتلة "أولوية لاحتياجات الكتلة ككل على كل الأنشطة السياسية، والاقتصادية، والأيديولوجية"(٥).

وقفز الإنفاق العسكري في الكتلتين إلى مستويات غير مسبوقة في وقت السلم، ليصل إلى قرابة عشرين بالمائة من إجمالي الناتج الوطني في الولايات المتحدة، وإلى ما يقارب أربعين بالمائة من إجمالي الناتج الأصغر في الاتحاد السوفيتي. وأنشأت روسيا مدنا سرية لإنتاج قنبلة نووية لتنافس الولايات المتحدة، في حين طورت الولايات المتحدة القنبلة الهيدروجينية- التي تبلغ قوتها مائة ضعف

قوة القنبلة النووية – واحتفظت بأسطول من القاذفات النووية، المحلقة على الدوام. ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت القوة المجمعة للترسانتين قادرة على نسف الكوكب عدة مرات. وعلى رغم ذلك، انخرط جنرالات البلدين في مناورات حربية تقوم على فرضية استخدام هذه الأسلحة.

وفرض الامتثال الأيديولوجي على جانبي "الستار الحديدي"، ونشأ جيل تحت ظل "الخطر النووي". وكل من خطر له الاعتراض على هذا الوضع البشع، على جانبي الستار الحديدي، عرض نفسه للاتهام بأنه مؤيد – أو حتى "عميل" – للطرف الآخر. وغلبا ما كان المعارضون يتقبلون هذا الاتهام. فاعتقدت كثرة من الاشتراكيين في الغرب وفي العالم الثالث أن حكام الاتحاد السوفيتي يقفون في صفهم، في حين صدقت كثرة من المنشقين في الكتلة الشرقية زعماء الغرب الذين زعموا أنهم مؤيدون لـ"الحرية" و"الديمقراطية". وكان الواقفون ضد هذا الهراء في أوائل الخمسينيات مجرد أقلية عددية.

ولم تتحول الحرب الباردة إلى السخونة، على نطاق دولي، قط. ولو حدث ذلك، لما بقي منا، إلى اليوم، إلا أقل القليل. لكنها تحولت للسخونة في كوريا. سعى الديكتاتوران المتنافسان، اللذان جرى تثبيتهما على جانبي خط التقسيم في **1945**، إلى اكتساب الشرعية، بتوحيد البلاد، وانفجرت الصدامات في ربيع **1949**، وما تلاه. قرر ديكتاتور الشمال كيم إيل سونج التحرك قبل أن تتاح الفرصة لمنافسه الجنوبي سينجمان ري. بدأ هجوما في يونيو **1950**، بعد ضوء أخضر من ستالين، الذي توقع أن يسفر ذلك عن انهيار سريع للنظام في الجنوب. ولم يظن هو أو ستالين أن الولايات المتحدة ستتدخل. لكن القوات العسكرية الجنوبية لم تنهر، على رغم انسحاب جيشها إلى الطرف الجنوبي للبلاد، فتدخل الجيش الأمريكي. كانت الولايات المتحدة متخوفة من الأثر، الذي قد يحدثه انتصار الكتلة الشرقية في كوريا، على اليابان التي كانت لا تزال محطمة وفقيرة، حيث كان الحزب الشيوعي

الياباني يستخدم الخطابات الثورية. ورأى الرئيس الأمريكي ترومان في الحرب الكورية ما يمكن أن يقنع الكونجرس المتردد بزيادة هائلة في الإنفاق العسكري.

استمرت الحرب ثلاث سنوات. كانت الكلفة البشرية هائلة. بلغت الخسائر الغربية في الأرواح نصف المليون، وبلغت خسائر الطرف الآخر ثلاثة أضعاف هذا الرقم. مات مليونان من المدنيين الكوريين، وخسر نصف سكان الجنوب مساكنهم أو أصبحوا لاجئين. غالبية الناس فى كوريا لم تكسب شيئا قط. انتهى الأمر إلى خط تقسيم هو نفسه الذي كان موجودا في البداية، وأصبح ملايين الناس محرومين من رؤية الأقارب والأصدقاء في الجانب الآخر. في بداية الحرب، حظي كيم إيل سونج بتأييد واسع للغاية في الجنوب، وانطلقت بعض أنشطة حرب العصابات لتأييد جيوشه. وظل اليساريون الجنوبيون، الذين بقوا في الجنوب، داخل السجون لعشرات السنين، ومن تراجع منهم للشمال، مع قوات كيم إيل سونج، جرى إعدامهم بوصفهم "عناصر غير موثوقة". بالوقت ذاته حكمت كوريا الجنوبية سلسلة من الديكتاتوريين، ومر قرابة أربعين عاما قبل أن تتاح لشعبها فرصة لممارسة أدنى قدر من "الديمقراطية"، التي يفترض أن الحرب قامت بسببها.

وقد لخصت هذه الحرب البربرية العقيمة الحرب الباردة. فالإنجازات التكنولوجية الهائلة للقرن السابقين جرى حشدها لتهديد الإنسانية بالدمار من قبل الطبقات الحاكمة المتنافسة. واستخدم كل طرف من الأطراف المتحاربة لغة التنوير، بهدف إخضاع أكبر قسم ممكن من الجنس البشري، ونجح كل منهما في إقناع قسم كبير من الناس بأنه كان محقا فيما فعل.

العصر الذهبي الأقصر

الفقر وانعدام الأمان بطريقهما إلى الاختفاء. مستويات المعيشة ترتفع بمعدل متسارع؛ والخوف من البطالة يتوارى على نحو منتظم؛ والعامل الشاب لديه من الآمال ما لم يكن يخطر ببال أبيه[٦].

كانت هذه كلمات البريطاني **أنطوني كروسلاند Anthony Crossland**، من يمين الديمقراطيين الاجتماعيين في **1956**. وكان يفترض، شأنه شأن برنستاين قبل ستين عاما أن الرأسمالية قد تغلبت على أزماتها، وأننا "نقف... على أعتاب الوفرة الهائلة"(٢).

وأثبتت الأحداث التالية خَطَأَهُ. لكن لم يتَحَدَّ أحدٌ الإحصائيات التي طرحها. فقد مرت الرأسمالية بأطول فترة ازدهار في تاريخها. كان الاقتصاد الأمريكي ينتج في **1970** ثلاثة أضعاف ما كان ينتجه في **1940**، وتضاعف الإنتاج الصناعي الألماني خمسة أضعاف في **1949**، وفي فرنسا تضاعف الإنتاج أربعة أضعاف. تحولت إيطاليا من بلد زراعي إلى بلد صناعي رئيسي، وقفزت اليابان للأمام لتحتل المركز الثاني بعد الولايات المتحدة. ولا غرو أن وصف مؤرخون كثيرون تلك الفترة بأنها "عصر ذهبي".

تحولت حياة أعداد هائلة من الناس. نزلت البطالة إلى معدلات لم تعرف من قبل إلا في فترات ازدهار وجيزة – ثلاثة بالمائة في الولايات المتحدة في أوائل الخمسينيات، وواحد ونصف بالمائة في بريطانيا، وواحد بالمائة في ألمانيا في **1960**. كان هناك ارتفاع تدريجي، ويكاد يكون متصلا، في الأجور الحقيقية في الولايات المتحدة، بريطانيا، واسكانديناڤيا في الخمسينيات، وفي فرنسا وإيطاليا في الستينيات. عاش العمال أفضل مما عاش آباؤهم، وتوقعوا أن تتاح لأطفالهم حياة أفضل.

ولم تكن المسألة مسألة أجور أعلى، فقط. فقد كان من الممكن إنفاق الأجور على خيارات واسعة من السلع الاستهلاكية – مكنسات كهربائية، غسالات، ثلاجات، أجهزة التلفزة، أنظمة التسخين الفوري للمياه. حدثت قفزة نزعية في مستوى حياة الطبقة العاملة. بقي العمل المنزلي عبئا على المرأة، لكن من دون أن

تنفق ساعات طويلة وهي تقف أمام النار لتطبخ أو تغلي ماء الغسيل، وتركع لتنظف الأرض. أصبح من الممكن شراء الطعام كل أسبوع، بدلا من كل يوم (ما فتح الباب لظهور السوبر ماركت كبديل عن الدكان في الشارع القريب). أصبحت أنواع مختلفة من الترفيه متاحة في البيت، حتى بالنسبة لمن ليس بمقدورهم الذهاب للسينما، أو المسرح، أو قاعة الرقص.

وحدثت أيضا تحولات أخرى. وافق أصحاب العمل على أن يكون أسبوع العمل خمسة أيام بدلا من خمسة أيام ونصف اليوم، وعلى إجازة سنوية تزيد على أسبوع واحد. والتسهيلات التي بدت مكسبا عظيما للعمال في فرنسا في **1936** صارت أمرا شائعا في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية. أصبحت العطلة تعني، عند جماهير الناس، أكثر من يومين في الريف أو على ساحل البحر. والعمال الذين كان أقصى حلم لدى الواحد منهم أن يشتري لنفسه دراجة صار من الممكن لهم الادخار بهدف شراء سيارة مستعملة. ولأول مرة، صار أجر شباب العمال مرتفعا لدرجة تجعل منهم سوقا مستقلة بذاتها. وولدت "ثقافة الشباب" في منتصف الخمسينيات، نتيجة لطلب، بدا أنه بالغ القوة، على الأغنيات الشعبية، والموضات التي حركتها أحلام المراهقين، وقلق الكبار.

وتماثلت تحولات الإنتاج مع التحولات في الاستهلاك وفي أساليب الحياة. واكتسبت التقانات التي ظهرت في سنوات ما بين الحربين اعترافا واضحا بأهميتها. وأصبحت المصانع الجديدة، أو التي جرت توسعتها واستقبلت عمالة جديدة، تنتج الغسالات، والثلاجات، والكنسات الكهربائية، وأجهزة التلفزة، وفوق هذا، السيارات. كان هناك أكثر من سبعين مليون عامل صناعي في الولايات المتحدة، وأكثر من ثمانية ملايين في بريطانيا، تركزوا في مصانع يعمل فيها، مئات، أو آلاف، وفي حالة مصانع السيارات والطائرات عشرات الآلاف من العمال. وبمرور الوقت أصبح مصنع الإنتاج الكبير هو النموذج لأنواع كثيرة

أخرى من التوظيف. وانتشر نمطه الذي يقوم على التجييش إلى حشود العاملين في سلسلات السوبر ماركت المزحمة، وانتقل نوع دراسات الزمن والحركة الخاصة به إلى جماعات الكاتبين على الآلات الكاتبة ومراكز معالجة البيانات، وانتقل أسلوب دفع الرواتب منه إلى شركات التنقيب عن الفحم، ومناهجه الإدارية إلى أعمال الشحن في الموانئ وأعمال البناء. وقد كانت هذه المقاربات المستلهمة من مصانع الإنتاج الكبيرة واسعة الانتشار، لدرجة أن بعض علماء الاجتماع استخدموا كلمة "**الفوردية**" **Fordism** للإشارة إلى تلك الفترة. وكما أن المصنع في فترة الثورة الصناعية أمّن للعمال فرصة القتال لتحسين ظروفهم، فإن انتشار التوظيف على منوال يماثل ذلك الذي اتبعته المصانع، أمن للعمال فرصة أكبر للغرض ذاته، إبان الطفرة المطولة. فجمعت مصانع السيارات في ديترويت، وتورينو، وكوفنتري، وداجنهام، وكولوني، وبيلان كورت، إلى عمال مصانع الطائرات في سياتل، وعمال مصانع السلاح في كاليفورنيا، إلى عمال مصانع الصلب الكبرى، والعمال في مناجم الفحم، وأحواض بناء السفن، ليكونوا مراكز مقاومة محتملة ضد مالكي رأس المال. وفي ظروف التشغيل الكامل كان ذلك شيئا تعين على رأس المال أن يأخذه في اعتباره. ففي أمريكا الشمالية وفي معظم أوروبا الغربية اعتمد على سياسيين كانوا يدعون لـــ"الإجماع" من أجل استقرار المجتمع.

كانت سنوات الطفرة المطولة هي السنوات التي شهدت تحول القوانين القديمة الخاصة بأوضاع الفقراء، بالنهاية، إلى "دولة الرفاه". ومن زاوية الرؤية الخاصة برأس المال، تعلق الأمر، في جانب منه، باستخدام النقابات أو الوسطاء السياسيين (السياسيين الديمقراطيين الاجتماعيين في أوروبا، أو الديمقراطيين "الليبراليين" في الولايات المتحدة) لشراء رضا قوة العمل، التي زادت قوتها، زيادة كبيرة، عما كانت عليه قبل الحرب. وتعلق الأمر أيضا بضمان إعادة التوليد ذات الكفاءة لقوة العمل الباهظة الكلفة، عبر تدابير لتحسين صحة الأطفال وتربيتهم.

وفي أي من الحالتين، فقد كان "الرفاه" أو الإصلاح يعني أحوالا أفضل، ليس بالمعنى الذي كان له في القرن التاسع عشر أو بما يعنيه اليوم، بخفض مستويات الرفاه لإجبار العامل على بيع قوة عمله بسعر أدنى.

وأحدثت فترة الطفرة المطولة تحولات مهمة أخرى في البلدان المتقدمة. فنقص العمالة جعل رأس المال يفتش في مختلف أنحاء العالم عن إمدادات عمالة جديدة. وسرعان ما كانت العمالة المهاجرة من جنوب إيطاليا تعمل في المناجم البلجيكية وفي المصانع السويسرية، بمثل ما كان تدفقها يزيد التكدس السكاني في ميلانون وتورينو. وتحول تدفق السود من المزارعين السابقين بالمحاصصة، إلى سيل اجتاح لوس آنجيليس، وديترويت، وشيكاجو. ورحبت الشركات الألمانية باللاجئين من الشرق، ونظمت لاستقدام الملايين من "العمال الضيوف" من تركيا ويوغسلافيا. ووظفت الشركات الفرنسية عمالة من شمال إفريقيا. وبحثت الخدمات الصحية البريطانية عن عمالة في الكاريبي، فيما بحثت مصانع النسيج فيها عن عمال في البنجاب. في فترات سبقت، كانت الرأسمالية تجمع بين قوى العمل من مختلف قارات العالم عبر السوق العالمية. ثم أصبحت تجمع بين كثير من الشعوب في مدنها الكبرى. وأدى ذلك إلى مستويات من الانصهار التلقائي لثقافات متمايزة انتمى إليها أولئك الناس. لكنه أدى أيضا إلى محاولات عنصرية لتأليب الجماعات الإثنية، بعضها ضد بعض.

وبالنهاية أدت الطفرة إلى تحولات تاريخية في العلاقات بين الجنسين. ففي يأس رأس المال وهو يبحث عن قوة عمل، استدار إلى المرأة يطلب تشغيلها، كما جرى في الأيام الأولى للثورة الصناعية. كانت هناك دائما بعض الصناعات المعتمدة على النساء، وخاصة المنسوجات، وبقي حضور المرأة في قوة العمل الصناعية يتعاظم، منذ الحرب العالمية الأولى، على الأقل. لكن الغالبية العظمى من

النسوة المتزوجات (80 بالمائة في بريطانيا في الخمسينيات) كن من دون وظائف مدفوعة الأجر. ولاهتمامها بضمان إعادة إنتاج قوة العمل، شجعت الدولة النساء على البقاء في بيوتهن، للعناية بأطفالهن، ولتلبية احتياجات أزواجهن- ووجدت غالبية النساء أن الأجور المنخفضة التي قد يكسبنها لا تعد حافزا كافيا، لاحتمال العبء المزدوج، بالعمل المأجور والعمل المنزلي. لكن الطفرة المطولة أحدثت تحولات كبرى. فالأجهزة المنزلية الحديثة خففت أعباء العمل المنزلي، فسهلت الالتحاق بوظيفة مدفوعة الأجر أيضا. وحرص أصحاب العمل على تشغيل النساء عند الضرورة، بنصف دوام وبما يتناسب مع واجباتهن تجاه الأطفال، والحاجة إلى نقود لشراء الأجهزة المنزلية حفزت النساء لقبول ذلك.

نشأت الترتيبات الجديدة عن ضغوط اقتصادية. النساء الذين اجتذبهن العمل رحبن بالاستقلال الذي أمنه العمل بأجر. جعلهن أكثر استعدادا لتولي أمورهن بأنفسهن. فقد كان المجتمع ينكر على المرأة الحق في دور مستقل، منذ ظهرت الطبقية، قبل خمسة آلاف عام. لكن ها هي غالبية النساء تمضي، خارجة من الفضاء الخاص في المنزل، إلى الفضاء العام للصناعة.

وبقي العبء المزدوج. وأحد أسباب ترحيب أصحاب العمل بتوظيف النساء هو إمكانية أن يمنحوهن أجورا أدنى، من دون أن يترتب على ذلك ما يضيرهم. كانت بنية سوق العمل لا تزال تقوم على فكرة أن دخل الرجل أكثر أهمية من دخل المرأة. وساندت هذه الفكرة كتلة من التنميطات الأيديولوجية، التي كانت تعبر أن المرأة، عادة، تبقى حاضنة الطفل، بالمعنى الحرفي. لكن رأس المال، وهو يبحث عن الربح والتراكم، كان يخلق الشروط التي تسمح للمرأة بثقة تجعلها تتحدى هذه الترتيبات. كان رأس المال يمهد لطلب غير مسبوق لتحرير المرأة، وإن تعذر تحقيق ذلك، على الإطلاق.

التحرر من الكولونيالية

في الخامس عشر من أغسطس 1947 رفع جواهر لال نهرو علم الهند فوق القلعة الحمراء في دلهي. كانت بريطانيا ترحل عن "لؤلؤة التاج" الإمبراطوري الخاص بها. عصر الإمبراطورية كان يقترب من الأفول، بعد ما لا يزيد على ستين عاما من التنافس على إفريقيا، وإن استمرت آلام احتضاره حتى تخلي الأقلية البيضاء في جنوب إفريقيا، نهائيا، عن الحكم في جنوب إفريقيا في تسعينيات القرن العشرين.

لم يتخـــل حكام بريطانيا عن سيطرتهم على الهند، طائعين مختاريـــن، فمحاولتهم تجنب ذلك تركت وراءهم شبه القارة المنقسم على نفسه غارقا في دماء أسالتها الصراعات الطائفية.

اكتسبت الحركة الوطنية الهندية خصمًا جديدًا في ثلاثينيات القرن العشرين. أفقر الكسادُ الدوليُّ الريف. ظهرت الراديكالية الزراعية في كل مكان، من إمارة كشمير، في أقصى الشمال، إلى آندرا وترافنكور في الجنوب[٨]. وارتفع عدد العمال المنخرطين في إضرابات، من 128 ألفا في 1932 إلى 220 ألفا في 1934[٩]. وتنامى نفوذ حزب المؤتمر كما تنامى نفوذ جناحه اليساري، الذي قادته شخصيات مثل نهرو، سوبهاس شاندرا بوز. واكتسح انتخابات المجالس المحلية في 1937 المرشحون الذين قامت برامجهم على خفض الإيجارات والضرائب. ولم تفز **رابطة المسلمين Muslim League** بأكثر من ربع المقاعد المخصصة للمسلمين.

لكن السلطة الحقيقية داخل حزب المؤتمر بقيت بأيدي اليمينيين ومجموعة متراصة من الرأسماليين المقربين إلى غاندي. وسرعان ما أصدرت الحكومة المحلية التي شكلها سياسيون من حزب المؤتمر قوانين ضد الإضراب، واضعة حدا للفورانات ذات الأساس الطبقي. وانفتح الباب أمام الصراعات الطائفية، عندما حَمَّل الانفصـــاليون المسلمون كل الهنـــدوس المسئولية عن تصرفـــات أصحاب

الأراضي منهم، ولام الشوفينيون الهندوس كل المسلمين على مافعله أصحاب الأراضي منهم.

وتصاعد العداء لبريطانيا عندما أعلنت أن الهند في حالة حرب مع ألمانيا، من دون استشارة أحد من الهنود، ثم رفضت مجرد التفكير في منح الهند حكومة خاصة بها، حتى وهي تقول إنها تحارب من أجل "الحرية". وحتى غاندي وافق على حركـــة جماهيرية ضخمة بعنوان "ارحلوا عن الهند" في **1942**. اندلعـــت الإضرابات، والتظاهرات الحاشدة من الطلبة والعمال، وصدامات متكررة، قامت الشرطة أثناءها بضرب الناس لإجبارهم على إخلاء الشوارع. أطلقت الشرطة النار على متظاهرين غير مسلحين، في مئات المناسبات. وقعت هجمات من تشكيلات حرب عصابات على منشآت بريطانية، وأُحرقت مراكز للشرطة، وقُطِعت خطوط التلغراف وعطلت الخطوط الحديدية. وبالنهاية أوقف القمع الحركة. سقط ألفا قتيل، وحُكِم على ألفين وخمسمائة بالجلد، في بومباي وحدها. وأحرقت القرى، بل وفتحت عليها نيران الأسلحة الآلية من الجو. لكن نائب الملك البريطاني الجنرال آرتشيبالد ويفل قال لتشيرشل في أواخر **1943** إن "قوة القمع المطلوبة اللازمة للاحتفاظ بالهند بعد الحرب قد تفوق قدرات بريطانيا"(١٠).

وبقيت لدى القوى الإمبراطورية ورقة واحدة يمكن أن تلعب بها. استداروا لرابطة المسلمين كثقل موازن لحزب المؤتمر. زعموا أن الرابطة تمثل جميع مسلمي الهند، وأعطوها حكم عدة أقاليم، على رغم أدائها المتدني في انتخابات **1937**. وصار أشهر زعمائها محمد علي جناح، قابلا بالمطالبة بدولة منفصلة للمسلمين – وهو ما عارضه من قبل – على رغم أنه كان يستحيل رسم حدود تلك الدولة من دون أن تشمل داخلها أعدادا كبيرة من الهندوس والسيخ، ومن دون التخلي عن الأعداد الكبيرة من المسلمين الذين يعيشون في مناطق ذات أغلبية

هندوسيـــة. وكجزء من مساندتـــه للمجهود الحربي البريطاني، تجاوب الحــزب الشيوعي مع هذا التوجه، على رغم أنه سبق أن عارض التقسيم الطائفي، زاعما أن المسلمين والهنود قوميتان مختلفتان. لكن بقيت لدى الحركة الوطنية قدرة هائلة على تجاوز الانقسام الطائفي. وفي فبراير **1946** بدأ الجنود بدرجة نفر في البحرية البريطانية في بومباي احتجاجا على الإهانات العرقية، وعلى تدني رواتبهم مقارنة برواتب أندادهم من البحارة البيض. وتصاعدت الاحتجاجات لتصبح تمردا على **78** سفينة، وعلى عشرين محطة ساحلية، دعمتها إضرابات وتظاهرات نظمها الطلبة والعمال[١١]. وحمل المتمردون أعلاما هندوسية وإسلامية ورايات حمراء. وكانت هذه أول مرة، منذ **1857** تنقلب فيها، على نحو جماعي، على الإمبراطورية القوات التي أنشئت لحمايتها – وفعلت القوات ذلك على نحو فتح الباب أمام تلاحم، على مستوى القواعد، بين الهندوس، والمسلمين، والسيخ، وبما يبدو أنه رفض للطائفية. لكن قادة حزب المؤتمر لم يكونوا مستعدين لتقبل ذلك، فعارض غاندي التمرد وحاول نهرو تهدئته. وتمكنت الطائفية من أن تعود للحياة، وإن كان التمرد أنهى كل أمل للبريطانيين بالتشبث بالسلطة.

فازت رابطة المسلمين التي يقودها جناح بكل مقاعد المسلمين في الانتخابات – وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي يتحقق لها فيها ذلك، واعتبرت ذلك تفويضا للمطالبة بدولة منفصلة عبر التهييج الطائفي. وفي البنغال، أطلق رئيس الحكومة المحلية التابعة لرابطة المسلمين، **حسين شهيد سهروردي Huseyn Shaheed Suhrawardy** – الذي أصبح مليونيرا بالمضاربة في السوق السوداء للحبوب الغذائية في مجاعة **1942 - 1943** – موجة من العنف الغوغائي ضد الهندوس[١٢]. وانتهز الشوفينيون الهندوس الفرصة لإطلاق حملة مذابح عنصرية ضد المسلمين، مات فيها خمسة آلاف. وانفجرت أعمال الشغب الطائفية، في مدينة بعد الأخرى، في الأيام التالية، تمهيدا للبشاعة الكبرى التي وقعت بعد ذلك بعام.

كان زعماء حزب المؤتمر ومساندوهم في عالم البيزنيس يتلهفون على أن يضعوا أيديهم على دولة لهم وحدهم، حتى وإن كانت مجتزأة، ووافقوا على اقتسام شبه القارة مع جناح. ورسم المسئول الحكومي الإنجليزي سيريل جون رادكليف **Cyril John Radcliffe**، الذي لا يعرف شيئا عن الهند، خطا شطر البنغال والبنجاب شطرين. وأصبحت هناك جماعات سكانية مختلطة، من هندوس، ومسلمين، وسيخ على جانبي حدود البنجاب، بما في ذلك المدن المجاورة مثل لاهور وآمريستار. وهكذا نشطت عصابات من البلطجية اليمينيين المسلمين، على أحد جانبي الحدود، وعصابات من البلطجية اليمينيين الهندوس والسيخ، على الجانب الآخر، لتأكيد هيمنة كل فريق على المناطق التي خُصِّصَت له، بالذبح والترويع وطرد المنتمين لغير الدين المقرر للمنطقة المعنية. وماتت أعداد من الناس يتراوح عددها بين ربع المليون والمليون. بالوقت ذاته، هاجمت الدهماء الأقليات المسلمة الكبيرة العدد في مدن مثل دلهي ولوكناو بغرض "إقناعهم" بالهجرة إلى باكستان.

وفي أعقاب بشاعات التقسيم، جاءت الكارثة النهائية- الحرب بين الدولتين الجديدتين. ادعت كل منهما الحق في كشمير، التي كانت فيها أغلبية مسلمة، ولها أمير هندوسي، وزعيم مسلم معارض محبوس من أنصار حزب المؤتمر. وانخرطت باكستان والهند في محاولات انتزاع السيطرة عليها بالقوة المسلحة. وصل الجيش الهندي، أولا، إلى العاصمة سيرنجار. ومر عام من الاشتباكات المسلحة المتقطعة، قبل أن تترك الهدنة الجيشين يحدق أحدهما في الآخر، عبر خط تقسيم يبلغ طوله مئات الأميال.

أحدث التقسيم تأثيرات مدمرة في البلدين. قوَّى ساعد الشوفينيين الهندوس في الهند، وشجع التوجه نحو سياسات حزبية تقوم على تحالفات دائمة التغير، بين زعامات الطوائف المحلية، وزعامات الجماعات اللغوية والدينية. وامتصت المواجهة العسكرية مع باكستان الموارد التي تحتاجها الهند، أشد الاحتياج، لتحسين حياة السكان.

وما حل بباكستان كان أسوأ. لم يكن يجمع بين الناس فيها سوى الدين – بل وحدثت صدامات بين أتباع المذهبين المسلمين السني والشيعي. كانت البلاد منقسمة لقسمين، يفصل بينهما إقليم هندي يمتد لمئات الأميال. تحدث معظم الناس البنغالية في القسم الشرقي، والبنجابية في الغرب. لكن اللغة القومية كانت الأوردو التي لا ينطق بها سوى المنتمين لأقلية جاءت من مسلمين هاجروا من شمال وسط الهند. وفوق ذلك، فإن مساحات شاسعة من القسم الغربي سيطر عليها أصحاب الأراضي الذين مارسوا سلطات شبه إقطاعية. وكانت النتيجة اضطرابات متصلة، وسلسلة من ديكتاتوريات عسكرية، وانفصال باكستان الشرقية في **1971** لتصبح بنجالاديش – عقب القمع الدموي لتمرد شعبي – والمزيد من الانقلابات العسكرية في باكستان الغربية، وإعدام رئيس وزرائها السابق، وما يشبه حربا أهلية في كراتشي، كبرى مدنها الصناعية، في التسعينيات.

لكن كارثة التقسيم لم تحل دون أن يكون لانسحاب بريطانيا أثر هائل في مكان آخر. كانت الإمبريالية تتراجع، وكان في كل مستعمرة أناس جاهزون لاستيعاب ما يجري.

الصين الشعبية

في صيف **1949**، وبعد ما لا يزيد عن العامين من انسحاب بريطانيا من الهند، تمكن جيش تحرير شعبي يقوده شيوعيون قدامى، من أمثال **ماو تزا دونج Mao Zedong**، **وجو ده Zhu De**، **وليو شاو كي Liu Shaoqi** من احتلال بكين. ومع زحفه صوب الجنوب لتوحيد عموم الصين، باستثناء جزيرة تايوان الكبيرة الحجم، والمدينة– المستعمرة هونج كونج البريطانية، ولت، إلى الأبد، أيام الامتيازات الأجنبية التي فرضت نفسها على الصين، لأكثر من قرن من الزمان.

بدأ جيش ماو كمجموعة من الجنود الشيوعيين والمنشقين عن الجيوش الوطنية ممن فروا من المذابح، التي أجرتها قوات تشيانج كاي شيك في أواخر العشرينيات، بإقامة قاعدة لهم على حدود منطقة كيانجسي في الجنوب. كانوا قد جندوا الفلاحين المحليين في جيش تعين أن يأتي مشابهًا لجيوش التمرد الفلاحية التي تكرر ظهورها، في فترات متقطعة، في التاريخ الصيني. وعندما دهمتهم قوات تشيانج، قاموا بـــ"مسيرة طويلة" دائرية الحركة، امتدت سبعة آلاف ميل، عبر الصين الجنوبية والغربية، وصولا إلى يونان في أقصى الشمال الغربي. ولم يكمل المسيرة سوى أقل واحد من عشرة من المائة ألف الذين بدءوها. لكن هذه البقايا تمكنت من اكتساب مؤيدين جدد، وخاصة بعد الهجوم الياباني على الصين في **1937**.

دفعت اليابان بجيش تشيانج كاي شيك إلى عمق الصين، وتركته عاجزا عن مواصلة القتال ضد القوات الشيوعية. ولم يعد أمامه من خيار سوى الموافقة على قبول الطرفين الصينيين المتصارعين، أحدهما بالآخر، مع مواصلة حربهما ضد اليابان. لكن جيشه بدا عاجزا عن محاربة أي طرف. فمعظم جنرالاته لم يكونوا يريدون سوى الإثراء على حساب جنودهم، وعلى حساب الفلاحين الذين مروا بأراضيهم. وبالمقابل، راح جيش الشعب الصيني يعزز قوته على نحو متصل. حصل على احترام الطبقات الوسطى المتعلمة بحربه ضد اليابان، وعلى احترام الفلاحين باتباع سياسات خفض الإيجارات، بل وبقدر من المساندة من جانب الرأسماليين الصينيين الذين أمن لعملياتهم بعض شروط الاستقرار.

وانهار اليابانيون، مخلفين وراءهم تشيانج كاي شيك ومعه جيش ضخم، وتتدفق عليه مساعدات مالية ضخمة من الولايات المتحدة (مع مساعدات مالية أقل كانت تأتيه من روسيا ستالين التي لم تكن تؤيد الشيوعيين آنذاك). لكن ماو كان لديه جيش يتمتع بروح معنوية أعلى وبانضباط أشد. وعندما انفجرت الحرب

الأهلية بين الاثنين، بدأ جيش تشيانج يتفكك، وراحت أقسام كاملة منه (ومعها جنرالاتها) تنقل ولاءها للطرف الآخر. وبحلول **1949**، كانتشيانج كاي شيك قد فر من البر الصيني إلى تايوان - التي لا تزال **الكومنتانج Kuomintang** مسيطرة على الحكم فيها، إلى اليوم.

تسبب انتصار ماو بصدمة مخيفة للولايات المتحدة، التي صارت تعتبر الصين جزءا من إمبراطوريتها غير الرسمية، مع تدفق أموالها على جيوب جنرالات تشيانج كاي شيك. وكانت تفهم الموقف على أساس أن ماو شيوعي، وستالين شيوعي، ومن ثم فقد حلت بها هذه النكسة كنتيجة لمؤامرة شيوعية عالمية، متجاهلة بذلك أن ستالين قدم مساعدات لتشيانج، ونصح ماو بعدم الاستيلاء على السلطة. واشتملت العمليات العسكرية الأمريكية في كوريا، التي بدأت بعد شهور من الانتصار الذي حققه ماو، على تقدم الجنود جنوبا مكتسحين كوريا الشمالية باتجاه الحدود مع الصين، فيما يشبه إجبارا للصين على الوقوف بجانب الكوريين الشماليين، وإلقاء ماو في أحضان ستالين (وإن لم يستمر تحالفهما لأكثر من اثني عشر عاما). وبالوقت ذاته، صارت الولايات المتحدة تعتبر مساندتها للكولونيالية الفرنسية في الهند الصينية جزءا من دفاعها عن "العالم الحر" ضد "الشيوعية"، وقدمت من المال والسلاح ما سمح لفرنسيين بمواصلة الحرب حتى **1954**.

وتوصلت غالبية اليسار العالمي إلى خلاصات مشابهة للخلاصات الأمريكية، ولكن بتأويلات معاكسة. وهكذا أصبحت الصين وروسيا كتلة "السلام والاشتراكية". وفوق ذلك، اعتبر البعض أن الصين برهنت على سهولة الاستيلاء على السلطة بحرب العصابات الفلاحية. تجاهلت الظروف الخاصة في الصين في النصف الثاني من الثلاثينيات وفي النصف الأول من الأربعينيات– المساحات الشاسعة، الغزو الياباني، الفساد الهائل في جيش تشيانج. وعجزوا أيضا عن أن يدركوا أنه، وإن تألف جيش ماو في غالبيته من الفلاحين، فقياداته وكوادره الإدارية، في "المناطق المحررة" هي من العناصر المتعلمة من الطبقات الوسطى الحضرية.

انتصار ماو، الذي جاء بعد جلاء بريطانيا عن الهند بشهور قليلة، عزز لدى أهل المستعمرات الشعور بإمكانية إلحاق الهزيمة بالإمبريالية. كانت هناك، بالفعل إرهاصات تمرد في الجزائر الفرنسية، ومحاولة إنشاء حكومة مستقلة في فيتنام. بدأت تتنامى حركة وطنية في المستعمرة الهولندية الضخمة في الهند الشرقية، قبل الحرب. استغل قادتها الاحتلال الياباني لتوسيع قاعدة أنصارهم، عبر شبه تعاون مع قوات الاحتلال، وبإعلانهم أنفسهم، بعد رحيل اليابانيين، حكومة لبلد جديد يدعى إندونيسيا. وها هم ينخرطون في حرب ضد الكولونيالية الهولندية، ويحققون الاستقلال في 1949 بقيادة الرئيس سوكارنو. وفي الملايو استعد الحزب الشيوعي الذي كان القوة الرئيسية للمقاومة ضد اليابان، بمساندة بريطانية، لحرب تحرير ضد بريطانيا. وعاد طلاب متباينو التوجهات، مثل **فوامي نكروما Kwame Nkrumah**، **وجومو كينياتا Jomo Kenyatta** و**إيريك وليامز Eric Williams**، الذين تعارفوا أيام دراستهم في لندن في الثلاثينيات، إلى أوطانهم، هم أيضا، لتحريك المطالبات بالاستقلال. وفي عواصم عربية مثل دمشق، وبغداد، والقاهرة، بدأ جيل جديد من شباب الطبقات الوسطى المتعلم، الذي احتل في بعض الحالات مواقع في جيش الدولة، يخطط لتحقيق استقلال حقيقي ويحلم بـ"أمة عربية" موحدة، من المحيط إلى الخليج.

وكان التوجه الذي مالت إليه القوى الكولونيالية هو الرد على الحركات التحررية بمثل ما ردت به عليها في الماضي، بالأسلحة الآلية، وبالضرب بالقنابل، وبمعسكرات الاعتقال الجماعي. كان هذا هو رد فعل فرنسا في فيتنام، ومدغشقر، والجزائر، وفي مستعمراتها في غرب إفريقيا؛ ورد فعل بريطانيا في الملايو، وكينيا، وقبرص، وعدن، وروديسيا[١٣]. ورد فعل البرتغال في أنجولا، وموزمبيق، وغينيا بيساو.

ولكن تبين، بمرور الوقت، أن هذا الأسلوب يأتي بنتائج معاكسة، ولا يؤدي إلا إلى تعميق العداء الشعبي للمصالح الأوروبية. ومال عدد متزايد من الحكام إلى فكرة رعاية قيادات محلية قادرة على الخدمة المخلصة للمصالح الكولونيالية، وإن بدت قيادات لـ"حكومات مستقلة". تبنت بريطانيا هذه المقاربة في كثير من مناطق الشرق الأوسط، وغرب إفريقيا، والهند الغربية. وفي الملايو مارست بريطانيا قمعا شديدا ضد حركة التحرر التي قادها الشيوعيون (قطع الجنود أيدي "الإرهابيين" القتلى، بل ورءوسهم، وأجبروا نصف مليون من الناس على إعادة التوطن في قرى محاطة بأسلاك شائكة). لكنها أيضا قدمت وعدا بالاستقلال للسياسيين "المعتدلين" من الملايو، وهم السياسيون الذين عززوا قاعدة التأييد لهم بإثارة النفور العرقي من الأقلية الصينية. وحتى في الأماكن التي اتخذت فيها بريطانيا موقف الرفض المتشدد لمطالب "الأهلين"- كما في كينيا حيث قصفت القرى بالقنابل، وساقت جماعات من الناس إلى معسكرات اعتقال مات فيها كثيرون، وفي قبرص حيث استخدمت قواتها التعذيب- فقد انتهى بها الأمر إلى تفاوض حول انتقال سلمي للسلطة، إلى قادة سياسيين (مثل كينياتا في كينيا، والأسقف مكاريوس في قبرص) ممن سبق لها أن سجنتهم ونفتهم.

وبمرور الوقت، اضطرت فرنسا لتبني هذه المقاربة في فيتنام والجزائر. لكنها لم تفعل ذلك إلا بعد تبديد أموال طائلة وإزهاق أرواح أعداد كبيرة من الناس في حروب لم يكن لها أن تكسبها. وتسممت أجواء السياسة البريطانية، بعد أن انخرط عدد من الجنرالات الساخطين في سلسلة محاولات انقلابيـــة في الفتـــرة **1958-1962** (ما أسفر عن منح الجمعية الوطنية سلطات شبه ديكتاتورية للجنرال ديجول في **1958**). وأدى الاتفاق، بعد ذلك، إلى استقلال الجزائر إلى أن انتقل مليون مستوطن فرنسي من الجزائر إلى فرنسا، وإلى موجة من التفجيرات التي قامت بها منظمة الجيش السري **OAS** في باريس.

وحاولــت أشد الرأسماليات تخلفــا في أوروبا الغربية، وهي الرأسماليــة البرتغالية، التشبث بمستعمراتها، لكن انتهى الأمر بإجبارها على الرحيل عنها في **1974-1975**، عندما فجرت كلفة الاحتفاظ بالمستعمرات حراكا ثوريا في البرتغال ذاتها. ولم يتبق سوى النظامين الاستيطانيين الأبيضين في إفريقيا الجنوبية – في جنوب روديسيا، التي انتهى بها الأمر إلى أن أُجبِرَت على قبول حكم الأغلبية السوداء في دولة دعيت زيمبابوي في **1980**، وجنوب إفريقيا التي مضت للغاية ذاتها، في **1994**.

ويعد انسحاب القوى الأوروبية الغربية من الحكم المباشر لنصف آسيا وكل إفريقيا، تقريبا، لحظة ميلاد عصر جديد. فهي نهاية ما يقارب القرنين، بقي فيهما مسار التاريخ يمر عبر لندن وباريس. لكن لم تكن تلك نهاية الإمبريالية، بمعنى أن جانبا كبيرا من اقتصاد العالم بقي، بالمعنى التقني، خاضعا لسيطرة قلة من البلدان المتقدمة اقتصاديا. وسوف تشهد على هذه الحقيقة، على نحو متكرر، الصراعات المريرة في الأمريكتين، وجنوب شرق آسيا، والشرق الأوسط.

النفط والدم

كان الشرق الأوسط، باحتياطياته الهائلة من النفط، الجائزة التي تفوق غيرها بكثير من حيث الأهمية، بالنسبة لأي إمبريالية في النصف الثاني من القرن العشرين. وسّعت بريطانيا إمبراطوريتها في الشرق الأوسط، خلال الحرب العالمية الأولى، بالتعاون مع حاكم مكة، الشريف حسين، في "الثورة الوطنية العربية"، ووعدته بكل الأقاليم العربية التي كانت تحت حكم تركيا. لكن الحكومة البريطانية وعدت القادة الصهاينة أيضا بأن تخصص أرضا عربية، هي فلسطين، للمستوطنين الأوروبيين اليهود، معتبرة إياهم حاجزا بوجه أي تهديد عربي لقناة السويس القريبة

من فلسطين. وكما شرح الزعيم الإسرائيلي آبا إيبان، بعد ذلك، "كان علينا أن نساعد بريطانيا على أن تصبح القوة الحاكمة، وكان عليها أن تساعدنا في تطوير الوطن القومي اليهودي"[١٤].

ونجح هذا التعامل المزدوج، إلى حد معين. وضعت الشركات البريطانية أيديها على احتياطيات النفط في العراق وإيران، وتعاون متطوعون من المستوطنين اليهود مع بريطانيا في إخماد الثورة العربية في فلسطين، وهي أخطر حركة تمرد واجهت الإمبراطورية البريطانية منذ **1930**. لكن هذه السياسة بدأت تأتي بنتائج عكسية مع الوقت. تزايد العداء العربي للمستوطنين الصهاينة الذين اشتروا الأرض من الملاك العرب الأثرياء، وطردوا منها عائلات الفلاحين الذين كانوا يفلحونها منذ قرون. ووجد اليهود الذين فروا من القمع في أوروبا أن عليهم أن يقمعوا غيرهم في فلسطين. وحاولت بريطانيا إنهاء الاحتقان العربي بالحد من الهجرة اليهودية، فأصبحت هدفا لهجمات من الجانبين. وفي **1946** صارت الوحدات اليهودية شبه العسكرية، التي تشكلت لقمع العرب، تهاجم القوات والمنشآت البريطانية.

وقررت بريطانيا الهرب من المشكلة التي خلقتها بسحب قواتها من فلسطين في **1947**، معتمدة على الملكيات العربية العميلة، في العراق والأردن ومصر، للدفاع عن مصالحها النفطية. وكانت كل من الولايات المتحدة وروسيا متلهفتين على الدخول إلى المنطقة مع خروج بريطانيا منها، فاشتركتا في تأييد قرار من الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وتأسيس دولة استيطانية إسرائيلية (بتخصيص نصف الأرض لثلث السكان). وتلقى المستوطنون شحنات أسلحة ضخمة من تشيكوسلوفاكيا التي كان يديرها الشيوعيون، كما تلقوا مساندة من الولايات المتحدة. ومع اندلاع القتال، نجحوا في إرهاب السكان العرب ودفعهم للهرب، بعد مذبحة دير ياسين، ثم هزموا جيشا سيئ التنظيم أرسلت به الملكيات العربية، بزعم مساعدة الفلسطينيين -

وهو الجيش الذي انتهى إلى احتلال بقايا المنطقة المخصصة للعرب بحكم التقسيم (ما لا يزيد عن عشرين بالمائة من الأرض الأصلية)، واقتسامها بين عاهلي الأردن ومصر. وترسخت إسرائيل كدولة استيطانية قوية، مستعدة وقادرة على مساعدة المصالح الغربية- ما يعني المصالح الأمريكية، عادة - مقابل السلاح والمساعدات المالية.

وهذا لم يكن من شأنه المساعدة في استقرار المنطقة. فالمرارة التي تسبب بها انتصار إسرائيل على العرب، فجرت انقلابا عسكريا في مصر، جاء بالضباط الوطنيين بقيادة جمال عبد الناصر إلى الحكم، وقضى على الملكية الموالية لبريطانيا. ودفع تأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس المملوكة لبريطانيا وفرنسا، بالإمبريالية البريطانية إلى آخر مغامراتها الكبرى في المنطقة. ففي نوفمبر **1956** اشتركت قوات بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل في الهجوم على مصر. ويكاد يكون الهجوم قد نجح عسكريا، لكن فشله السياسي كان فشلا تاما. استغلت الولايات المتحدة المشكلات المالية لدى بريطانيا، لوقف العملية العسكرية، ولاقتلاع بريطانيا كقوة مسيطرة على الشرق الأوسط، في حين أدى تعاظم موجة العداء لبريطانيا في المنطقة إلى إسقاط الملكية في العراق بعد عامين من ذلك.

واتبعت الولايات المتحدة سياسات بريطانيا، من حيث الاعتماد على الدولة الاستيطانية في إسرائيل وعلى النظم العربية العميلة. وقدمت لإسرائيل مساعدات عسكرية تفوق ما قدمته لأي دولة أخرى في العالم. وبالوقت ذاته وثّقت التعاون مع النظام الملكي السعودي، وشجعت على انقلابات أعاد أحدها الشاه إلى عرشه في إيران (في **1953**)، وسلمت السلطة في العراق لحزب البعث، وكان من أعضائه الشاب صدام حسين، في **1962**. وحققت الولايات المتحدة نجاحا كبيرا في ترسيخ هيمنتها على المنطقة وعلى نفطها. ولم يكن لها أن تفعل ذلك سوى بتعميق العداوات بين الدول والشعوب - فانفجرت سلسلة من الحروب، بينها الحربان بين

العرب وإسرائيل في **1967** و**1973**، والحرب الأهلية المطولة في لبنان بعد **1976**، والحرب المخيفة بين العراق وإيرن في الثمانينيات، والغزو الإسرائيلي للبنان في **1982**، والحرب التي قادتها الولايات المتحدة ضد العراق في **1991**. ومرة أخرى كان القرن العشرون يشهد الثروة، الثروة النفطية هذه المرة، وهي تتحول إلى دم.

عبر المنظار

انبهرت كثير من البلدان الخارجة حديثا من تحت سلطة الكولونيالية بالتنظيم الاقتصادي الذي قام في الاتحاد السوفيتي. عانى معظم هذه البلدان من ركود اقتصادي أو حتى من تدهور اقتصادي، في ظل الاستعمار. لم يكن نصيب الفرد من الإمدادات الغذائية في خمسينيات القرن العشرين أعلى مما كان في زمن جلال الدين أكبر، قبل أربعة قرون. بالوقت ذاته برهن الاقتصاد الروسي على قدرته على النمو بأسرع من أي اقتصاد آخر، وبدا أنه قادر أيضا على تجنب التأزمات الدورية التي تلاحق الاقتصاد الرأسمالي في الغرب.

ومنذ سقط حائط برلين في **1989** وهناك تقليد سائد يزعم أن لا شيء كان يعمل في روسيا ستالين وأخلافه، مثل خروشتشيف وبريجنيف. والحقيقة هي أنه خلال ثلاثين عاما، نجحت الأساليب الستالينية في تحقيق نمو اقتصادي بمعدلات فاقت بسرعتها كل معدلات النمو في بقية أنحاء العالم – ربما باستثناء اليابان. فالمجتمع الذي غلب عليه الطابع الزراعي المتخلف في **1928** تحول إلى اقتصاد صناعي تمكن من تحدي الولايات المتحدة في التسلح، إبان الحرب الباردة، وسبق الولايات المتحدة إلى إطلاق قمر اصطناعي (سبوتنيك)، وإطلاق رجل إلى الفضاء الخارجي (يوري جاجرين).

واعترف بذلك حتى أعدى أعداء الاتحاد السوفيتي آنذاك. وكان ممكنا بالنسبة لمن سيصبح رئيس وزراء بريطاني العمالي هارولد ويلسون أن يتحدث

في 1953 عن "الزيادة الهائلة في الإنتاج وفي القدرة الإنتاجية في روسيا"[١٥].
لم يكن هذا رأيا خاطئا. وكما نقرأ في تأريخ صدر حديثا لاقتصاد أوروبا الشرقية، فإن "معدل النمو الاقتصادي الذي تحقق في المنطقة، إبان العشريتين الأوليين للتخطيط المركزي (1950-1970)، كان يفوق أعلى ما وصلت إليه سنوات الذروة، في فترة ما بين الحربين (1925-1929)[١٦].

نشأت الستالينية في روسيا عن عملية عزل ثورة أكتوبر1917 وخنقها. في أوروبا الشرقية جرى فرضها من أعلى- إلا في يوغسلافيا حيث فرضها قادة جيش المقاومة الذين طردوا الألمان. لكن لم يكن القمع هو الذي حقق لها النجاح ومكن جذورها من أن تضرب عميقا، في السنوات الأولى، في كل الحالات. فهي عندما أمنت الشروط اللازمة للتنمية الصناعية، فإنها أشعرت أقساما واسعة من الشرائح الوسطى في المجتمع بأن لهم مستقبلا مهما. كانت الستالينية تُشعرهم بالحماس وبالخوف معا. وأمنت أيضا لأقسام واسعة من المجتمع نوعا من الحراك الصاعد- فالعامل الصناعي الماهر كانت لديه فرصة لها قيمتها لأن يصبح مديرا، وكان بوسع الفلاح أن يهرب من بدائية الحياة الريفية إلى الآفاق الرحبة في المدينة.

احتفت أقسام من متعلمي الطبقة الوسطى في كل بلد من البلدان غير الصناعية في العالم بما طرحته الستالينية من إمكانية تغيير المجتمع، بالتصنيع، والحضرنة، وترقية الجماهير- وهو احتفاء عمقه تصور مفاده أن التوسع في الصناعة يعني التوسع في الوظائف المدفوعة الراتب لصالح تلك الأقسام من الطبقة الوسطى المتعلمة. لكن التوسع لم يكن ليتحقق بمجرد انتظار المؤسسات الصغيرة، حتى تنمو بما يكفي لمنافسة الشركات الكبرى في البلدان المتقدمة. فالمؤسسات الصغيرة تخرج من السوق أولا. كانت تلك المؤسسات تحتاج الحجم، وهو ما لا يتحقق إلا بأن تدمجها الدولة معا وتضخ فيها الأموال. وقد كانت تلك المؤسسات

تحتاج أيضا الحماية من المنافسة الخارجية، وهو ما لا يقدر على تأمينه سوى الدولة. وبدا أن الحل هي رأسمالية الدولة التي شاعت تسميتها، من باب الخطأ، "اشتراكية".

كانت الدولة، عند الانتقال من قرن لقرن، قد لعبت بالفعل دورا مركزيا في تطوير الصناعات الكبيرة في اليابان وفي روسيا القيصرية. وعززت الحرب العالمية الأولى وأزمة سنوات ما بين الحربين دور الدولة، تعزيزا هائلا في الدول المتقدمة. وبلغ حجم سيطرة الدولة على الصناعة في ألمانيا النازية، في أواخر الثلاثينيات، درجة أقنعت الاقتصادي، داعية "الماركسية- النمسوية"، ووزير المال السابق هيلفردينج بأن الرأسمالية حل محلها نمط إنتاج جديد[١٧]. وحتى في أكثر الدول التزاما بـــ"حرية السوق" في العالم وهي الولايات المتحدة، فالدولة شيدت معظم المشروعات الصناعية وسيطرت على معظم الأنشطة الاقتصادية، في الفترة 1941-1944.

وقد مضى التوجه نحو اقتصاد الدولة إلى مداه الأقصى حيث كانت السيطرة المحلية على التنمية الصناعية في أدنى مستوياتها. وهكذا لعبت الدولة دورا مهما في محاولات إعادة تنظيم الرأسمالية وتصنيع البرازيل، في عهد فارجاس، الرئيس الشعبوي للبرازيل في الثلاثينيات، وفي عهد الديكتاتور الأرجنتيني بيرون، في الأربعينيات وأوائل الخمسينيات. في ظروف كهذه، لم يكن الشيوعيون وحدهم من يعتبرون "التخطيط المركزي" وسيطرة الدولة على معظم الصناعة من الأمور البديهية، فقد شاركهم هذا التصور الديمقراطيون الاجتماعيون والبورجوازيون الذين انضموا لحكوماتهم في شرق أوروبا، في **1945-1947**. وفي الهند، حتى قبل أن يستولي حزب المؤتمر على السلطة، نشأ تجمع ضم عددا من رجال الصناعة، في **1944**، لإقرار "برنامج بومباي" للتخطيط الحكومي، الشديد الشبه بالنموذج

الروسي، على رغم أنهم مزجوا بين استخدامات رأس المال الخاص واستخدامات رأس المال الحكومي.

وهكذا أصبحت في الهند، والصين، ومصر، وسوريا، والعراق، والجزائر قطاعات مملوكة للدولة، بالغة القوة، وخطط طويلة الأمد. لكن هذا الاتجاه لم يقتصر على الدول التي أسمت نفسها اشتراكية. فقسم كبير من الصناعة كان مملوكا للدولة في الصين التي حكمها الكومنتانج، واستمر ذلك النمط في تايوان التي سيطر عليها الكومنتانج – في حين رأى الجنرال بارك الذي استولى على الحكم في كوريا الجنوبية بانقلاب في **1961** أن التخطيط المركزي وسيطرة الدولة على الصناعة هما السبيل الوحيد للحاق بكوريا الشمالية، التي كانت أكثر تقدما آنذاك.

الوجه السيئ للتنمية الاقتصادية في ظل "التخطيط" الستاليني هو ذاته الوجه السيئ للثورات الصناعية في الغرب، ونعني بذلك الظروف التعيسة التي تعين على العمال احتمالها. لكن من كانوا يديرون الأجهزة التي راحت تتضخم، في الصناعة والحكومة لم يكونوا عمالا، حتى وإن انتمى بعضهم، فيما سبق، للعمال.

بدت رأسمالية الدولة فعالة، في سنواتها الأولى. بقيت الهند ومصر، حتى أواخر الستينيات، بلدين يغلب عليهما الطابع الزراعي، وتعيش أغلبية سكانهما في فقر مدقع، وتواجه صناعاتهما الجديدة مختلف أنواع المشكلات. لكنهما اختلفتا اختلافا واضحا عما كانتا عليه، قبل عشرين عاما، وصارت أقرب إلى أن تكونا جزءا من العالم الحديث. واتضح ذلك من الثقة التي حازها حكامهما بين أقسام واسعة من الطبقات الوسطى، وهي ثقة أمنت استقرار النظام في البلدين. وحيثما جاءت رأسمالية الدولة، في بلدان مثل الصين، والهند، ومصر، مصحوبة بإصلاح زراعي فتت الملكيات الكبيرة لصالح صغار الفلاحين، فإن الحكام ضربوا بجذور النظام، عميقا، في الريف–حتى وإن ذهبت الفوائد المترتبة على الإصلاح لأواسط الفلاحين وأغنيائهم، بأكثر مما ذهبت لفقراء الفلاحين وللأُجَراء المعدمين.

لكن الحماسة الفوارة بدأت تخبو مع الوقت - وحتى عندما بدأت نظم مثل تلك التي كانت في مصر، تطبق النموذج الستاليني، كانت العلامات الدالة على نقائصه تظهر في روسيا وفي أوروبا الشرقية.

الطريق إلى 1956

مات ستالين في **1953**، بعد ربع قرن من سلطة تكاد تكون كلية. وفي بعض الأحيان، يحدث أن وفاة زعيم ما تساعد على أن يركز رفاقه انتباههم على ما تراكم من مشكلات، على مر السنين، وهذا ما جرى بعد وفاته.

كان لدى أزلام ستالين تصور غامض عن السخط الهائل الكامن تحت السطح. وكان يخشون أن يسيطر أحدهم على جهاز الترويع الذي امتلكته الدولة الستالينية، ويستخدمه ضد الباقين. ولم يكادوا يفرغون من جنازة ستالين، حتى أصدروا قرارات بإصلاحات محدودة، في حين انخرطوا في نزاعات داخل دائرتهم الخاصة (سيق رئيس الشرطة السرية الذي يكاد يكون مريضا نفسيا، تحت تهديد السلاح المشهر بوجهه، إلى حيث جرى إعدامه).

ثم قرر السكرتير العام للحزب الشيوعي نيكيتا خروشتشيف، في فبراير **1956** الكشف عن بعض الحقائق، أمام ناشطي الحزب بهدف تعزيز مركزه أمام منافسيه على الزعامة. كشف أمام المؤتمر العشرين للحزب في موسكو عن أن ستالين كان مسئولا عن قتل آلاف الأبرياء وترحيل ملايين من المنتمين لأقليات قومية. وفوق ذلك، قال إن ستالين كان قليل الكفاءة وجبانا في تصرفاته في مواجهة الغزو الألماني لروسيا في **1941**. وكان تأثير ذلك مدمرا على ملايين الناس في العالم، ممن اعتادوا النظر إلى ستالين باعتباره نصف إله، حتى وإن حاول كثيرون منهم سد آذانهم وإغلاق أفهامهم دونه.

بالوقت ذاته، حدث شيء آخر، أكثر أهمية مما قاله خروشتشيف عن سلفه. بدأ الناس الخاضعون لسيطرة جهاز الدولة يتمردون.

وقعت الهبة الأولى في ألمانيا الشرقية في يونيو **1953**، بعد وقت قليل من وفاة ستالين. نزل عمال البناء، في أحد مواقع الإنشاء العملاقة في برلين الشرقية، إلى الشوارع مُضربين، بعد أن قيل لهم بأنه يتعين عليهم تحمل أعباء عمل أشد وطأة، مقابل الأجر ذاته. انضم إليهم عشرات الألوف من الناس، وهم يجتازون قلب المدينة بتظاهرتهم. وفي اليوم التالي كانت كل المراكز الصناعية الرئيسية في ألمانيا الشرقية قد شلها الإضراب. اقتحم المتظاهرون السجون، وهاجموا مراكز الشرطة ومكاتب الحزب الحاكم. وبالنهاية لم يتيسر إخماد الانتفاضة إلا بتدخل القوات السوفيتية. كان تمردا عماليا عفويا من النوع الكلاسيكي، الذي تكرر حدوثه في ألمانيا في **1918-1919**، وإن استهدف نظاما لرأسمالية الدولة زعم أنه يحكم باسم العمال. الأقسام التي أضربت هي تلك التي كانت الأكثر يسارية في جمهورية فيمار في العشرينيات. وقرابة ستة وثمانين بالمائة ممن طردوا من الحزب الشيوعي لمشاركتهم في الإضرابات كانوا أعضاء في ذلك الحزب قبل صعود هتلر للسلطة[١٨]. كانوا مناضلين قدماء، رأوا في الانتفاضة استمرارا لنضال العمال من أجل الاستيلاء على السلطة، وهو النضال الذي ضحوا بشبابهم من أجله.

وبعد وقت قصير من الانتفاضة في ألمانيا وقع تمرد في روسيا ذاتها، في معسكر العمل العبودي العملاق في فيركيوتا. أضرب ربع مليون عامل سجين، مسخرين للتنقيب في المناجم هنـــاك. أحاطت الحكومة عمال المناجم بالجنـــود المسلحين، وعرضت التفاوض، ثم أعدمت الممثلين الذين اختارهم العمال للتفاوض باسمهم، وقتلوا مائتين وخمسين عاملا. لكن الحادث كشف إلى أي حد يمكن أن يكون الوضع متفجرا، وأفرج النظام عن تسعين بالمائة من سجناء المعسكر، في

العامين التاليين. وكما جرى في الولايات المتحدة بعد الحرب الأهلية، أخلى العمل بالسخرة مكانه للعمل المأجور، وأخلى شكل الاستغلال المناسب لأغراض "التراكم البدائي" مكانه لشكل يناسب اقتصاد تصنيع.

لكن إمكانات التمرد عبرت نفسها في **1956**، في الشهور التي تلت تنديد خروشتشيف بستالين. تحول إضراب في مدينة بوزنانك البولندية إلى ما يشبه التمرد. سحق النظام الحركة قبل أن يتأتى لها أن تنتشر، لكن لم ينجح في الحول دون أن يهتز النظام الاجتماعي كله بقوة موجات الصدمة التي نشأت عنها. بدا وكأن الدولة على حافة الثورة في أكتوبر ونوفمبر، فيما راحت الأجنحة المتنافسة تتنازع السلطة فوق القمة. انهارت الرقابة، وبدأ العمال يشكلون لجانهم الخاصة، عن طريق الانتخاب، مقسمين على الدفاع عن حقوقهم بالقوة. وبدأ الناس يتكلمون عن "ربيع في أكتوبر" مع إعادة جومولكا، الزعيم الحزبي الذي أودع السجن في الأربعينيات، إلى منصبه. تحدى تدخلا عسكريا روسيا حتى أوقفه، وطلب من العمال أن يضعوا ثقتهم فيه – بمساعدة من الكنيسة الكاثوليكية ومحطة الدعاية الأمريكية، راديو أوروبا الحرة[١٩].

وكانت أحداث بولندا فتيل إشعال لواحدة من أكبر الثورات في التاريخ، هي ثورة هنجاريا. حازت تظاهرة طلابية تأييدا من عشرات ألوف العمال، وهي تشق طريقها عبر بودابست. أحد أقسامها أسقط تمثالا ضخما لستالين. توجه قسم آخر لمحطة الإذاعة، ليطلق عليه النار عملاء الشرطة من داخل مبناها. اختطف العمال البنادق من المراكز الرياضية في المصانع، ونجحوا في ضم الجنود في إحدى الثكنات لصفهم، وسرعان ما استولوا على جانب كبير من المدينة. وفي كل المدن صارت السلطة المحلية الفعالة بأيدي مجالس عمال المصانع واللجان الثورية.

وأرسل بيتر فلاير الذي أرسلته صحيفة الحزب الشيوعي البريطاني دايلي ووركر للصحيفة تقريرا، جاء فيه:

... التشابه مذهل بين هذه اللجان وبين مجالس العمال، والفلاحين، والجنود التي تشكلت في روسيا في ثورتي 1905 وفبراير 1917... فهي أدوات انتفاضة- باعتبارها تجمعا لمندوبين منتخبين عن المصانع، والجامعات، والمناجم، والوحدات العسكرية - وبالوقت ذاته هي أدوات حكم ذاتي شعبي يثق به الناس الحاملون للسلاح[٢٠].

حاول قسم من النظام السيطرة على الحركة، على نحو شديد الشبه بما كان يفعله جومولكا في بولندا، بتنصيب شيوعي آخر ممن سبق التشهير بهم، وهو **إيمري ناجي Imre Nagy**، رئيسا لحكومة ائتلافية. ولكن الدبابات الروسية، في الرابع من نوفمبر- عندما كانت بريطانيا، وفرنسا، وإسرائيل يهاجمون مصر- اجتاحت بودابست وسيطرت على الأبنية الرئيسية. قوبلت بمقاومة مسلحة مريرة، لم تتمكن من سحقها إلا بقتل الألوف، وتحويل أجزاء من المدينة إلى ركام، وإجبار مائتي ألف من السكان على عبور الحدود، هاربين إلى النمسا. وشل الإضراب العام المدينة لأكثر من أسبوعين، وأدى مجلس عمال بودابست الكبرى، عمليا دور حكومة **يانوس كادار Janus Kadar** التي تحركها روسيا. ولكن مجالس العمال جرى سحقها هو أيضا، بعد فترة، وحُكِم على زعمائها بالسجن. أُعْدِم ثلاثمائة وخمسون شخصا، ثلاثة أرباعهم عمال دون الثلاثين من العمر[٢١]. وكان بين من أُعْدِموا إمري ناجي وأربعة من أعضاء حكومته القصيرة العمر.

وكان الرأي الشيوعي الرسمي يذهب إلى أن الثورة كانت محاولة هروبية رأسمالية الولاء، خطط لها جواسيس غربيون. وكما في حالات كثيرة أخرى في فترة الحرب الباردة، فقد كانت التقارير الأكثر انتشارا في الغرب، عن الثورة شديدة الشبه بذلك الرأي. فقد زعمت أن الثورة سعت لتأسيس "مجتمع حر" على النمط الغربي الرأسمالي. وبالحقيقة، فمعظم من لعبوا دورا قياديا في الثورة كان

لهم منظور أوسع. كانوا ما زالوا يتذكرون الديكتاتوريين الذين حكموا هنجاريا قبل الحرب، باسم "الحرية" الرأسمالية، ويسعون لإنشاء نظام مختلف تلعب فيه مجالس العمال دورا رئيسيا، وإن كانت الأحداث لم تتح لهم الوقت الكافي لتوضيح الصورة التي يمكن أن يتخذها ذلك النظام. ويتعين على من يرتاب في ذلك أن يطالع مجموعة الوثائق من هنجاريا **1956** التي نشرت بعد ذلك(٢٢). وتروي دراسة هنجارية حديثة، موثوقة، عن الثورة، كيف أن:

> **المطالب التي تلامس... الحياة اليومية للناس، يمكن أن تجدها في بيانات مجالس عمال المصانع. فهذه... تحتوي على كثرة من التفصيلات عن محل العمل الكريه، أعباء العمال غير العادلة والأجور المنخفضة، المستوى المتدني للخدمات الاجتماعية، وللشح البائس في إمدادات الغذاء... فالمحاربون الأكثر انخراطا في نضالات الثورة لا يحاربون فقط من أجل الاستقلال، ولكن أيضا من أجل حياة إنسانية، ومن أجل شروط العمل... التي يؤمن الكثيرون أنها تمثل المجتمع "الاشتراكي الحقيقي"... والنظام الاقتصادي المزمع إنشاؤه، من شأنه أن يضع سلطات صنع القرار، في الصناعة، وأعمال المناجم، والنقل، بأيدي المنتجين (من عمال، وفنيين، وغيرهم من الموظفين)... مع "رفض لأي محاولة لاستعادة سيطرة كبار أصحاب الأراضي، ومُلاك المصانع، والبنوك" وفقا لبيان صادق عليه ممثلو مختلف التوجهات(٢٣).**

تَحَدَّت الثورة الهنجارية أيديولوجيتي جانبي الصراع في الحرب الباردة. وهي أثبتت، لمن كانت لديهم جسارة مواجهة الحقيقة، أن الاتحاد السوفيتي لم يعد، منذ زمن طويل واقفا داخل تراث كارل ماركس، وفريدريك إنجلز، وروزا لوكسمبورج. كما أثبت فداحة خطل الليبراليين والديمقراطيين الاجتماعيين الذين اعتقدوا أن الشمولية الستالينية قضت، نهائيا، على أي محاولة للتغيير من الداخل، وأنه كان من الضروري، بناء على ذلك، مساندة الإمبريالية الغربية في تصديها

لها. هذا التشاؤم أعشى بصيرة عدد لا يحصى من المثقفين الذين وقفوا، فيما سبق، على أقصى اليسار-جون دوس باسوس، وجون شتاينبك، وماكس شاختمان **Max Shachtman**، وستيفن سبندر **Stephen Spender**، وألبرت كامو **Albert Camus**، وجيمس تي فاريل، وجون ستراتشي، وجورج أورويل، وشاؤول بيلو **Saul bELLOW**، والقائمة لا تنتهي. كانت الصورة مأخوذة عن رواية جورج أورويل "**1984**" حيث تبلغ قوة الديكتاتورية درجة تمكنها من غسل أمخاخ معارضيها، حتى يقولوا إن حاصل جمع اثنين واثنين هو خمسة. برهنت هنجاريا على السرعة التي يمكن أن تنهار بها ديكتاتورية كهذه، لتخرج من داخلها قوى تضغط من أجل تحرر حقيقي. وإذا كان ممكنا أن تحدث في هنجاريا، فيمكن أن تحدث يوما ما في قلب الأرض التي تسيطر عليها الستالينية، في روسيا.

وسارع قادة الكتلتين إلى دفن ذكرى الثورة. ولأكثر من ربع القرن في هنجاريا، كان محظورا ذكرها إلا باعتبارها "ثورة مضادة". وحتى في **1986** ضربت الشرطة طلابا متظاهرين للاحتفال بذكراها، لتخلي الشارع منهم. وفي الغرب طواها النسيان سريعا. وفي أوائل السبعينيات كانت الميديا الغربية تتحدث عن كادار السفاح، باعتباره "مصلحا" ليبراليا. وساعد النسيان المتبادل الجانبين على تناسي إمكانية تشقق الكيان الضخم. وعندما تكرر ذلك في تشيكوسلوفاكيا في **1968** بدا أنهما أُخذا على حين غرة.

الثورة الكوبية

كانت للولايات المتحدة نظم تدور في فلكها، في كل أنحاء العالم. تركزت هذه النظم في الخمسينيات في أمريكا الوسطى، جنوبي الحدود المكسيكية (الهندوراس، السلفادور، نيكاراجوا، بنما، وجواتيمالا)، وفي الكاريبي (كوبا،

وجمهورية الدومينيكان، وهاييتي). وكانت القوات الأمريكية متمركزة على الدوام في منطقة القناة التي تمر عبر بنما، وفي كوريا الجنوبية. وقامت هذه القوات بعمليات إبرار متكررة في هاييتي، ونيكاراجوا، وكوبا، في مطالع القرن، وأدارت الفلبين كمستعمرة حتى **1946**، واحتفظت بقواعد ضخمة في جوانتانامو على الساحل الشرقي لكوبا، وفي الفلبين.

هذه الدول المتمتعة باستقلال اسمي كانت تديرها، عادة، جماعات حاكمة صغيرة ومتشظية، تتألف بالأساس من شخصيات عسكرية، وزمر من أصحاب الأراضي، ورئاسات سياسية، ومن رأسماليين محليين في بعض الأحيان. كانت قواعد المساندة المحلية لهم محدودة، وحاولوا تعويض ذلك الضعف بالمزج بين أشد السلوكيات إيغالا في الفساد، وبين قمع بالغ الوحشية. واستفادت السياسات الأمريكية من الضعف الذي جعلهم يعتمدون على المساعدات والمستشارين من الولايات المتحدة، وضمن ألا يلحقوا ضررا بالمصالح التجارية الأمريكية. ولكن ذلك كان يعني أيضا أن هذه النظم ستنهار بمجرد أن تصبح قدرة الولايات المتحدة على التدخل لصالحها أمرا مشكوكا فيه. وقد جرت البرهنة على استعداد الولايات المتحدة لمثل هذا التدخل في **1954** عندما رتبت الاستخبارات المركزية الأمريكية لإسقاط نظام معتدل في ميوله الإصلاحية في جواتيمالا.

بعد ذلك بخمس سنوات ارتكبت خطأ باقيا، تعاملت مع نتائجه بصعوبة بالغة. انهار النظام الديكتاتوري الفاسد في كوبا الذي كان يقوده **فولجنيكو باتيستا Fulgencio Batista**، تاركا السلطة لمجموعة من محاربي العصابات يقودهم فيديل كاسترو، وأخوه راؤول، وطبيب أرجنتيني منفي يدعى إرنستو "تشي" جيفارا.

كان محاربو العصابات قد نزلوا على منطقة نائية في الجزيرة، قبل ما لا يزيد عن عامين. وعقب انتصارهم ظهرت أسطورة ثورية كاملة نسبت نجاحهم إما إلى تأييد من جماهير الفلاحين، أو العمال الذين يشتغلون في مزارع السكر

الضخمة في الجزيرة. والحقيقة أن الموقع البعيد الذي اختاره محاربو العصابات عزلهم عن الجميع، باستثناء نسبة صغيرة من الفلاحين وكل العمال. جاء انتصارهم من قدرتهم على الاستفادة من العزلة السياسية البالغة لنظام باتيستا. فقد تسبب بجفوة بينه وبين الحزبين السياسيين الرئيسيين، المنتميين للطبقة الوسطى، في الجزيرة، وأزعج الطبقة الرأسمالية بسبب فساده البالغ- تحولت كوبا مركزا لإجرام عصابات المافيا (كما يصوره فيلم الأب الروحي)، وأصبحت تعرف باسم "بيت الدعارة في الكاريبي". وأثار النظام أيضا مشاعر المرارة لدى الجماهير، بالقضاء التدريجي على المكاسب الاجتماعية التي تحققت في الثلاثينيات. وبالنهاية، فحتى الولايات المتحدة لم تعد تؤيد ديكتاتورا تخشى أنه بسبيله إلى السقوط.

في ظروف كهذه لم يكن إسقاط النظام صعبا. أصبحت العصبة الصغيرة من المحاربين المحيطة بكاسترو (لم يبق حيا سوى عشرين، بعد عملية الإبرار الأولى، في نهاية **1956**[٢٤]، ولم يكن هناك سوى مائتين في صيف **1958**) أشبه بكرة ثلج تتسبب بانهيار جليدي ضخم. وما دام كان جيش باتيستا فاسدا وضعيفا لدرجة تجعل من المستحيل عليه أن يهزمهم، فقد أصبح وجودهم بحد ذاته دليل ضعف النظام، وبعد فترة تفكك الجيش ذاته.

حاز الجيش المتمرد الذي دخل هافانا في أول أيام **1959** تأييد جميع الطبقات في كوبا. لكن بقي عليه أن يواجه كل الظروف الموضوعية التي انتهت بفقدان نظام باتيستا كل تأييد، تقريبا. فاعتماد الاقتصاد الكوبي على السلعة التي يتذبذب سعرها، في الأسواق العالمية على الدوام، وهي السكر، والذي لم تزد حصة الفرد من الإنتاج فيه عما كانت عليه في العشرينيات، جعل ذلك الاقتصاد عاجزا عن الوفاء بالاحتياجات المتناقضة للطبقات المختلفة. أراد الرأسماليون وشركاؤهم الأمريكيون رفع ربحيتهم والاحتفاظ بحرية تحويلها للخارج. وأراد العمال والشغيلة أجورا أعلى، وطالب الفلاحون بتحسين مدخولاتهم التعيسة. أما الشباب المتعلمون

من الطبقة الوسطى، الذين خرجت منهم كوادر حركة العصابات، والذين كونوا شبكات التأييد الواسعة في المدن، فأرادوا تنمية الاقتصاد الكوبي ليشعروا بقيمتهم ولتكون لديهم وظائف برواتب معقولة.

ولم يكن بوسع كاسترو أن يرضي طبقة ويغضب غيرها. ولو حاول إرضاء الرأسماليين لوجد نفسه على الطريق الذي انتهى بباتيستا إلى الدمار، وهو ما لم يكن كاسترو مستعدا لأن يفعله. وبدلاً من ذلك، أقدم على سياسات إصلاحية يحوز بها تأييدا من الطبقة العاملة والفلاحين (إصلاحات في ملكية الأرض، منع نظام الرفاه، الرعاية الصحية، وحملات محو الأمية) مقترنة باستخدام الدولة للمضي نحو مشروعات تصنيع طموحة. وكان هذا الخيار يعني حتمية الصدام مع المصالح المتجذرة للرأسمالية والمشروعات التجارية الكبيرة للولايات المتحدة على اعتبار أن "الاقتصاد الكوبي كان وثيق الارتباط بالاقتصاد الأمريكي لدرجة أن البلاد كانت مجرد ملحق بالاقتصاد الأمريكي"[٢٥].

وبعد ثمانية عشر شهرا من استيلاء كاسترو على السلطة، رفضت معامل التكرير النفط المملوكة لأمريكيين معالجة النفط الروسي الرخيص، فأصدر كاسترو قرارا بتأميمها. وبالمقابل ألغت الولايات المتحدة الترتيبات التي كانت تقضي بأن يشتري الأمريكيون معظم محصول السكر الكوبي؛ فأممت كوبا شركات السكر، والمصانع، واحتكارات الكهرباء والهاتف المملوكة للأمريكيين، وطورت علاقاتها التجارية مع روسيا. واجتاحت الهستيريا المعادية لكاسترو الميديا الأمريكية، في حين رفـــع المنفيون التجاريون في ميامي أصواتهم بصيحـــة إدانة بالغة الشدة لـــ"خيانة" كاسترو للثورة الكوبية.

ثم حاولت الاستخبارات المركزية الأمريكية أن تُنْزل في خليج الخنازير جيشا من المنفيين الكوبيين، في أبريل **1961**، بقصد الإطاحة بكاسترو، في حين قصفت طائرات حربية أمريكية، لا تحمل علامات هوية، المطارات الحربية الكوبية. انتهت المغامرة الطائشة إلى فشل ذريع مع التفاف الشعب الكوبي حول النظام.

التصديق على العملية كان واحدًا من أول الإجراءات التي اتخذها الرئيس الأمريكي الجديد جون كنيدي. أصبح هذا الرئيس شخصية ذات قيمة رمزية لدى كثير من الليبراليين، بعد اغتياله في 1962. لكن معالجاته لمسألة كوبا لم تنم عن أي قدر من الليبرالية. كانت لديه ولدى شقيقه روبرت عداوة عميقة تجاه كاسترو، فأعطى موافقته على تحرك الاستخبارات المركزية الأمريكية، بالتعاون مع شخصيات من المافيا الكوبية، للعمل على القضاء على حياة الزعيم الكوبي – وشمل ذلك محاولات مضحكة مثل استخدام السيجار المتفجر! واستخدموا أيضا مشروعات طوارئ لغزو للجزيرة تسانده الولايات المتحدة. وانتهت مناوراتهم في 1962 إلى مواجهة مباشرة مع روسيا.

وبالنسبة لمن عاشوا تلك الفترة، كان الأسبوع من العشرين إلى السابع والعشرين من أكتوبر 1962 هو الأشد رعبا في حياتهم- كان أقرب نقطة في تاريخ الحرب الباردة من التحول إلى حرب نووية. أحاطت السفن الحربية الأمريكية بكوبا، عازمة على استخدام القوة لمنع أي قطع بحرية سوفيتية من الوصول إليها. وضعت الصواريخ الباليستية العابرة للقارات، والصواريخ التي تنطلق من غواصات، وألف وأربعمائة قاذفة في حالة تأهب. بقيت عشرات الطائرات محلقة، بصفة دائمة، وكل منها مسلحة بعديد من الأسلحة النووية ومستعدة للتحرك باتجاه أهداف في الاتحاد السوفيتي بمجرد صدور الأمر لها بذلك. وفي فلوريدا، التي لا تبعد عن كوبا بأكثر من ستين ميلا، جمعت الولايات المتحدة أكبر قوة غزو منذ الحرب العالمية الثانية- مائة ألف جندي، تسعين سفينة، ثمانية وستين سرب طائرات، وثماني حاملات طائرات.

كانت حكومة كنيدي قد بلغها أن الاتحاد السوفيتي بقيادة خروشتشيف ينشر، سرا، صواريخ نووية في كوبا. كانت لدى الولايات المتحدة بالفعل قدرة على

ضرب مدن سوفيتية من قواعدها في أوروبا الغربية وتركيا. وكان يفترض أن تكون للصواريخ السوفيتية في كوبا القدرة ذاتها على ضرب مدن أمريكية. رحب كاسترو وتشي جيفارا بالصواريخ السوفيتية مفترضيْن أنها ستكون رادعا ضد عدوان أمريكي على كوبا. ولا شك أن هذا كان خطأ، لأن الاحتمال كان ضعيفا في أن تخاطر روسيا بدمار مدنها، في مبادلات نووية، لمجرد إرضاء الكوبيين.

لكن الحكومة الأمريكية كانت مستعدة لخوض حرب نووية بهدف إزالة الصواريخ السوفيتية. وقد تبين إلى أي حد اقترب العالم من حافة الحرب النووية عندما كشف روبرت كنيدي، شقيق الرئيس عن حقيقة ما جرى بقوله "اتفقنا جميعا، على أنه إذا كانت روسيا مستعدة لخوض الحرب من أجل كوبا فهي مستعدة لحرب نووية، وعلينا أن نكون جاهزين للمواجهة آنذاك، وللمواجهة بعد ستة أشهر". وتظهر محاضر المناقشات الرئاسية أن حكومة أعظم قوة على سطح الأرض كانت مستعدة، بالفعل، للمخاطرة بحرب نووية مع روسيا[٢٦]. وتظهر هذه المحاضر أيضا أن كوبا كانت مرتبطة بمسألة أكبر، بالنسبة لكنيدي – الخوف من تآكل الهيبة الكونية للولايات المتحدة.

وقد تم تجنب الحرب لمجرد أن خروشتشيف تراجع في اللحظة الأخيرة ووافق على سحب الصواريخ – وهو القرار الذي مرّرَه المكتب السياسي بأغلبية محدودة والذي تسبب بجفوة مع زعماء كوبا. وبالنتيجة فقد أقرت قيادة الروسية بأنه ليس بمقدورها تحدي القسمة القائمة للنفوذ في العالم بينها وبين الإمبريالية الأمريكية – تماما بمثل أن الولايات المتحدة لم تتحد تلك القسمة إبان الثورة الهنجارية. وترتبت على هذا الأمر نتائج مهمة في السنوات التالية. واصل الجانبان مراكمة كميات هائلة من الأسلحة النووية، لكنهما فعلا ذلك على أساس ما أسمياه

"الوفاق" – وهو اتفاق على عدم مبالغة أى من الطرفين في الدوس على أصابع قدمي الطرف الآخر. واستمر ذلك لنهاية الثمانينيات، رغم تحولات كبيرة في المعسكرين إبان تلك الفترة.

أحنق الزعماء الكوبيين قرار روسيا بسحب الصواريخ. لقد جرى استخدامهم كورقة مساومة، ولم يكن بوسعهم أن يفعلوا الكثير إزاء ذلك، لاعتمادهم على المساندة الاقتصادية من روسيا. واتضحت، في الداخل الكوبي، النتائج التي ترتبت على ذلك الاعتماد مع تقليص خطط التصنيع والعودة إلى الاعتماد على صادرات السكر، كما كان الأمر قبل الثورة. ورسالة السنوات الأولى للثورة الداعية إلى "تنويع الزراعة" حلت محلها دعوة لإنتاج أكبر محصول ممكن من السكر. وعلى الصعيد الدولي، وقعت محاولة لم تستمر طويلا، للإفلات من القيود التي فرضتها السياسات الروسية. رتب القادة الكوبيون"منظمات التضامن في أمريكا اللاتينية" و"مؤتمرات القارات الثلاث" حيث طرحوا انتقادات نصف مستترة للسياسات التي فرضتها روسيا على الأحزاب الشيوعية وحركات التحرر في العالم الثالث. وفي فترة لاحقة غادر تشي جيفارا كوبا لتحويل هذه الانتقادات إلى ممارسة، عبر حرب عصابات في الكونغو – زائير وفي بوليفيا. لكن لا الانتقادات ولا ممارسات تشي جيفارا كانت مؤسسة على تقييم محدد للقوى الطبقية في حالة بعينها. وبدلا من ذلك، حاول جيفارا فرض نموذج النضال الثوري الذي حقق نجاحا في الظروف الخاصة جدا في كوبا. انتهى التدخل في الكونغو إلى فشل مزر، وراح مشروعه في بوليفيا يسقط في كارثة تلو الأخرى، حتى قُتِل تشي – أطلق عليه عميل للاستخبارات المركزية الأمريكية الرصاص بعد اعتقاله. وبعد **1968** كان كاسترو وحكومته يؤيدان المقاربة الروسية، من جديد.

حـــرب فيتنـــام

في بواكير الستينيات كانت الولايات المتحدة ترى في فيتنام مكانا تستخدم فيه "مستشاريها" لتنظيم عمليات عسكرية، ضد القوى المعارضة. وقال روبرت كنيدي لأحد الصحفيين "لدينا ثلاثون فيتناما"[٢٧]. وكانت المظاهر السطحية تشير إلى أن ثقته كانت في محلها. بدا أن البرنامج الحكومي الأمريكي لتحقيق الاستقرار في أمريكا اللاتينية "التحالف من أجل التقدم" نجح في الحول دون تكرار الثورة الكوبية، وإلحاق الهزيمة بحركات حرب العصابات في فنزويلا، وجواتيمالا، وبوليفيا، وفي أماكن أخرى. وفي منتصف الستينيات نجح التحرك العسكري الأمريكي، الذي جاء في موعده، في وقف زحف القوات المتمردة على عاصمة حكم الديكتاتور العميل للولايات المتحدة موبوتو، وفي إحباط هبة شعبية في جمهورية الدومينيكان. أما في إندونيسيا فلم يحتج الأمر حتى لقوات أمريكية. تعاونت الاستخبارات المركزية الأمريكية مع الجنرال سوهارتو الذي تعلل بمحاولة انقلاب فاشلة قام بها جنرالات يساريون لقتل نصف مليون إنسان، ولتدمير أقوى حزب شيوعي في العالم الثالث، ولتغيير قائد الاستقلال الشعبوي سوكارنو.

لكن تبين أن تبجح روبرت كنيدي بخصوص فيتنام هو في غير محله. فرض التقسيم على البلاد عند تسوية أعقبت الحرب الكورية في **1954**. وتلقت محاولة فرض التمسك باستعمارها للبلاد ضربة قاتلة، عندما أنزلت بها حركة التحرر الفيتنامية، فييتمينه، هزيمة ساحقة في ديان بيان فو. لكن روسيا والصين أقنعتا فييتمنه بألا تسيطر إلا على الجزء الشمالي من البلاد، تاركة الجنوب، حتى إجراء الانتخابات في عموم فيتنام، للجماعات الفيتنامية التي تواطأت مع فرنسا. وقد أصبحت الولايات المتحدة، التي كانت تمول المجهود الحربي الفرنسي، راعية القوى التي تحكم الجنوب، فساعدت على ألا تكون هناك انتخابات، أبدا.

تصاعد قمع المعارضة في الجنوب. احتج الرهبان البوذيون بإشعال النار في أنفسهم، وفر مقاتلون سابقون في الفييتمنه إلى الريف وحملوا السلاح كدفاع عن النفس. وسرعان ما اتسعت حرب العصابات، وتواصلت الاعتقالات في المدن، وأصبح بقاء الحكومة مرهونا باستمرار تصاعد المساعدات الأمريكية. وزاد الحضور الأمريكي، من أربعمائة مستشار في بداية عهد كنيدي، إلى ثمانية عشر ألف عسكري، لحظة اغتياله. وفي **1956** نزل مشاة البحرية الأمريكية في قاعدة دانانج البحرية، فأصبح عدد الجنود الأمريكيين في البلاد، خلال شهر، ثلاثة وثلاثين ألفا، ثم ارتفع إلى **210** آلاف بنهاية العام. بالوقت ذاته، شنت الولايات المتحدة أكبر حملة قصف جوي في التاريخ، مهلكةً الشمال والجنوب، يوما بعد يوم، وأسبوعا بعد أسبوع، وعاما بعد عام، معتقدة أن بوسعها إجبار قوى التحرر على التخلي عن النضال.

لم تكن حرب فيتنام تشبه الحرب في كوريا، لم ينخرط المناضلون الذين خاضوها في جيوش نظامية، بوسع حكام الشمال إصدار أوامرهم لها بالتوقف عن القتال، في أي لحظة. فهذه الحرب نمت من داخل نضالات عفوية ضد نظام قمعي، ولم يكن بوسع حكام الشمال أن يديروا ظهورهم لها، من دون إلحاق أخطر الضرر بمكانتهم، بوصفهم رواد النضال من أجل التحرر الوطني.

سقطت الولايات المتحدة في فخ حرب استنزاف لم يكن أمامها طريق للخروج منها بسهولة. أتيح لها أن تقيم قاعدة متقدمة في خي سانه، قرب خط التقسيم بين الشمال والجنوب، ومنع الشماليين، بكُلْفة باهظة، من أن يستولوا عليها. لكنها لم تنجح في استخدام القاعدة لإخضاع الأرياف المحيطة بها، فتعين عليها التخلي عنها، بعد فترة. وأمكنها السيطرة على المدن، ولكن لم تتمكن من وقف هجوم مفاجئ نفذته قوات التحرير، كاد أن يجتاحها في احتفالات "تيت" التي تقام في أول أيام السنة، مطلع **1968**. ولم تنجح في وقف تصاعد كلفة الحرب الفيتنامية،

التي زادت نفقاتها العسكرية بحوالي ثلاثين بالمائة، ما جعل دوائر البيزنيس الأمريكي تحتج. وبالنهاية، فهي لم تنجح في الحول دون حدوث تصدعات هائلة في بنية المجتمع الأمريكي، مع تمرد الشباب على بشاعة الحرب وعلى تجنيد الدولة لهم لخوضها.

الصين: من القفزة الكبرى للأمام إلى السوق

كانت الصورة الرسمية للصين في الخمسينيات ومطالع الستينيات هي صورة بلد الفلاحين السعداء والعمال المنتشين بالفرحة، وشريك الاتحاد السوفيتي في قيادة الثورة العالمية، والبلد المنخرط في تقدم متواصل باتجاه المجتمع الاشتراكي القائم على السلام والوفرة. وكانت هذه صورة تجدها في آلاف الصحف اليسارية، في مختلف أنحاء العالم.

وكانت لدى الولايات المتحدة صورة مناقضة عن الصين، خاصة بها. كانت تعتبرها أعنف صور الخطر الأحمر، كبلد للكراهية المنظمة، مجتمع يكدح فيه مئات الملايين من مسلوبي العقول، وفق إشارة ممن يتربعون على القمة، أقرب من الاتحاد السوفيتي نفسه إلى كابوس "**1984**" الذي صوره جورج أورويل. ولعبت هذه الصورة دورا قويا في الدعاية الأمريكية المساندة لحرب فيتنام. ادعت الولايات المتحدة أن الصين عاقدة العزم على مد نفوذها جنوبا لتدمير الحرية. وبعد ذلك، سيأتي الدور، في زعم الولايات المتحدة، على آسيا، لتسقط كقطع الدومينو، حتى لا يعود أي مكان في "العالم الحر" آمنا.

ولم يكن أي من الصورتين منطبقا على واقع الحال في الصين، ذلك البلد الذي يضم خمس سكان المعمورة، أو أكثر. تجاهلت الدعاية الأمريكية الشقاق المتفاقم بين روسيا والصين، منذ انتصاف الخمسينيات، على الأقل. ومع أوائل

الستينيات، أوقفت روسيا المساعدات، وسحبت آلاف المستشارين من الصين، وراح البلدان يتبادلان الإدانات السياسية في المنتديات الدولية.

غطت الدعاية الرسمية الصينية على الفوارق الطبقية في البلاد والفاقة التي يعيش فيها معظم سكان الصين. فعند السيطرة على المدن الكبرى في **1949**، اتبع قادة جيش التحرير الشعبي سياسة لتوحيد كل الطبقات، بما فيها أقسام من الرأسمالية، وأقاموا برنامج لإعادة بناء الاقتصاد. وفي أوائل الخمسينيات، حل محل ذلك برنامج للتصنيع، صمم على أساس محاكاة غير محكمة للنموذج الذي طبقه ستالين في روسيا، وأيضا بهدف تحقيق ما أنجزه الرأسماليون في الغرب. كانت كثرة من الصناعات مملوكة للدولة أو جرت مصادرتها من ملاكها اليابانيين، في عهد حكم الكومنتانج. ومن ثم استولت الدولة على معظم ما تبقى، لكنها دفعت عوائد ثابتة لملاكها السابقين (وهكذا بقي بعض المليونيرات في"الصين الحمراء"). وشغلت وظائف جهاز الدولة العناصر المتعلمة من الطبقة الوسطى، مع بقاء معظم موظفي حقبة الكومنتانج في مواقعهم. وأجريت إصلاحات زراعية في مناطق هيمن عليها كبار الملاك الزراعيين، لكن الفلاحين الموسرين بقوا حيث هم، لم يمسسهم أحد. وبقيت أحوال جماهير العمال، إلى حد بعيد، على حالها القديم.

أحدثت هذه التدابير نموا اقتصاديا كبيرا– **12** بالمائة وفق التقارير الرسمية، في الفترة **1954-1957**. ولكن هذا لم يقترب، بالمرة، من الهدف الرسمي المعلن، وهو اللحاق بالدول الصناعية المتقدمة، وبدأت بعض القيادات المحيطة بماوتزادونج تخشى بأنه ما لم تُتَّخذ بعض الخطوات الحاسمة، فستنحدر الصين إلى وضع بائس كواحدة من دول العالم الثالث الراكدة. وفي **1958** ورغم معارضة الرئيس لوتشوقي ودينج شياو بنج، أطلق الصينيون برنامج القفزة الكبرى للأمام الذي استهدف التصنيع الفائق السرعة.

كان المقرر جعل الصناعات الثقيلة تنمو بأسرع مما سبق، بأن تنشأ في كل منطقة مشروعات الحديد والصلب الخاصة بها. وتقرر إطعام ملايين العمال بانتزاع ملكيات الفلاحين الصغار والدفع بالجميع إلى "كومونات شعبية" ضخمة. وبدا في **1958** و**1959** أن برنامج القفزة" يحقق نجاحا. وبلغ معدل النمو الرسمي ثلاثين بالمائة سنويا، وفي مختلف أنحاء العالم وجه المتحمسون للشيوعية الصينية التحية إلى "الكومونات" باعتبارها فجر عهد جديد. لكن الحقيقة بدأت تفرض نفسها في الستينيات. لم تكن الصين تملك التقانات القادرة على جعل الكومونات قابلة للبقاء، والاكتفاء بحشر الجماهير الغفيرة من الفلاحين في مكان واحد لم يكن كافيا للتغلب على تقاليد عمرها قرون عديدة، تضع عائلات في مواضع المجابهة ضد بعضها البعض. تراجع إنتاج الحبوب الغذائية على نحو كارثي، وماتت ملايين كثيرة في المجاعات. وكانت الصناعات الجديدة ذات القواعد المحلية متدنية المستوى من الناحية التقنية، وقليلة الكفاءة لأقصى حد، وأضرت بالاقتصاد العام باستهلاكها للموارد. تحولت القفزة الكبرى للأمام إلى كارثة دفعت جماهير الشعب ثمنا رهيبا لها. لم يكن ممكنا لقوة الإرادة وحدها أن تتغلب على قرون من الركود وعلى ما نشأ عن تدمير الإمبريالية للصناعة الصينية.

وردت القيادة بإبعاد ماو عن مقاليد السلطة، وبالعودة إلى مقاربة أقل اندفاعا، بخصوص التصنيع. لكن يصعب القول إن هذه السياسة حققت نجاحا كبيرا. كان الإنتاج الصناعي في **1965**أقل مما كان عليه في **1960**. وفي حين بلغت الزيادة السكانية خمسة عشر مليونا في العام، فلم تتعد الزيادة في الوظائف الجديدة نصف المليون سنويا، ووجد ثلاثة وعشرون مليونا من خريجي الجامعات صعوبة في الحصول على وظائف ذات قيمة[٢٨].

ومع تراكم المشكلات، شعرت الجماعة القيادية المحيطة بماو، مرة أخرى، بأن الإقدام وحده هو المخرج من الطريق المسدود. وهذه المرة تصوروا أنهم

وجدوا الأداة القادرة على ذلك – الأعداد الهائلة للشباب ممن أُحبِطت آمالهم. وفي **1966**، أعلن ماو وزمرة محيطة به، كانت بينها زوجته جيان قينج **Jiang Qing** ووزير دفاعه لين بياو**Lin Biao**، "الثورة الثقافية البروليتارية".

زعموا أن ما يوقف تقدم الصين هي "ثقافة" المهيمنين على بُنى الحزب والدولة. وأن هؤلاء الناس قد أصبحوا ضعفاء وكسالى. وأن طرائق كهذه هي التي انتهت بروسيا إلى السير"على طريق الرأسمالية" بتفكيك الستالينية، ويمكن أن تعود بالصين إلى مسالك "الكونفوشيوسية" القديمة. وكانت مهمة الشباب الحول دون ذلك بحملات نقد جماهيرية ضد من يعطلون سياسات ماو. وأغلقت جماعة ماو كل المؤسسات التربوية لستة أشهر، وشجعت **11** مليونا من شباب الجامعات والمدارس الثانوية على المضي بحملة الانتقادات من منطقة لأخرى، بالانتقال المجاني بالسكة الحديد.

لم تكن "الثورة الثقافية البروليتارية" ثورة بأي معنى من المعاني، فقد كان متوقعا من العمال أن يواصلوا العمل، في حين يعقد الطلاب مؤتمرات جماهيرية ويتنقلون بين أنحاء البلاد. صحيح أن جانبا من "الثورة الثقافية" تعلق بضرورة أن يتخلى العمال عن بعض الهموم "الرأسمالية"، مثل معدلات حوافز الإنتاج، وقضايا الصحة والسلامة، على اعتبار أنها "اقتصادية الطابع" في حين أن "فكر ماوتزادونج" هو الدافع الكافي بحد ذاته، لأي واحد. وبالوقت ذاته، صدرت التعليمات للطلبة بعدم التدخل في أعمال أجهزة الجيش والشرطة. كانت هذه "ثورة" استهدفت حماية الدولة من أن تنقلب رأسا على عقب!

وجد "الحرس الأحمر" تشجيعا على إطلاق مشاعرهم المحبطة، ليس ضد مؤسسات الدولة، ولكن ضد أشخاص اعتُبِر أنهم لم يظهروا حماسا ثوريا كافيا. على مستوى القمة، كان المستهدفون هم من اختلفوا مع ماو حول برنامج "القفزة الكبرى". وجرى طرد ليو شاو كي، ودينج شياو بينج وآخرين من مناصبهم. وعلى

المستوى المحلي، كان ذلك يعني البحث عن كباش فداء بين صغار المسئولين المفترض أنهم كانوا يمثلون، على نحو ما، "الطرائق القديمة"- بين المدرسين، والكتاب، والصحفيين، والموظفين، والممثلين. وتجد في مذكرات العضو السابق في الحرس الأحمر **جونج تشانج Jung Chang**، وفي "البجعات البَرِّيَّات" **Wild Swans**، وفي مشاهد من فيلم "**الوداع يا محظيتي**" **Farewell, My Concubine**، الذي تدور أحداثه حول حياة أحد فناني أوبرا بكين، من ضحايا الثورة الثقافية، وفي رواية "**أحجار الحائط**" **Stones of the Wall**، التي كتبها داي هوينج عن مجموعة من المثقفين، تصويرا حيا لجو الاضطهاد اللاعقلاني، في تلك الفترة.

لكن الثورة الثقافية لم تكن مجرد انفجار لا عقلاني. فالإحباطات التي استثمرها ماو كانت حقيقة ماثلة. ولهذا السبب لم يتيسر لماو أن يبقى مسيطرا على الحركة التي أطلقها. فظهرت في مدن وفي مؤسسات كثيرة جماعات منافسة، باسم "الحرس الأحمر" أو باسم "المتمردين الحمر". كان بعضها أدوات لأجهزة محلية تابعة للحزب أو الدولة. ولكن منظمات أخرى بدأت تجتذب شباب العمال، وتثير تساؤلات حول مستويات معيشة الجماهير، وتنخرط، في منطقة شنجهاي، في إضرابات كبرى.

وهكذا بدأ ماو يحاول وقف الحركة التي أطلقها قبل شهور، وطالب جيش لين بياو باستعادة النظام في كل المناطق. وكان تصرفا جعل بعض الطلاب ينقلبون على النظام الاجتماعي بالكامل. وأدانت مجموعة في هونان حكم "الطبقة الجديدة من البورجوازية البيروقراطية". وطرح آخرون انتقادات مهدت لحركة "حائط الديمقراطية" في السبعينيات[٢٩]. ووضع التحرك الحاسم من جانب الجيش، بمساعدة من الثقة التي وضعتها جماهير الطلاب في ماو شخصيا، نهاية لحركة "الحرس الأحمر". ودفع الذين كشفوا عن مشاعرهم، ولو بطريقة مشوهة، أثناء الثورة الثقافية، ثمنا باهظا لذلك. أجبر الملايين على الانتقال من المدن للقيام بأعمال بالغة

المشقة في مناطق ريفية نائية- وفي بعض التقديرات أن واحدا من عشرة من سكان شنجهاي أجبروا على مغادرة المدينة[٣٠].

لكن نهاية المشاركة الجماهيرية في الثورة الثقافية لم تكن نهاية الاضطراب في الصين. في **1970** هرب لين بياو، المُعَيَّن خليفةً لماو من الصين، فجأة، إلى روسيا وسط كلام عن انقلاب فاشل، لتنهار طائرته قرب الحدود السوفيتية. وشهدت بواكير **1970** جزءا كبيرا من السلطة ينتقل إلى يدي شوين لاي، الذي أعاد شياو بينج، من العزلة التي كان فيها بعد التشهير به، ليجعله خليفته المختار. واستعادت زوجة ماو وثلاثة متواطئين (عصابة الأربعة) السلطة لفترة وجيزة في **1974**، ليطردوا شياو بينج مرة أخرى، وليرتدوا إلى لغة الثورة الثقافية. وبرهنت التظاهرات الضخمة في ذكرى رحيل شواين لاي على ضآلة التأييد الذي يحظون به، فجرى إسقاطهم وسجنهم بعد وفاة ماو في **1976**.

تحمس كثير من اليساريين، في مختلف أنحاء العالم، للثورة الثقافية. وفي الولايات المتحدة حمل معارضو الحرب في فيتنام صور ماو تسي تونج وكذلك صور هوتشي مينه. وصارت العبارات المجمعة والمكررة في "الكتاب الأحمر الصغير" عن أفكار ما تطرح باعتبارها المرشد إلى العمل الاشتراكي. ومع بلوغ كثافة القصف الأمريكي على فيتنام مستوى غير مسبوق في **1972**، احتفى ماو بالرئيس الأمريكي نيكسون في بكين، وفي ظل شياو بينج، في **1977**، أصبحت الصين تعتنق سياسات السوق بوحشية تفوق وحشية خلفاء ستالين.

واعتبرت الميديا الغربية أن هذه الانعطافات والتحولات نشأت عن اللاعقلانية في أعنف صورها. ووافق على ذلك، في نهاية السبعينيات، كثير ممن كانوا يدينون بالماوية في الستينيات من اليساريين، وأداروا ظهورهم للاشتراكية. وظهرت في فرنسا مدرسة كاملة من الماويين السابقين "الفلاسفة الجدد"، الذين روجوا لفكرة أن

الثورة تفضي، أوتوماتيكيا، إلى الطغيان، وأن اليسار الثوري لا يقل سوءا عن اليمين النازي. ولكن هناك تفسيرا عقلانيا بسيطا لربع القرن من التاريخ الصيني، الذي يبدو مساره غير عقلاني. ببساطة لم تمتلك الصين الموارد التي تسمح لها بأن تمضي بنجاح على الطريق الستاليني القائم على فرض التصنيع، مهما جَوَّع حكامها الفلاحين واعتصروا العمال. لكن لم يكن هناك بديل يسهل الوصول إليه، بعد مائة عام من النهب الإمبريالي. وبعد أن عجزت الصين عن العثور على حلول معقولة، استجاب حكامها لإغراء الحلول غير العقلانية.

الهوامش

(١) كانت الصين (ولا تزال) العضو الخامس في مجلس الأمن. لكن مقعدها كانت تشغله حكومة الكومنتانج التابعة لتشيانج كاي شيك، حتى بعد هربها من الصين لتؤسس حكومة عميلة للولايات المتحدة في تايوان. ولم تتمكن الصين ذاتها من احتلال المقعد إلا في السبعينيات.

(٢) تقرير عن وثائق كشف عنها حديثا، ورد في الجارديان، الثاني من أكتوبر 1998.

(٣) ورد في:

D Horowitz, From Yalta to Vietnam (Harmondsworth, 1967), pp70, 73.

(٤) انظر:

I H Birchall, Workers Against the Monolith (London, 1974), p62, and P Ginsborg, A History, pp110-112.

(٥) بحسب ما جاء في صحيفة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي "الفكر الجديد" Nova Mysl ، في العددين السادس والسابع، 1968.

(6) A Crosland, The Future for Socialism (London, 1956), p115

(7) A Crosland, The Future for Socialism, p115.

(8) B Stein, A History, p327.

(9) B Stein, A History, p336.

(١٠) بحسب ما جاء في:

B Lapping, End of Empire (London, 1985), p356.

(١١) هناك تقارير مختلفة عن التمرد في:

M J Akbar, Nehru, p369,and B Stein, A History, p360.

(١٢) انظر:

M J Akbar, Nehru, pp381-382.

(١٣) هما الآن زامبيا ومالاوي.

(١٤) ورد في:

B Lapping, Empire, p106.

(15) Daily Telegraph, 28 September 1953, quoted in P Foot, The Politics of Harold Wilson (Harmondsworth, 1968), p111.

(16) M C Kaser, An Economic History of Eastern Europe (London, 1986), p9.

(١٧) ورد في:

M Haynes and P Binns, 'Eastern European Class Societies', International Socialism 7 (Winter 1979).

(18) M Jaenicker, Der Dritte Weg: Die Anti-Stalinistische Opposition gegen Ulbricht seit1953 (Cologne, 1964), p51.

(١٩) للاطلاع عن تقرير واف حول هذه الأحداث، انظر الفصل السابع من كتابي:

Class Struggles in Ėastern Europe (London, 1984).

(20) P Fryer, Hungarian Tragedy (London, 1956), p46.

(٢١) وفقا لوثائق رسمية هنجارية، ملخصة في:

G Litvan (ed), The Hungarian Revolution of 1956 (London,1996), p144.

(٢٢) للاطلاع على المجموعة الأشمل، انظر:

B Lomax, Hungarian Workers'Councils of 1956 (New York, 1990). A much earlier collection, including transcripts of radio broadcasts, is M J Lasky (ed), The Hungarian Revolution

(London, 1957). See also S Kopacsi, In the Name of the Working Class (New York, 1986), and for a brief account of the dynamics of the revolution, chapter

7 of my Class Struggles in Eastern Europe.

(23) G Litvan (ed), The Hungarian Revolution, pp126-127.

(٢٤) بحسب ما جاء في:

J L Anderon, Che Guevara (New York, 1997), p216.

(25) D Seers and others, Cuba: the Economic and Social Revolution (North Carolina,1964), p20.

(26) E R May and P D Zelikow (eds), The Kennedy Tapes: Inside the White House during the Cuban Missile Crisis (Harvard University Press, 1998).

(27) Quoted in D Halberstam, The Best and the Brightest (London, 1970), p78.

(٢٨) الأرقام كما وردت في:

J Deleyne, The Chinese Economy (London, 1973), p59.

(29) See the manifesto 'Whither China?' of the Sheng-wu-lien, translated in International Socialism 37 (first series).

(30) According to J Deleyne, Chinese, p59.

-١٠-

اللانظام العالمى الجديد

اعتقد معظم من نظروا إلى البلدان الرأسمالية المتقدمة في منتصف الستينيات أن النظام أزاح عن كتفيه مشكلات سنوات ما بين الحربين. لم يعد مثقلا بنوبات كساد متزايدة العمق، أو باضطراب اقتصادي لا نهاية له، أو باستقطاب حاد بين يسار ثوري ويمين فاشي. وأعلن عالم الاجتماع الأمريكي **دانييل بيل Daniel Bell** "نهاية الأيديولوجية". وبما أن الوسائل اللازمة لـ"تنظيم الإنتاج، والسيطرة على التضخم، والمحافظة على التوظيف الكامل" صارت متاحة، فقد ذهب إلى أن "السياسة لم تعد انعكاسا لأي انقسامات طبقية داخلية"[١]. كان بيل يكتب لمجلة إنكاونتر التي تمولها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (**CIA**). ولكن حتى من كرهوا تلك الوكالة كان يمكنهم التوصل لخلاصات مماثلة للغاية. وهكذا كتب الماركسي الأمريكي- الألماني هيربرت ماركيوز **Herbert Marcuse** أن "حرصا بالغ القوة على الإبقاء على الوضع المؤسسي القائم وتحسينه وحد بين الخصمين الرئيسيين السابقين (البورجوازية والبروليتاريا) في أكثر المناطق تقدما في المجتمع المعاصر[٢].

وبدا أن للتاريخ، أو على الأقل، تاريخ الصراع الطبقي بلغ نهايته - إلا ربما في العالم الثالث. وهذه فكرة أعيدت صياغتها، من غير تنويه بما سبق إليه بيل أو ماركيوز، عند الموظف في الخارجية الأمريكية فرانسيس فوكوياما، بعد ذلك بثلاثة عقود.

وبرغم ذلك، تميزت الفترة بين منتصف الستينيات ومطالع التسعينيات بسلسلة من الاضطرابات الاجتماعية، والأزمات الاقتصادية المفاجئة، والإضرابات العنيفة، وانهيار واحدة من أكبر الكتل العسكرية في العالم. وبعيدا تماما عن أن يكون على وشك النهاية، فالتاريخ بدأت سرعته تتصاعد.

شهد النصف الثاني من القرن العشرين ثلاث نقاط تحول كبرى- في **1968**، وفي **1973-1975**، وفي **1989**. وأفضى التأثير المشترك لنقاط التحول هذه إلى تدمير للبنية السياسية، والأيديولوجية، والاقتصادية لمرحلة الحرب الباردة.

1968: صوت الحرية يجلجل

عادة ما يشار إلى العام **1968** باعتباره "عام الثورة الطلابية". شهد ذلك العام بالفعل احتجاجات، وتظاهرات، وعمليات احتلال طلابية في مختلف أنحاء العالم- في برلين الغربية، ونيويورك، وهارفارد، ووارسو، وبراغ، ولندن، وباريس، ومكسيكو سيتي، وروما. لكن العام يعني أكثر من ذلك بكثير. فقد شهد ذروة تمرد الأمريكيين السود، وأكبر ضربة حتى ذلك الحين للهيبة العسكرية الأمريكية (في فيتنام)، ومقاومة للقوات الروسية (في تشيكوسلوفاكيا)، وأكبر إضراب عام في تاريخ العالم (في فرنسا)، وبداية موجة نضالات عمالية كان لها أن تهز المجتمع الإيطالي لسبع سنوات، وبداية ما صار يعرف بأنه "المتاعب" في أيرلندا الشمالية. كانت نضالات الطلاب عرضا لتصادم قوى اجتماعية أعرض، وإن تأتت لها تغذية مرتدة وتأثير على بعض هذه القوى.

أحدث انفجار الاحتجاجات في **1968** صدمة لأن المجتمعات التي شهدت هذه الأحداث كانت تبدو مستقرة. كانت المكارثية قد دمرت اليسار الذي كان موجودا في الولايات المتحدة في الثلاثينيات، واشتُهِر القادة النقابيون في ذلك البلد بأنهم

بيروقراطيون ومحافظون. وكانت تشيكوسلوفاكيا البلد الأكثر ازدهارا في شرق أوروبا، وكانت الأقل تأثرا باضطرابات **1956**. وفرنسا كانت في القبضة المحكمة لديكتاتورية ديجول منذ عشر سنوات، وكان أداء اليسار في الانتخابات سيئا، والنقابات ضعيفة. وفي إيطاليا كانت الحكومات تأتي وتروح، لكنها كانت دائما تحت سيطرة الديمقراطيين المسيحيين، الذين اعتمدوا على قدرة الكنيسة الكاثوليكية على سوق قطعان الناخبين إلى صناديق الانتخابات كلما لزم الأمر.

وعاد جانب كبير من الاستقرار إلى استدامة النمو الاقتصادي في تلك البلدان. لكن ذلك النمو هو ذاته ما خلق القوى التي أقلقت الاستقرار، وهي ذات القوى التي أحدثت شروخا واسعة في البنية السياسية والأيديولوجية في **1968**.

وفي الولايات المتحدة، كان السود، في بداية الطفرة الاقتصادية المطولة، يقفون حيث تركتهم لحظة إنهاء الرق- يزرعون بالمحاصصة في أرياف الجنوب، حيث استخدمت السلطات المحلية والعنصريون البيض السلاح الناري، والكرباج، والأنشوطة لإجبارهم على القبول بوضعهم المتدني. لكن الطفرة سرّعت معدلات انتقالهم للمدن بحثا عن العمل في القطاع الصناعي. وفي **1960** كان ثلاثة أربع السود من سكان الحضر. وكان هذا التمركز كافيا بذاته لتوليد الثقة اللازمة للتصدي للعنصريين وللسلطات، وفي **1955** أشعلت امرأة واحدة هي روزا باركس، برفضها الجلوس في المنطقة المعزولة المخصصة للسود في مؤخرة حافلة عامة، حركة مقاطعة واسعة النطاق للحافلات العامة، هزت البنية القديمة للسلطة في مونتجومري، بولاية آلاباما. وفي الأعوام **1965** و **1966** و **1967** شهدت مدن شمالية مثل لوس أنجلوس، ونيويورك، وديترويت انتفاضات سوداء. وفي **1968** كانت كل الجيتوهات في البلاد، تقريبا، قد اشتعلت فيها الحرائق، بعد اغتيال الزعيم الأسود مارتن لوثر كينج **Martin Luther King**، وبدأت أعداد كبيرة من الشباب الأسود

تتماهى مع حزب الفهود السوداء **Black Panthers**، الذي كان يدعو للدفاع المسلح عن النفس ويبشر بالثورة.

اعتمدت قدرة النظام القائم في فرنسا وإيطاليا على أن يحقق لنفسه الاستقرار في أواخر الأربعينيات – وعلى أن يحافظ على بقائه في إسبانيا والبرتغال الفاشيتين – على حقيقة أن قسما كبيرا من سكان هذه البلاد كان لا يزال مؤلفا من فلاحين صغار، والذين كان يمكن ضمان مساندتهم للأوضاع القائمة برشوتهم أو بتخويفهم. وتمثل التعبير الأيديولوجي عن ذلك بالسيطرة التي مارستها الكنيسة الكاثوليكية الشديدة المحافظة على كثير من الأقاليم. وغيرت الطفرة الطويلة ذلك. ففي **1968** كانت المصانع وغيرها من واقع العمل، في مختلف أنحاء بلاد جنوب أوروبا، تضم أعدادا كبيرة من رجال ونساء من خلفيات فلاحية. في البداية غلب عليهم الاتجاه إلى نقل تحيزاتهم القديمة معهم إلى أماكنهم الجديدة، فعارضوا النقابات أو أيدوا النقابات الكاثوليكية. لكنهم واجهوا الظروف ذاتها التي واجهتها الجماعات الأقدم من العمال، الذين بقيت في ذاكرتهم نضالات الثلاثينيات، والإضرابات الكبرى في نهاية الحرب – والضغط المتواصل لزيادة الجهد، والمضايقات من رؤساء الورديات ومن المديرين، والضغوط التي تسببت بها معدلات التضخم. وفي **1968** و**1969** انصهروا في قوة واحدة قوية وجديدة تحدَّت النظام.

وكذلك كان استقرار تشيكوسلوفاكيا في منتصف الخمسينيات نتيجة لطفرة اقتصادية. خلق معدل النمو الذي بلغ قرابة سبعة بالمائة سنويا شعورا بالثقة لدى البيروقراطية الحاكمة.، وسمح بزيادات هائلة في الأجور الحقيقية. وتراجع معدل النمو مع بداية الستينيات، ما أدى إلى تفاقم مشاعر الإحباط على مختلف مستويات المجتمع، وخلق انشقاقات في البيروقراطية الحاكمة. وأجبرت الشخصيات الرئيسية في الحزب رئيس الدولة والسكرتير العام للحزب **أنطونين نوفوتني Antonín**

Novotný على الاستقالة. واستغل المثقفون والطلاب الفرصة وعبروا عن أنفسهم بحرية، لأول مرة منذ عشرين عاما. وانهارت منظومة الرقابة، بالكامل، وبدا على الشرطة، فجأة، أنها عاجزة عن سحق حركة الانشقاق. شكل الطلاب اتحاد طلاب مستقلا، وبدأ العمال يصوتون لصالح طرد القيادات النقابية المعينة من قبل الدولة، وسلقت الميديا الوزراء بسبب سياساتهم، ودارت مناقشات علنية حول سياسات الفترة الستالينية. وكان هذا أكثر مما يحتمله حكام روسيا. وفي أغسطس **1968** أرسلوا قوات هائلة العدد إلى تشيكوسلوفاكيا، لتعتقل كبار قادة الحكومة وتقتادهم إلى موسكو.

توقع الروس أن يسحقوا حركة الانشقاق بين ليلة وضحاها، لكن الأثر المباشر للتدخل كان تعميق الحركة وتوسعتها. وقعت مقاومة مادية محدودة للدبابات الروسية، لكن المقاومة السلبية كانت هائلة. أُجبِرت روسيا على السماح لحكومة تشيكوسلوفاكيا بالعودة لبلادها، بعد وعد بالسيطرة على الانشقاق. ومضت تسعة أشهر، شهدت تظاهرات وإضرابات متفرقة، قبل الوفاء بذلك الوعد. وبالنهاية، نجحت روسيا في فرض حكومة تحركها موسكو، أسكتت المعارضة المعلنة بطرد الناس من وظائفهم، وبسجنهم في بعض الحالات. وهكذا بقيت رأسمالية الدولة الستالينية تدير تشيكوسلوفاكيا طوال الأعوام العشرين التالية.

لكن الضرر الأيديولوجي الذي لحق بالنظام الستاليني كان هائلا. فعلى المستوى الدولي، أحيت الأحداث الشكوك التي ساورت اليساريين في **1956**. فأدانت غالبية الأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية الاحتلال الروسي، ولو أن ذلك سهل على هذه الأحزاب التعاون مع القوى السياسية من الديمقراطيين الاجتماعيين ومن الطبقات الوسطى في بلدانها. وبين الشباب الذين تحركوا باتجاه اليسار، شاعت إدانة "الإمبريالية الغربية والشرقية". وفي أوروبا الشرقية، بما في ذلك تشيكوسلوفاكيا،

تراجع، أكثر فأكثر، دور الالتزامات الأيديولوجية كأساس تقوم عليه العضوية في الأحزاب الحاكمة – صار الانضمام للحزب خطوة على الطريق المهني، لا أكثر ولا أقل.

بل إن المشكلات التي واجهتها الولايات المتحدة في فيتنام كانت، هي الأخرى وإلى حد ما، من نتائج الطفرة المطولة. كان هجوم رأس السنة "التيت" في فيتنام ما وضع الحرب في مركز المشهد العالمي، في **1968**. لكن "التيت" لم تكن هزيمة خالصة لقوات الولايات المتحدة، التي تباهت باستعادتها السيطرة على المدن، حتى وإن كان الوضع هو ما اعترف به واحد من الجنرالات، حين قال: "اضطررنا لأن ندمر المدن، حتى ننقذها". جسدت "التيت" نقطة تحول في الحرب، لأنها أقنعت أقساما رئيسية في البيزنيس الكبير بأن الولايات المتحدة لن يتيسر لها، ببساطة، احتمال نفقات السيطرة على البلاد. لم يكن إنفاق الولايات المتحدة على الحرب في فيتنام يفوق ما أنفقته على الحرب في كوريا. لكن فترة الطفرة الفاصلة بين الحربين شهدت صعود الرأسماليتين الألمانية واليابانية، ولم يكن بوسع الرأسمالية الأمريكية احتمال نفقات التنافس معهما ودفع نفقات حرب برية في فيتنام، في آن معا. وهكذا، أخرجت الحرب أحشاء مشروع الرئيس **ليندون جونسون Lyndon Baines Johnson** "المجتمع العظيم" القائم على خطط للإنفاق على آليات الرفاه الاجتماعي، وهو المشروع الذي توقع له أن يحقق له الشهرة، وللمجتمع الأمريكي الاستقرار المطول.

وبالنهاية فقد تسببت الطفرة المطولة، في الدول الصناعية المتقدمة كافة، في زيادة هائلة في أعداد الطلاب. فقد رعت الدولة، في كل مكان، توسعا كبيرا في التعليم العالي، ضمن مساعيها لتنمية القدرات التنافسية للرأسمالية الوطنية. وفي بريطانيا حيث لم يكن عدد الطلاب يزيد على تسعة وستين ألفا عند نشوب الحرب

العالمية الثانية، بلغ عددهم قرابة الثلاثمائة ألف في **1964**. وأسفرت الزيادة أيضا عن تحول نوعي في الكتلة السكانية من الطلاب. ففيما كانت تأتي، بالأساس، من أوساط الطبقات الحاكمة ومن يدورون في فلكها، فقد أصبحت تتألف من أطفال الطبقة الوسطى، وبدرجة أقل، من أطفال الأسر العمالية. وصارت أحجام الكليات التي تدرس فيها الكتل الطلابية تتزايد، وتعمد إلى توحيد الزي وحشد الطلاب بأعداد كبيرة كما يحتشد العمال في أماكن العمل. وشكا الطلاب المتظاهرون في بيركلي، كاليفورنيا، من "مصانع المعرفة".

كان الطلاب يتجمعون في تلك الأماكن لما لا يزيد عن ثلاثة أعوام أو أربعة، قبل أن يواصلوا التحرك لغايات طبقية متباينة، في المجتمع الأوسع. لكن الظروف التي كانوا يجدون فيها أنفسهم، كان يمكنها خلق جماعية في الشعور أو المصلحة، قادرة على أن تدفع بهم نحو العمل الجماعي. شيء آخر كان يمكن أن يكون له التأثير ذاته – التوترات الأيديولوجية في المجتمع الأوسع، التي ظهرت في شكل مركز، في وسط كان متوقعا فيه أن يقوم آلاف الطلاب – من دارسي علوم الاجتماع، أو التاريخ، أو الأدب، أو الاقتصاد – باستيعاب تيمات أيديولوجية والتعبير عنها.

وكان هذا يعني أن القضايا المثارة في المجتمع الأوسع يمكن أن تكتسب طابعا متفجرا في الكليات. وهكذا، فالنضالات الطلابية في برلين، نشأت عن حادثة قتل الشرطة أحد المتظاهرين ضد زيارة شاه إيران المستبد؛ ونشأت في الولايات المتحدة احتجاجا على بشاعات الحرب في فيتنام وتضامنا مع نضالات السود؛ وفي بولندا نشأت عن الإلقاء بالمنشقين في السجون؛ وكانت في تشيكوسلوفاكيا جزءا من معارضة الاحتلال الروسي.

وسرعان ما تحولت النضالات التي نشأت للتعبير عن قضايا طلابية إلى نضالات تتصل بقضايا المجتمع على اتساعه. وظهر ذلك بأكثر الصور دراماتيكية

في فرنسا. جاء رد فعل السلطات على احتجاجات طلابية ضيقة النطاق على الظروف العامة، بإغلاق جامعة باريس بكاملها وتوجيه الشرطة إلى هناك. وانضمت إلى الاحتجاج أعداد متزايدة من الطلاب الذي استفزهم عنف الشرطة، وانتهى الأمر إلى طرد الشرطة من كامل الضفة اليسرى للمدينة، في "ليلة المتاريس" (العاشر من مايو). وتحولت الحركة الطلابية إلى رمز للمعارضة لكامل النظام الذي كان يهيمن عليه ديجول، بسلطويته وباستعداده لاستخدام الشرطة المسلحة لفض الإضرابات والاحتجاجات. واستجابة لضغوط القواعد، دعا قادة النقابات المتنافسة إلى إضراب عام ليوم واحد، الثالث عشر من مايو- وأدهشتهم الاستجابة. ففي اليوم التالي، وبعد أن شجعهم نجاح الإضراب، بدأ شباب العمال حركة احتلالات، انطلاقا من مصنع سود آفياسيون، في نانت. وحذا حذوهم عمال آخرون، وخلال يومين كانت البلاد كلها تتعرض لحركة احتلالات تكرر فيها ما حدث في **1936**- وإن على نطاق أوسع كثيرا. وبقيت الحكومة في حالة شلل استمر أسبوعين، ودار قسم كبير من المناقشات، في الميديا التي واصلت الظهور، حول "الثورة" التي كانت تدور أحداثها. وطار ديجول، سرا، إلى اجتماع مع الجنرالات الذين كانوا يقودون القوات المسلحة الفرنسية في ألمانيا، حيث قيل له إن وظيفته تقضي بأن ينهي حالة الهيجان. ولم يتمكن من أن يفعل ذلك، بالنهاية، إلا لأن وعوده بزيادة الأجور وبانتخابات عامة كانت كافية لأن تدعو النقابات والحزب الشيوعي إلى عودة للعمل.

وحتى قبل أحداث مايو، كان انتشار النضال الطلابي على المستوى الدولي يفضي إلى ظهور شعبية جديدة للغة الثورة. ولكن حتى وقوع أحداث مايو بقي هذا الكلام يدور ضمن أطر من أفكار مثل أفكار هيربت ماركيوز، التي استبعدت العمال. ودارت الشعارات المائزة حول "قوة الطلبة". لكن مايو غيرت ذلك. من تلك اللحظة وما بعدها تنامى الاتجاه إلى الربط بين ما كان يجري وبين أحداث **1848** و**1871** و**1917** و**1936** - وربط ذلك أحيانا بما جرى في **1956**. وفجأة أصبحت

الأفكار الماركسية التي جرى تهميشها في التيار الرئيسي للحياة الثقافية في الغرب، لعقدين من الزمان، تلقى رواجا واسعا. وبعد ذلك بثلاثين عاما، كان المثقفون المكتهلون في مختلف أنحاء العالم الغربي لا يزالون يتحمسون لتأثير "الستينيات" أو يتحسرون عليه.

ولم تكن الثقافة بمعناها الذهني الأضيق هي وحدها التي شعرت بتأثير **1968**. فقد امتد الشعور بهذا التأثير إلى الثقافة "الجماهيرية" و"الشبابية" الأعرض. كان هناك تحد للتنميطات التي نشأ عليها الشباب. وكانت هناك تحولات جذرية في الملابس وفي تصفيف الشعر، وظهر الإقبال الواسع النطاق على موضات كانت ترتبط، فيما سبق، بأقليات "سرية". وانتشر استخدام مخدرات تنشيطية (وبشكل أساسي الماريجوانا، والأمفيتامين، وإل إس دي). وأهم من ذلك، فإن مجموعة من نجوم هوليوود راحت تتحدى الحلم الأمريكي، بأكثر مما كانت تروج له، وبدأت بعض الموسيقات الشعبية تركز على تيمات غير الحب الجنسي أو الرومانسي.

وفي الولايات المتحدة، تولدت عن "الحركات" الأولى- حركة الحقوق المدنية وتحرير السود، الحركة المناهضة للحرب، والحركة الطلابية – حركات أخرى. فقد ألهمت هذه الحركات الأمريكيين الأصليين للعمل ضد القمع، والمثليين في نيويورك للحرب ضد الإغارات على نواديهم في نيويورك- وأسسوا بعد ذلك جبهة تحرير المثليين. ومضت تجربة تلك الحركات بآلاف النساء إلى تحدي الدور المتدني المنوط بهم في المجتمع الأمريكي- وفي الحركات نفسها، في أحوال كثيرة جدا. وهكذا أسست حركة تحرير المرأة، التي عكست مطالبها تساؤلات حول القمع الذي قاسته المرأة منذ ظهور المجتمع الطبقي، ووجد ذلك صداه عند نساء لم يكن لهن ارتباط بالحركة. وهنا وجدت حقيقة أن النساء صرن جزءا من قوة العمل في الوظائف، وأنهن يرتحن لذلك، التعبير عنها.

المأزق الجديد

لم يبلغ التوجه نحو الراديكالية منتهاه في **1968**. فأضخم احتجاج طلابي في الولايات المتحدة كان في **1970**. جرى احتلال الكليات، في مختلف أنحاء البلاد، في الأسبوع التالي على إطلاق قوات الحرس الوطني النار التي قتلت طلابا في جامعة الولاية في "كنت"، بولاية أوهايو، كانوا يحتجون على توسيع الرئيس نيكسون الحرب الدائرة في فيتنام لتشمل كمبوديا. وفي اليونان انفجرت حركة الطلاب في **1973**، مع احتلال البوليتكنيك [الكلية التي تُدَرِّس عددًا متنوعا من علوم وفنون تطبيقية -المترجم] في وسط آثينا، فهزت بذلك الطغمة العسكرية المتربعة على حكم البلاد منذ ست سنوات، وساعدت على انهيارها بعد ذلك بسبعة أشهر. وفي ألمانيا الغربية بقيت الجامعات، كما كانت منذ سنوات، جيتوهات لتيارات التحريض اليسارية (وخاصة الماوية) في بلد منزوع السياسة، عموما.

لكن حدث تحول مهم بعد **1968** في بلدان عديدة. كف الطلاب عن أن يكونوا مركز المعارضة اليسارية. في إيطاليا، اكتسبت الحركة العمالية موقعا مركزيا، بعد "الخريف الساخن" في **1969** عندما احتل عمال الصناعات المعدنية مصانعهم، بسبب نزاع حول عقود العمل. وفي إسبانيا، أيضا، صارت الحركة العمالية تلعب دورا مركزيا، من أواخر **1970** وما بعدها، مسببة الضعف البالغ لنظام فرانكو في سنواته الأخيرة، حتى إن ورثته سارعوا إلى إصلاحات "ديمقراطية"، تكاد تكون بدأت لحظة وفاته، في **1975**. وفي بريطانيا، تسببت الأنشطة النقابية، التي جاء معظمها على رغم إرادة القادة النقابيين، بإنزال الضعف بحكومة حزب المحافظين التي كان يقودها إدوارد هيث، لدرجة أنه دعا للاقتراع حول السؤال "من يدير شئون البلاد؟" في مطالع **1974**، وخسر الانتخابات.

وفي بعض الأحيان، نجح الطلاب في إطلاق نضالات شملت العمال، لكن ما انتهت إليه النضالات كان يتوقف على الحالة التنظيمية للعمال. وتبين ذلك بوضوح

في فرنسا في **1968**، عندما نجحت النقابات والحزب الشيوعي في إنهاء الإضراب العام على رغم الاعتراضات من جانب القادة الطلابين الأكثر شهرة. وتبين ذلك مجددا في بريطانيا، وإيطاليا، وإسبانيا، في ربيع **1975-1976**. لم ينجح الديمقراطيون المسيحيون في إيطاليا، ولا المحافظون في بريطانيا، ولا فرانكو في إسبانيا، في تقييد حركة العمال بأنفسهم. لم تنجح الحكومات في ذلك إلا بتوقيع اتفاقات مع قادة نقابيين ومع أحزاب عمالية- أطلق عليها في إيطاليا اسم "الحل الوسط التاريخي"، وفي بريطانيا "العقد الاجتماعي"، وفي إسبانيا "ميثاق مونكلوا".

والنتيجة في كل واحدة من هذه الحالات تمثلت بتقييد حركة العمال، في اللحظة التي كانت الطفرة الطويلة في نهايتها – للتخفيض درجة الحذر عند الناس في اللحظة التي كانت الضربة القاضية بسبيلها إلى أن تفاجئهم.

كانت هناك منطقة أخرى من العالم مهدت راديكالية الطلاب فيها، في الستينيات، لموجة من النضالات العمالية في السبعينيات – عند "المخروط" الجنوبي في أمريكا اللاتينية. شهدت نهاية الستينيات ما يشبه انتفاضة شعبية في مدينة كوردوبا الأرجنتينية[٣]، وموجة من احتلالات للأراضي تحدت الرئيس الديمقراطي المسيحي في تشيلي. وفي الحالتين جرى تحويل مسار قوة الدفع باتجاه التغيير، التي جاءت من أسفل، إلى اتجاهات دستورية.

في البرازيل صارت تتمركز حول المطالبة بعودة ديكتاتور فترة ما بعد الحرب، بيرون، من منفاه. كان قد حكم الأرجنتين في وقت تُرْجِم ارتفاع الأسعار في الأسواق الدولية لصادرات الأرجنتين الزراعية إلى ارتفاع نسبي في الأجور وفي إجراءات تحقيق الرفاه للعمال. وآمن الناس بأن عودته ستكون عودة للأيام الحلوة. وكانت هذه رسالة تكررت على ألسنة القوى المتنافسة من مناصري بيرون اليساريين واليمينيين- بل ومن قبل منظمة قوية لحرب العصابات في المدن، وهم

المونتونيروس **Montoneros**. وبالحقيقة، فعودته بعد ذلك لم تحقق أي مكاسب للعمال، لكنها أطلقت هجمة من اليمينيين ومن العسكريين، لم يكن اليسار مستعدا لها. وبعد موت بيرون، شعر العسكريون بأنهم أقوياء بما يكفيهم للاستيلاء على السلطة، مباشرة. وترتب على ذلك أن جيلا كاملا من اليساريين، يقدر عددهم بعشرات الألوف، قُتِلُوا أو"اختفوا".

وفي تشيلي كان الحزب الاشتراكي البرلماني هو المستفيد من النضالية الجديدة. وقد انتُخِب أحد قادته وهو سالفادور الليندي رئيسا للجمهورية في **1970**. ووافقت الأغلبية اليمينية في البرلمان على أن يتولى منصبه مقابل ضمانات دستورية بالأ يغير قيادات القوات المسلحة. لم تكن مؤسسات البيزنيس الأميريكية الكبرى سعيدة بذلك، وانضمت إليهم، خلال سنتين من حكم الليندي، الأقسام الرئيسية في الطبقة الحاكمة في تشيلي. ووقعت محاولة لطرده من المنصب في خريف **1972** عبر "إضراب الرياسات" الذي قاده أصحاب الشاحنات، الذي أفشله العمال باستيلائهم على المصانع، وإحاطتها بلجان تنسيق العمل في المصانع في مختلف المناطق الصناعية، تدعى كوردونات **cordones**، شبيهة بمجالس العمال في **1917** و**1956**، لتحقيق التواصل بين المصانع. وفشلت محاولة انقلابية في يونيو **1973** بسبب انقسامات في القوات المسلحة واحتجاجات في الشوارع. لكن الحزب الشيوعي، وأقساما رئيسية في الحزب الاشتراكي طلبت من العمال تفكيك الكوردونات، ووضع ثقتها في التقاليد الدستورية للجيش. وأدخل الليندي جنرالات من الجيش بينهم **أوجستو بينوشيه Augusto Pinochet** في عضوية حكومته، معتقدا أن هذا يسترضي اليمين ويستعيد النظام. وفي سبتمبر نفذ بينوشيه انقلابا، وقصف الليندي في القصر الجمهوري وقتل الآلاف من نشطاء العمال. وفي حين كان يجري، كان القادة العماليون يمارسون تنويم حركة العمال في أوروبا، كانت تغرق في الدم في الجزء الجنوبي من أمريكا اللاتينية.

لكن الشعلة التي توهجت في **1968** كان لها أن تعاود الاشتعال، مرة أخرى، في أوروبا. كانت البرتغال ديكتاتورية لها خواص الفاشية، منذ أواخر العشرينيات. ولكن مع انتصاف السبعينيات كانت تخسر الحرب للاحتفاظ بمستعمراتها في إفريقيا. وفي أبريل **1974** أطاح انقلاب بالديكتاتور **مارشيللو كايتانو Marcello Caetano**، ليضع محله الجنرال المحافـظ **أنطونيو دي سبينولا António de Spínola**، الذي حظي بمساندة الاحتكارات الكبرى في البلاد، والملتزم بتسوية للحرب عبر التفاوض.

وأطلق انهيار الديكتاتورية موجة من النضال. جرى احتلال حوضي السفن الكبيرين في ليسنيف وسيتنيف. وأضرب الخبازون، وعمال البريد، وعمال المطارات. وكان كثير من ضباط الجيش الذين تحملوا مخاطر تنظيم الانقلاب أكثر راديكالية من سبينولا، وأرادوا نهاية فورية للحروب، في حين أراد سبينولا للمفاوضات أن تتواصل حتى تنتهي إلى قبول حركات التحرير بشروط تحمي المصالح التجارية البرتغالية. وكان الحزب الوحيد الذي يمتلك تنظيما سريا جيدا هو الحزب الشيوعي. توصل قادته إلى صفقة مع سبينولا ينهون بموجبها الإضراب (ما وضعهم موضع الريبة لدى بعض أقوى الجماعات العمالية في منطقة لشبونة)، وانضموا للحكومة، وسعوا لاختراق قواعد المؤيدين من الطبقة الوسطى للوصول إلى قيادات القوات المسلحة والميديا. وكان هدف الحزب تقوية مركزه عبر توازن بين العمال والجنرالات، إلى أن يتمكن من إقامة نظام وفق نماذج شرق أوروبا بعد الحرب.

ولم يكن ممكنا لهذه المناورة أن تنجح. لم يتمكن الحزب الشيوعي من لجم نضالية عمال لشبونة، ولا تنامي السخط في الجيش الذي تنامت في صفوفه قوى على يسار الحزب الشيوعي، كما عجز عن تهدئة مخاوف الرأسمالية الغربية التي أزعجتها الأحداث الثورية على عتبة دارها.

وأفضت محاولتان انقلابيتان قام بهما اليمين إلى فقدان سبينولا منصبه، وإلى تصاعد الراديكالية في صفوف العمال والقوات المسلحة. ونظم اليمين سلسلة من التحركات الأشبه بالهبات الفلاحية في المناطق الريفية في الشمال، بمساندة من الاستخبارات المركزية الأمريكية وحكومات الديمقراطيين الاجتماعيين في أوروبا الغربية. وتأرجح قادة وحدات الجيش المتمتعون بقوة عسكرية فعالة بين خيارات سياسية متباينة. وفي نوفمبر **1975** نجح ضابط كبير متمتع بمساندة من الديمقراطيين الاجتماعيين في استفزاز بعض ضباط الجيش اليساريين إلى محاولة انقلاب، أقبلوا عليها مترددين، وتعلل بذلك ليزحف على رأس مئات من الجنود المنضبطين على لشبونة، لنزع سلاح الكتائب الغاضبة. ولم يُحاول الحزب الشيوعي، الذي كان يبدو، قبل فترة لا تزيد عن أسابيع معدودة، بالغ القوة – عندما تولى رئاسة الحكومة ضابط قريب منه – أن ينظم حركة مقاومة عمالية. وقبلت الثورة، التي أثارت مخاوف قادة الرأسمالية في أوروبا والولايات المتحدة في صيف **1975**، بالهزيمة في الخريف، من دون حتى أن تهمس بما يعبر عن غضب.

مطر كثيف

جاءت نهاية الطفرة المطولة، فجأة، في خريف **1973**، عندما سقطت الاقتصادات الغربية في الكساد، في وقت واحد لأول مرة منذ الثلاثينيات، وتضاعف عدد العاطلين عن العمل. وكان هذا كافيا لإثارة الفزع في الحكومة ودوائر البيزنيس في كل مكان. لم يتمكن اقتصاديو التيار الرئيسي، قط، من تفسير الكيفية التي حدث بها الكساد في الثلاثينيات، ولم يكن أحدهم يدري على وجه اليقين ما إذا كان الكساد في **1973** مماثلا له أم لا.

في الخمسينيات والستينيات أقنعوا انفسهم بأن موجات الكساد لم تعد واردة الحدوث، لأن بوسعهم تطبيق إرشادات **جون ماينارد كينز** **John Maynard Keynes**.

اعتبـــروا الدورات الاقتصاديـــة شيئا ولى زمانه، كما أكد لهم في **1970** مؤلـــف العمدة في الاقتصاد وأكثر الكتب مبيعا في العالم، وهو **بول صمويلسون Paul Samuelson** الحائز على نوبل. ولكن عندما حاولا تطبيق علاجات كينز على الكساد لم تنجح. وكانت النتيجة الوحيدة زيادة التضخم، مع بقاء البطالة على ما هي عليه. وفي **1976** تخلوا عن هذه المناهج، مع اشتداد الخوف من تصاعد التضخم. وتحول الاقتصاديون والصحفيون السياسيون، بين ليلة وضحاها، إلى عقيدة تقوم على "الحرية" الكاملة للسوق، من دون أي قيود يفرضها تدخل الدولة - وهذه نظرية لم يكن يبشر بها سوى قلة من رسل منعزلين، من أمثال **فريدريك هايك Friedrich Hayek**، **وميلتون فريدمان Milton Friedman**. ولم يقع مثل هذا التحول في المعتقدات في أوساط المثقفين منذ تلك الأيام التي كان اللهوتيون فيها يغيرون معتقداتهم وفق توجيهات الأمراء.

لكن شعبية رسل حرية السوق لم يكن بوسعها إعادة مستويات التوظيف لما كانت عليه أيام الطفرة المطولة. ولم يمكنها، أيضا الحول دون كساد آخر في مطالع الثمانينيات، وتضاعف معدلات البطالة، مرة أخرى، والامتداد إلى مناطق في العالم أوسع من تلك التي طالها الكساد في **1974-1976**.

ووفق واحد من التفسيرات الرائجة للكساد في **1974-1976** وفي **1980-1982** فالسبب في ماجرى يعود إلى ارتفاع مفاجئ في أسعار النفط، بسبب الحرب العربية-الإسرائيلية في أكتوبر **1973** وبسبب انفجار الحرب بين العراق وإيران في **1980**. لكن أزمة جديدة اندلعت في أوائل التسعينيات، في وقت تراجع أسعار النفط. وزعم آخرون أن أزمة **1974-1976** نشأت عن ارتفاع مستوى الأجور مقابل مستوى أرباح الشركات. لكن ذلك لم ينجح في تفسير أزمات لاحقة، حيث إن الأجور في أهم اقتصادات العالم، وهو اقتصاد الولايات المتحدة، تراجعت على نحو منتظم بعد منتصف السبعينيات[٤].

لقد تغير شيء أكثر جوهرية في النظام، محولا "العصر الذهبي" إلى "عصر رصاصي". كان بوسع الولايات المتحدة تحمل الإنفاق الضخم على التسلح في الحرب الكورية، وهو إنفاق ربما امتص عشرين بالمائة من إنتاجها الإجمالي، وما يساوي نصف الفائض المتاح للاستثمار. وهذا أمن أسواقا لصناعاتها، ولصادرات من بلدان مثل اليابان، التي لم تنفق إلا أقل القليل على التسلح. ولكن في زمن الحرب الفيتنامية، فإن المنافسة من بلدان كهذه كانت تعني أن الولايات المتحدة لم يعد بمقدورها العودة إلى المستوى القديم للإنتاج العسكري. بقيت تنتج كميات هائلة من الأسلحة، لكن النسبة التي استهلكها هذا الإنتاج من إجمالي الإنتاج كانت ثلث النسبة التي استُهلكت إبان الحرب الكورية. ولم يكن هذا كافيا لتفادي موجات كساد عالمية متكررة ومتزايدة العمق، حتى وإن لم تكن، بعد، مماثلة لما جرى في الثلاثينيات(٥).

لم يفض هذا إلى وقف كل نمو اقتصادي في البلدان المتقدمة. لكن النمو أصبح أبطأ وأقل انتظاما عما قبل، وعادت دورة الطفرة والكساد بقوة من يعوض ما فاته. فقد نمت حصة الفرد من إجمالي النتاج العام في الثمانينيات بما يقل عن نصف معدلها في أوائل الستينيات. وبلغت معدلات البطالة مستويات لم تكن متصورة، تقريبا، في فترة الطفرة المطولة، ليبقى فوق العشرة بالمائة، في معظم الأحوال، لعدة سنوات متتالية، وليرتفع حتى قرابة العشرين بالمائة في أماكن مثل أيرلندا وإسبانيا. وكانت المعدلات أدنى في الولايات المتحدة في نهايات الثمانينيات ونهايات التسعينيات بسبب الاقتطاعات من مخصصات الرفاه ما أجبر الناس على القبول بوظائف بأجور تلقي بهم في حياة الفقر– فالعشرة بالمائة الأشد فقرا كانت مدخولاتها تقل بخمسة وعشرين بالمائة عن مدخولات الشريحة المناظرة لها في بريطانيا(٦).

انتشر في كل مكان غياب الأمان الوظيفي. وفي التسعينيات كان السياسيون يخشون فكرة أن تكون لدى الناس "وظائف مدى الحياة". وعلى رغم ذلك، فهذا التعبير لخص ما اعتبره الناس أمرا بديهيا طوال سنوات الطفرة المطولة. صحيح أن الناس كانت تغير وظائفها مع نمو بعض الصناعات وانكماش صناعات أخرى. ولكن الناس لم يفعلوا ذلك طواعية، إلا في قلة من "الصناعات المتدهورة"، عندما كانت تجتذبهم احتمالات فرص أفضل، وليس عندما تدفعهم القوة الطاردة لعدم الاحتياج إلى خدماتهم. ثم أصبحت قوة الطرد هي السائدة، وأشارت إلى أن الخوف منها يضغط على عقول قرابة نصف العاملين من السكان.

الرأسمالية شكل من المجتمع الطبقي توفر له من الديناميكية ما لم يتوفر لشكل سبقه، على مر التاريخ. وديناميكيته، وطبيعته الدائمة التغير تجدان تجسيدا مائزا لهما في الكساد بقدر ما تجدانه في الطفرة. تخرج بعض الشركات من السوق، فيما تزدهر شركات أخرى على حسابها. تنكمش بعض الصناعات في حين تتوسع صناعات أخرى. وحتى في أشد الكسادات سوءا، تواصل بعض القطاعات النمو–مثل المضاربين الذين يشترون السلع الموجودة لدى من هم أشد يأسا، وخدمات الأمن التي تحمي ثروات الأغنياء.

وقد بقيت الدينامية في "العصر الرصاصي"، ولكن بدلا من أن تمنح الناس حياة أفضل، كما جرى في الطفرة المطولة، هددت باختطاف ما سبق لهم إنجازه. اختفت صناعات بكاملها، وأصبحت بعض المدن خرابات. ونزل مستوى مساعدات الضمان الاجتماعي لمثل ما كان عليه قبل خمسين سنة – بل وأُلْغِي في بعض الولايات الأمريكية. وبالوقت ذاته، شرب بعض السياسيين الذين يعرفون باسم "الثاتشريين" أو "الليبراليين الجدد" نخب انطلاق "ريادة المشروعات"، وتجاوبت معهم شرائح من السياسيين الديمقراطيين الاجتماعيين، الذين تعاملوا مع العودة إلى الأصوليات السياسية للقرن التاسع عشر باعتبارها برهانا على الحداثة.

وأثر الانزياح إلى اليمين على أقسام من اليسار الراديكالي، الذي تدنت روحه المعنوية بسبب هزائم منتصف السبعينيات- وفي بعض الحالات، كان هذا التراجع بسبب معرفتهم بحقيقة ما جرى في الصين، وبحقيقة النظام الدموي الذي أقامه الخمير الحمر في كمبوديا. وخلُص بعضهم إلى أن مشروع الثورة، بكامله، قام على تصورات خاطئة. اعتقد بعضهم أنهم تشددوا، بأكثر مما يجب، في انتقاد الإصلاحية البرلمانية. في حين خلص البعض، ببساطة، إلى أن الصراع الطبقي صار شيئا من الماضي.

وبالحقيقة فقد شهدت الثمانينيات بعض المجابهات الطبقية الكبيرة، والعنيفة أحيانا، عندما حاول العمال وقف تقليص الوظائف في الصناعات القديمة الراسخة- نضالات عمال الصلب في فرنسا وبلجيكا، الإضراب الذي استمر عاما بين مائة وخمسين ألفا من عمال المناجم في بريطانيا، والإضراب الذي استمر لمدة مماثلة بين خمسة آلاف من عمال الطباعة في بريطانيا، والإضراب لخمسة أيام في الدينمارك، وإضرابات القطاع العام في هولندا وكولومبيا البريطانية، والإضراب العام ليوم واحد في إسبانيا.

لكن هذه النضالات، على العموم، انتهت بالهزيمة، وبين موروثات الهزيمة تنامي الاعتقاد بأن الطرائق "العتيقة الطراز" للصراع الطبقي لا يمكن أن تنتصر. وانتهى هذا بشريحة من ناشطي الطبقة العاملة إلى أن يعلقوا آمالهم، مرة أخرى، على وعود السياسيين البرلمانيين. وشجع المثقفين اليساريين على مزيد من التساؤلات حول تصورَي الطبقة والصراع الطبقي بحد ذاتهما. واعتنقوا موضة فكرية تدعى "ما بعد الحداثة"، وهي التي تزعم أن أي تأويل للواقع له من الصدقية ما لسواه، وأنه ما من أساس موضوعي لمفهوم عام **notion** مثل المفهوم العام للطبقة، وأن أي محاولة لتغيير الطريقة التي يعمل بها المجتمع سوف تكون

"شمولية"، بما أنها تقوم على محاولة فرض مفهوم شامل **total concept** للعالم على الآخرين. رفض دعاة ما بعد الحداثة المفهومات العامة التي ترى تغيير المجتمع بالصراع، عندما أصبح الاضطراب الاجتماعي الخطير متزايد الوضوح.

أزمة رأسمالية الدولة

شهد العام **1989-1990** سقوط حكومات في أوروبا يفوق عددها ما سقط في **1917-1918**، وما سقط قبل ذلك في **1848**. اختفت الكتلة الشرقية فجأة، وما إن حل العام **1991** حتى سقطت الدعامة التي كنت تسندها، وهي الاتحاد السوفيتي. وبرغم مزاعم "ما بعد الحداثة" و"ما بعد الماركسية" التي تذهب إلى أن أمورا كهذه لم تعد ممكنة، فهذا السقوط المتوالي نشأ عن مزيج التأزم الاقتصادي والصراع الطبقي. وإن تعذر على بعض اليساريين إدراك ذلك، فهذا بسبب أوهامهم، وليس بسبب الواقع المادي. فقد كانت الفترة منذ **1968** وحتى توالي السقوط، فترة تميزت بأزمات يتزايد عمقها ويتكرر فيها فوران النضالات في أوروبا الشرقية. نجح الاحتلال الروسي في إجبار الحياة في تشيكوسلوفاكيا على العودة إلى"الوضع الطبيعي" في **1968-1969**. لكن الأحداث في بولندا المجاورة سرعان ما أظهرت كيف أن العدوى انتشرت وتغلغلت. نجح النظام في سحق الحركة الطلابية في **1968**، وحاول استخدام الوسائل ذاتها مع عدة آلاف من العمال احتلوا حوض بناء السفن العملاق في جدانسك (كانت تدعى دانزج قبل الحرب) وشتاتين (ستاتين) في **1970-1971** ، احتجاجا على رفع الأسعار. قتلت الشرطة عددا كبيرا من العمال. لكن إضرابات نظمها متعاطفون في موقع آخر، أطاحت برأس النظام جومولكا، فاضطر خليفته **إدوارد جيريك Edward Gierek** إلى التراجع عن رفع الأسعار. واقترض من البنوك الغربية، فازدهر الاقتصاد، وكتب صحفيون غربيون عن "معجزة بولندية". لكن تصاعد دمج بولندا في الاقتصادات الغربية ترتب عليه أن

ضربت بولندا الأزمة في أسواق الغرب في منتصف السبعينيات. وحاولت الحكومة، مجددا رفع الأسعار، ودفعت بالشرطة لتهاجم المحتجين.

هذه المرة، عجز النظام عن دفن ذكرى الفعل العمالي، كما تأتى له بعد **1956-1957** و**1970-1971**. ووسط الشعور بأزمة تتفاقم، تحدت مجموعة من المثقفين التحرشات الحكومية، وأنشأت "لجنة الدفاع العمالية" وأصدرت صحيفة سرية "رابوتنيك **Robotnik**"، أو العامل، وزعت منها عشرين ألف نسخة. بقي في السلطة النظام الذي كان شموليا، فيما مضى. لكنه فقد القدرة على مواصلة فرض الشمولية.

تجلى ضعفه بعد ذلك في صيف **1980**. أفضت محاولة جديدة لرفع الأسعار إلى تجدد الإضرابات، واحتلال أحواض السفن في جدانسك. ونمت من داخل الاحتلالات حركة، استعادت ذكرى مجالس العمال الهنجارية في **1956**، لكنها بقيت ستة عشر شهرا، وليس ثلاثة أسابيع أو أربعة.

أعلنت الحركة أنها نقابة مستقلة تدعى سوليدارنوش (تضامن). لكنها، في عمرها الذي امتد ستة عشر شهرا كانت أكثر من مجرد نقابة. فباعتبار أنها تأسست في مؤتمر عقده مندوبو ثلاثة آلاف وخمسمائة مصنع، ولأنها سرعان ما أعلنت أنها تمثل عشرة ملايين من العمال، فقد كانت تجسد سلطة بديلة لسلطة الحكومة. صارت مناط آمال كل من فرغ صبره من المجتمع القديم، وصار وجودها بحد ذاته تحديا للنظام. لكن زعماءها ألزموا أنفسهم، عامدين، بتجنب إسقاط الحكم. تقبلوا وجهة نظر العاطفين من المثقفين، بضرورة استهداف "ثورة تضع لنفسها حدودها". توصل ناشطو الحركة لخلاصة شديدة الشبه بما توصلت إليه حكومة الليندي في تشيلي: إذا وعدت حركة العمال بألا تهدد الدولة، فسوف تقبل الدولة بحركة العمال. ونتيجة لذلك، مضت سوليدارنوش لمصير مشابه لمصير الحركة التشيلية. ففي منتصف ديسمبر أعلن القائد العسكري فويتشيخ ياروزلسكي

Wojciech Jaruzelski الأحكام العرفي، وعطل أنظمة الاتصالات الخطية في البلاد، واعتقل قيادة سوليدارنوش بكاملها، واستخدم القوة العسكرية ضد من قاوم من العمال. وانهارت التنظيمات العمالية(٧)، بعد أن حل بها التشوش وتراجعت روحها المعنوية.

لكن إلحاق الهزيمة بالحركة العمالية البولندية لم يكن بوسعه اقتلاع القوى التحتية التي أفرزتها. لم تعد معدلات النمو في الكتلة الشرقية آنذاك تفوق مثيلاتها في الاقتصادات الأضخم في الغرب. وفوق ذلك، فحكومة رونالد ريجان في الولايات المتحدة كانت تطلق تراكما في الأسلحة (مع نشرها صواريخ كروز وبيرشينج في أوروبا) أرادت الحكومة الروسية مجاراتها فيه، لكن مواردها الاقتصادية لم تكن تكفي لمواجهة ضغوط هذه المجاراة على الاقتصاد. وتعين على أنظمة رأسمالية الدولة أن تمضي إلى إصلاحات أو أن تتعرض لمجابهات طبقية ولخطر الانهيار الداخلي.

كانت لدى حاكم روسيا في مطلع التسعينيات، **يوري أندروبوف** **Yuri Andropov** خبرة مباشرة بالتحدي الذي قد ينشأ عن حركة العمال. كان هو سفير روسيا في هنجاريا في **1956**، ومدير المخابرات السوفيتية كي جي بي، عند قيام نقابة سوليدارنوش في بولندا في **1980-1981**. اراد أن يحول دون تكرار هذه الأمور في الاتحاد السوفيتي ذاته، فبدأ يرقي الناس الذين اعتبرهم قادرين على إصلاح روسيا. وكان **ميخائيل جورباتشيف** **Mikhail Gorbachev** أبرز هؤلاء.

وعندما تولى جورباتشيف رئاسة الاتحاد السوفيتي في **1985** بدا كلي السلطة. وعندما تحدث عن الحاجة إلى المصارحة **glasnost** والإصلاح في **-1989 1988** بدا، أيضا، محبوبا من الناس. ولكن عندما سقط عن موقع السلطة في **1991** كانت معدلات تقدير شعبيته عند الصفر. فدعوته إلى الإصلاح شوشت الجهاز

البوليسي للاتحاد السوفيتي، ورفعت مستوى تطلعات الناس لدرجة أنهم تحدوا الاستغلال والقمع اللذين اتسمت بهما الأعوام الستون السابقة. ولكن التزامه بألا يفعل شيئا سوى إعادة هيكلة بنية منظومة الإنتاج وفق رأسمالية الدولة أعجزته عن تأمين الموارد اللازمة لإرضاء هذه التطلعات. وبنهاية العشرية، تحول الجمود الاقتصادي الذي بدأ في مطالع الثمانينيات إلى انكماش اقتصادي.

وشهد ربيع **1988** أول تظاهرات جماهيرية منذ العشرينيات، ولم تسارع الشرطة إلى إخماد فوري لها- في أرمينيـــا، أولا، وبعد ذلك في جمهوريات البلطيق، كحركات من أقليات قومية تطالب بمزيد من الحقوق. لم تكن لدى جورباتشيف القوة لقمعهم، كما كان بوسع أسلافه أن يفعلوا. ولكنه لم يكن يمتلك أيضا الوسائل التي يشتري بها رضاهم. وأخلى القمع الشرير، وإن كان قمعا غير مكتمل، مكانه لتنازلات مترددة. وكان هذا تطبيقا لصيغة الكلاسيكية لإجراءات تشعل بها الأنظمة التمرد عليها.

أقدم جورباتشيف على تحركات استهدفت توطيد موقعه، بالاعتماد على القوى المحافظة في صيف **1989** وفي ربيع **1991**. وفي المرتين أحبطت تحركاته إضرابات عمال المناجم، التي اقتربت من نقطة حرمان البلاد، بالكامل، من إمدادات الطاقة. وأظهر إضراب صيف **1989** تحديدا ما يتجاوز الشبه العابر بأول الاحتجاجات العمالية الكبرى في بولندا. تعين أن يقدم جورباتشيف تنازلات لمختلف جماعات المعارضة إذا كان له أن يجنب النظام خطر الغرق في العمق، وبمجرد أن بدأ التنازلات، تبخرت قدرته على السيطرة على الأحداث.

وكان أثر ذلك على النظم التي أقيمت في أوروبا الشرقية، قبل خمسة وأربعين عاما، أثرا مدمرا. فقد مختلف الحكام الموقع الذي يركنون إليه لحظة نشوب التمردات- التهديد بتدخل روسي. كان رجل بولندا المتشدد ياروزلسكي قد وافق على أن التسوية التي تنهي سلسلة من إضرابات عمال المناجم، تكون

بالتفاوض مع قادة سوليدارنوش- على رغم أن المنظمة السرية كانت آنذاك قد أصبحت مجرد ظل لما كانت عليه في **1980-1981**. وفي صيف **1989** وافق خلفاء كادار في هنجاريا، بالمثل، على مفاوضات "طاولة مستديرة"، مع جماعات المقاومة الأضعف كثيرا، في بلادهم.

وفي سبتمبر وأكتوبر اجتاحت موجة احتجاجات ألمانيا الشرقية، ووافقت حكومتها على التفاوض، وبدأت تهدم سور برلين الذي كان يفصل بينها وبين برلين الغربية، كدليل على حسن نواياها. وفي نوفمبر كان الدور على **جوستاف هوساك Gustáv Husák** ليسقط هو أيضا، وسط تظاهرات ضخمة في الشوارع وإضراب عام استمر ساعة واحدة. ومضت بلغاريا على المسار ذاته. وأدت محاولة ديكتاتور رومانيا مقاومة أمواج التغيير، بإطلاق الرصاص على المتظاهرين، إلى انتفاضة عفوية في العاصمة بوخارست، وقيام فرقة إعدام بالقضاء عليه هو نفسه تحت إشراف جنرالاته. وفي ستة أشهر، أُعيد رسم خريطة نصف أوروبا. والنظام الستاليني الوحيد الذي تُرك على ما هو عليه في أوروبا الشرقية كان ألبانيا، وقد انهار في مطالع **1991** بعد إضراب عام.

ما من قوة إمبراطورية تأتى لها أن تبقى بمأمن مما يترتب على وقوع أحداث كهذه في إمبراطوريتها. شعرت الحركات الوطنية، داخل الاتحاد السوفيتي بتزايد ثقتها بنفسها، وتفاقمت الانقسامات داخل جماعة الحكم، وأُصبحت سيطرتها على المجتمع أضعف كثيرا. بذل جورباتشيف محاولة أخيرة للتصدي الحازم للتيارات المعارضة، لكي يرده على عقبيه إضراب ضخم ثان نظمه عمال المناجم، وتظاهرة ضخمة في موسكو. في ذلك الصيف، حاولت العناصر المحافظة في حكومته اتخاذ موقف متشدد من دونه. استخدموا قوات عسكرية في موسكو للقيام بانقلاب، وفرضوا على جورباتشيف الإقامة الجبرية في بيته. رفضت الوحدات

الأخرى أن تساندهم، وبعد أن عجز كل من الطرفين عن التغلب على الآخر، سقطت السلطة في حجر مجموعة إصلاحية تحيط **ببوريس يلتسين Boris Yeltsin**، رئيس الجمهوريـــة الروسية والزعيـــم الحزبي السابق في مدينة سفيردلوفســـك الصناعية. ووافق يلتسين على فك الارتباط بين الجمهوريات الوطنية، فلم يعد للاتحاد السوفيتي وجود.

تحولات **1990-1991** كانت أوسع نطاقا، بكثير، من تلك التي حدثت في شرق أوروبا في **1953** و**1956** و**1968** و**1980-1981**. وعلى رغم ذلك كان هنالك شعور بأن هذه التحولات لم تكن جوهرية بمثل ما كانت تلك التي كادت تحدث من قبل، وخاصة في **1956** و**1968** – ذلك أن قيادة الحركات في **1989-1991** كانت بأيدي أناس عقدوا العزم على تفادي أوهى أشكال سلطة العمال. تحرك الناس الذين رَبَوْا في ظل الحكم البيروقراطي القديم، في اللحظات الحاسمة، للتضافر مع المثقفين المنشقين حول برنامج إصلاحي محدود- وبذلك كانوا يحبطون إمكانية ثورة حقيقية. اتبعوا استراتيجية دعاها الماركسي الإيطالي أنتونيو جرامشي **Antonio Gramsci** "الثورة السلبية" – بالضغط لإحداث التحول من أعلى ليتفادوا التحول من أسفل.

وفي كل حالة اقتضى الأمر اتفاقا مع المنشقين على برامج اشتملت على عناصر متباينة – مزيدا من الانفتاح على السوق العالمية، التحرك باتجاه انتخابات برلمانية حرة نسبيا، وتأكيدا جديدا على القومية. ولأن أقساما من الميديا الرسمية القديمة والمنشقين السابقين كرروا الرسالة ذاتها، فقد اقتنعت جماهير العمال بأن الديمقراطية والسوق توءمان طبيعين ويمكنهما إشباع طموحات العمال. وفي أجواء **1989-1991** كان يصعب على أي شخص أن يجد من يسمعه إذا قدم طروحات غير هذه، حيث إن التحركات الإجهاضية من أعلى أبقت حركات العمال عند حدها الأدنى.

والتحولات السياسية الكبرى التي وقعت كانت نتيجة لصراع طبقي، لكنه صراع طبقي جرى حرفه عن مساره، ولم يجد تعبيرا عنه في إنشاء تنظيمات ديمقراطية للطبقات المستغلة وفق نموذج مجالس العمال. كانت تلك ثورات سياسية، أقرب لما حدث في فرنسا في **1830** منها للثورات الاجتماعية الكبرى التي وقعت في الماضي، وهي حقيقة برهن عليها أن الناس ذاتهم، ظلوا بعد التحولات هم ذاتهم من يديرون الصناعات، والبنوك.

موجات الصدمة بسبب الانهيار

أزمة شرق أوروبا كانت جزءا من أزمة أوسع بكثير، تأثرت بها كل البلدان التي تبنت نموذج رأسمالية الدولة. فلم يبد هذا النظام قادرا، في أي مكان، على تحقيق مستويات النمو المرتفعة التي سبق له تحقيقها في فترات سابقة. وبالوقت ذاته، فقد عزل الصناعات الوطنية عن الابتكارات الصناعية الجديدة- خصوصا تلك المتعلقة بتكنولوجيا الدائرة المتكاملة **microchip technology** وبرامج الحاسوب **computer software**- التي كانت الريادة فيها، على أساس الاستثمارات الهائلة، للمؤسسات الصناعية العملاقة في الولايات المتحدة واليابان.

وفي مختلف أنحاء آسيا، وإفريقيا، وأمريكا اللاتينية تحول بيروقراطيون وسياسيون قضوا أعمارهم في رعاية رأسمالية الدولة إلى امتداح الأسواق "الحرة" وعقد الصفقات مع الشركات الغربية المتعددة الجنسيات. تبعت حكومات حزب المؤتمر في الهند، والنظام الماوي الذي كسب الحرب الأهلية في إثيوبيا، والنظام الجزائري وخلفاء ناصر في مصر، كلهم سلكوا هذه الطريق، بدرجة أو بأخرى. في طليعة التحولات كانت صين شياو بينج، حيث مضت عبادة السوق وتحقيق الربح، يدا بيد، مع التزام رسمي بعقيدة ماو.

وأظهرت غالبية دول العالــم الثالث التزامها بالمقاربة الجديدة بالتوقيــع على"برامج التعديل الهيكلي" للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي (**IMF**). ولا دليل كاف على أن هذه البرامج بوسعها التغلب على مشكلات تدني معدلات النمو والفقر. نفذ قرابة ست وسبعين دولة برامج التكيف التي صممها البنك الدولي على أساس معايير"السوق الحرة" في الثمانينيات. وقلة منها هي التي سجلت تحسنا في معدلات النمو أو في معدلات التضخم، مقارنة بما سبق. وبين تسع عشرة دولة طبقت برامج "التكيف المكثف" كانت أربع دول فقط هي التي حققت تحسنا في الأداء، في الثمانينيات[٨]. وفي التسعينيات كان قرابة أربعة وأربعين بالمائة من سكان أمريكا اللاتينية يعيشون تحت خط الفقر، وفقا لمصادر اللجنة الاقتصادية للأمم المتحدة في المنطقة، التي خلصت إلى أنه "جرى الرجوع إلى الخلف بخطى واسعة في مستويات الحياة المادية لسكان أمريكا اللاتينية والكاريبي في الثمانينيات"[٩]. وفي إفريقيا، اعتُبر أن ما يزيد على خمسة وخمسين بالمائة من سكان الأرياف يعيشون في فقر مدقع، في **1987**"[١٠].

وما حدث في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي السابق في التسعينيات لم يكن أخف وطأة. فلم تحدث "المعجزات الاقتصادية" التي وعد بها الإصلاحيون. وفي **1999** كان حجم إنتاج بلدين فقط هما بولندا وسلوفاكيا قد ارتفع عما كان عليه في **1989**. أما جمهوريتا التشيك وهنجاريا فقد صارتا أفقر، بدرجة طفيفة، مما كانتا عليه قبل عشر سنوات. وانكمش الاقتصاد في ليتوانيا، وبلغاريا، وروسيا بحوالي أربعين بالمائة أو أكثر[١١].

وكانت ترجمة الإحصائيات الباردة دمارا حاق بآمال الملايين. وأصبح معظم الناس في مدن رئيسية كبرى مثل موسكو وبطرسبورج معتمدين على ما بوسعهم زراعته على قطع أرض صغيرة والحفاظ عليه لاستكمال الإمدادات الشحيحــة من الخبز والبطاطس. وعاشت مجتمعات كاملة في المناطق القطبيــة

في خوف من انقطاع التيار في الشتاء. وكانت تمر الشهور من دون أن يحصل العاملون في مصانع الصلب وفي المناجم على رواتبهم، وتداعت الخدمات الصحية، وانتشرت أمراض مثل الدرن وتراجع متوسط العمر المتوقع.

وكانت الظروف أفضل قليلا في أقطار الحزام الشمالي في أوروبا الشرقية. ولكن حتى في جمهوريتي تشيكوسلوفاكيا وهنجاريا كانت مستويات المعيشة أدنى مما كانت عليه في نهايات الثمانينيات؛ كانت السلع في المحال أوفر لكن قلة من الناس هي التي كان لديها المال لتشتري. واستمر معدل البطالة في ألمانيا الشرقية، التي جرى دمجها في ألمانيا الاتحادية، عند العشرين بالمائة أو أعلى. وفي جنوب أوروبا الشرقية، في بلغاريا، ورومانيا، وألبانيا كانت الأحوال بدرجة السوء التي كانت في روسيا. وفي الحزام الجنوبي للاتحاد السوفيتي السابق، كانت الأمور أسوأ كثيرا. ولا غرو أن تحول التفاؤل الذي شعر به كثير من المثقفين في **1989** إلى يأس في نهايات التسعينيات. ومضى الشاعر التشيكي الشهير **ميروسلاف هولب Miroslav Holub** إلى حد أنه قال "لو علمنا أن هذا هو الثمن الذي يتعين دفعه، لقبلنا، بكل سعادة، بالتعايش مع حظر نشر أعمالنا وبيع لوحاتنا"[١٢]. والدولة الأكثر معاناة في أوروبا الشرقية، كانت تلك التي حمت استقلالها من السوفيت، طوال الحرب الباردة، وهي يوغسلافيا. لم تعد القوى الأوروبية ترى جدوى في منحها قروضا بشروط ميسرة، بعد أن لم تعد ثقلا موازنا للنفوذ الروسي في المنطقة. فرض عليها صندوق النقد الدولي برنامج سداد نزل بمستوى المعيشة إلى النصف، في سنتين، وتسبب بمعدلات بطالة فلكية في المناطق الأشد فقرا في البلاد، وانفجرت سلسلة من الحروب الأهلية الدموية مع سعي مختلف الشخصيات السياسية للاحتفاظ بمواقعها، عبر إطلاق العداوات بين مختلف الجماعات القومية، في حين تدخلت القوى الغربية لتعزيز مواقع المقربين إليها.

منطقة واحدة من العالم هي التي شعر المتحمسون للسوق بأنهم فخورون بها على نحو خاص- تلك هي منطقة شرق آسيا. وقد تحدث البنك الدولي في تقرير

التنمية العالمي الخاص به للعام **1991** عن "الإنجازات المبهرة لاقتصادات شرق آسيا" ونوه بـ"درجات متباينة من الإصلاح" في الصين، والهند، وإندونيسيا، وكوريا، "ترتب عليها تحسن في الأداء الاقتصادي".[١٣] وطمأن **صمويل بريتان Samuel Brittan**، في الفينانشيال تايمز البريطانية قراءه إلى أن "من يريد أن يبتهج، يتعين عليه أن ينظر، ليس إلى الخلف إلى الكساد الكبير، ولكن إلى الأقطار النامية في شرق آسيا التي أفلتت من التراجع الذي يمر به العالم"[١٤].

وتأكدت سطحية هذا التفاؤل في **1997**، عندما اجتاحت المنطقة بكاملها أزمة بدأت في تايلند- لتلقي بإندونيسيا في كساد له أبعاد أزمة الثلاثينيات، ولتقذف بكوريا الجنوبية، وماليزيا، وهونج كونج في ركود عميق. وفي العام **1998** أشعل هذا الوضع أزمة مفاجئة في روسيا، وتسبب باضطراب في أكبر اقتصاد في أمريكا اللاتينية، في البرازيل. وتعرضت البرامج التي اقترحها صندوق النقد الدولي للخروج من الأزمة لنقد عنيف من جانب قيادات سابقة في الصندوق مثل **جيفري ساكس Jeffrey Sachs**، باعتبار أنها قد تتسبب فيما هو أسوأ.

لكن الاقتصاد الصيني عرف نموا متسارعا، معظم الثمانينيات والتسعينيات، كنتيجة لإصلاح نظام أسعار الحاصلات الزراعية في أواخر السبعينيات التي شهدت نقل الموارد، على نطاق هائل ودفعة احدة، من الدولة إلى الفلاحين. حدث نمو سريع في الإنتاج الغذائي لعدة سنوات، وهو ما أمن، بدوره، قاعدة لنمو صناعات خفيفة، لتلبية احتياجات السوق المحلية والعالمية. ووفقا للأرقام الرسمية، فقد تضاعف الإنتاج الصناعي ثلاثة أضعاف.

لكن النمو لم يكن متساوقا قط. حدث تصنيع وحضرنة هائلان في بعض الأقاليم الساحلية، في حين أن الأقاليم الداخلية الشاسعة بقيت على ركودها أو مضت لمزيد من التدهور. ظهرت عشرات الملايين من الوظائف الجديدة في الصناعة، لكن مائتي مليون إنسان تدفقوا من الريف على المدن، بأمل الالتحاق بها. واقتضت عقلنة الصناعات القديمة تقليص القوة العاملة فيها، وإلغاء الأشكال المتدنية من خدمات الضمان الاجتماعي. وشهدت التقلبات الشديدة في معدلات النمو طفرات

حادة مع تسبب الارتفاع المتسارع للأسعار بفترات ركود. وهددت محاولات الانعتاق من هذه الانهيارات الدورية، عبر زيادة البيع في الأسواق العالمية، بأزمات كلاسيكية تنشأ عن الإفراط في الإنتاج، في كل مرة يتباطأ فيها الاقتصاد العالمي أو يحل به الكساد.

وهدد هذا المزيج بأزمات اجتماعية واسعة النطاق، كما تجلى واضحا في **1989**. وقبل شهور قليلة فقط من الانهيار السياسي في أوروبا الشرقية، شارفت الدولة الصينية ذاتها على الانهيار. أصبحت ضغوط الطلاب من أجل مزيد من الديمقراطية بؤرة لاستياء وسخط أقسام أوسع في المجتمع، بلغت ذروتها في التظاهرة الشهيرة في ميدان تينانامين في بكين، وأيضا في أكثر من عشر مدن ومراكز صناعية رئيسية أخرى. وأصيب النظام بالشلل لعدة أيام، وبدا أنه يجد صعوبة في العثور على جنود مستعدين لإنهاء التظاهرات، قبل أن ينجح في سحق الاحتجاجات، بالنهاية، بدباباته.

ولم تكن أحداث تينانامين المناسبة الأولى التي يواجه فيها نظام، من النظم التي قرنت التوجه إلى رأسمالية الدولة بتوجه نحو سياسات السوق، انفجارا اجتماعيا. فقد خبرت مصر موجة إضرابات، وتظاهرات، وتمردات في **13** من مدنها الرئيسية في **1977** – أكبر موجة من الاضطراب الاجتماعي منذ التمرد الوطني ضد بريطانيا في **1919**. وفي **1988** في الجزائر، تحولت موجة من الإضرابات إلى ما يشبه التمرد، عندما حارب الشباب الشرطة من أجل السيطرة على الشوارع، وأجبروا النظام على القبول بحرية الصحافة وبالسماح للمعارضين السياسيين بالعودة من المنفى. وفي **1987** في كوريا الجنوبية، اهتز النظام العسكري بقوة تظاهرات ضخمة، ذات مسحة نضالية، نظمها الطلاب وقطاعات من الطبقة الوسطى، مجبرة إياه على القبول بدرجة من اللّبْرلة – تلتها في **1988** سلسلة من الإضرابات الضخمة التي انتهت إلى تسوية زادت الأجور زيادة كبيرة.

وبرهنت كل هذه الانفجارات الاجتماعية على وجود بعض التشابهات مع أحداث **1989-1990** في أوروبا الشرقية. أثبتت هذه الأحداث على أنه، لا رأسمالية

الدولة ولا الانتقال إلى نوع من حرية السوق يمكنهما منع قوة العمل التي خلقها النمو الصناعي من أن تتمرد- لتسحب وراءها شرائح كثيرة أخرى من المجتمع.

الإسلام والإصلاح والثورة

أصبح نوعا من الكليشيهات الصحفية الطابع في التسعسينيات، القول بأن "الصدام بين الشيوعيـــة والرأسمالية" حل محله الصدام بين "الغرب والإســـلام". ولا شك في أن اثنتين من أضخم الهبات في السنوات الأخيرة وقعت تحت راية الإسلام – الثورة الإيرانية في **1979** والمقاومة الأفغانية للاحتلال الروسي في الثمانينيات- وكان هذا مصدر إلهام لجماعات المقاومة في مصر، والجزائر، وفلسطين المحتلة وغيرها. ولكن ما تجاهله الكليشيه كان أن الإسلام، كما تكرر كثيرا في تاريخه السابق، يمكن أن يعبر عن مصالح اجتماعية بالغة التباين يمكن أن تنتهي لصراعات دامية فيما بينها.

كانت الثورة الإيرانية انفجارا لسخط عميق ضد حاكم مستبد، هو الشاه وضد الولايات المتحدة التي ساندته. وقد استعدى حكمه القيادات الدينية التقليدية، والمثقفين الوطنيين، وأقساما من الرأسمالية متصلة بالبازار، والطبقة العاملة الجديدة في الصناعة التي كانت تتوسع، والطلاب، والبورجوازية الصغيرة التي كان يثقلها الفقر، والعاطلون وشبه العاطلين عن العمل في الأحياء الفقيرة في المدن، والأقليات القومية وأقسام من الفلاحين. وقد نجحت "خطابات التهييج" الإسلاموية المعادية للقمع في توحيد كل هذه الجماعات ضد عدو مشترك. ولكن بمجرد الإطاحة بالشاه في انتفاضة كلاسيكية – اشتملت على إضرابات واسعة، وعصيانات وتمردات مسلحة داخل الجيش – راحت كل جماعة تقرأ النصوص الإسلامية بطريقة مختلفة، وتصل إلى خلاصات تطبيقية متباينة تماما. ولم تشهد السنوات الأولى بعد الانتفاضة صدامات جماعات معينة من إسلاميين وعلمانيين فحسب، بل وحروبا أهلية دامية بين طوائف إسلامية مختلفة. وبالنهاية تمكنت الطائفة المحيطة بآية الله

خوميني من الفوز على غيرها، وبررت حكم الإرهاب الذي مارسته على خصومها المهزومين بمبررات دينية. وجعل هذا كثرة من الليبراليين تعتبر أساليبها البربرية "إسلامية" على نحو فريد، نتاجا لعقلية تفتقد ما يُفْتَرَض أنه إنسانوية "الموروث اليهودي – المسيحي". وبالحقيقة، فلم يختلف القمع الذي مارسه الخميني، نوعيا، عن ذلك الذي أقرته الكاثوليكية الرومانية الفرنسية وقت سحق الكومونة، ولا عن القمع الذي أقرته اللوثرية البروسية في **1919-1920**، ولا اختلف ذلك عما أيده الأصوليون الأمريكيون وحاخامات اليهود من إشراف الجيش الإسرائيلي على التقتيل الجماعي للفلسطينيين بأيدي عناصر حزب الكتائب في لبنان، في مطالع الثمانينيات. كانت تلك المذبحة نتاج ثورة مضادة، وليست نتاجا لديانة معينة.

وبالمثل، فقد استفز النظام الذي كانت ترعاه روسيا في أفغانستان مقاومة من قوى اجتماعية متباينة، ضد محاولته تطبيق برنامج ستاليني لـــ"التحديث" السريع. وعندما قتل الروس حاكم البلاد الموالي لهم، ليعيدوا للسلطة لحاكم موال آخر، بدا الإسلام الصيحة التي جمعت القوى المقاومة. لكن تناقض مصالح جماعات المقاومة أشعل بينهم الاحترابات الداخلية، بقدر ما أشعل الحرب بينهم وبين الروس. وتبع الانسحاب الروسي قيام حرب أهلية، انتهت بسيطرة طالبان التي حظيت بإسناد سعودي والتي عرفت بالعداء الشديد للنظام الإسلامي في إيران المجاورة، ووجه كثير من الإسلاميين، الذين تدفقوا على أفغانستان بترتيب من الاستخبارات الأمريكية ليحاربوا الروس، نيران أسلحتهم ضد الحكام المحليين الموالين للولايات المتحدة – وأدانتهم الولايات المتحدة، باعتبارهم "إرهابيين".

وبعيدا عن كون الإسلام قوة تقف، منفردة، موقف عداء مع الغرب، فأضخم الحروب وأكثرها دموية في الثمانينيات دارت بين القادة المسلمين في العراق وخصومهم في "جمهورية إيران الإسلامية". كانت حربا ساند فيها العراق النظام السعودي المحافظ، ونظام حسن الترابي الإسلامي في السودان– كما ساندته الولايات المتحدة في اللحظات الحاسمة.

نشأ تنامي حركات الإسلام السياسي عن تهميش النظام الدولي لعشرات الملايين من الناس، وخاصة الشبان والمتعلمين، الذين لم يكن لديهم أمل في وظائف مستقرة، في مجتمعات تحتل مراكز مضطربة في النظام الدولي. وبدا أن التأويلات الغامضة لآيات قرآنية تحض على مقاومة القمع وتدعو إلى المجتمع العادل، تؤمن متنفسا لمشاعـــر الإحباط الشديد. ولكن كلمـــا اقترب الإسلاميـــون من الإمســـاك بالسلطة، تراجعوا عن الراديكالية. وقد برهنت الحكومات الإسلاموية على سعادتها بالعمل مع الرأسماليين الإسلامويين، الذين لم يكفوا عن عقد التحالفات مع أجزاء أخرى من النظام الدولي، بما في ذلك "الشيطان الأكبر"، الولايات المتحدة. وفي كل صدام بين الدول الوطنية في الشرق الأوسط، كنت تجد الحكومات الإسْلامية في مواقع متعارضة.

الإمبريالية الجديدة

انتهت الإمبريالية القديمة التي تقوم على الحكم المباشر إلى الموت في الربع الأخير من القرن العشرين. أُجبِرَت الطبقة الحاكمة في البرتغال على التخلي عن مستعمراتها، وأخلى النظام الاستيطاني الأبيض في روديسيا مكانه لزيمبابوي، واعترف النظام العنصري في جنوب إفريقيا بحكم الأغلبية، وأعادت بريطانيا هونج كونج للصين. بل إن ما جرى العرف على تسميته "شبه مستعمرات"– وهي النظم الضعيفة المعتمدة على إسناد غربي لتتمكن من البقاء– غالبا ما حققت استقلالا معينا. تحولت الحكومة الصورية إلى حكومة عميلة، وانقلب العميل، أحيانا، على سيده السابق – كما فعل صدام حسين عندما زحف على الكويت في **1990**. لكن تلك لم تكن نهاية الإمبريالي – محاولة الدول الرأسمالية الرئيسية فرض إرادتها على دول أقل شأنا.

وفي منتصف التسعينيات زعم كثير من الصحفيين، والأكاديميين، والسياسيين أن الدول فقدت أهميتها في "الاقتصاد العولمي الجديد". لكن الأمر لم يكن يبدو كذلك لرؤساء الشركات المتعددة الجنسيات أو لرؤساء الحكومات المتعاونين معهم. فقد بينت الدراسات أن مالكي هذه الشركات ومديريها أبقوا على انغراسهم العميق في تربة دول وطنية بعينها، استخدموها لتعزيز مصالحهم وحمايتها في أماكن أخرى. ووفقا لخلاصة انتهت إليها إحدى الدراسات:

> **اشتدت كثيرا حدة المنافسة الشرسة بين الدول والمنافسة بين الشركات على مكان آمن في الاقتصاد العالمي وتزايدت كثافتها. ونتيجة لذلك زادت متانة العلاقات بين الشركات والحكومات، وأصبحت الحكومات تعترف باعتمادها المتزايد على الموارد النادرة التي تسيطر عليها الشركات(١٥).**

فقد اعتمدت الشركات الضخمة المتمركزة في الولايات المتحدة على واشنطن لفرض سياساتها على بقية العالم. والمشروعان الرئيسيان لمعالجة ديون العالم الثالث جرت تسميتهما، وهذا مبرَّر، باسمي اثنين من المسئولين الحكوميين الأمريكيين - خطة بيكر وخطة برادي(١٦). ووراء الكلام الذي يصدر عن البنك الدولي وصندوق النقد الدولي عن "تصورات جديدة حول التنمية" تكمن حقيقة العمل على ضمان سداد مستحقات الهيئتين، على نحو مجز. وبالمثل، فمفاوضات التجارة الدولية، كان محورها فرض الولايات المتحدة هيمنتها المؤسسة على "حرية التجارة" على الحكومات الأخرى، المعنية، بالقدر ذاته، بالحفاظ على مصالح رأسمالييها، التي تختلف أحيانا عن المصالح الأمريكية.

لكن الضغوط الدبلوماسية المالية لم تكن دائما كافية لضمان فرض إرادة الطبقات الحاكمة في الدول الأكثر قوة. فهناك لحظات شعرت فيها الحكومات بضرورة استخدام القوة العسكرية لضمان سيطرتها الكونية.

وحربا الخليج كانتا مثالين على ما يمكن أن يحدث. شن العراق حربا دموية مطولة ضد إيران، طوال الثمانينيات، بهدف الحصول على تأييد من الولايات المتحدة ومن دول الخليج الغنية، وبهدف تعزيز علاقته مع الشركات المتعددة الجنسية المهمة، في آن معا. وعندما لم يحقق المكاسب المالية التي تطلع إليها من مسانديه في الحرب، غزا أرض واحدة من الدول المساندة له وهي الكويت، في 1990 – بعد أن أخطأ في حساب رد فعل القوى الكبرى، وخاصة الولايات المتحدة، التي ردت على الغزو، هي وبريطانيا ودول أخرى باحتشاد عسكري هائل، وحملة قصف مدمرة، وغزو بري، ومذبحة لمائة ألف عراقي، وهم يتحدّرون عائدين من الكويت إلى البصرة. واتبعوا ذلك بعشرية من العقوبات الاقتصادية، تقدر الأمم المتحدة أنها قتلت خمسين ألف عراقي كل عام.

ولم يكن هدف الحملة، ببساطة، تأديب العراق، أو حتى تقديم درس للحكومات والحركات القومية الأخرى في الشرق الأوسط، التي يمكن أن تتحدى شركات النفط الأمريكية. كان المقصود إفهام القوى الأخرى ضرورة أن تتقبل الأهداف الكونية للسياسات الأمريكية، على اعتبار أن الولايات المتحدة هي وحدها القادرة على أن تكون شرطي العالم.

كانت الإدارات الأمريكية في الثمانينيات قد بدأت، بالفعل، العمل على التخلص من بقايا آثار الهزيمة في فيتنام، "عَرَض فيتنام"، بالبرهنة على بقاء قدرة الولايات المتحدة على السيطرة على نصف الكرة الغربي. وكان هذا هو التفكير الذي حرك غزوها لجرينادا وبنما، ورعايتها لمنظمة كونترا اليمينية لحرب العصابات المخربة في نيكاراجوا. وبعد ذلك برهنت إدارة جورج بوش الأب على أنه بوسع الولايات المتحدة تنفيذ عمليات مشابهة للقيام بدور رجل الشرطة، على نطاق أوسع كثيرا، في الشرق الأوسط. وفي عهد خليفته الديمقراطي بيل كلنتون، مضت الحملة العسكرية

تلو الأخـــرى، في انتظام متصاعد طوال التسعينيات- إيرار مشـــاة البحرية في الصومال، القصف المتكرر للعراق، قصف القوات الصربية المسلحة إبان الحرب الأهلية في البوسنة، قصف ما قيل إنه معسكر لمنظمة إرهابية في أفغانستان، ولمصنع أدوية في السودان، وإطلاق حرب جوية شاملة على صربيا.

ولم تكن الولايات المتحدة وحدها التي تمارس الإمبريالية الجديدة. حاولت روسيا المحافظة على سيطرتها الشاملة على أقسام واسعة من الاتحاد السوفيتي السابق، مستخدمة القوة العسكرية لتقرير نتائج الحروب الأهلية في بلدان مثل جيورجيا، وطاجيكستان. واحتفظت فرنسا بمنطقة نفوذ رئيسية في إفريقيا، داخلة في تضاغط مع الولايات المتحدة من أجل النفوذ في مناطق مثل رواندا وبوروندي. وحاولت بريطانيا التأثير على الأحداث في سيراليون ونيجيريا، في حين تدخلت نيجيريا، بدورها، في أقطار أخرى في غرب إفريقيا، تحت ستار"حفظ السلام". وتكرر تبادل التهديدات بالحرب، بين اليونان وتركيا، بسبب تصادم نفوذهما في شمال شرق المتوسط وفي البلقان.

مَثَّل عالم التسعينيات تراتبية معقدة من الدول والمصالح التجارية التي تتضاغط من أجل مناطق النفوذ. لكن درجات الأهمية لم تكن متساوية، وكان كل طرف من الأطراف يدرك أن موقعه في التراتبية يعتمد، بالنهاية، على القوة المسلحة التي يمكنه استخدامها. وفوق القمة، ومع استمرار حرصها المتلهف على الاحتفاظ بمركزها، كانت الولايات المتحدة. وشهد العام الأخير من العشرية ما ترتب على ذلك، بالضبط، عندما باشر التحالف الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة إضعافا ممنهجا للبنية التحتية لصربيا، لأن زعيمها ميلوسوفيتش، لم يحصل على إذن قبل أن يقترف من الجرائم ما اقترفه عديد من عملاء الولايات المتحدة في العالم، بهجومه على الأقلية الألبانية.

الهوامش

(1) D Bell, The End of Ideology (Illinois, 1960), p84.

(2) H Marcuse, One Dimensional Man (London, 1964), ppxi-xii.

(٣) لمطالعة المزيد عما جرى في قرطبة في مايو 1969، انظر:

R Falcon and B Galitelli, Argentina: from Anarchism to Peronism (London, 1987), pp171-174.

(٤) تجد مناقشة أكثر اكتمالا، لهذه القضايا، في ملحق كتابي:

Explaining the Crisis.

(٥) لم أقدم هنا سوى موجز لطروحات أكثر استفاضة، تجد عرضا مبسطا لها في كتابي:

Economics of the Madhouse.

ولتقارير أكثر تقنية، انظر كتابي:

Explaining the Crisis.

(٦) بحسب ما جاء في:

W Hutton, The State We're In (London, 1994), p19.

(٧) تجد تقريرا كاملا عن هذه الأحداث في الفصل التاسع من كتابي:

Class Struggles in Eastern Europe.

(٨) التحليل الرقمي للاقتصادات "في طور التكيف"، كما جاء في:

R Sobhan,'Rethinking the Market Reform Paradigm', Economic and Political Weekly (Bombay), 25 July 1992.

(٩) ورد في:

J Petras and M Morley, Latin America in the Time of Cholera (NewYork, 1992), p14.

(١٠) منظمة الأغذية والزراعة، حالة الأغذية والزراعة في 1991.

(١١) انظر، على سبيل المثال الأرقام في جريدة أوبزيرفر، السادس من ديسمبر 1998.

(12) Moroslav Holub, quoted in the Guardian, 12 March 1999.

(١٣) تقرير البنك الدولي، التنمية في العالم لعام ١٩٩١، ص ٤-٥.

(14) S Brittan, Financial Times, 10 December 1992.

(15) J M Stopford and S Strange, Rival States, Rival Firms (Cambridge, 1991), p1.

(١٦) للاطلاع على تقرير مفصل حول المفاوضات، انظر:

M Mohanty, 'Strategies for Solution of Debt Crisis: an Overview', Economic and Political Weekly (Bombay), 29 February 1992.

مصادر للمزيد من الإطلاع

قليلة هي الأعــمال التي تقدم صورة عامة لهذا القرن على نحو مُرْضٍ. وتجد في مسلسل البي بي ســي The People's Century الذي تحــول كتابا معظم الأحداث الرئيسية لذلك القرن كمــا يقدمها من شاركوا فيهــا، ولكن على نحو عشوائي، نوعا ما. وتجد فــي Eric Hobsbawm's The Age of Imperialism تقديما مفيدا للقوى التي فعلت فعلها في بدايات القرن، كما تجد في كتابه The Age of Extremes إضاءات على الأحداث الكبرى وبعض التحولات الثقافية الرئيسية في القرن، لكن ينقصه الفحص الجدي لتطور الطبقات الاجتماعية وللصدامات الكبرى بينها، وهي عوامل كانت لها أهمية بالغة في صوغ ملامح القرن. ويكمن تميز Gabriel Kolko's A Century of War في معالجته لأحداث بعينها، وإن لم يكن عملا شاملا. لكن هناك العديد من الكتب التي أجادت معالجة أحداث وتطورات مجسدة شهدها القرن. ويصور Thomas Packenham's The Scramble for Africa ما فعلته الإمبريالية بالشعــوب التي أخضعتها. ويبقــى كتابLeon Trotsky's History of the Russian Revolution أفضــل عمل حول الثــورة الروسيــة، لكن النسخة المختصرة من The Russian Revolution of 1917 للمؤلف المنشفي N N Sukhanov، تقدم تقريرا بالغ النفع. والمجلدان، الأول والثاني من ترجمـــة Tony Cliff لحياة لينين هي مدخل مفيد للحركة الاشتراكية في روسيا، كما تجد في المجلد الثاني إطارا عاما ميسرا لأحداث ١٩١٧. وPaul Fr?lich's Rosa Luxemburg ترجمة جيدة لحياة هذه المناضلة، ومرشد إلى الطروحــات المختلفة في صــفوف الحــزب الديمقراطــي الاجتماعي الألمانـــي، لكــن Carl Schorske's German Social Democracy هو أفضل تقرير عن الحزب.

هناك كم هائل من الأعمال المكتوبة بالألمانية عن ثورة ١٩١٨-١٩٢٢، أما بالإنجليزية، فالعمل الأكثر شمولية هو كتابي The Lost Revolution: Germany 1918-23. ويعد كتاب

The Rise of Italian Fascism الذي نشره Angelo Tasca بالاسم المستعار Aneli Rossi هو الأفضل حول الموضوع، لكن من الصعب العثور عليه. ومن المفيد، لمن يحاول فهم الفاشية الإيطالية أن يقرأGiampiero Carocci's Italian Fascism لكن يمكن للقارئ المهتم استكمال الصورة بقراءة J M Cammett's Antonio Gramsci and the Origins of Italian Communism وكذلك Paolo Spriano's Occupation of the Factories ويرسم Donny Gluckstein's The Western Soviets صورة شاملة لتجربة التمرّدات العمالية في أوروبا في تلك الفترة. ويصف الكتابان Duncan Hallas's The Comintern and Alfred Rosmer's Lenin's Moscow السنوات الأولى للأممية الشيوعية. ويمضي C L R James's World Revolution بالقصة إلى مطالع الثلاثينيات، فحين يقدم Fernando Claudin's The Communist International القصة كاملة. ويعد Victor Serge's Memoirs of a Revolutionary مدخلا رائعا لفهم الحركة والمرحلة. وفي Jean Chesneaux's The Chinese Labour Movement أكمل تقرير عن تنامي الحركة العمالية في الصين وهزيمتها في العشرينيات. وكتاب Harold Isaacs's The Tragedy of the Chinese Revolution رائع، والعثور عليه أســـهل. ويعالج المجلد الثاني من ترجمـــة Isaac Deutcher لحياة تروتسكي المعنونة The Prophet Unarmed والمجلد الثالث من Tony Cliff's Trotsky الأحداث في روسيا في العشرينيات، من زاويتي رؤية مختلفتين، اختلافا طفيفا. في حين يقدم Moshe Lewin's Lenin's Last Struggle تقريرا تفصيليا عن ارتياب لينين في ستالين. ويعد J K Galbraith's The Great Crash تقريرا مبهرا عن الانهيار في ١٩٢٩، لكنه لا يعالج عمق الأزمة الاقتصادية في الثلاثينيات. ويركز Charles Kindelberger's The World in Depression على المنازعات المالية الدولية بين الحكومات، بالأساس. ويعالج Donny Gluckstein's The Nazis, Capitalism and the Working Class أخطر الآثار السياسية الأكثر كارثية التي ترتبت على الكساد. وتجد في Julian Jackson's The Popular Front in France تغطية جيدة لفرنسا في الثلاثينيات. ويروي G E R Gedye's Fallen Bastions قصة انتفاضة فيينا. وهناك العديد من الكتب الممتازة عن الحرب الأهلية الإسبانية، يبرز بينها Broué and Temime's The Revolution

and the Civil War in Spain, Ronald Fraser's oral history Blood of Spain, Felix Morrow's contemporary account Revolution and Counter-Revolution in Spain, and George Orwell's Homage to Catalonia. وتجد القصة المبهرة للحركة العمالية في الولايات المتحدة في الثلاثينيات في **Art Preis's Labor's Giant Step**. ويروي **Farrell Dobbs's Teamster Rebellion** قصة أحد أهم الإضرابات على لسان أحد قادته. وليس **A J P Taylor's The Second World War** سوى تقرير وقائعي عن الحرب. وينظر **Gabriel Kolko's The Politics of War** في مناورات القوى الكبرى التي انتهت إلى قمع المقاومة ثم إلى الحرب الباردة. وفي الكتابين اللذين وضعهما **Ian Birchall** وهما **Bailing Out the System** و **Workers Against the Monolith** معالجة لسلوك الأحزاب الديمقراطيـــة الاجتماعيـــة والشيوعيـــة في الغرب، في فترة ما بعد الحـــرب. وفي **Brian Lapping's End of Empire**، (الذي يعتمد على مسلسل تلفزيوني حول الموضوع، في منتصف الثمانينيات)، تقرير ممتاز عن بعض أهم الحركات المناهضة للكولونيالية في منطقة النفوذ البريطاني. وتجد تقريرا نقديا حول عهد ماو في الصين في **The Mandate of Heaven,by Nigel Harris** . ويتفحص **Tony Cliff's State Capitalism in Russia** (الذي كتبت نسخته الأولى فـــي ١٩٤٧) الديناميكيات الحقيقية في المجتمع الستاليني، في حين يصف كتابي **Class Struggles in Eastern Europe** تأسيس النظم الستاليني في لولندا، وتيشكوسلوفاكيا، وهنجاريا وغيرها، والأزمات التي عصفت بها في الفترة من ١٩٥٣و١٩٨١. ولدينا اليوم عشرات الكتب عن نضالات السود في الولايات المتحدة في الستينيات. ويروي **Garrow's Bearing the Cross** قصة حركة الحقوق المدنية من خلال ترجمته لحياة مارتن لوثر كينج. ويروي المصنف الذي حرره **Colin Barker** بعنوان **Revolutionary Rehearsals** قصة بعض الاضطرابات التي وقعت في نهايات الستينيات وفي السبعينيات، في حين أن مؤلفه المعنون **Festival of the Oppressed is** هو القصة الكاملة لحركة العمال في بولندا في ١٩٨٠-١٩٨١. وفي **Paul Ginsborg's A History of Contemporary Italy and Robert Lumley's States of Emergenc** تقريران عن الحركة التي اجتاحت إيطاليا بين ١٩٦٩و١٩٧٤.

وقد تجد بعض أفضل الشهادات التاريخية الشفاهية في المواد التسجيلية المتلفزة، التي غالبا ما يتيسر الحصول عليها على الفيديو. ونوصي، بكل شدة، بمسلسلات البي بي سي **People's Century, The Nazis: a Warning from History** وقصة نضالات السود في الولايات المتحدة **Eyes on the Prize**، لكن المسلسل **The Cold War** لا تتسم أجزاؤه المختلفة بمستوى متماثل من الجودة. وفيلم **The Wobblies** هو رؤية توثيقية للنضالات العمالية في الولايات المتحدة في الربع الأول من القرن العشرين، أما **Battle for Chile** فيقدم في جزأيه الأول والثاني صورة بالغة التأثير لما جرى لحكومة الليندي.

الخلاصة

وهـــم المرحلـــة

بدأ القرن العشرون بضجة مبالغ فيها حول حتمية التقدم، جسدتها توقعات برنستاين بأن تتنامى الديمقراطية، وبأن تتنامى المساواة، وبأن يتنامى الرخاء العام. وسيطرت هذه التيمة، مرة أخرى في منتصف الخمسينيات وأوائل الستينيات، كما تجدها في كتابات سياسيين مثل أنطوني كروسلند، ومُنَظِّرين سياسيين مثل دانييل بيل، واقتصاديين مثل بول صمويلسون. وعادت للظهور مجددا في **1990** عندما أعلن **فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama** "نهاية التاريخ"، وتواصل الأمر في نهاية التسعينيات مع إصرار **أنطوني جيدينز Anthony Giddens** على أن مقولات اليمين واليسار أصبحت شيئا من الماضي. فما لم يكن كل شيء في أفضل حال، في العالم الذي هو أفضل العوالم الممكنة، فليس المطلوب سوى قليل من التغيير ثم يحدث ذلك.

ولكن واقع الحياة، بالنسبة لأقسام هائلة من البشر، بلغ في لحظات عديدة، من القرن، أسوأ ما عرفه التاريخ من البشاعة. فالزحف إلى الأمام بقوة التقدم نشأ عنه سفك الدماء في الحرب العالمية الأولى، وإفقار الأعداد الهائلة من الناس في بواكير الثلاثينيات؛ وانتشار الفاشية والنازية في معظم أرجاء أوروبا، والكولاك الستاليني؛ الهجمة اليابانية الوحشية على شنجهاي ونانكينج؛ وتدمير أرجاء واسعة من أوروبا بين العامين **1940** و**1945**؛ المجاعة في البنغال؛ إبادة هيروشيما وناجازاكي؛ الحرب التي استمرت ثلاثين عاما ضد فيتنام وحرب السنوات السبع ضد الجزائر؛ موت

مليون إنسان في حرب في الخليج وموت مائتي ألف في حرب ثانية في المنطقة ذاتها؛ عشرات الألوف قتلتهم فرق الإعدام في السلفادور، وجواتيمالا، والأرجنتين؛ ومئات الألوف الذين أهلكتهم الحروب الأهلية في كرواتيا، والبوسنة، وطاجيكستان، وأنجولا، وإثيوبيا، وليبريا، وسيراليون، وأفغانستان. وغالبا ما تُرْجِم تطور الصناعة إلى ميكنة للحرب - أو إلى الصورة الأبشع، التي تُرْجِم إليها بميكنة القتل الجماعي في الهولوكوست. بل ولم تكن الصورة مشرقة بالأمل في نهاية القرن بأكثر مما كانت عند انتصافه. فبلدان بكاملها، خارج أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، كانت تأمل في بعض لحظات القرن بأن "تلحق" بمستويات المعيشة في بلدان "العالم الأول"، ورأت ذلك الأمل يذوي - الأرجنتين، والمكسيك، وفنزويلا، والبرازيل، وروسيا. ووجدت قارة إفريقيا نفسها، مرة أخرى، وقد شطب اسمها من التاريخ، بعد التراجع المتواصل لمتوسط دخل الفرد طوال ثلاثين عاما. استمرت الحرب الأهلية تنهش أنجولا، وسيراليون، وليبريا، وطاجيكستان، وأفغانستان، والكونغو- زائير. وأضيفت إلى كلمة "الإبادة العرقية" التي ولدت مع صعود النازية في الثلاثينيات عبارة أخرى هي "التطهير العرقي" التي صيغت لوصف ما جرى في الحروب الأهلية في التسعينيات.

بل وحتى في الدول الصناعية المتقدمة، فإن الوعود بثروة لا حد لها، واستمتاع لا حد له، وإزاحة الفوارق الطبقية، تلك الوعود التي راجت في تسعينيات القرن التاسع عشر، ثم عادت للرواج في خمسينيات القرن العشرين، تبين أنها كانت سرابا. تواصل ارتفاع الإنتاج الاقتصادي المقِيس، في معظم السنوات في معظم الاقتصادات، ولكن بنصف معدله في سنوات الطفرة المطولة في الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين. ولم تترجم هذه الارتفاعات إلى تحسينات في جودة معايش معظم الناس.

في الولايات المتحدة تواصل، بدرجة أو أخرى، تراجع الأجور الحقيقية لساعة العمل، طوال الربع الأخير من القرن. في أوروبا، بقيت الإحصائيات تظهر ارتفاعا

في الأجور الحقيقية، لكنّ هناك قدرا كبيرا من الدلائل يشير إلى أن الزيادات التهمها ارتفاع الكُلَف غير المباشرة المرتبطة بتحولات نظام العمل (رحلات أطول بين البيت ومحل العمل، ارتفاع كلفة الانتقال، تزايد الاعتماد على الأطعمة السريعة والأطعمة المجمدة، ارتفاع كُلَف رعاية الأطفال)، مع إشارة من أحد "مؤشرات الرفاه المُستَدام" إلى أن الارتفاع في الأجور الحقيقية تواصل، بغير انقطاع تقريبا، من خمسينيات القرن العشرين حتى انتصاف السبعينيات، وبدأ يتراجع منذ ذلك الحين[١]. ومن المؤكد أن حياة الناس لم يطرأ عليها تحسن نوعي، مثل ذلك الذي خبروه في الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن العشرين. والوقت ذاته، تزايد الضغط على من لديهم وظائف ليعملوا لساعات أطول، وبجهد أكبر. زاد عدد ساعات العمل لدى الشخص الأمريكي، في المتوسط، بما مقداره **164** ساعة في **1996** عما كان عليه في **1976** – وهو ما يعادل شهر عمل إضافيا، كل عام[٢]، وتتوالى التقارير التي تؤكد شعور الناس بوقوعهم تحت ضغوط متصاعدة، في العمل. وقد نشأ عن تكرر موجات الركود، وإجراءات "تقليص العمالة"، حتى في ظروف الانتعاش، مستوى من القلق الذي يعانيه الناس، خوفا من المستقبل، لم يكن معروفا منذ الثلاثينيات. والأحزاب السياسية التي زعمت في السبعينيات أن انعدام الأمان صار شيئا من الماضي، عادت تؤكد في التسعينيات على أنه ليس بوسعهم أن يفعلوا شيئا حيال انعدام الأمان، لأنه جزء من "الاقتصاد العولمي الجديد" (وهذه إعادة صياغة للعبارة التي كان يستخدمها اليساريون، قديما "الرأسمالية العالمية"، ولكن من دون تنويه بذلك).

وكان هناك وجه آخر للفقر المتنامي في العالم الثالث وفي العالم الشيوعي السابق، وتنامي انعدام الشعور بالأمان في الغرب. كان ذلك تنامي تركيز الثروة في أيدي الطبقات الحاكمة. ففي التسعينيات حاز **348** مليارديرا على إجمالي ثروة مكافئ لمداخيل نصف الجنس البشري. وقد أوضح تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة لعام **1999** أن أغنى مائتي رجل في العالم ضاعفوا ثرواتهم في أربعة

أعوام[٣]. وبنهاية الستينيات كانت الفجوة بين خمس سكان الأرض الأكثر فقرا وبين الخمس الأكثر ثراء كانت واحدا إلى ثلاثين، ثم أصبحت واحدا إلى ستين في 1990، وواحدا إلى أربعة وسبعين في 1998. وتركز معظم مفرطي الثراء في البلدان المتقدمة. وفي 1980 فإن الواحد من أكبر مديري الشركات الثلاثمائة الأضخم في الولايات المتحدة بلغ راتبه تسعة وعشرين ضعف راتب العامل الصناعي العادي - وفي 1990 بلغ ثلاثة وتسعين ضعفا. لكن الظاهرة ذاتها كانت واضحة في أماكن أخرى من العالم، حيث توقع أفراد الشريحة الضيقة من حكام البلدان الأشد فقرا أن يعيشوا حياة أثرياء العالم، وأن تكون لهم ودائع بالملايين في البنوك الغربية، كتأمين ضد الاضطرابات الاجتماعية في بلدانهم. وفي كل مكان في العالم، كان رد الفعل على احتمال وقوع اضطرابات هو مراكمة الثروة للاحتماء من تأثيرات الاضطرابات، من دون أدنى اهتمام بما يمكن أن يلحق بالنسيج الأساسي للمجتمع من أضرار، جراء هذه المراكمة. وقد كان التعاقد مع أفراد من الأثرياء على تحصيل الضرائب (الالتزام الضريبي) ملمحا متكررا في أزمات المجتمعات الطبقية قبل الرأسمالية، وهو ملمح لم يؤد إلا إلى تكثيف التوجه الطويل المدى نحو التأزم. وفي العشرية الأخيرة من القرن العشرين، صار التعاقد على تكليف جهات وأفراد من خارج جهاز الدولة بأداء الخدمات المنوطة أصلا بالدولة، ملمحا متزايد الوضوح من ملامح المجتمع الطبقي، تترتب عليه نتائج لا محيص عنها، بالقدر ذاته، على المدى الطويل.

وإضافة إلى تجدد انعدام الأمن، وتكرر موجات الكساد، انبثقت روح أخرى، من العالم السفلي الذي كانت مدفونة فيه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية- أشكال متباينة من الفاشية والنازية. وأصبح أمرا طبيعيا تماما، حتى في أوقات "الانتعاش الاقتصادي" أن تحصل شخصيات من أقصى اليمين، مثل لوبين في فرنسا وهايدار في

النمسا على خمسة عشر بالمائة من الأصوات - وأن يكون توقعهم الحصول على نتائج أفضل كثيرا، مع بداية ركود ضخم جديد، أمرا واقعيا تماما. وأصبح طبيعيا، بالقدر ذاته، أن تتعاطى الأحزاب السياسية المحافظة في التيار الرئيسي بلغة العنصرية والانقسامات الإثنية لكي يتيسر لها الحصول على أصوات، وأن تقر الأحزاب الديمقراطية اليمينية لغة كهذه، في محاولة يائسة للاحتفاظ بمواقعها الانتخابية.

الاشتراكية، والبربرية، والقرن الحادي والعشرون

استعادت روزا لوكسمبورج وهي تكتب إبان الحرب العالمية الأولى، في 1915، عبارة فريدريك إنجلز: "يواجه المجتمع الرأسمالي الخيار بين التقدم باتجاه الاشتراكية أو الارتداد إلى البربرية"، وقالت: "تكرر سماعنا لهذه العبارة". ثم أضافت:

> **... دون أن يكون لدينا تصور عن معناها المخيف...نقف أمام الفرضية الرهيبة "إما أن تنتصر الرأسمالية ويحيق الدمار بالثقافة بكاملها، ويحدث ما حدث في روما القديمة من تراجع في أعداد السكان، وخراب، وبؤس، وتدهور، وموت؛ أو انتصار الاشتراكية، أي انتصار النضال البروليتاري ضد الإمبريالية. هذه هي معضلة تاريخ العالم، الاختيار الذي لا مهرب منه، والذي ترتجف كفتاه على الميزان... والذي يتوقف عليه مستقبل الإنسانية والثقافة[4].**

في هذه السطور، تتحدى لوكسمبورج، بكل قوة، وهم التقدم المحتوم في ظل الرأسمالية. كانت تطرح النقطة ذاتها التي طرحها ماركس وإنجلز في البيان الشيوعي، عندما أوضحا أن البديل التاريخي لتحول المجتمع، بفعل طبقة حديثة الظهور، كان "الدمار المشترك للطبقات المتنازعة". وكما رأينا، فهذا ما حدث، ليس فقط بانهيار الإمبراطورية الرومانية في الغرب، ولكن مع "القرون المظلمة" الأولى أيضا، وأولى حضارات عصر البرونز في أوراسيا، وانهيار حضارتي التيوتيهواكان

والمايا في أمريكا الوسطى، وأزمة العراق العباسي في القرن الحادي عشر الميلادي. وكاد ذلك أن يحدث في الألفية الثانية قبل الميلاد، في مصر، وفي الصين في القرن الثاني عشر، وفي أوروبا في القرن الرابع عشر. اعتبرت روزا لوكسمبورج أن الحرب العالمية تهدد بتكرار كوارث كهذه: "في هذه الحرب، انتصرت الإمبريالية. ضرب الميزان سيفها الوحشي القاتل، في قسوة عارمة، فألقى به في هاوية العار والبؤس"[٥].

وفي 1921 طرح ليون تروتسكي الرؤية ذاتها:

> **لم تكن الإنسانية تمضي، على الدوام، وفق منحنى صاعد. كلا، فقد كانت هناك دوما لحظات ركود مطول، وانتكاس إلى البربرية. ترفع المجتمعات نفسها، وتحقق مستوى معينا، وتعجز عن الحفاظ عليه. ليس بوسع الإنسانية الاحتفاظ بموقعها، توازنها غير مستقر؛ والمجتمع الذي يعجز عن التقدم، يسقط إلى وراء، وإن لم تكن هناك طبقة تمضي به لأعلى، ينتهي به الأمر إلى انهيار، فاتحا الباب للبربرية[٦].**

وقد طرحت الوثيقة التأسيسية للأممية الرابعة التروتسكية، التي كُتِبت عشية اندلاع الحرب العالمية، البديل، على نحو متشائم" من دون ثورة اشتراكية، فإن كارثة تهدد ثقافة الإنسانية بكاملها، في المرحلة التاريخية التالية"[٧].

حدد كل من روزا لوكسمبورج وليون تروتسكي، كما فعلت قلة من مفكرين آخرين، موضع الجنون في منطق المجتمع الرأسمالي في القرن العشرين – الطريقة التي تحولت بها قوى الإنتاج إلى قوى تدمير، وجرى تشويه الإبداع الإنساني ليصبح رعبا غير إنساني. كان ذلك قرن بربرية على نطاق لم يسبق له مثيل، في أوروبا على الأقل، منذ القرن السابع عشر، أو حتى الرابع عشر. وإذا كان القرن لم يشهد تحقق نبوءتي لوكسمبورج وتروتسكي، من حيث الانهيار التام للثقافة

والحضارة، فقد شهد أيضا سقوطا متكررا في البربرية، بمعناها الدقيق، وكما استخدمه إنجلز ولوكسمبورج، عندما فضل حكام سقوط المجتمع المحيط بهم على أن يسلموا السلطة التي بأيديهم- سلوك الجيوش البيضاء إبان الحرب الأهلية الروسية، والاندفاع باتجاه استكمال الهولوكوست من جانب الجيوش النازية، وهي تتراجع في الحرب العالمية الثانية، واستعداد طرفي الحرب الباردة لنشر الأسلحة النووية القادرة على تحويل العالم إلى صحراء ملوثة بإشعاع نووي. وفي العشرية الأخيرة من القرن بدا أن مناطق كاملة من إفريقيا، والقوقاز، ووسط آسيا وقعت في فخ المنطق ذاته، عندما انغمست جيوش يقودها سادة الحروب في مذابح متبادلة، وفي تدمير للسكان المدنيين، وهم يتقاتلون على فتات الثروات، وسط انحطاط اقتصادي واجتماعي شامل. وكشفت تلك العشرية أيضا عن مخاطر مخيفة، انضافت إلى المخاطر القديمة المتمثلة بالحرب وبالكساد الاقتصادي.

أشد هذه المخاطر دراماتيكية هو المتمثل بالكارثة البيئية. برهنت المجتمعات الطبقية، دائما على أنها تفرض متطلبات هائلة على البيئة التي تحفظ حياة سكان تلك المجتمعات. وقد كان تاريخ المجتمعات قبل- الرأسمالية، عند تجاوز نقطة معينة، تاريخ مجاعات وتراجع ديمغرافي يتسبب به ضغط ينشأ عن شراهة الطبقات الحاكمة والبُنى المُبْهِظة. والديناميكية التي تميزت بها الرأسمالية هي ذاتها ما أدى لتسريع الشعور بالنتائج الإيكولوجية السالبة. والتقارير التي أنتجها القرن التاسع عشر حول ما تفعله الرأسمالية بمجتمعات الطبقة العاملة، من ديكنز وإنجلز وما بعدهما، هي أيضا تقارير حول هواء ملوث، وأمراض بلغ انتشارها حد الوباء، وتكدس للسكان، وتلوث للطعام في أحياء فقيـــرة. ولكن في زمن انخرط فيه مـــا لا يزيد عن عشرة ملايين من البشر في الإنتاج الرأسمالي في مختلف أنحاء العالم، كان الدمار البيئي مسألة محلية- فمعظم مناطق إنجلترا، ناهيك عن بقية بلدان العالم، لم تتأثر بالدخان في مانشستر. لكن انتشار الرأسمالية في كل أنحاء عالم

صار سكانه ستة مليارات أو أكثر، بنهاية القرن، حول الدمار البيئي إلى مشكلة كونية. ويقول أحد التقارير الموثوقة، إن العام **1998**، كان "الأسوأ في التاريخ المسجل، وتسبب بأضرار تفوق كل ما سبق"، ما أجبر خمسة وعشرين مليونا من البشر على الهرب كلاجئين، وهو "ما فاق، لأول مرة، عدد من شردتهم الحرب"[٨]. ولأن مليارا من البشر يعيشون في مدن الصفيح العشوائية، وأربعين بالمائة من سكان الخمسين مدينة الأسرع نموا في العالم، يعيشون في مناطق الزلازل، فأسوأ البشاعات ما زالت تنتظرنا. لكن ليست هذه غاية المأساة. فإنتاج كميات دائمة التزايد من ثاني أكسيد الكربون يسخّن الكوكب ب "تأثير البيت الزجاجي"، ما ينتج نماذج مناخية يصعب التكهن بها، من المتوقع أن تسبب عواصف غير معتادة وارتفاعا في مستوى ماء المحيطات من شأنه إغراق مناطق ساحلية شاسعة. والكلور وفلور وكربون **CFC** المستخدم في الثلاجات يتسبب بتآكل طبقة الأوزون، مسببا انتشار سرطانات الجلد. واستخدام المضادات الحيوية في علف البهائم يضعف فاعلية المضادات الحيوية في علاج أمراض البشر. والاستخدام غير المنضبط للمحصولات المعدلة جينيا يمكن أن يلحق الدمار بسلسلة الغذاء، بكاملها. ولا تعد هذه الكوارث البيئية، الماثلة والمتوقعة، كوارث طبيعية بأكثر مما كانت تلك التي دمرت الإمدادات الغذائية في بلاد ما بين النهرين في القرن الثاني عشر الميلادي، أو التي أفضت إلى مجاعات واسعة النطاق في مختلف أنحاء أوروبا في القرن الرابع عشر. فهي نتيجة لطريقة بعينها يحدث بها التفاعل البشري مع الطبيعة، على مستوى العالم.

وفي ظل الرأسمالية يجري تنظيم هذا التفاعل عبر التنافس بين رءوس أموال متضاربة المصالح لدى شركات صغيرة في القرن التاسع عشر، وشركات عملاقة متعددة الجنسيات أو مملوكة للدولة، في نهاية القرن العشرين. وتؤدي المنافسة إلى بحث لا يتوقف عن أشكال من التفاعل جديدة، وأكثر إنتاجية، وأكثر

ربحية، من غير اهتمام بما يترتب عليها. وفي بعض الأحيان، تحاول الدول ضبط العملية كلها. لكن الدول ذاتها تنجرف إليها بقوة الرغبة في تعزيز مصالح الشركات الوطنية المنشأ. وكثيرا ما يقال إن الضبط مستحيل لأنه يضر بالقدرة التنافسية للشركات المحلية المنشأ، لصالح منافسيها الأجانب. وحتى عندما يتدخلون، بالفعل، فالتدخل يحدث بعد وقوع الضرر، لأنه يستحيل على مسئولي الدولة أن يخمنوا ما سوف يترتب على كل ابتكار صناعي، ويروا، مسبقا، آثاره الأوسع.

وقد كانت النتائج في نهاية القرن العشرين خطيرة لدرجة أن الناس صاروا ينفرون من العلم ومن التكنولوجيا، بشكل عام. ولكن من دون تكنولوجيات القرن الماضي، لم يكن هناك من سبيل لإطعام سكان الكوكب، ناهيك عن حمايتهم من عذابات الجوع والعمل المضني التي احتملها البشر منذ ظهور المجتمع الطبقي. وتوازى مع ذلك الاتجاه إلى تبني واحد من طروحات **مالتوس Malthus**، ذلك الرجعي القديم، بالإصرار على أن عدد البشر صار، ببساطة، أكثر مما يجب- أو على أنه سيكون كذلك، على الأقل، عندما يتضاعف العدد، خلال ثلاثين سنة أو أربعين. لكن زيادة عدد سكان الكوكب، بثمانية أضعاف ما كانوا عليه أيام مالتوس، قابلته زيادة بأكثر من ثمانية أضعاف في إمدادات الغذاء. وإذا كان من الناس من يجوعون في أجزاء من إفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية، فهذا لم ينشأ عن نقص مطلق في الغذاء، ولكن عن توزيعه على أسس طبقية.

ليست مشكلة البشرية هي التكنولوجيا، بحد ذاتها، أو زيادة أعداد الناس، بحد ذاتها، ولكن المشكلة تكمن في الكيفية التي يقرر بها المجتمع القائم استخدامات التكنولوجيا. وإجمالا، فيمكن لعالمنا أن يؤمن حياة ضعف العدد الراهن من البشر. لكنه لا يحتمل عددا أكبر من آلات الاحتراق الداخلي، التي يضخ كل واحد منها كيلو جرامات من ثاني أكسيد الكربون يوميا، لصالح ربحية الشركات العملاقة لصناعتي النفط والسيارات. وبمجرد أن تغطي الإنسانية الكوكب بأرقام كهذه التي

نشهدها، يصبح استمرار بقاء النوع البشري رهنا بتخطيط استخدامات التكنولوجيا بغرض الوفاء بالاحتياجات البشرية الحقيقية، وليس بمجرد إخضاعها للتراكم الأعمى لرءوس أموال متنافسة.

ويجد استخدام التكنولوجيا للتراكم التنافسي التعبير عنه أيضا في استخدامها للحروب. وفي تسعينيات القرن العشرين، بدت التكنولوجيا العسكرية التي استخدمت في مذابح الجبهة الغربية في الحرب العالمية الأولى، وفي بربرية الجبهة الشرقية وهيروشيما وناجازاكي، في الحرب الثانية، بدائية بشكل لا يصدق. فمن ناحية، كان هناك تطوير نظم التسلح العسكري التي تتكلف مليارات لا تحصى من الدولارات. وبإقدام الولايات المتحدة على إنفاقٍ يفوق، بالأرقام المجردة، ما أنفقته في ذروة الحرب الباردة في بواكير الخمسينيات، وباستخدامها حصيلة نصف قرن من التقدم التكنولوجي، أصبحت قادرة على شن الحروب ضد العراق وصربيا من دون أن تخسر جنديا واحدا وهي تقتل الألوف، أو حتى مئات الألوف، من البشر، على الجانب المقابل. وقد بدأت أيضا التقدم على طريق شن الحروب بأجهزة التحكم عن بعد، من داخل القارة الأمريكية، وتعمل مرة أخرى على نشر أنظمة "حرب النجوم" المضادة للصواريخ الباليستية (**ABM**)، لحماية نفسها من أي هجمات مضادة.

ومن ناحية أخرى، كان هناك اللجوء لاستخدام النظم الميكرو- كهرو- ميكانية **microsystems** ذات القدرة التدميرية الفائقة. ووجدت دول صغيرة مثل إسرائيل، ودول مُعْوِزة مثل باكستان، أن لديها من خريجي كليات الهندسة، ومن فرص الوصول إلى تكنولوجيات الحاسوب الحديثة، ما يمكِّنها من تصنيع الأسلحة النووية الخاصة بها - وهي أقزام نووية بالمعايير الأمريكية، لكنها تكفي، إذا دعت الحاجة، لشيّ مئات الملايين من البشر، وهم أحياء، في عواصم البلدان المجاورة. ويرى البعض، على الأقل، أن رئيس وزراء روسيا السابق فيكتورتشيرناميردين،

استوعب درس استخدام الولايات المتحدة قوة النيران في حرب الخليج وفي البلقان، عندما قال: "حتى أصغـــر البلدان المستقلة، سوف تسعى لامتلاك أسلحة نووية ولامتلاك وسائل إطلاقها، حتى تدافع عن نفسها"(٩). ووجد العاجزون عن تطوير تكنولوجيات كهذه، البديل في التكنولوجيات الأقل تقدما والأرخص ثمنا، وهي تكنولوجيات الحرب الكيماوية والبيولوجية التي طورتها القوى الكبرى، قبل الربع الأخير من القرن العشرين.

وقد كان المدافعون عن البرامج النووية لدى القوتين الكبرتين، في النصف الثاني من القرن العشرين، يرون في هذه البرامج ضمانة للسلام، وفق منطق **MAD**- الدمار المؤكد للطرفين. وقالوا إن أيا من القوتين لن تبادر إلى استخدام القوة النووية، لأن الرد المدمر سيكون مؤكدا. وفي الأزمة الكوبية في **1963** اقترب هذا المنطق، لدرجة مخيفة، من درجة كان يمكن أن تثبت خطأه، كما هددت الولايات المتحدة في الثمانينيات من تدميره تماما بتطوير"قدرة الضربة الأولى "بنشر صواريخ كـــروز في أوروبا، وبمحاولتهـــا الفاشلة الأولـــى لإقامة شبكة للأنظمـــة المضادة للصواريخ الباليستية. وإذا كان التهديد لم يتحقق فلأن تصاعد النفقات العسكرية كسر ظهر الاقتصاد السوفيتي، فيما تبين للولايات المتحدة أنها لا تملك التكنولوجيا اللازمة لتشغيل الأنظمة المضادة للصواريخ الباليستية – وزادت الاحتجاجات الواسعة الكلفة السياسية التي تترتب على قبول الحكومات الأوروبية بهذه الأنظمة على ترابها الوطني. لكن انتشار الأسلحة النووية وإقامة شبكة الأنظمة المضادة للصواريخ الباليستسة جددا الخطر، وبقوة إضافية. وقعت أعظم قوة في العالم، وعديد من قوى أصغر، تحت تأثير منطق "الضربة الأولى" – مواجهة تصاعد مفاجئ في الموقف الدولي بضربة نووية، من دون رد متوقع. وهذا بدوره زاد من احتمالات الضربات الإجهاضية الاستباقية، بالسلاحين التقليدي والنووي، في محاولة يائسة لإبقاء القوى المنافسة، والأطراف الأضعف، تحت السيطرة. وتصبح البربرية التي تتجسد في

النصف الثاني من القرن العشرين إمكانية حقيقية في القرن الحادي والعشرين. وأي نظرة للمستقبل، تستشرف احتمالات العقود، بأكثر مما تستشرف احتمالات عام أو عامين، لا بد وأن تعتبر أن الحرب النووية، أيا كان نطاقها، هي أمر وارد، ووارد معه سقوط أجزاء من عالمنا في بربرية حقيقية.

ويزيد الاضطراب الاقتصادي من قوة هذه الاحتمالات. فوقوع كساد، بحجم الكساد الذي شهدته الثلاثينيات، يمكن أن يتسبب بخراب عديد من البلدان، الواحد تلو الآخر، وأن يخلق ظروفا قد تشهد، كما جرى في سنوات ما بين الحربين العالميتين، صعود قوى تلجأ للمغامرات العسكرية، كطريقة لمعالجة مشكلات داخلية. نذير الشؤم هذا ماثل للأعين، مع ارتفاع حصة اليمين المتطرف في بلدان مهمة. ومرة أخرى، إذا نظرنا لعقود تالية، فسوف نجد أن احتمال وقوع السلاح النووي تحت سلطة قرار اليمين المتطرف يصبح واردا، ما لم يظهر بديل طبقي للنظام الراهن، يعيد تنظيم المجتمع كله على أسس جديدة. تبرز ضرورة الاختيار بين الاشتراكية أو البربرية الآن، بقوة غير مسبوقة.

طبقة عالمية؟

لم يكن القرن العشرون قرن البشاعات، فحسب. فكما رأينا، كان ذلك قرن الفورانات النضالية من أسفل، قرن تمردات قادتها الطبقة العاملة ضد القوى المسئولة عن هذه البشاعات: الإضرابات السانديكالية السابقة على الحرب العالمية الأولى؛ الثورة الروسية، والتمردات في مختلف أرجاء أوروبا وفي المستعمرات بعد الحرب؛ موجات التمرد في النمسا، وفرنسا، وإسبانيا في **1933-1936**، وفي فرنسا، وإيطاليا واليونان في **1944-1945**؛ الثورة الهنجارية في **1956**؛ أحداث **1968** وما بعدها، والإضرابات والاحتلالات الكبرى في بولندا في **1980**. واحد فقط

من هذه التمردات الكبرى تحول لثورة ناجحة، هي الثورة الروسية التي سرعان ما جرى عزلها وخنقها. لكن النضالات كانت بين مقرّرات مسار القرن. ولم تكن نهاية القرن نهاية للنضالات. ووراء انهيار الكتلة الشرقية كان يكمن انحراف مسارات الصراع الطبقي. وفي أوروبا الغربية، شهدت نهاية التسعينيات سقوط حكومة **سيلفيو بيرلسكوني** **Silvio Berlusconi** اليمينية، عقب موجة إضرابات؛ والصحوة المفاجئة لنضالات الطبقة العاملة في فرنسا، إبان شهر من الإضرابات والتظاهرات العامة، في نوفمبر- ديسمبر **1995**، ما أدى، بالنهاية إلى سقوط حكومة **آلان جوبيه** **Alain Juppé** اليمينية؛ وموجة من الإضرابات والاحتجاجات في ألمانيا؛ وإضراب عام في الدنمارك؛ موجات إضراب متتالية في كوريا الجنوبية؛ وإضرابات عامة في كولومبيا والإكوادور؛ وسقوط ديكتاتورية سوهارتو بعد اثنين وثلاثين عاما من حكم إندونيسيا، نتيجة لتظاهرات وأعمال شغب عفوية واسعة النطاق.

هذه الاضطرابات الاجتماعية والسياسية الكبرى لم تمنع معلقين سطحيين يجارون الموضة، من أن يتكلموا عن نهاية السياسات الطبقية. وحتى إيريك هوبزبوم، الذي كان يعد من أبرز الماركسيين البريطانيين، وجد في نفسه القدرة على أن يزعم أن ماركس، وإن كان محقا فيما كتبه عن اضطرابات الرأسمالية، أخطأ في النظر إلى الطبقة العاملة باعتبارها قوة تمضي إلى معارضة تاريخية للنظام الرأسمالي. وقد اعتمد دعاة هذا الطرح على مجموعتين من البراهين: تراجع نسبة العاملين بالصناعة، من سكان البلدان المتقدمة، إلى مجمل السكان، والعدد المنخفض نسبيا من السكان المتطلعين إلى سقوط النظام الرأسمالي في تلك البلدان. لكن لا هذه الحجة ولا تلك تبرر الخلاصات التي انتهوا إليها.

لا شك أن المعاقل القديمة للطبقة العاملة -- مثل المناجم، ومصانع الصلب، وأحواض السفن – تضاءلت أعداد العاملين فيها، في بلدان مثل بريطانيا، حيث كان

حتى عدد عمال مصانع السيارات في نهاية التسعينيات قد انخفض إلى ثلث، أوحتى نصف، ما كان عليه قبل ثلاثين عاما. لكن تحولات أخرى عوضت عن ذلك. ففي البلدان المتقدمة حلت محلهم أعداد متزايدة من أصحاب الياقات البيضاء وموظفي قطاع "الخدمات"، كما أن كثيرا من الوظائف التي كان شاغلوها يعدون من "الطبقة الوسطى"، تزايد الشبه بينهم وبين العاملين في الصناعة القديمة الطراز. وفي كل مكان، صار "مديرو الخطوط" يلعبون أدوار رؤساء العمال التقليديين؛ وفي كل مكان كان الضغط يمارس على الناس ليبذلوا جهدا أكبر، وليظهروا "الالتزام" بالعمل لوقت إضافي، من دون مقابل. وأصبحت إجراءات التقييم عالمية، تقريبا، مع محاولة ربط الرواتب بالنتائج، حتى في أنشطة مثل التدريس.

وإضافة إلى أن خط الإنتاج لم يختف، مع تقدم الصناعة، فقد انتقل إلى مناطق أخرى. وبالحقيقة، ففي مجالات كثيرة، لم يعد الفارق بين "الخدمات" و"الصناعة" يعني الكثير. فالشخص الذي يعمل على آلة تنتج الحاسوب، صار يصنف باعتباره "عامل تصنيع"، فـــي حين أن من يقوم بعمليات روتينيـــة لضبط السوفت وير يصنف ضمن العاملين في"الخدمات"؛ ومن يضع الهامبورجر في علبة، يصنـــف "عاملا صناعيا"، في حين أن من يضعهـــا في الخبز، يصنف مع "الخدمات". كلا النوعين من العمل ينتج سلعا تباع من أجل الربح، وكلاهما يتشكل بقوة الضغط المتواصل لخلق أكبر ربح ممكن.

وعلى مستوى عالمي تبدو الصورة أوضح. شهد النصف الثاني من القرن العشرين انتشارا هائلا للعمل المأجور، دوليا. أقيمت مصانع نسيج، ومصانع للصلب، ومعامل لتكرير النفط، ومشروعات لتجميع السيارات، في كل بلد كبير، في كل القارات، تقريبا. وإلى جوار هذه المنشآت كانت أرصفة الشحن، والمطارات، ومحطات الشاحنات وقطارات السكة الحديد، وشبكات البنوك الحديثة، ومكاتب

ناطحات السحاب، ونتيجة لذلك اتسعت المدن، اتساعا هائلا. وفي **1945** دارت مجادلات حول ما إذا كانت لندن أكبر مدن العالم أم أن نيويورك هي الأكبر. وبنهاية القرن كانت المقارنة تدور بين مكسيكو سيتي، وبومباي، وطوكيو. والصناعات والمدن الجديدة كانت تعني طبقات عاملة جديدة. وفي الثمانينيات كان في كوريا وحدها من العمال الصناعيين أكثر مما كان في العالم عندما كتب ماركس وإنجلز البيان الشيوعي - كما كان فيها ملايين من العاملين بأجر في أنشطة غير صناعية، أيضا.

وبالطبع، لم تكن قوة العمل العالمية مؤلفة من العمال المأجورين فحسب. فقد كان هناك مئات الملايين من الفلاحين، ممن يملكون قطع أرض صغيرة في إفريقيا، وآسيا، وأجزاء من أمريكا اللاتينية، بل وفي أجزاء من أوروبا الشرقية. واحتوت مدن العالم الثالث على أعداد هائلة من المعدمين من أفراد البورجوازية الصغيرة الذين يعيشون على بيع أي سلع أو خدمات يمكنهم بيعها، مهما تدنت قيمتها ما داموا يستطيعون أن يجدوا لها سوقا، وقد اندمج هؤلاء في كتلة أكبر، من العمال الموسميين الذي يوجدون في العشوائيات المتنامية، حول المدن. وقد تختلف سيكولوجية هذه الجماعات عن سيكولوجية العمال الصناعيين. لكنهم يشبهونهم، ويختلفون عن الطبقات الوسطى والفلاحين، في قرن مضى، في أن حياتهم ارتبطت تمام الارتباط بالسوق وصارت معتمدة على منطق رأس المال.

وقد أوضح كارل ماركس، فيما مضى، الفارق بين "الطبقة في ذاتها" وهي التي يكون لها موقع موضوعي داخل المجتمع، وبين "الطبقة لذاتها" التي تحارب، بوعي، من أجل أهداف تخصها. وقد وُجِدَت الطبقة العاملة، كما لم يحدث قط من قبل، كطبقة في ذاتها، في نهاية القرن العشرين، بنواة ربما تكون تألفت من مليارين من البشر، حولها ملياران أو ما يقارب ذلك من البشر، تخضع حياتهم للمنطق ذاته

الذي تخضع له حياة النواة، من نواح بالغة الأهمية. والطرح الحقيقـي المتصل بالطبقة العاملة يدور حول ما إذا كان يمكن لها، وكيف يمكن لها، أن تصبح طبقة لذاتها.

وخلاصة ما يرمي إليه ماركس بهذا التمييز هو أنه ما من طبقة من الطبقات التي تأتى لها وجود تاريخي أن تنشأ كطبقة لذاتها. فهي تنمو داخل ترتيب قديم للمجتمع ولا يملك أعضاؤها خبرة بأي ترتيب آخر. وعادة ما يبدءون بأخذ قيم ذلك المجتمع كأمور مسلم بها. وتحيزات المجتمع القديم هي أيضا، ولو في البداية على الأقل، تحيزات أعضاء الطبقة الجديدة. ولا يتغير هذا إلا عندما يُجْبَرون، وغالبا ما يكون ذلك بفعل قوى خارجة عن سيطرتهم، على أن يحاربوا من أجل مصالحهم، داخل المجتمع القديم. وهذه النضالات تسفر عن تنمية العلاقات بينهم، خالقة ولاءات وقيما تختلف عن تلك التي يجدونها في المجتمع. وعلى الأرضية التي تتخلق إبان ذلك، تتجذر أفكار جديدة، حول كيفية إدارة المجتمع، وهو ما يصبح بدوره جزءا من الإطار الذي يتشكل داخله فهم الأجيال التالية للعالم.

لا يحدث التحول في الأفكار، وفقا لحركة خطية صاعدة بسيطة. وكما يتميز نضال الطبقة الجديدة بانتصارات صغيرة وهزائم جزئية، بتقدمات دراماتيكية وانتكاسات مفاجئة، وأحيانا مخيبة للآمال، فهناك أيضا مد وجزر في انتشار الأفكار بين الناس، وفي تحولاتها. ويقدم لنا تاريخ نشوء الطبقة الرأسمالية، المثال تلو الآخر، على هذا المد والجزر. ففي كل مرحلة تبدأ جماعات معينة في تعريف أنفسها بطرائق تختلف عن تلك التي اتبعها النظام الإقطاعي، لكنها تحاول التوافق معها بأمل الوصول إلى سلام مع الطبقات الحاكمة قبل – الرأسمالية، بقبول قيمها ومحاولة تخليد مجتمعها، تاركة للأجيال التالية ضرورة أن تبدأ من جديد الحرب من أجل إقامة مجتمع من نوع مختلف. ولا بد أن أناسا كثيرين شعروا، إبان الحروب التي اندلعت في شمال إيطاليا في نهايات القرن الخامس عشر، وإبان

الحرب الدينية في فرنسا في القرن التالي، أو في غمرات حرب الثلاثين عاما البشعة بين بوهيميا وألمانيا، بأن البورجوازية لن يتأتى لها أبدا أن تعيد صوغ المجتمع بكامله على صورتها. وعلى رغم ذلك، ففي القرن التاسع عشر أتاح التقدم الاقتصادي لها، كطبقة، وزنا جعل حتى انتكاسات **1848** غير قادرة على وقف تقدمها، الذي بدا أنه لا راد له، باتجاه السلطة.

وليس هناك عنصر سحري في يدى الطبقة العاملة في ظل الرأسمالية، يضمن لهذه الطبقة أن تمضي باتجاه الوعي الطبقي، عبر طريق ملكي. فالمجتمع المحيط بهم مشبع بقيم رأسمالية، وهم يسلمون بهذه القيم بوصفها شيئا بديهيا. بل إن استغلالهم يجري تنظيمه عبر سوق عمل، يتنافسون ما بينهم فيه على الوظائف. وبمثل ما أن هناك ضغطا يدفع بهم، المرة تلو المرة، لتوحيد قواهم ضد محاولة إخضاع معايشهم للمنطق اللاإنساني للتراكم الرأسمالي، فهناك أيضا قوى يمكنها فصم عرى هذا التوحد، بكل سهولة - البطالة التي تجعل الفرد يائسا من كل إمكانية للعيش إلا على حساب الغير، أو الهزائم التي تحل بتنظيماتهم وتضعف شعورهم بالتضامن، وتشعرهم بأن الاتحاد والنضال، على أي مستوى، لن يقدرا على تحسين حياتهم. ونمو القيم الجديدة التي تبزغ في فترات نجاح النضال، وهي قيم تتجسد في مفهومات التضامن المتجاوز لفوارق القومية، والإثنية، والجندر- يمكن وقفه أو تشويهه أو حتى تدميره. ويمكن للطبقات العاملة أيضا أن تتعرض لضغوط لا يستهان بها، في فترات "ازدهار" الرأسمالية، عندما تجد أقسام من الطبقة العاملة أن بوسعها تحقيق مكاسب بالتماهي مع النظام: ويحدث هذا مع من يخبرون التحرك لأعلى، ليصبحوا رؤساء عمال، ومشرفين، ومديرين؛ لأولئك الذين يحفرون لأنفسهم خانة كرجال أعمال صغار، وأولئك الذين يصبحون الوسطاء الرسميين للديمقراطية الرأسمالية، باعتبارهم مسئولين نقابيين أو سياسيين ديمقراطيين اجتماعيين. ويمكن لأناس كهؤلاء أن يكونوا الشخصيات الأعلى صوتا والأكثر ديناميكية في مناطقهم

المحلية أو في أماكن عملهم، وتماهيهم مع النظام يفضي إلى إضعاف الوعي الطبقي لدى غيرهم من العمال.

وبالنهاية، فعملية الانتقال من الطبقة في ذاتها إلى الطبقة لذاتها، تتعرض لتعطيلات متكررة بسبب إعادة الهيكلة والتوسعة اللتين تتعرض لهما الطبقة العاملة مع تطور الرأسمالية ذاتها. إذ تظهر مجموعات جديدة من العمال، ويتعين عليها أن تمر بعملية تعلم جديدة مع كل مرحلة من مراحل تطور النظام. وفي بريطانيا، على سبيل المثال، تألفت نواة الطبقة العاملة في أربعينيات القرن التاسع عشر، في زمن الحركة الميثاقية **Chartism**، من عمال النسيج؛ وفي السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى تشكلت من عمال الصناعات الثقيلة مثل عمال أحواض السفن، وعمال المناجم، وعمال الصلب؛ وفي أولى السنوات التالية على الحرب العالمية الثانية تشكلت النواة من عمال الصناعات الهندسية. وتعين على الجماعات في كل مرحلة الدخول في مرحلة تنمية مفهومات تجسدت بالفعل، بدرجة ما، في وعي الجماعات السابقة. ويمكن أن تكون الاختلافات بين العمال القدامى والجدد أكثر وضوحاً عندما يكون هناك تصنيع واسع النطاق وسريع، كما جرى في بلدان كثير في القرن العشرين: الطبقة العاملة التي صنعت ثورة **1917** في روسيا، غرقت في بحر زاخر من عمال الثلاثينيات؛ وعمال إيطاليا الذين هزوا نظام موسوليني في **1943** ذابوا في خضم أعداد أكبر من العمال الذين جاءوا لتوهم من الريف في الستينيات؛ وكانت قلة ضئيلة من عشرات الملايين من العمال الصينيين في أواخر الثمانينيات كانوا يتحدَّرون، مباشرة، من العمال الذين أطلقوا الإضرابات الكبرى في العشرينيات. ولكن في كل حالة من هذه الحالات، وبعد فاصل زمني يطول أو يقصر، كانت تظهر تقاليد تشبه التقاليد القديمة: الإضرابات العمالية في **1969** وما بعدها؛ تأييد العمال الصينيين للاحتجاجات في ميدان تينانامين في **1989**؛ إضرابات عمال المناجم الروس في **1989** وفي **1991**. ولم يظهر العمال في أي من هذه

الحالات وعيا ثوريا كاملا. لكنهم بدءوا، في كل حالة منها، قطيعة مع قيم وفرضيات المجتمع القديم. بدءوا التحرك باتجاه أن يكونوا طبقة لذاتها، حتى وإن لم يكملوا الرحلة.

ولم يكن ما شهدناه في الربع الأخير من القرن العشرين انقراض الطبقة العاملة أو تبدد عملية وعيها الطبقي. وعوضا عن ذلك، شهدنا ثمرات توسعها الهائل- وهو توسع أعطاها قوة غير مسبوقة لإعادة صوغ المجتمع، ولكنه أجبر أقساما كبيرة منها على أن تتعلم، مجددا، ما سبق أن تعلمته أقسام أصغر، قبل ثلاثة أرباع القرن. وتضمن التعلم، تحديدا، تغيير مسارات النضال، على النحو الذي ميز تلك السنوات. هذا التغيير خلف وراءه كتلة من التوجهات المشوشة والمتناقضة في عقول عشرات الملايين من الناس. وكان هذا أبعد شيء عن الطبقة في ذاتها وهي تصبح الطبقة لذاتها. لكنه كان، بالحقيقة، بعيدا جدا أيضا عن أن يكون نهاية لنضالات الطبقة العاملة، كقوة ناشطة في التحولات التاريخية.

وفي مطلع القرن العشرين، كتب الرجل الذي سيصبح قائدا للثورة الروسية، فلاديمير لينين، قائلا إنه وإن كان من المستبعد أن يؤدي النضال الاقتصادي، أوتوماتيكيا، إلى تنمية الوعي الثوري، فإن "النمو التلقائي لحركة الطبقة العاملة يفضي لإخضاعها للأيديولوجية البورجوازية". ونشأ ذلك عن أن "تلك الأيديولوجية أقدم أصولا، بكثير، من الأيديولوجية الاشتراكية، ونموها أكثر اكتمالا بكثير، و... تحت تصرفها وسائل أكثر، بما لا يقاس، لبث أفكارها"[١٠]. وتقول الخلاصة الشهيرة التي انتهى إليها إن "الوعي الطبقي لا يمكن أن يبلغ العمال، إلا من خارجهم"[١١]. وكانت هذه خلاصة انتقدتها روزا لوكسمبورج وغيرها، بل إن لينين نفسه اعترف ، فيما بعد، بخطئه في التقليل من أهمية دور العمال في تطوير أفكار اشتراكية[١٢]. لكنه كان محقا في التركيز على نقطة أثارها وطورها، بعد ذلك بربع القرن، الثوري الإيطالي الذي تعرض لكثير من إساءة الفهم، أنطونيو جرامشي.

قال جرامشي إن أعضاء أي طبقة يتعرضون لرؤى متضاربة للعالم - رؤى تنبع من الممارسات اليومية للمجتمع القائم، وتلك التي تنبع من الخبرة التي تشكلت لدى تلك الطبقة (أو قسم منها) في حدود ما اكتسبته من قتالها من أجل إعادة صوغ ذلك المجتمع. ونتيجة لذلك، فشخصية أي إنسان" تتشكل على نحو شاذ. فهي تحتوي على عناصر من رجل الكهف، ومبادئ نبعت من أحدث مناهج التعليم، تحيزات من موروثات كل المراحل التاريخية القديمة، ولُمَع من فلسفة مستقبلية ترى النوع البشري كله موحدا، في مختلف أرجاء العالم"[١٣]. ويجري الجمع بين هذه العناصر المتناقضة، بطرق متباينة، لدى مختلف الأفراد والجماعات. يقع البعض، وقوعا تاما، في شرك الأفكار المميزة للمجتمع القائم، ويمضي البعض الآخر قدما على طريق الانعتاق من هذه الأفكار، لكن تبقى الأغلبية مغروسة في الوسط، ينجذبون في أحد الاتجاهين أو الآخر، حسب قدرة الواقفين على الطرفين على تكوين رؤى أكثر تجانسا. ويعتمد الفعل المحسوس، الذي تقوم به أي طبقة في أي لحظة في التاريخ، على مدى نجاح أي من الطرفين في اجتذاب جماعة الوسط، عندما تنفتح على الأفكار الجديدة، بقوة الاضطرابات الاجتماعية (الحروب، والأزمات الاقتصادية، والإضرابات، والحروب الأهلية). وتتوقف النقطة، التي تصبح عندها الطبقة في ذاتها طبقة لذاتها، ليس فقط على تحولات مادية، في العالم المحيط بها، ولكن أيضا على تَكَوُّن أحزاب متنافسة داخلها.

وهذا ما برهن عليه أيضا نشوء الرأسمالية. فلم يكن "الانتقال الكبير" مجرد نتيجة لعوامل اقتصادية موضوعية. فقد اعتمد أيضا على محاولات متتابعة وناجحة لأقسام من الطبقات البيرجرية **burghers** الجديدة [من تجار وحرفيي الطبقات الوسطى في أوروبا القرون الوسطى - المترجم] أو الطبقات البورجوازية، في أن تنظم نفسها على أساس رؤى جديدة للعالم تختلف عن تلك التي اعتنقها النظام القديم- ومحاولات أقسام أخرى للعمل مع ممثلي النظام القديم تخريب هذه

التنظيمات. إنه تاريخ حركات التمرد أو الإصلاح في الإمبراطورية الإسلامية في القرن الثامن، أو في الإمبراطورية الصينية في القرن الحادي عشر، وتاريخ قمع هذه الحركات؛ تاريخ حركات عصر النهضة الأوروبية وعصر الإصلاح، وتاريخ انصياع هذه الحركات في إيطاليا، وألمانيا، وفرنسا للنظام القديم، تاريخ نجاح الثورتين الهولندية والإنجليزية، وللمأزق البشع لحرب السنوات الثلاثين؛ تاريخ التنوير والردة الظلامية ضد التنوير؛ تاريخ نضال الجمعية الوطنية الفرنسية ضد ملكها، ونضال اليعاقبة ضد الجيرونديين. لم يتحقق الانتقال بقفزة كبرى واحدة، ولم ينشأ عن تحول تدريجي بطيء. لقد توقف على نشوء، وهزيمة، وإعادة إنشاء لأحزاب قامت على أساس رؤية جديدة للعالم، عبر مئات السنين.

وقد أدت السيطرة الرأسمالية على العالم إلى تسريع العملية التاريخية، بدرجة هائلة. فقد طرأ على حياة الناس في القرن العشرين من التحولات أكثر مما وقع في الخمسة آلاف سنة السابقة. وهذه السرعة، بحد ذاتها، تعني أن الناس لا تكف عن محاولة التكيف مع أحوال جديدة، مستخدمين أفكارا تعكس خبرات حديثة العهد مستقاة من خبرات شديدة الاختلاف. احتاجوا لعشرات السنين، قبل أن يتعرضوا لتحول في أفكارهم مماثل لما مرت به البورجوازية في أوروبا على مدى ستة قرون. ولا يمكن تأويل حقيقة أن التحول لم يكتمل بنهاية القرن على أنها تعني أن عملية التحول لم تعد قائمة. تاريخ القرن العشرين هو تاريخ أجيال متتالية من البشر، تتزايد أعدادهم دون انقطاع، يقاومون منطق الخضوع لعالم التراكم الرأسمالي التنافسي. وقد حققوا نجاحا قصير العمر في روسيا. وفي بعض الأحيان-كما في ألمانيا في **1918-1919**، وفي فرنسا في **1936**، وفي بولندا في الثمانينيات- ارتضوا نصف النجاح، الذي لم يعقبه سوى الهزيمة. وفي بعض الأحيـــان، كانت الهزيمة مخيفـــة، كما في ألمانيا في **1933**، من دون حتـــى أن يخوضوا المعركة. ولكن ليس بين هذه الحالات ما يعد مبررا للزعم بأن الصراع

الطبقي انتهى. وسوف تكرر أقسام واسعة من الطبقة العاملة في الألفية الجديدة، المكونة من مليارات البشر، ذلك النوع من النضال الطبقي الذي خاضته طبقة عاملة صغيرة في القرن التاسع عشر، وطبقة عاملة أكبر في النصف الأول من القرن العشرين، وطبقة عاملة أكبر منها في الربع الأخير من القرن العشرين.

وسوف تسفر هذه النضالات عن محاولات جديدة، لإعادة بناء المجتمع على أساس من قيم التضامن، والتعاضد، والمساواتية، والتعاون الجماعي، والاستغلال المخطط ديمقراطيا للموارد. وسوف تبذل الطبقات الحاكمة في العالم، كما فعل أسلافها على مدى خمسة آلاف عام، قصارى جهدها لإفشال هذه المحاولات، وسوف يلجأون، إذا لزم الأمر، لبربرية لا نهاية لها، في محاولة منهم للحفاظ على ما يعدونـــه حقوقهم المقدسة في السلطة والملكيـــة. ســـوف يدافعون عن النظـــام الرأسمالي القائم للنهاية – حتى وإن كانت نهاية الحياة البشرية المنظمة.

وما من سبيل إلى التنبوء بمآلات هذه الصراعات الكبرى. فهذا لا يتوقف على التصادم بين القوى الطبقية الموضوعية – الناشئة عن نمو الطبقات في ذاتها– ولكنه يتوقف أيضا على درجة تجسد نواة من الناس الذين يعرفون كيف يحاربون وكيف يكسبون تأييد رفاقهم لهذا الفهم، في إطار الطبقة العاملة "الكونية" المتسعة. لن يكون هناك نقص في الجماعات والحركات التي تنخرط في معارضة مريرة لبعض تجليات النظام. وسوف تؤمّن بربريته ولا عقلانيته وجود هذه الجماعات والحركات كما أمَّنته في الماضي. ولكن تاريخ القرن العشرين يبرهن على أن هذه العناصر لن تكون فعالة حقا، إلا إن تجسدت في تنظيمات نذرت نفسها لتحدي النظام في كل تجلياته. احتاجت البورجوازية هذا التجسد مع الجيش النموذجي الجديد في القرن السابع عشر، ونادي اليعاقبة في القرن الثامن عشر. واحتاجته الطبقة العالمة الروسية مع الحزب البلشفي في **1917**. وسوف تحتاج الطبقة العالمية

العالمية الهائلة الاتساع هذا التجسد، مرة تلو الأخرى، في القرن الحادي والعشرين، إذا كان للإنسانية أن تنجو من الفناء. وهذا الأمر لن يتحقق إلا إذا وجد من ينهض بهذه المهمة. وقد سبق للاشتراكي الثوري الأيرلندي جيمس كونوللي أن قال: "الأنبياء الحقيقيون هم أولئك الذين يصنعون صورة المستقبل".

فهم الماضي يساعد على ذلك، ولذا كتبت هذا الكتاب.

الهوامش

(1) T Jackson and N Marks, Measuring Sustainable Economic Welfare: A Pilot Index 1950-1990 (Stockholm Economic Institute, 1994).

(2) The figure is given in J Schor, The Overworked American.

(3) UN Human Development Report 1999 (Oxford, 1999).

(4) R Luxemburg, 'The Crisis of Social Democracy', in R Luxemburg, Selected Political Writings (London, 1972), pp195-196.

(5) R Luxemburg, 'The Crisis of Social Democracy', p196.

(٦) خطاب ألقي في يوليو 1921 في موسكو، ونقلته البرافدا في الثاني عشر من يوليو 1921، ووقع الاستشهاد به في:

P Broué, Trotsky (Paris, 1988), p349.

(7) L Trotsky, The Death Agony of Capitalism and the Tasks of the Fourth International (London, no date), p8.

(8) Red Cross, 1999 World Disasters Report, summarised in the Guardian, 24 June1999.

(٩) ورد في:

Mark Almond, Independent on Sunday, 6 June 1999.

(10) V I Lenin, 'What Is To Be Done?', in V I Lenin, Collected Works, vol 5 (Moscow, 1961), pp385-386.

(11) V I Lenin, 'What Is To Be Done?', in Collected Works, vol 5, p422.

(١٢) لمطالعة مناقشة أكثر اكتمالا للموضوع، انظر مقالي:

'Party and Class', reprinted in T Cliff, D Hallas, C Harman and L Trotsky, Party and Class (London, 1996).

(13) A Gramsci, The Modern Prince and Other Essays (London, 1957), p59.

مسرد الأعلام

آدم سميث: اقتصادي اسكتلندي من القرن الثامن عشر، هو جزء من التنوير الاسكتلندي، وأثر على التيار الرئيسي للاقتصاد الحديث وعلى كارل ماركس، معا.

آشوكا (تنطق آسوكا، في بعض الأحيان): حاكم الإمبراطورية الموريانية، في ذروة قوتها في القرن الرابع قبل الميلاد، تحول إلى البوذية.

ابن رشد: فيلسوف عربي من القرن الثاني عشر في إسبانيا المسلمة، كانت تعليقاته على أعمال أرسطو بالغة التأثير بين فقهاء المسيحية في القرن الثالث عشر.

إجناثيوس لويولا: أسس جماعة الجيزويت للدعوة للكاثوليكية الرومانية بقوة في منتصف القرن السادس عشر.

إدوارد برنستاين: متعاون سابق مع إنجلز، أصبح من أكبر مناصري التوجهات الإصلاحية، داخل الحركة الاشتراكية الألمانية. عارض الحرب العالمية الأولى، لكنه عارض الثورة أيضا.

إدموند بيرك: معارض مناهض للاستبداد الملكي وداعية للحكم البرلماني، ومعارض للكولونيالية البريطانية في أمريكا وللقمع البريطاني في إيرلندا، وهو من القرن الثامن عشر، وقد أصبح أهم مسئول محافظ عن الدعاية ضد الثورة الفرنسية.

إدوارد جيبون: مؤرخ إنجليزي من القرن الثامن عشر، انتقد تأثير المسيحية، انتقادا شديدا، في كتابه: "تدهور وسقوط الإمبراطورية الرومانية".

إدوارد ديداليبه: زعيم الحزب الراديكالي الفرنسي، ترأس الوزارة في 1933 و1943 في 1938-1940.

أرسطو: فيلسوف وعالم إغريقي قديم. هو تلميذ أفلاطون، وإن كان قد طور فلسفة مختلفة للغاية صارت سائدة في أوروبا في نهايات القرون الوسطى.

أفلاطون: فيلسوف من اليونان القديمة، من تلاميذ سقراط. أثرت آراؤه على اللاهوت المسيحي من القرن الرابع عشر وحتى القرن الخامس عشر.

الاسكندر الأكبر: حاكم مقدوني، أسس الإمبراطورية المقدونية، على مجمل الشرق الأوسط، من وادي النيل إلى وادي الهندوس.

ألفريد هارمسويرث: لورد نورثكليف، فيما بعد. مالك صحف يعد أول من أصدر الصحف اليمينية الواسعة الانتشار في نهاية القرن التاسع عشر.

ألفريد هوجنبيرج: قطب الصحافة وصناعة السينما في ألمانيا، الزعيم اليميني للحزب الوطني المحافظ، عضو حكومة هتلر في يناير- يونيو 1933.

ألفونس لامارتين: شاعر ومؤرخ فرنسي لعب دورا رئيسيا في الجمهورية الثانية في 1848.

أليكساندر شبلياكوف: بلشفي وتنظيمي من عمال الصناعات المعدنية، قبل وأثناء الحرب العالمية الأولى، و(قوميسار) العمل في الحكومة الثورية في 1918، وقاد معارضة "العمال" في 1921-1920، واختفى في منتصف الثلاثينيات.

أليكساندر كيرنسكي: قاد الحكومة الروسية المؤقتة من الصيف حتى الخريف في 1917.

أندريه مالرو: كاتب يساري فرنسي من نهايات العشرينيات وحتى أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين. ساعد في تنظيم القوات الجوية للجمهوريين في

الحرب الأهلية الإسبانية. ساند الجنرال ديجول بعد الحرب العالمية الثانية. وزير في حكومتي ديجول بعد **1958**.

إنجلبيرت دولفوس: مستشار النمسا في **1932**، الذي أعلن نفسه ديكتاتورا في مايو **1933** وقمع انتفاضة اشتراكية في فبراير**1934**، واغتيل بتدبير من منظمة نازية منافسة في يوليو **1934**.

أنطونيو جرامتشي: ثوري ماركسي إيطالي. شخصية قيادية في حركة تأسيس مجالس العمال في تورينو في **1919-1920**. عضو مؤسس في الحزب الشيوعي الإيطالي في **1921**. تولى قيادة الحزب في **1924-1926**. سجنه موسوليني إلى مـــا قبل موته بقليل في **1937**. وفي السجن، عارض "المرحلـــة الثالثة" عند ستالين.

أوتو فون بيسمارك: أرستقراطي، تولى منصب المستشارية في بروسيا، ثم في ألمانيا، في **1862-1890**، وكان مسئولا عن الحروب التي أسست ألمانيا كدولة رأسمالية.

أوجست بلانكي: ثوري فرنسي آمن بأن ديكتاتورية البروليتاريا تتحقق بمؤامرات للتمرد – قضى جانبا كبيرا من حياته في السجن.

أورانجزيب: آخر إمبراطور مغولي يمارس سلطة واسعة. سجن والده شاه جاهان، في قلعة في آكرا. حاول تعزيز سلطته بفرض الإسلام على المسئولين عن إدارة الإمبراطورية، وفشلت محاولته.

أوغسطوس: أول إمبراطور روماني، من العام السابع والعشرين قبل الميلاد للرابع عشر بعد الميلاد.

أوغسطينوس من عنابة: أسقف مسيحي من بواكير القرن الخامس الميلادي، أثرت كتاباته على التيار الرئيسي في اللاهوت المسيحي طوال الألف سنة التالية.

أوكتافيـــان: أصبح إمبراطـــورا لـــروما باسم أوغسطـــوس، وهو ابن أخ يوليوس قيصر.

إيرازموس: مفكر من مفكري النهضة في شمال أوروبا في أوائل القرن السادس عشرــ ولد في هولندا وعاش لبعض الوقت في إنجلترا. عارض الإصلاح الديني، لكنه أُدين من جانب المناهضين للإصلاح.

إيريك دودندورف: جنرال ألماني مارس ما يكاد يكون سلطات ديكتاتورية بجوار سلطة هندنبيرج في الحرب العالمية الأولى. تحالف مع هتلر في **1923** ثم اختلفا بعد ذلك.

إيريك هوبزبوم: مؤرخ بريطاني، عضو الحزب الشيوعي لمدة نصف قرن، مؤلف أربعة مجلدات عن التاريخ من ثمانينيات القرن الثامن عشر إلى اليوم.

إيمون دي فاليرا: شارك في انتفاضة عيد القيامة في **1916**، وأُعلِن رئيسا للجمهورية في **1919**. عارض المعاهدة مع بريطانيا في **1921**، وانتُخِب رئيسا للحكومة في **1926** – في "الدولة الحرة" بعد انتخابات **1932**. بقي مسيطرا على الحكومة، لفترة وجيزة في صفوف المعارضة، حتى **1959**.

إيميل زولا: روائي فرنسي واقعي بارز من النصف الثاني للقرن التاسع عشر، حُكِم عليه بالسجن لدفاعه عن دريفوس.

بطليموس (كلوديوس): رياضي وفلكي سيطرت تصوراته عن العالم، وفيه الشمس والكواكب تدور حول الأرض، على أوروبا في القرون الوسطى.

بابلو إيجليسياس: أسس الحزب الاشتراكي الإسباني في **1879** وتولى رئاسته حتى **1925**.

بالمرستون (لورد): شخصيـــة مسيطرة في كثير من حكومات الملكيين الدستوريين البريطانيين من الثلاثينيات وحتى الستينيات من القرن التاسع عشر.

برتراند راسل: فيلســـوف تجريبي بريطاني كبير وكاتب، مـــن تسعينيات القرن التاسع عشر حتـــى **1960**. اشتراكي إصلاحي عارض الحرب العالمية الأولى وحرب فيتنام.

بروتوس: أشهر سفاح بين من اغتالوا يوليوس قيصر.

بنيتو موسوليني: زعيم الفاشية الإيطالية، الذي بدأ كاشتراكي يساري، وصار وطنيا متحمسا في الحرب العالمية الأولى. استولى على السلطة في **1922**، وغزا إثيوبيا في **1935**، وانضم للألمان في الحرب العالمية الثانية في **1940**، وقاد حكومة صورية موالية للألمان في الشمال، وشنقه رجال المقاومة الإيطالية وألقوه من قدميه في **1945**.

بياتريس وسيدني ويب: مؤسسا النسخة الفابية من الاشتراكية التدرجية في بريطانيا في ثمانينيات القرن التاسع عشر. عارضا الثورة البلشفية، وامتدحا روسيا الستلينية في الثلاثينيات.

بيرتولت بريشت: أشهر كاتب مسرحي (وشاعر) ألماني في القرن العشرين، وهو شيوعي من نهاية العشرينيات.

بنجامين فرانكلين: طباع وناشر ثري في منتصف القرن العشرين في بنسلفانيا. ممثل المستعمرات البريطانية في لندن، وصديق شخصي للمثقفين وعلماء التنوير الفرنسيين. أحد من وقعوا وثيقة الاستقلال في **1776**.

بولس الرسول: شاؤول الطرسوسي، يهودي من مواطني روما، اعتنق المسيحية. مسئول عن انتشار المسيحية في العالمين اليوناني والروماني وعن معظم مذاهبها.

بول فون هندنبيرج: قاد القوات المسلحة الألمانية وتمتع بما يشبه سلطات ديكتاتورية في الحرب العالمية الأولى. رئيس الجمهورية الألمانية **1925-1934**. عين هتلر مستشارا في يناير **1933**.

بول لافارج: زوج ابنة كارل ماركس، تزعم الجناح الماركسي في الحركة الاشتراكية الفرنسية حتى انتحاره في **1911**.

بوينا فينتورا دوراتي: أشهر الفوضويين السنديكاليين الإسبان. اغتال كبير أساقفة سارافوسة في أوائل العشرينيات من القرن العشرين، قام بسرقات للبنوك في أمريكا اللاتينية في نهاية العشرينيات، وسُجن لقيادته انتفاضات في الجمهورية الإسبانية الثانية **1931-1934**. ساعد في تنظيم هبة ضد محاولة انقلاب عسكري في برشلونة في يوليو **1936**، ودخل آراجون على رأس فيلق عسكري، وقُتل على جبهة مدريد، نهاية **1936**.

بيرسي بيش شيللي: شاعر إنجليزي من بواكير القرن التاسع عشر، ساند الأفكار الثورية، ومات في حادث غرق قارب في **1822**.

بيير أبلار: مفكر من القرن الثالث عشر، أدانته الكنيسة، وجرى إخصاؤه بعد انكشاف علاقته الغرامية السرية مع هيلواز، كبيرة الراهبات.

بيير جوزيف برودون: كاتب اشتراكي فرنسي من الأربعينيات وحتى الستينيات من القرن التاسع عشر، عارض انخراط العمال في نشاط سياسي، وآمن بأن المجتمع تتعين إدارته، باعتباره اتحادا "تبادليا" بين منتجين صغار مستقلين.

تايبيرياس جراكوس: مصلح صار بطلا للفلاحين الرومان في ثلاثينيات القرن الثاني قبل الميلاد، وقتله الأثرياء.

تشارل ديجول: الوحيد بين كبار ضباط الجيش الفرنسي الذي عارض التواطؤ مع ألمانيا، بعد يونيو **1940**. الزعيم الرمزي للمقاومة، انطلاقا من لندن.

رئيس وزراء فرنسا **1944-1946**. عاد إلى السلطة وسط أجواء المحاولة الانقلابية في **1958**، وحكم حتى **1969**.

تشارلز الخامس: حاكم إسبانيا، والأراضي الواطئة، والإمبراطورية الرومانية المقدسة، في النصف الأول من القرن السادس عشر.

تشارلز جورج جوردون: جندي بريطاني ساهم في تدمير القصر الصيفي في بكين، ثم قمع تمرد تايبينج في ستينيات القرن التاسع عشر، وقتل في حصار الخرطوم في **1885**.

تشارلي تشابلن: أشهر ممثل كوميدي في السينما الأمريكية، أخرج أفلامه بنفسه، وتعكس أفلامه ميلا لليسار، كما في فيلميه "الأزمنة الحديثة" و"الديكتاتور الكبير". مُنع من دخول الولايات المتحدة طوال الأربعينيات والخمسينيات.

تشي جيفارا: طبيب أرجنتيني شاب بين أول من نزل على الأراضي الكوبية من مقاتلي كاسترو في **1956**. تولى مسئولية التصنيع في النظام الثوري الذي تأسس في **1959**. اختلف مع الاتحاد السوفيتي في منتصف الثمانينيات، وغادر كوبا لينشر الثورة في الخارج. قتلته الاستخبارات الأمريكية في بوليفيا في **1967**.

تشيانج كاي تشيك: جنرال قاد الكومنتانج الوطنية الصينية بعد **1925**. حاكم الصين **1926-1949**، ثم حاكم تايوان في الخمسينيات والستينيات.

توما الأكويني: لاهوتي من القرن الثالث عشر، تأثر بكتابات أرسطو. وضعت أفكاره أسس الأرثوذكسية الكاثوليكية في القرون التالية.

توماس جيفرسون: صاحب مزرعة في فيرجينيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وضع إعلان الاستقلال، وتولى رئاسة الولايات المتحدة **1801-1809**.

توماس مالتوس: رجل دين إنجليزي من نهايات القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر- ويزعم في نظريته عن السكان أن زيادة المستوى العام للثروة بين السكان يجعل الفقراء أشد فقرا.

توماس مونتزر (أو مونزر): ثوري متدين في عصر الإصلاح الديني لعب دورا مهما في حرب الفلاحين في **1525**، وأعدمه الأمراء بتأييد من مارتن لوثر. ولا يجب الخلط بينه وبين مدينة مونتسر، التي تكرر استيلاء المتمردين المتدينين عليها في ثلاثينيات القرن السادس عشر.

توم بين: حرفي ولد في بريطانيا وصار أهم كتاب الكراسات في الثورة الأمريكية، وعاد إلى بريطانيا لينتصر للثورة الفرنسية، فأُجْبِر على الهرب من البلاد ثم سجنه اليعاقبة في فرنسا.

توم مان: عامل في الصناعات الهندسية لعب دورا قياديا في إضراب رصيف الشحن في **1889**، وفي الاضطراب الكبير في **1910-1914** وانضم للحزب الشيوعي في **1921**.

تيودور دريسر: روائي واقعي أمريكي كبير من النصف الأول للقرن العشرين.

جاك بيير بريسو: صحفي، وزعيم لحزب الجيروندنيين إبان الثورة الفرنسية، أعدم في أكتوبر **1793**.

جاك بيير بريسو: صحفي، وزعيم لحزب الجيروندنيين إبان الثورة الفرنسية، أعدم في أكتوبر **1793**.

جاك رو: قس سابق لعب دورا رئيسيا في التحريض في باريس، مع السان كيلوت، إبان الثورة الفرنسية الكبرى. انتحر كيلا يواجه الإعدام في فبراير **1794**.

جاك هيربرت: يعقوبي راديكالي، سانده السان كيلوت في الثورة الفرنسية الكبرى. أعدمه روبسبير في مارس **1794**.

جاليليو: فلكي وفيزيائي من أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر وضع أسس الفيزياء الحديثة.

جان بابتيست ساي: اقتصادي فرنسي من اوائل القرن التاسع عشر، صاغ "قانونا" زعم بمقتضاه أن الإنتاج المفرط غير ممكن.

جان- بول مارا: طبيب الطبقات العليا الذي أصبح بطل الفقراء إبان الثورة الفرنسية بعد **1789**. عمل مع روبسبيير ودانتون على تأسيس حكومة يعقوبية في **1793**، كرهه "المعتدلون"، واغتيل في يوليو **1793**.

جان كالفين: قائد لأحد أجنحة الإصلاح الديني في منتصف القرن السادس عشر، فرنسي المولد، بشر بمذهب يذهب إلى أن كل شيء هو بمشيئة سبقت من الرب، وكان الحاكم الفعلي لجنيف.

جمال عبد الناصر: أحد ضباط الجيش المصري، قاد ثورة على الملكية المصرية في **1952**، وصار رئيسا من **1956** وحتى وفاته في **1970**. كان ملهما لجميع القوميين في العالم العربي.

جواهر لال نهرو: زعيم حزب المؤتمر الهندي منذ العشرينيات الذي تعلم في هارو البريطانية. سُجِن إبان الحرب العالمية الثانية، تولى رئاسة وزراء الهند في **1947-1964**.

جورج أورويل: كاتب إنجليزي، كان اشتراكيا في الثلاثينيات، حارب في إسبانيا مع حزب العمال للتوحيد الماركسي المنتمي لأقصى اليسار، وأيد الموقف

الثوري في"تحية لكاتالونيا"، وسخر من الماركسية في "مزرعة الحيوانات" وفي "١٩٨٤".

جورج أوين: رجل صناعة رائد، من أوائل القرن التاسع عشر تكونت لديه قناعة بالحاجة إلى نوع من الاشتراكية القائمة على التجمعات التعاونية.

جورج برناردشو: واحد من أبرز كتاب المسرح والخائضين في الجدل العام في النصف الأول من القرن العشرين في بريطانيا. ولد في دبلن، وعاش في إنجلترا. أسس الجمعية الفابية.

جورج جاك دانتون: محام منتم للجناح الراديكالي للبورجوازية في الثورة الفرنسية. كان أكثر الشخصيات ثورية في حكومة الجيروندين في **1792**، ثم انضم لروبسبيير للإطاحة بتلك الحكومة. عضو في لجنة السلامة العمومية، إلى أن أعدم بالمقصلة في إبريل **1794**.

جورج فيلهيلم فريدريك هيجل: فيلسوف ألماني في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر، طور المنهج الجدلي ولكن على نحو مبهم.

جورج ماكليلان: قائد جيش الشمال في الحرب الأهلية الأمريكية في **1862-1861**.

جوزيب بروزتيتو: زعيم يوغسلافيا الشيوعي في **1945-1980**. قطع علاقاته مع ستالين في **1948**.

جوزيف بريستلي: كيميائي إنجليزي من القرن الثامن عشر، من المتحمسين للثورة الفرنسية.

جوزيفوس: القائد اليهودي للتمرد ضد روما، الذي غير ولاءه ثم دون تأريخا مشهورا.

جوستينيان: إمبراطور بيزنطة في منتصف القرن السادس الميلادي. حاول إعادة إخضاع إيطاليا وشمال إفريقيا. أشرف على إتمام تشييد كاتدرائية سان صوفيا.

جولز جويسده: اشتراكي فرنسي، نُفي بعد الكومونة، وقاد الجناح الماركسي للحركة الاشتراكية حتى انضم لوزارة الحرب في **1914**.

جون لويس: زعيم اتحاد نقابات عمال المناجم، أسس اتحاد النقابات المعروف باسم "لجنة التنظيم الصناعي" **(CIO)** في منتصف الثلاثينيات.

جون مينارد كينز: ليبرالي إنجليزي واقتصادي داعية لحرية السوق أصبح مقتنعا بالحاجة لتدخل الدولة في ثلاثينيات القرن العشرين.

جون نوكس: زعيم الإصلاح الكالفيني في نهايات القرن السادس عشر في اسكتلندا.

جون ويلكس: صحفي ونائب برلماني إنجليزي من القرن الثامن عشر. حاز تأييدا من تجار لندن ودهمائها، وتصادم مع حكومة جورج الثالث، وطرد من البرلمان ووضع في السجن، ثم أصبح عمدة لندن وأحد أعمدة المؤسسة.

جون وايكليف: أحد من مهدوا في القرن الرابع عشر في إنجلترا للإصلاح الديني.

جوهانيس كبلر: فلكي ورياضي طور أفكار كوبرنيكوس في نهايات القرن السادس عشر وبدايات السابع عشر.

جيتوليو فارجاس: ديكتاتور البرازيل في **1937-1945**، رئيس جمهوريتها في **1950-1954**.

جيفري تشوسر: كاتب لندني من القرن الرابع عشر، وأول من استخدم الإنجليزية.

جيمس كونوللي: اشتراكي إيرلندي، ولد في اسكتلندا في **1870**. هو من نظم "عمال العالم الصناعيين" في الولايات المتحدة، ثم نظم اتحاد عمال النقل والأشغال العامة في بلفاست. قاد الاتحاد في أول عامين في الحرب العالمية التي كان يعارضها. شكل جيش المواطن العمالي في انتفاضة عيد القيامة في **1916**. قتل برصاص رجال الحكومة البريطانية.

جيوفاني جيوليتي: سياسي بورجوازي سيطر على الحكم في إيطاليا قبل وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعدها مباشرة.

خوان بيرون: كولونيل، رئيس الأرجنتين في **1946** الذي حظي بتأييد شعبي واسع ومارس سلطات ديكتاتورية. أطيح به في **1955** وعاد للسلطة منتصف **1973**، وخلفته زوجته "إيزابيلا" التي سقطت بانقلاب في **1976**.

خوسيه ماريا موريلوس: قس مكسيكي، قاد تمردا على الإسبان بعد موت هيدالجو، قتل رميا بالرصاص في **1815**.

دانتي آلليجييري: شاعر إيطالي ولد في فلورنسه في **1265**، أحد أوائل الكتاب في إيطاليا الحديثة.

دولباخ: فيلسوف فرنسي من القرن الثامن عشر، ارتبط اسمه بالتنوير.

ديفيد لويد جورج: زعيم للحزب الليبرالي البريطاني في **1900-1940**. تقدم بميزانية راديكالية التوجه قبل الحرب العالمية الأولى، لكنه دخل في ائتلاف مع المحافظين في **1916** وحكم معهم حتى **1922**. قسّم إيرلندا في **1921**.

دينج شياو بينج: زعيم شيوعي صيني مخضرم، خرج في التطهير، إبان الثورة الثقافية في **1966-1967**. وعاد للسلطة بعد وفاة ماو في **1976**، ليسيطر على

الحكومة ويُدْخِل ميكانيزمات السوق. مسئول عن سحق تظاهرات ميدان تينانامين في **1989**.

دينيس هيلي: من قيادات حزب العمال البريطاني، من الخمسينيات وحتى الثمانينيات من القرن العشرين. وزير في حكومتي **1964-1970** و**1974-1979**.

رامسي ماكدونالد: عضو مؤسس في حزب العمال المستقل في بريطانيا في منتصف العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وهو قائد حزب العمال قبل الحرب العالمية الأولى. عارض الحرب من موقع غير ثوري في **1914**. رئيس وزراء حكومتي الأقلية العماليتين، في **1924** وفي **1929-1931**. غير ولاءاته ليقود حكومة المحافظين "الوطنية" في **1931-1935**.

روبرت كلايف: من قيادات شركة الهند الشرقية، وهو المسئول عن أول الانتصارات البريطانية في الهند في خمسينيات القرن الثامن عشر.

روبرت كنيدي: شقيق جون كنيدي، والمدعي العام إبان رئاسته للولايات المتحدة في **1963-1960**. ساند حرب فيتنام حتى انفجرت المعارضة الشعبية لها في **1968**. اغتيل إبان حملته للترشح للرئاسة.

روجر بيكون: الفقيه والعالم من القرن الثالث عشر. كتب معادلة تصنيع البارود، لأول مرة في أوروبا.

روبرت تريسل (روبرت نونان): عامل طلاء للمنازل، وروائي، واشتراكي في العشرية الأولى من القرن العشرين، مات في **1911** معدما في سن الأربعين.

روديارد كيبلنج: كاتب بريطاني في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ولد في الهند.

رودولف هلفردينج: اقتصادي ماركسي نمسوي، نشط في الحركة الاشتراكية الألمانية. حاول شق طريق وسط بين البلشفية والديمقراطية الاجتماعية

اليمينية في 1919-1920. وزير المال في حكومات الديمقراطيين الاجتماعيين الائتلافية في خريف 1923 و1928. استقال في 1929 بعد عجزه عن مواجهة الأزمة الاقتصادية. قتله النازي في المنفى في الأربعينيات من القرن العشرين.

روذرمير (لورد): شقيق ألفريد هارمسويرث (لورد نورثكليف)، كانت له إمبراطوريته الصحفية الخاصة به، تولى منصبا وزاريا في حكومة الحرب العالمية الأولى في بريطانيا. ساند "القمصان السود" الفاشية في منتصف الثلاثينيات.

روزا لوكسمبورج: ولدت لعائلة يهودية في بولندا أيام الاحتلال الروسي في 1871. عاشت في المنفى منذ نهاية الثمانينيات من القرن التاسع عشر. زعيمة لليسار الثوري داخل كل من الحركتين الاشتراكيتين في ألمانيا وبولندا. سُجِنَت إبان الحرب العالمية الأولى، وقُتِلَت في يناير 1919.

ريتشارد نيكسون: رئيس أمريكي ومجرم حرب، طُرد من منصبه بسبب فضيحة السطو على مكتب الحزب الديمقراطي في 1975 وهي فضيحة ووترجيت.

سارجون: أول حاكم يقيم إمبراطورية على كامل منطقة الهلال الخصيب، في 2300 قبل الميلاد.

سبارتاكوس: قائد التمرد الأشهر في روما القديمة.

ستانيسلاف جومولكا: قيادي شيوعي بولندي في سنوات ما بعد الحرب. سجن في أواخر حياة ستالين. عاد للسلطة بتأييد شعبي في 1956. فرض القمع الخاص به. وأخرجته الإضرابات من السلطة في 1969-1970.

سلفادور الليندي: وسطي من أعضاء الحزب الاشتراكي التشيلي، ورئيس للبلاد في 1970-1973، أطاح به انقلاب عسكري قتل الآلاف. أقدم على الانتحار بعد تنظيم دفاع مسلح عن القصر الجمهوري.

سوللا: جنرال روماني من القرن الميلادي الأول، استخدم أساليب قمعية شريرة ضد المعارضين والفقراء.

شاؤول الطرسوسي: الاسم الأصلي لبولس الرسول.

شواين لاي: شيوعي صيني بارز من منتصف العشرينيات وما بعدها، رئيس وزراء الصين طوال الخمسينيات والستينيات، ومطالع السبعينيات.

صمويل كوليردج: شاعر إنجليزي من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وصديق ووردزوورث.

صون يات صن: المؤسس والقائد للحركة الوطنية الصينية وحزب الكومنتانج حتى موته في 1925.

علي: زوج ابنة النبي محمد، ويعتبره الشيعة "البطل" الذي عارض ما يعتبرونه تراجعا عن الإسلام، منذ القرن السابع وما تلاه.

فرانز فون بابن: مستشار ألمانيا في مايو – نوفمبر1932 ونائب المستشار في حكومة هتلر في 1933-1934، ثم صار سفيرا للنظام النازي.

فرانشيسكو بيزارو: قاد الحملة الإسبانية التي أخضعت الإنكا في ثلاثينيات القرن الخامس عشر.

فرانشيسكو فرانكو: جنرال إسباني، سحق تمرد آستورياس، وقاد انقلاب يوليو 1936 والقوات الفاشية في الحرب الأهلية. ديكتاتور في 1939-1975.

فرانكلين روزفلت: الرئيس الأمريكي 1933-1945.

فريدريش فون هايك: الاقتصادي المتطرف في تبني حرية السوق والذي ألهمت أفكاره مارجريت تاتشر.

فلاديمير لينين: من أول أعضاء التنظيمات الماركسية في روسيا، وقد أصبح قائد الجناح البلشفي في **1903**. زعيم الحكومة السوفيتية بعد **1917**، فقد كل قدرة على الفعل في بواكير **1923**، ومات في**1924**.

فياتشيسلاف مولوتوف: ناشط بلشفي في **1917**، صار من مؤيدي ستالين ابتداء من مطالع العشرينيات، وبقي شخصية قيادية في النظام السوفيتي حتى أسقطه خروشستشيف في التطهير في **1958**.

فيديل كاسترو: ابن أحد ملاك الأراضي، قاد قوة حرب عصابات في كوبا في الفترة من **1956** وحتى **1958**، عندما استولت تلك القوة على السلطة في الحادي والثلاثين من ديسمبر. وهو الحاكم الفعلي للبلاد منذ ذلك الحين، وحتى مثول الكتاب للطبع.

فيكتور سيرج: ولد في بلجيكا لأبوين روسيين، وسُجِن لتعاطفه مع الفوضويين، في فرنسا، قبل الحرب العالمية الأولى. وذهب إلى روسيا في **1919** للانضمام للبلاشفة. عمل من أجل الأممية الشيوعية، وأيد تروتسكي في معارضته لستالين، وأطلق سراحه ليذهب إلى فرنسا قبل محاكمات موسكو، مباشرة. هرب من وجه الجيش الألماني الزاحف، وذهب للمكسيك في **1940**. مؤلف روايات، وخاصة "قضية الرفيق تولاييف"، و"مذكرات ثوري" وكتاب التاريخ "السنة الأولى في الثورة الروسية".

كارل راديك: ثوري بولندي، انضم للبلاشفة في **1917**، وكان شخصية قيادية في الأممية الشيوعية المبكرة، وساند تروتسكي في **1924-1928** ثم تحول إلى جانب ستالين. مات في معسكر عمل عبودي بعد محاكمات موسكو.

كارل كاوتسكي: أشهر المثقفين في الحركة الاشتراكية في ألمانيا بعد وفاة إنجلز. يعرف بأنه "بابا الماركسية"، لم يعجبه أن قامت الحرب العالمية الأولى لكنه عارض العمل الثوري ضدها. وهو خصم الثورة البلشفية.

كارل ليبشنخت: نائب ديمقراطي اجتماعي ألماني، عارض الحرب العالمية الأولى، وهو عضو مؤسس في المجموعة الثورية سبارتاكوسبوند، وقد سُجن، ثم أعلن الجمهورية الاشتراكية في نوفمبر **1918**، وقُتِل في يناير **1919**.

كايوس جراكوس: مصلح صار بطل الفلاحين الرومان في عشرينيات القرن الثاني قبل الميلاد، وقتله الأثرياء، كما قتلوا أخاه.

كتشنر (لورد): جنرال بريطاني مسئول عن مذبحة أم درمان (السودان) في **1898** وعن معسكـرات الاعتقال الجماعي في حرب البويـر في جنوب إفريقيـا. رئيس الهيئة العسكرية في الحرب العالمية الأولى وحتى موته في **1916**.

قسطنطين: إمبراطـور روماني من القرن الرابع الميلادي، نقـل عاصمة الإمبراطورية إلى بيزنطة وجعل المسيحية الديانة الرسمية.

كوبرنيكوس: راهب بولندي من النصف الأول للقرن السادس عشر، أطلق أول طرح أوروبي يقول بأن الأرض تدور حول الشمس.

كيرت إيزنر: ديمقراطي اجتماعي ألماني في ميونيخ، ساند التوجه الإصلاحي الاجتماعي عند برنستاين، لكنه عارض الحرب العالمية الأولى. جعله العمال والجنود الثوريون رئيسا لحكومة بافاريا في نوفمبر **1919**. قتله ضابط يميني.

لارجو كاباريللو: زعيم الحزب الشيوعي الإسباني، ووزير العمل **1931-1933**، وقد سُجِن بعد انتفاضة آستورياس في **1943**، وصار رئيسا الحكومة في **1936-1937**، وأجبر على الاستقالة في مايو **1937**.

لافاييت: جنرال فرنسي، ساعد المستعمرات الأمريكية في حرب الاستقلال، وكان شخصية حكومية مسيطرة في أول عامين من زمن الثورة الفرنسية، ونفي في عهد الجمهورية، وساعد لويس فيليب على أن يصبح ملكا في **1830**.

لودفيج فيورباخ: فيلسوف مادي ألماني من أربعينيات القرن التاسع عشر، اعتبر أن البشر خلقوا الرب، وليس العكس.

لورد بيفربروك: ماكس آيتكن، مليونير الصحافة البريطاني الكندي المولد، المليونير، والوزير في **1919** وفي **1940-1942**.

لويس أدولف تيير: وزير ملكي سابق، رئيس الجمهورية الثالثة في فرنسا في **1871**، وهو من نظم عملية سحق كومونة باريس.

لويس الرابع عشر: ملك فرنسي شهد حكمه تناميا هائلا في سلطة الملكية، وهو من بنى قصر فرساي.

لويس الخامس عشر: حاكم فرنسا طوال معظم النصف الأول من القرن الثامن عشر.

لويس بلانك: زعيم اشتراكي فرنسي من منتصف القرن التاسع عشر، آمن بمناهج إصلاحية من الدولة القائمة، ولعب دورا رئيسيا في الحكومة الجمهورية في فبراير- يونيو **1848**.

لويس بونابرت (يعرف أيضا بنابليون الثالث): ابن أخ نابليون بونابرت (نابليون الأول)، انتخب رئيسا لفرنسا **1848**، وأصبح إمبراطورا في **1852-1870**.

لويس سان جوست: أحد الرفاق المقربين إلى روبسبيير إبان الثورة الفرنسية الكبرى. أُعْدِم بعد تيرميدور وهو في عمر السابعة والعشرين. اشتُهِر بعبارته" من يطلقون نصف ثورة يحفرون قبورهم بأيديهم".

ليو شاو كي (ليو شاو تشي): قيادي شيوعي صيني من أواخر العشرينيات. أصبح رئيسا بعد **1962**. أزيح عن منصبه وأُهين إبان الثورة الثقافية **1966-1967**.

ليندون بينزجونسون: رئيس الولايات المتحدة 1963-1968.

ليون بلوم: زعيم الحزب الاشتراكي الفرنسي، ورئيس حكومات الجبهة الشعبية (1936-1937). سُجِن في ألمانيا، إبان الحرب العالمية الثانية.

ليون تروتسكي: ثوري روسي من أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر، رئيس سوفيت بطرسبورج في 1905، وبقي معارضا للينين حتى انضم للبلاشفة في 1917، وهو منظم عصيان أكتوبر ومؤسس الجيش الأحمر، وقد عارض الستالينية ونُفِي من روسيا في 1929واغتاله أحد عملاء ستالين في 1940.

ليونيد بريجنيف: حاكم الاتحاد السوفيتي من 1964 وحتى 1982، وهي فترة تميزت بتعاظم القمع المركزي، وأيضا بتنامي الركود الاقتصادي.

نيقولاي بوخارين: زعيم بلشفي ومُنَظِّر روسي. تحالف مع ستالين في منتصف العشرينيات، وأعدمه ستالين في1937.

مارتن لوثر: راهب ألماني منشق قاد القطيعة البروتستانتية مع روما بعد 1517.

ماو تزا دونج (ماوتسي تونج): زعيم الحزب الشيوعي الصيني من أوائل الثلاثينيات، والمهيمن على الحكم في الصين بعد 1949. أصبح مجرد زعيم شكلي في 1962-1966. استعاد كامل نفوذه مع "الثورة الثقافية". توفي في 1975.

ماري أنطوانيت: أميرة نمسوية وملكة لفرنسا أعدمتها الثورة.

ماري تيودور (ماري الدموية، أو'Bloody Mary'): ملكة إنجلترا وزوجة فيليب الثاني ملك إسبانيا، التي حاولت إعادة فرض الكاثوليكية الرومانية في إنجلترا في منتصف القرن السادس عشر.

ماري ستيوارت: ملكة اسكتلندا التي أعدمتها الملكة الإنجليزية إليزابيث الأولى.

ماريوس: جنرال استخدم تأييد الفقراء له ليصعد للسلطة في روما في العام مائة قبل الميلاد.

ماكس فيبر: عالم اجتماع ألماني من بدايات القرن العشرين.

ماكسميليان روبسبيير: محام من آرا في شمال فرنسا، قاد القسم الأكثر ثورية من "اليعاقبة" بين البورجوازيين في **1789-1794** عندما أُعدِم.

مايكل كولينز: الزعيـــم العسكري لقوات حرب العصابـــات الإيرلندية التي حاربت بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى. قبل بمعاهدة مع بريطانيا قضت بتقسيم إيرلندا في **1921**. وقتل وهو على رأس القوات المؤيدة للمعاهدة في **1922**.

محمد أحمد المهدي: زعيم التمرد السوداني ضد الحكم البريطاني لمصر في ثمانينيات القرن التاسع عشر.

ملتون فريدمان: أحد اقتصاديي حرية السوق، وصاحب عقيدة "نقدية" مفادها أن السيطرة الحكومية الرشيدة على الإمدادات النقدية يجعل وقوع الأزمات مستحيلا.

مهاتما غاندي: محام درس في لندن واعتاد ارتداء ملابس الفلاحين ليقود الحركة الوطنية الهندية بعد الحرب العالمية الأولى. عارض أساليب العنف والإضرابات التي كان يمكن أن تؤثر على الرأسماليين الهنود، واغتاله شوفيني هندوسي في **1948**. وليس من أقارب إنديرا غاندي.

موريس توريز: زعيم الحزب الشيوعي الفرنسي من أواخر العشرينيات، ونائب رئيس وزراء فرنسا **1945-1947**.

موكتيزوما (أو مونتيزوما): حاكم الآزتيك الذي هزمه الإسبان.

ميديتشي: اسم عائلة تجار ومصرفيين سيطروا على الحياة في فلورنسا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. كانوا رعاة كثير من فناني النهضة. جاء منهم اثنان من الباباوات، وملكة لفرنسا في القرن السادس عشر.

ميجويل هيدالجو: قس مكسيكي قاد انتفاضة ضد الإسبان في **1810** وقتل بالرصاص في **1811**.

نيكولو ماكيافيللي: موظف بالخدمة المدنية في فلورنسا حوالي العام **1500** وقد اشتهر بكتابه "الأمير" الذي يبدو تمجيدا لمعظم المناهج السياسية التي لا يحكمها وازع من ضمير.

نيكيتا خروشتشيف: سيد ستاليني سابق لأوكرانيا أصبح زعيما للاتحاد السوفيتي، بعد وفاة ستالين في **1953** بوقت قصير. ندد بستالين في **1956** وفي **1958**. سحق الثورة الهنجارية في **1956**. أزاحه بريجنيف عن منصبه في **1964**.

هرناندو كورتيز: قاد الحملة الإسبانية التي أخضعت المكسيك في عشرينيات القرن السادس عشر.

هلفيتيوس: فيلسوف مادي فرنسي من القرن الثامن عشر، يعد جزءا من حركة التنوير.

هنري فورد: مؤسس شركة فورد للسيارات، الذي أقام أول مصنع لتجميع السيارات في العالم، وهو خصم عنيد للحركات النقابية، وتعاطف مع هتلر في الثلاثينيات.

هنري كيسنجر: مسئول السياسة الخارجية لدى الإدارتين الجمهوريتين للولايات المتحدة **1968-1976**. مجرم حرب حاز جائزة نوبل للسلام.

هوتشي مينه: قائد شيوعي فيتنامي من عشرينيات القرن العشرين. قاد مقاومة فييتمينه ضد الحكم الكولونيالي الياباني والفرنسي، وصار حاكم فيتنام بعد **1954** ورمز مقاومة الأمريكيين في الستينيات وأوائل السبعينيات، وصار حاكما لعموم فيتنام في **1975**.

هيربرت جورج ويلز: روائي إنجليزي شعبي من ثمانينيات القرن التاسع عشر لأربعينيات العشرين، ورائد لقصص الخيال العلمي، ومؤلف لأعمال تبسيطية للعلم والتاريخ.

هيربرت ماركيوز: فيلسوف ماركسي ألماني عاش في الولايات المتحدة بعد صعود هتلر إلى السلطة. مصدر إلهام لكثير من الأفكار اليسارية في **1968**.

هينريش برونِنج: زعيم حزب الوسط الكاثوليكي الألماني والمستشار في **1930-1932**.

واو

والنستاين (أو والدستاين): قائد عموم الجيوش الإمبراطورية في الجزء الأول من حرب الثلاثين عاما. اغتيل بأوامر من الإمبراطور وهو في قمة نجاحه.

ولنجتون (دوق): قائد الجيوش البريطانية في الحرب في شبه جزيرة أيبيريا وفي معركة ووترلو ضد نابليون، أصبح فيما بعد رئيس حكومة حزب المحافظين.

وليم جلادستون: الشخصية المسيطرة على الحزب الليبرالي، باعتباره الحزب الرئيسي لرأس المال الصناعي في القرن التاسع عشر في بريطانيا.

وليم ولبرفورس: نائب في البرلمان الإنجليزي قاد حملة في البرلمان ضد تجارة الرقيق في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر.

وودرو ويلسون: الرئيس الأمريكي **1913-1921**

وينستون تشيرشل: سياسي بريطاني من النصف الأول للقرن العشرين.

يوليوس قيصر: مناصر سابق لماريوس الذي هزم الغال، ثم حاز تأييدا من الفقراء عندما تولى سلطات ديكتاتورية في العام التاسع والأربعين قبل الميلاد، قبل اغتياله بأربع سنوات. تحمس للسيطرة الإمبريالية على إفريقيا والهند، وصار وزيرا في الحكومة الليبرالية قبل الحرب، وفي حكومات المحافظين في العشرينيات. وقد بقي على يمين المحافظين، لكنه اعتبر هتلر خطرا على الإمبراطورية البريطانية. تولى رئاسة الحكومة البريطانية إبان الحرب العالمية الثانية، وعاد لرئاسة الحكومة في مطالع الخمسينيات.

يوهان فولفجانج فون جوته: الشاعر والكاتب المسرحي والروائي الأول في ألمانيا في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر.

مسرد الأماكن والمواقع

آراجون: منطقة البر الرئيسي في شمال شرق الدولة الإسبانية. ومملكة ضمت كاتالونيا في نهايات القرون الوسطى وبدايات العصر الحديث.

أرمينيا: منطقة في شرقي آسيا الصغرى، بين البحرين الأسود وقزوين. وهو الاسم الراهن لجمهورية أرمينيا السوفيتية السابقة.

آسيا الصغرى: الجزء الآسيوي من تركيا المعاصرة، وغالبا ما يدعى الأناضول.

إسبرطة: دولة – مدينة على البر الجنوبي لليونان القديمة، وهي المنافس التاريخي لأثينا.

آشور: مساحة من المنطقة التي هي اليوم تركيا الجنوبية، مركز لإمبراطورية شرق أوسطية عظيمة في القرن السابع قبل الميلاد.

أغرة: مدينة هندية جنوبي دلهي، حيث يوجد تاج محل.

الجيزة: مدينة غربي مدينة القاهرة المعاصرة، حيث شيدت أكبر الأهرامات المصرية.

الأراضي الواطئة: منطقة تشمل ما يعرف اليوم ببلجيكا وهولندا.

الألزاس واللورين: منطقة هي الآن في شمال شرق فرنسا، لكن ألمانيا ضمتها بين ١٨٧١ و ١٩١، وبين ١٩٤٠ و١٩٤٤.

الإمبراطورية الرومانية المقدسة: إمبراطورية نشأت في الأصل على يد شارلمان في القرن التاسع الميلادي. بقيت كمجموعة من المناطق المنفصلة، في ألمانيا، وأوروبا الشرقية، وإيطاليا حتى القرن التاسع عشر، حين صارت تعرف باسم الإمبراطورية النمسوية ثم باسم الإمبراطورية النمسوية – الهنجارية.

الإنكا الكبير: من أسماء إمبراطور الإنكا.

الأيوني: البحر الواقع غربي اليونان وما فيه من جزر.

الرور: منطقة في ألمانيا، شمال الراينلند وقريبة من الحدود البلجيكية، وهي المركز الرئيسي للثورة الصناعية الألمانية.

الزابوتيك Zapotecs: مؤسسو حضارة مونتي آلبا في جنوب المكسيك في العام ٥٠٠ الميلادي.

الزرادشتية: ديانة ظهرت في إيران قبل أن ينتشر فيها الإسلام، وهي تقول بصراع أبدي بين الخير والشر، ولها وجود بين عدد من التجمعات البارسية الصغيرة في شبه القارة الهندية.

ألستر: المقاطعات الشمالية التسع، التي استخدمها الموالون لبريطانيا لوصف دولة قامت على ست مقاطعات في ١٩٢١.

الفلاندرز: الاسم الذي كان يطلق في القرون الوسطى على غرب بلجيكا، حول جنت وبروجيس والشريحة الشمالية من فرنسا بين ليل ودنكرك. ويطلق هذا الاسم في أيامنا هذه على المنطقة التي تمثل نصف بلجيكا والتي يتحدث سكانها بلغة هي نسخة من الهولندية تدعى "الفلامنكية".

المدن الهانزياتيكية: موانئ ألمانية على بحر الشمال والبلطيق في نهايات القرون الوسطى.

المغرب: منطقة في شمال إفريقيا تشمل المملكة المغربية، والجزائر، وتونس.

النهر الأصفر: نهر عظيم باتجاه الجنوب، ثم من الغرب إلى الشرق عبر الصين الشمالية. مركز الحضارات الأولى في الصين. غير مجراه، محدثا آثار اكارثية، عبر التاريخ.

النوبة: منطقة في جنوب مصر وشمال السودان.

الهلال الخصيب: منطقة في الشرق الأوسط تشمل فلسطين، ولبنان، وشمال سوريا، ومعظم العراق.

الهند الصينية: منطقة تشمل فيتنام، وكمبوديا، ولاوس.

أمريكا الوسطى: منطقة تشمل المكسيك وجواتيمالا.

أوروك: دولة – مدينة في الألفية الثالثة قبل الميلاد فيما بين النهرين.

إيجة: البحر والجزر شرقي اليونان وجنوبيها الشرقي. ويستخدم اللفظ في بعض الأحيان للإشارة إلى حضارة عصر البرونز في بر اليونان الرئيسي.

بالاتين: منطقة في غرب ألمانيا، وكانت إمارة أيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

بروسيا: مملكة في شرق ألمانيا مركزها برلين، أصبح حاكمها إمبراطور ألمانيا في ١٨٧٠. وبروسيا هو اسم أكبر ولاية في ألمانيا حتى ١٩٤٥.

بوهيميا: النصف الشمالي الغربي من جمهورية التشيك اليوم، وعاصمتها براغ. بقيت بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر مركزا مهما (أغلب سكانه يتحدثون الألمانية) للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

بيرجندي: منطقة في الشمال والشرق من فرنسا كادت تصبح دولة مستقلة في القرن الخامس عشر.

بيزنطة: مدينة على مساحة من الماء تصل البحر المتوسط بالبحر الأسود. وفي القرن الرابع صارت تُدْعى القسطنطينية، ومن نهايات القرن الخامس عشر وهي تدعى إسطنبول. واسم بيزنطة يطلق أيضا على المناطق الناطقة باليونانية من بقايا الإمبراطورية الرومانية بين القرنين الخامس والخامس عشر.

بييدمونت: منطقة في شمال إيطاليا حول تورينو، حكمها ملك صار ملكا لإيطاليا في نهاية ستينيات القرن التاسع عشر.

ترانسلفانيا: منطقة جبلية بين هنجاريا ورومانيا المعاصرتين، وتطالب الاثنتان بملكيتها.

تشارلستون: مدينة وميناء مهم في ساوث كارولينا الأمريكية.

تشين: أسرة ملكية مستتركة حكمت النصف الشمالي من الصين في القرن الثاني عشر الميلادي.

تنوكتيتلان: عاصمة الآزتيك، أعاد الغزاة الإسبان تشييدها باسم مكسيكو سيتي.

تيوتيهواكان: مدينة، واسم حضارة نشأت في القرون الأولى بعد الميلاد قرب ما يعرف اليوم بمكسيكو سيتي.

ثورينجيا: منطقة وسط ألمانيا.

راينلند: منطقة جنوب غرب ألمانيا، ملاصقة للحدود الفرنسية والبلجيكية.

سان دومينجو: اسم هاييتي قبل ثورة العبيد في تسعينيات القرن الثامن عشر.

سقارة: تبعد عدة أميال جنوب شرق القاهرة المعاصرة، حيث قامت أقدم الأهرامات والمقابر.

سمرقند: مدينة تجارية مهمة في وسط آسيا، طوال القرون الوسطى.

سومر: اسم لحضارة ما بين النهرين في القرن الثالث قبل الميلاد.

سيليجا: منطقة في جنوب ما يعرف اليوم ببولندا. بقيت متنازعا عليها بين البولنديين والألمان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

شبه جزيرة إيبيريا: اسم يطلق على إسبانيا والبرتغال.

طيبة: مدينة مصرية قديمة، عاصمة المملكتين الوسطى والحديثة، قريبة مما يعرف اليوم بمدينة الأقصر (والمثير للارتباك أن هذا أيضا هو اسم دولة – مدينة في اليونان القديمة).

غرناطة: أكبر مدينة مسلمة في إسبانيا تسقط بيد الملكية الإسبانية.

فالمي: مكان في شمال فرنسا، حيث كسب جيش الثورة المعركة الأولى ضد الغزاة الملكيين في ١٧٩٢.

فرساي: بلدة خارج باريس حيث أنشأ لويس الرابع عشر قصرا عظيما. مركز القوة التي جرى توجيهها ضد كومونة باريس في ١٨٧١. وهي مكان انعقاد المؤتمر الذي قسم العالم على هوى بريطانيا وفرنسا عقب الحرب العالمية الأولى.

فينيقية: اسم ساحل لبنان في العالم القديم.

قرطبة: مدينة إسبانية كانت مركز الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى وهو أيضا اسم مدينة أرجنتينية.

كتالونيا: منطقة في الشمال الشرقي للدولة الإسبانية، تمتد جنوبا من الحدود الفرنسية، ولها لغتها الخاصة. كانت كيانا منفصلا في القرون الوسطى، ضم أجزاء من جنوب فرنسا. وفي القرن العشرين، نشأت فيها حركة وطنية قوية، ولها اليوم برلمانها الخاص بها داخل الدولة الإسبانية.

كاستيل: المنطقة الوسطى في إسبانيا، حيث نشأت اللغة والدولة الإسبانيتان.

كمبوتشيا: كمبوديا.

لاجاش: دولة- مدينة في منطقة مابين النهرين في الألفية الثالثة قبل الميلاد.

ما بين النهرين: الاسم القديم لما هو اليوم العراق. وتعني وادي نهري الفرات ودجلة.

مجلس طبقات الأمة: مجلس يضم ممثلي الأقسام الثلاثة للسكان في ظل الملك الفرنسي قبل الثورة - النبلاء، والإكليروس، وغيرهم - انعقد في ١٧٨٩ لأول مرة منذ مائة وخمسة وسبعين عاما.

مضايق هلسبونت: غرب إسطنبول، وتصل المتوسط بالبحر الأسود، وهي تدعى أيضا الدردنيل.

مقدونيا: منطقة في البلقان شمالي اليونان.

مكة: مدينة تجارية في غرب شبه جزيرة العرب. مسقط رأس النبي (محمد) وأكثر المدن قداسة عند المسلمين، وهي اليوم في المملكة العربية السعودية.

مهاجدا: ولاية في شمال الهند في القرن السادس قبل الميلاد، كانت بداية الإمبراطورية الماوريانية.

موهنجو- ديرو: مدينة في وادي الهندوس في الألفية الثالثة قبل الميلاد.

نانكينج: مدينة صينية عند أعالي نهر يانجتسي في اتجاه شنجهاي.

نوسوس: موقع لقصر من حضارة كريت في الفترة من العام ألفين للعام ألف وخمسمائة قبل الميلاد.

نيو لانارك: مدينة قـــرب جلاسجو حيث أقـــام روبـــرت أويـــن المصانـــع "النموذجية".

هارابا: مدينة في الألفية الثالثة قبل الميلاد في وادي الهندوس.

هسبانيولا: اسم لجزيرة في الكاريبي تشمل هايتي المعاصرة وجمهورية الدومينيكان.

وادي المكسيك: المنطقة المحيطة بمكسيكو سيتي المعاصرة، وهي مركز حضارة التيوتيهواكان والأزتك.

وادي الهندوس: هو اليوم القسم الشرقي من باكستان، القريب من الحدود الهندية.

ووترلو: قريةٍ في فرنسا شهدت الهزيمة النهائية لنابليون في ١٨١٥. ولا يجب الخلط بينها وبين محطة السكة الحديد التي تحمل الاسم ذاته في لندن.

يانجتسي: نهر عظيم يمتد من الغرب إلى الشرق عبر وسط الصين، ليصب في البحر عند شنجهاي.

مسرد المصطلحات

آريون: شعوب غزت شمال الهند حوالي العام ١٥٠٠ قبل الميلاد، وكانوا ينطقون بلسان هندو – أوروبي، ويتعين التمييز بينهم وبين أتباع الآريانية، وهي هرطقة مسيحية انتشرت في القرن الخامس.

إزفستيا: صحيفة أنشأتها سوفيتات العمال في روسيا في ١٩١٧. وهي منذ العشرينيات وحتى نهاية الثمانينيات لسان حال الحكومة السوفيتية.

الآريانية Arianism: نحلة مسيحية واسعة التأثير في القرن الخامس الميلادي، واختلفت مع الكاثوليكية في تأويل الثالوث.

الأبوية/ البطريركية Patriarchy: اسم مجتمع تتمحور بنيته حول العائلة التي يسيطر عليها أكبر الذكور سنا، ممن يقررون لغيرهم من الذكور، والإناث، والخدم ما يتعين عليهم فعله. ويسيء دعاة النسوية استخدام المصطلح بإطلاقه على كل نظام اجتماعي يقمع المرأة.

الأفلاطونية: رؤية تعتبر العالم المادي صورة ناقصة من العالم المثالي.

الاتحاد السوفيتي (اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية): الاسم الذي اتخذته لنفسها في ١٩٢٤ الجمهوريات التي كونت فيما سبق الإمبراطورية الروسية، ثم صارت الإمبراطورية الستالينية التي حُلَّت في ١٩٩١.

الاتحاد العام للشغيلة UGT: التنظيم النقابي لِعمال إسبانيا الخاضع لنفوذ الحزب الاشتراكي.

الاتحاديون Unionists: مؤيدو الحكم البريطاني في إيرلندا.

الأتراكويستيون Utraquists: طائفة دينية تقوم على المبادئ الهوسية (انظر هوسية Hussites، أدناه) في بوهيميا، وهي طائفة لم تعط الراهب أي مكانة خاصة في القداس.

الاشتراكية الطوبوية: مجموعة مذاهب ظهرت في القرن التاسع عشر وتقول بضرورة تنظيم المجتمع على أسس تعاونية مخطط لها، ولكن من دون ثورة، بل عبر العثور على حاكم خيِّر أو بإقامة جماعات تعاونية- وارتبطت هذه المبادئ في فرنسا بالكونت سان سيمون وبشارل فورييه، وفي بريطانيا بروبرت أوين.

الأقنان: فلاحون نصف أحرار، يفلحون جزءا من الأرض لأنفسهم، لكنهم مجبرون على تأمين أمور منها العمل بغير أجر، والسلع العينية، والمدفوعات النقدية لسيد غير مسموح لهم بمفارقة أرضه.

الألتراس Ultras: هو أقصى اليمين ويتعين تمييزه عن '**ultra-left**' وهو مصطلح يشير لأقصى اليسار.

الأممية الشيوعية (كومنترن): منظمة دولية مركزية للأحزاب الثورية- أنشئت في ١٩١٩، وبقيت تحت سيطرة ستالين من منتصف العشرينيات وحتى تفكيكها إبان الحرب العالمية الثانية.

الأمويون: سلالة حكمت الشرق الأوسط من منتصف القرن السابع لمنتصف القرن الثامن الميلاديين.

الأولميك Olmecs: أولى حضارات المكسيك وجواتيمالا، نشأت في الألفية الأولى قبل الميلاد.

الأوليجاركية Oligarchy: لفظة يونانية تعني "حكم الأقلية".

البروليتاريون Proletarians: أصلا، هو اسم سكان روما القديمة المعدمين. وفي العصر الحديث هو اسم أطلقه كارل ماركس على العاملين بأجر.

البستنة Horticulture: أبسط أشكال الزراعة، باستخدام أدوات خفيفة لحفر التربة وجرفها.

البـــورجوازيـــة الصغيـــرة (bourgeoisie Petty bourgeoisie or petite): أُطلقت أساســا على أصحـــاب الدكاكين، والحرفييـــن، والمزارعين الرأسمـــاليين الصغار، وما إلى ذلك. وجرى التوسع فيها لتشمل المهن الحرة والدرجات الإدارية الوسطى، في أوساط المستخدمين أصحاب الياقات البيضاء.

البويـــر: المستوطنـــون البيض الناطـــقون بالهولندية في إفريقيا الجنوبيـــة، ويسمون أيضا آفريكانر.

البيرجريون: المتمعون بمواطنة كاملة في المدن في القرون الوسطى وفي مطالع الأزمنة الحديثة، وغالبا ما كانوا تجارا أو حرفيين مستقلين. ويدعوْن أحيانا "بيرجسيين" في إنجلترا، وهي أصل الكلمة الفرنسية "بورجوازية".

التزويد Putting-out: نظام كان يقضي بأن يزود التجارُ الحرفيين المستقلين بالمواد الخام والأدوات، مقابل السيطرة على إنتاجهم، ما مكن التجار من تحقيق ربحية، وكانت خطوة على الطريق نحو الرأسمالية المكتملة النمو.

التفتيش Inquisition: مؤسسة من مؤسسات الكنيسة الكاثوليكية في أواخر القرون الوسطى ومطالع العصر الحديث، غرضها اقتلاع الهرطقات.

التنسيب Lineage: نوع من التنظيم الاجتماعي يحدد مراتب الناس على أساس علاقات الدم – ويدعى أيضا نظام "العشائر" أو "الزمر".

التنوير: تيار ثقافي في القرن الثامن عشر حاول أن يستبدل بالخرافة التفكير العلمي، وارتبط هذا التيار بفولتير، وديدرو، وروسو، وهيوم، وجيبون.

الثورة الحَضَرِيَّة: مصطلح يشير إلى تحول مجتمعي أدى لنشوء الطبقات، والدولة، والمدن، وغالبا ما أدى أيضا لنشوء الصناعات المعدنية والكتابة.

الجبهة الشعبية: محاولة استلهمت روسيا الستالينيـــة لخلق ائتلافات بين أحزاب عمالية وأخرى "بورجوازية تقدمية"، في الثلاثينيات وما بعدها.

الجبهة المتحدة United Front: الاتحاد التكتيكي، لأغراض دفاعية، بين الأحزاب والنقابات العمالية الثورية وغير الثورية، وهي صيغة وضعها لينين وتروتسكي في ١٩٢٠-١٩٢١.

الجيرونديون: الجناح الأقل ثورية في نادي اليعاقبة في الثورة الفرنسية في ١٧٩١-١٧٩٢، وهم ألد أعداء روبسبيير.

الجيزويت/ اليسوعيون (جمعية يسوع): رهبانية تأسست في منتصف القرن السادس عشر لمناهضة الإصلاح الديني. اعتبرها البروتستانت والمفكرون الأحرار من الملاحدة والغنوصيين والعقلانيين، على السواء، وحتى القرن العشرين، مركزا لردة دينية. وقد أصبحت، لفترة وجيزة، أداة بيد "لاهوت التحرير" بعد الستينيات، وحتى استبعطالها التطهير البابوي.

الجيش النموذجي الحديث: قوات البرلمانيين التي أعيد تنظيمها وهزمت الملكيين في الحرب الأهلية الإنجليزية ثم قاموا بالثورة الإنجليزية في ١٦٤٩.

الحرس الوطني: قوات من المتطوعين الذين جُنِّدوا من الطبقات الوسطى في فرنسا في تسعينيات القرن الثامن عشر، وفي أوروبا في القرن التاسع عشر، وتحولت إلى قوة من الطبقة العاملة إبان حصار باريس في ١٨٧٠-١٨٧١.

الحرس الهتلري/ سرايا الحمايـــة SS Schutzstaffel: تطــورت إلـــى أن صارت العمود الفقري للنظام النازي، والمسئولة عن معسكرات الموت.

الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني SPD: [اندمج الاتحاد العام للعمال الألمان مع الحزب الاجتماعي الديمقراطي للعمال، في ١٨٧٥ تحت اسم حزب العمال الاشتراكي الألماني، لكن القوانين المناهضة للاشتراكية فرضت قيودا على حركته لم ترفع إلا في ١٨٩٠ فعاد للنشاط تحت اسم "الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني – المترجم].

الحكم المطلق/ الملكية المطلقة: نظم ملكية قوية وجدت في بلدان مثل فرنسا، وإسبانيا، وبروسيا، والنمسا، وروسيا من انتصاف القرن السابع عشر وما بعده.

الحِرَفي: اسم قديم لمن لا يعمل عند أحد من أصحاب المهارة في الحرف اليدوية.

الحزب الثوري الاجتماعي: حزب روسي في الربع الأول من القرن، زعم أن قاعدته فلاحية، وقادته الفعليون كانوا من المحامين.

الحزب الراديكالي: الحزب الرئيسي في فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية.

الحكم الذاتي Home Rule: مشروع بريطاني لنقل بعض السلطات لبرلمان لأيرلندا الموحدة.

الحكومة المؤقتة: حكومة غير منتخبة حكمت روسيا بين فبراير وأكتوبر ١٩١٧.

الخيَّالة Equites: اسم لمجموعات من الأغنياء الجدد الذين استبعدهم كبار الأثرياء من السلطة في روما، في القرن الأول قبل الميلاد.

الدوما: البرلمان في روسيا قبل الثورة، وكان ينتخب على أسس غير ديمقراطية.

الديمقراطيون الاجتماعيون المستقلون (المستقلون): الاشتراكيون البرلمانيون المنشقون على الحركة الديمقراطية الاجتماعية في الحرب العالمية الأولى. انضم نصفهم للشيوعيين في ١٩٢٠ وعاد النصف الآخر للحزب الديمقراطي الاجتماعي الرئيسي.

الرعويون Pastoralists: المجتمعات التي تعيش على تربية قطعان الماشية، والغنم، والإبل، واللاما.

الرماديات Grisettes: تعبير عامي يشار به لنساء الطبقة العاملة في القرن التاسع عشر.

الرياسية: مصطلح يطلقه الأنثروبولوجيون على مجتمع يتمتع فيه بعض الأفراد بمواقع أعلى من غيرهم، من دون تقسيمات واضحة إلى طبقات وفئات اجتماعية منفصلة.

السامية: عائلة لغات نشأت في الشرق الأوسط منها العبرية، والعربية، والآرامية. وغالبا ما يشار بهذا المصطلح لشعوب نشأت في الشرق الأوسط، وخاصة اليهود، وجاء منها مصطلح "معاداة السامية".

السان كيلوت Sans culottes: القسم الأشد فقرا بين السكان في فرنسا، أيام الثورة، وكانوا في الأساس من الحرفيين وعائلاتهم، وأيضا من العمال.

الستالينية: تأييد سياسات ستالين ومناهجه. وبشكل أعم فالمصطلح يعني نظام رأسمالية الدولة الذي كان قائما في روسيا وأوروبا الشرقية حتى ١٩٨٩-١٩٩١.

السونج: حكام عموم الصين من ٩٦٠ وحتى ١١٢٧ ثم حكام جنوب الصين فقط ابتداء من ١٢٧٩.

السياسة الاقتصادية الجديدة (NEP): آليات السوق في روسيا بين ١٩٢١ و١٩٢٨.

السيخية Sikhism: ديانة في شمال الهند، تأسست في القرن السادس عشر، اعتراضا على نظام الطوائف، وكمحاولة للتوحيد بين الهندوسية والإسلام.

الشودر Sudras: طائفة هندية ترتبط بالكدح في الحقول، ويأتون بعد الهبان، والمحاربين، والزراع، ضمن نظام الطوائف الأربع، وليس دونهم سوى المنبوذين.

الصاحبيون Quakers: في الأصل، طائفة ثورية في زمن الثورة الإنجليزية، ثم أصبحوا مسيحيين سلاميين. قلة منهم تعاظم ثراؤها وسيطروا على مستعمرة بنسلفانيا الأمريكية.

الصباحية Journée: مصطلح يشير إلى تعبيئة جماهير باريس [صباح ٢٠ يونية ١٧٩٢ – المترجم] للتمرد، أثناء الثورة الفرنسية.

الطائفة (caste): نوع من التنظيم الاجتماعي، يولد الناس فيه ضمن فئة محددة، لا يملكون (نظريا) الفكاك منها. ويرتبط المصطلح بالهندوسية. وغالبا ما تتقاطع تراتبية الطوائف مع التراتبية الطبقية، واليوم لا يكون كل المنتمين للطوائف العليا في الهند أثرياء، وإن كانت الغالبية الساحقة بين المنتمين للطوائف الدنيا فقراء.

الطبقات الاجتماعية Estates: مصطلح يشير لشرائح اجتماعية حددها القانون وحدد لها مختلف الحقوق والمسئوليات القانونية – اللوردات، والفرسان، والبيرجريون، على سبيل المثال، في أوروبا في القرون الوسطى، والنبلاء،

والإكليروس، وغيرهم في فرنسا قبل الثورة. ويستخدم هذا المصطلح في بعض الأحيان لوصف هيئات برلمانية الطابع، احتوت على ممثلي الجماعات المختلفة (كما في بوهيميا إبان حرب السنوات الثلاثين).

العاصفة SA: العاصفة **Stormtrooper** هي منظمة شبه عسكرية ألمانية نازية.

العامل البارع Journeymen: العامل البارع في الورشة في أواخر القرون الوسطى وبدايات العصر الحديث في أوروبا- الذي كان يفترض أن يصبح معلما له مشروعه المستقل، يوما ما.

العامة Plebeians: مواطنون عاديون في بواكير الجمهورية الرومانية كانوا يمتلكون قطع أرض صغيرة، واستخدم المصطلح بعد ذلك لوصف الأقسام الأشد فقرا بين سكان الحضر، أو ببساطة من نشأوا في طبقات دنيا.

العباسيون: السلالة التي حكمت الإمبراطورية الإسلامية في الشرق الأوسط من منتصف القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر الميلاديين، من دون سلطة حقيقية بعد القرن العاشر.

العثمانيون: قادة أتراك انتزعوا آسيا الصغرى من الإمبراطوريات المسلمة ومن البيزنطيين على السواء، في أواخر القرون الوسطى قبل أن يتوسعوا في كل أنحاء الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والبلقان.

العشاء الرباني: طقس مسيحي يعطي فيه القس النبيذ والخبز لشعب كنيسته، ويعتقد الكاثوليك واللوثريون (ويخالفهم الكالفينيون) أن هذا يشمل تناول "دم المسيح وجسده". وتسبب ذلك بخلافات كبرى في زمن الإصلاح الديني.

العشور Tithes: نوع من الضرائب التي يدفعها الفلاحون والحرفيون للكنيسة، وغالبا ما كانت تصب في جيوب النبلاء.

العصر البرونزي: مصطلح يستخدم أحيانا لوصف مرحلة الثورة الحضرية في أوراسيا وإفريقيا.

الغال: الاسم الروماني لما هو اليوم فرنسا، بما فيها شريحة من شمال إيطاليا.

الفاطميون: سلالة حكمت مصر بين القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين.

الفلانج/الكتائب Falange: اسم حملته في إسبانيا ولبنان حركتان استلهمتا الفاشيين.

الفوراجية Foraging: اسم أفضل لاقتصاد الصيد وجمع الثمار.

الفوضوية – السنديكالية: حركة تمزج بين مناهج نقابية نضالية وأفكار فوضوية.

الفونوغراف: هو جهاز تسجيل وإعادة الصوت الذي سبق الجراموفون والريكوردر.

فانديه Vendée: منطقة في غرب فرنسا نشب فيها تمرد ملكي ضد الثورة في ١٧٩٢.

الفيدية Vedic: أصل الديانة الهندوسية المعاصرة، وكانت تقوم بتقديم أضحيات من الماشية.

الفيثاغورثية: مأخوذة من اسم عالم رياضيات إغريقي قديم، اعتبر أن للأرقام والمعادلات الرياضية قوة سحرية.

الفيدرالية الوطنية للشغل CNT: اتحاد نقابات عمالية يقوده الفوضويون السنديكاليون في إسبانيا.

القنانة الثانية Second serfdom: إعادة فرض القنانة في أوروبا الشرقية منذ القرن السادس عشر، لتأمين الحبوب الغذائية التي باعها النبلاء في أسواق أوروبا الغربية.

القوطيون (والقوطيون الغربيون، والقوطيون الشرقيون، والفرانكيون/ الفرنجة): شعوب جرمانية أخضعت مناطق مختلفة من الإمبراطورية الرومانية السابقة في الغرب، في القرن الخامس الميلادي وما بعده.

القيصر Kaiser: الإمبراطور الألماني.

القين Chin: سلالة من عناصر مستتركة حكمت النصف الشمالي من الصين في القرن الثاني عشر الميلادي.

الكساد الكبير: فترة أزمات اقتصادية في أواخر السبعينيات وفي الثمانينيات من القرن التاسع عشر. ويستخدم المصطلح أيضا، في بعض الأحيان، للإشارة إلى ثلاثينيات القرن العشرين.

الكاديت: الحزب الديمقراطي الدستوري في روسيا قبل الثورة، المعادي للحكم القيصري المطلق وللحركة العمالية، على السواء.

الكافالبير: اسم يطلق على القوات الملكية في الحرب الأهلية الإنجليزية.

الكولاك Kulak: اسم روسي للمزارع الرأسمالي أو للفلاح الثري.

الكومنتانج: الحزب الوطني الصيني، وحكومة الصين في ١٩٢٧-١٩٤٩، ثم حكومة تايوان من ذلك الحين.

الكومونار: من شارك في كومونة باريس في ١٨٧١.

الكومونة: مصطلح كان يستخدم، غالبا، للإشارة إلى البلدة الأوروبية في القرون الوسطى، أو للمجلس الذي يديرها. وقد استُخدِم للإشارة إلى مجلس مدينة

باريس إبان الثورة في الفترة ١٧٨٩-١٧٩٥، واستُخدم للإشارة إلى اللجنة الثورية المنتخبة التي أدارت المدينة نيابة عن العمال في ١٨٧١. واستُخدِم لوصف المزارع "الجماعية" (كانت تديرها الدولة، في الواقع) في الصين، في نهاية الخمسينيات وفي الستينيات من القرن العشرين.

الكونفدرالية العامة للشغل (CGT): اتحاد نقابات العمال الرئيسي في فرنسا، أسسه السندكاليون قبل الحرب العالمية الأولى، ويقوده الحزب الشيوعي منذ الحرب العالمية الثانية.

الكونفوشيوسية: أيديولوجية سادت بين طبقات البيروقراطيين وملاك الأراضي معظم الألفي سنة الأخيرة، في الصين.

الليبراليون الوطنيون: قسم من الليبراليين الألمان السابقين الذين ساندهم كبار رجال الأعمال، وهذا القسم أيد النظام الإمبريالي بعد ١٨٧١. وقد أصبحوا حزب الشعب بعد ثورة ١٩١٨.

المايا: سكان جنوب المكسيك وجواتيمالا الذين أقاموا حضارة منذ العام ٧٠٠ قبل الميلاد.

المسألة الشرقية: مشكلة طرحتها القوى الكبرى عبر عملية إضعاف وتفتيت مطولة للإمبراطورية التركية في مناطق البلقان والبحر الأسود.

المستقلون: اسم أُطلق على مجموعة "اكسبوا الحرب" المحيطة بكرومويل إبان الحرب الأهلية الإنجليزية. انظر أيضا "الديمقراطيون الاجتماعيون المستقلون".

المُسيَّجات: قطع من أراض زراعية كانت مفتوحة وأراض مشاع، وجرى تسييجها عندما أقام ملاك الأراضي والمزارعون الرأسماليون أسوارا قصدوا بها إجبار الفلاحين الفقراء على الاختيار بين النزوح إلى المدن أو القبول بالعمل كأجراء زراعيين.

المسينية Mycenae: حضارة في الأقسام الجنوبية من بر اليونان حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد.

المرحلة الثالثة Third period: سياسة ستالينية تقضي بأن تتعامل الأحزاب الشيوعية مع الاشتراكيين والنقابات باعتبارهم "فاشيين اجتماعيين".

المشيخيون Presbyterians: اسم يطلق على البروتستانت الكالفينيين الاسكتلنديين، كما يطلق على مؤيدي البرلمانيين في الحرب الأهلية الإنجليزية ممن أرادوا التوصل لصفقة مع الملكيين.

الملتزمون Tax farmers: اسم يطلق على متعاقدين أثرياء اتفقوا مع الحكومة على دفع مبلغ لخزينتها مقابل قيامهم بتحصيل الضرائب نيابة عن الدولة في روما القديمة، وفي الإمبراطورية العباسية، وبيزنطة، وفي فرنسا قبل الثورة، وفي أماكن أخرى.

المملكة الحديثة: مصر بين ١٥٥٠ و١٠٥٧ قبل الميلاد.

المملكة الوسطى: مصر في ٢٠٠٠-١٧٨٠ قبل الميلاد.

المملكة القديمة: الحضارة الأولى في مصر، من العام ٣٠٠٠ إلى العام ٢١٠٠ قبل الميلاد.

المناشفة: جناح من أجنحة الحركة الاشتراكية الروسية بعد ١٩٠٣ كان يميل للتعاون مع البورجوازية.

المنتخب: لقب بعض أمراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا [وقد انفرد هؤلاء عن بقية الأمراء بميزات عظيمة أهمها أنهم كانوا ينتخبون الإمبراطور -المترجم].

المهاجرون émigrés: لفظ يوصف به الأرستقراطيون الفارون للخارج ممن تآمروا على الثورة الفرنسية.

المواطنون السلبيون: من لا يملكون حق التصويت وفق قانون الأملاك في فرنسا في ١٧٩٠-١٧٩٢.

المواطنون الإيجابيون: رجال لهم حق الانتخاب وفق قانون الأملاك في فرنسا في ١٧٩٠-١٧٩٢.

الميكانيكيون: كلمة قديمة كانت تعني الحرفيين أو أصحاب الصناعات اليدوية.

النارودنيون: وتعني حرفيا "الشعبويين" وهم ثوريون روس قبل ١٩١٧ ركزوا على الفلاحين عوضا عن العمال.

النظام القديم: تعني في فرنسا نظام الدولة القديم وفي أوروبا النظام الاجتماعي السابق على الثورة الفرنسية.

النيوليثي: حرفيا "العصر الحجري الحديث"، الذي شهد استخدام أدوات مركبة، حجرية، وخشبية، وفخارية. والثورة النيوليثية، تمثلت بظهور نوع جديد من الحياة تأسس على استخدام هذه الأدوات، وشمل العيش في قرى كبيرة وظهور الزراعة البسيطة.

الهندو- أوروبية: مجموعة لغات تضم اليونانية، واللاتينية، والألمانية، والروسية، والسانسكريتية، والهندية، والأوردية، والفارسية، والكردية.

الهوجنوت Huguenots: بروتستانتيون فرنسيون من أتباع جون كالفين، جرى نفيهم من البلاد في القرن السابع عشر.

الهون Huns: أناس من الصين غزوا أوروبا وشمال الهند في أواخر القرن الرابع الميلادي وما بعده. واستقر بعضهم، بعد ذلك، في هنجاريا.

الهيئات الاجتماعية Estates: مصطلح يشير للشرائح الاجتماعية التي حددها القانون، وأناط بها حقوقا وواجبات مثل اللوردات، والفرسان، والبيرجريين في أوروبا القرون الوسطى، ومثل النبلاء، والإكليروس، وغيرهم في فرنسا قبل الثورة. ويستخدم المصطلح أيضا لوصف هيئات منتخبة من النوع البرلماني، شملت ممثلي مختلف الجماعات (كما في بوهيميا إبان حرب الأعوام الثلاثين، على سبيل المثال).

الهيئات العامة Estates-General: جمعية تألفت من ممثلي ثلاثة أقسام من السكان في فرنسا الملكية قبل الثورة، هم النبلاء والإكليروس والآخرون، وانعقدت هذه الجمعية في ١٧٨٩ لأول مرة منذ مائة وخمسة وسبعين عاما.

الهيجليون اليساريون: جماعات من المثقفين الليبراليين-الديمقراطيين في ألمانيا في خمسينيات القرن التاسع عشر، حولوا أفكار الفيلسوف المحافظ هيجل إلى أدوات لمناهضة الملكية البروسية.

الوجهاء Gentry: اسم أُطلِق على أصحاب الحيازات الزراعية الموسرين، لتمييزهم عن الأرستقراطيين. ويستخدم هذا اللفظ عند الحديث عن تاريخ الصين في زمن سلالة السونج، وعن انجلترا في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

الوحدي طبيعيون/ القائلون بطبيعة واحدة للمسيح Monophysites: مسيحيون في الشرق الأوسط اختلفوا مع كل من المسيحيين الكاثوليك والآريانيين حول تأويل الثالوث.

اليعاقبة: أعضاء النادي الثوري الأكثر أهمية في باريس بعد ١٧٨٩-١٧٩٥. وقد احتوت عضويته، في البداية، على "معتدلين" من أمثال الجيرونديين

إضافة إلى العناصر الثورية. وبعد ذلك، صار المصطلح يطلق على القسم الأكثر تصميما، بقيادة روبسبيير. ويستخدم المصطلح خارج فرنسا للإشارة إلى مناصري الثورة كافة.

اليونكر: النبيل من ملاك الأراضي في شرق ألمانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

أمير التاج: ولي العهد، وريث العرش والتاج.

أهيمسا: اللاعنف في البوذية وفي بعض النِّحَل الهندوسية.

أواسط الناس Middling people: الطبقة الوسطى الجنينية المؤلفة من صغار الزراعيين وأصحاب المهن في الحرب الأهلية الإنجليزية.

أوتو دا فيه Auto da fé: مكان إعدام الهراطقة، من ضحايا محاكم التفتيش.

أورانج: في الأصل لقب عائلة من أمراء هولندا، ويستخدم منذ القرن الثامن عشر لوصف البروتستانت الكارهين للكاثوليك، ومؤيدي الحكم البريطاني في إيرلندا.

بارلمون Parlement: اسم لنوع مهم من المحاكم في فرنسا قبل الثورة.

بانتو: لغات شقيقة ينطق بها سكان الغرب والوسط والجنوب في إفريقيا.

برابرة: اسم قديم للمجتمع الزراعي الخالص، استخدمه مورجان، وإنجلز، وجوردون تشيلدي.

بوربون: اسم الأسرة الفرنسية المالكة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولقب ملوك الإسبان بعد مطالع القرن الثامن عشر.

بورجوازية: في الأصل، اسم فرنسي للطبقة الوسطى من سكان المدن، وصار يستخدم منذ القرن التاسع عشر للإشارة إلى الطبقة الرأسمالية.

بيت الشغل Workhouse: مبنى يُجْبَر العاطلون والفقراء على العمل فيه مقابل المأوى والأكل.

تانج T'ang:أسرة حكمت الصين بين ٦١٨ و٩٠٧.

تاينو Tainos: الاسم الذي أطلقه كولومبوس على أول من صادف من سكان الكاريبي.

تاوية Taoism: الأيديولوجية الدينية الشعبية السائدة في الصين طوال القسم الأعظم من الألفين وخمسمائة عام الأخيرة. ارتبطت بكثير من المعتقدات المتصلة بالسحر لكنها تشجع أيضا على التجريب العملي.

تايبينج T'ai-p'ing: تمرد في الصين في منتصف القرن التاسع عشر.

تشو: سلالة أدارت إمبراطورية "إقطاعية" غير محكمة البنية، بعد العام ١١٠٠ تقريبا في الصين.

تشين Ch'in: إمبراطورية وحدت شمال الصين في العام ٢٢١ قبل الميلاد.

تعريفة: ضرائب تفرض على الواردات الداخلة إلى بلد ما.

تُوريُّون Tories: هو في الأصل اسم المتعاطفين مع ملكية آل ستيوارت في بريطانيا في نهايات القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر، وكانت أيامها واحدة من أسرتين حاكمتين. وهو مصطلح يشير للأمريكيين المؤيدين للملكية أيام حرب الاستقلال. والتوري في أيامنا هذه هو من يؤيد حزب المحافظين البريطاني.

توكوجاوا Tokugawa: اسم سلالة حكمت اليابان من بواكير القرن السابع عشر وحتى ستينيات القرن التاسع عشر، ووغالبا ما يستخدم هذا اللفظ للإشارة إلى مجمل النظام الإقطاعي في تاريخ اليابان.

ثورة الميجاي: تحول أنهى الإقطاع الياباني في ستينيات القرن التاسع عشر.

ثيرميدور Thermidor: لفظ يطلق على انقلاب للثورة المضادة على اليعاقبة، في صيف ١٧٩٤ على أساس الاسم الذي أطلقته الثورة على الشهر الذي وقع فيه الانقلاب، وصار يستخدم بعدها (في روسيا مثلا) للإشارة إلى بدايات الثورة المضادة.

جمعية تأسيسية: هيئة منتخبة من النوع البرلماني مهمتها وضع دستور.

حرب البوير ١٨٩٩-١٩٠٢: حرب دارت حول ضم بريطانيا إقليم البوير الغني بالمعادن في جنوب إفريقيا.

حرب السنوات السبع: الحرب التي نشبت مع انتصاف خمسينيات القرن الثامن عشر بين فرنسا وبريطانيا حول السيطرة على أمريكا الشمالية وعلى التجارة في الأطلنطي. وأسفرت الحرب عن سيطرة بريطانيا على كندا وعن بداية استعمارها الهند.

حزب العمال المستقل Independent Labour Party: الصورة المبكرة لحزب العمال، التي ظهرت في بريطانيا في تسعينيات القرن التاسع عشر، وقد أصبح حزب العمال المستقل جزءا من حزب العمال في الفترة من ١٩٠٦ وحتى الثلاثينيات.

زامندارات Zamindars: طبقة من الأعيان المحليين في الهند أيام حكم المغول كانوا يعيشون على حصتهم من ضرائب الأرض الزراعية، وقد تحولوا لطبقة من ملاك الأراضي المحدثين بعد الاحتلال البريطاني.

ساموراي Samurai: شريحة اجتماعية مائزة في اليابان قبل ستينيات القرن التاسع عشر.

سكسيون Section: مصطلح وصفت به الاجتماعات الجماهيرية المنتظمة في مختلف أنحاء باريس إبان الثورة.

سوفيت: المعنى الحرفي للفظ بالروسية هو "مجلس"، واستُخْدِم في ١٩٠٥ و١٩١٧ للإشارة إلى مجالس العمال والجنود. وبعد ذلك صار يستخدم كتعبير مختصر عن النظام في روسيا.

شانج Shang: أقدم سلالة إمبراطورية في الصين، حكمت ابتداء من ١٦٠٠ قبل الميلاد، تقريبا.

شركة الهند الشرقية: احتكار أنشأه التاج الإنجليزي للاتجار مع جنوب آسيا في بواكير القرن السابع عشر. سيطر على معظم الهند وتولى إدارتها، بين ستينيات القرن الثامن عشر وخمسينيات التاسع عشر. وحل محل ذلك الحكم البريطاني المباشر بعد تمرد١٨٥٧.

صاحب Sahib: لفظ هندي يعني "السيد" وكان يستخدم لمخاطبة الاستعماريين البريطانيين.

عصبة سبارتاكوس Spartakusbund: جماعة ثورية ألمانية إبان الحرب العالمية الأولى.

عقدة فيتنام Vietnam syndrome: خوف الطبقة الحاكمة في الولايات المتحدة، بعد سبعينيات القرن العشرين من الدخول في حرب لا تستطيع الفوز فيها.

عودة الملكية Restoration: لفظ استخدم في بريطانيا في ستينيات القرن السابع عشر وفي أوروبا في ١٨١٤-١٨١٥ للإشارة إلى عودة النظم الملكية بعد الثورة.

فرانسيسكان: أخوية دينية مسيحية نشأت في بواكير القرن الثالث عشر على تعاليم القديس فرانسيس، وروجت لفضائل حياة العوز، لكن نجح الكنيسة الإقطاعية في احتوائها.

فراتيللي: مسيحيون من القرن الثالث عشر تشابهت مبادئهم مع مبادئ القديس فرانسيس، لكنهم بنوا عليها خلاصات شبه ثورية. اضطهدتهم الكنيسة.

فرايكور Freikorps: قوة يمينية من المرتزقة، استُخْدِمت ضد العمال في ألمانيا في ١٩١٩-١٩٢٠.

فروند: فترة وجيزة من الاضطراب السياسي في فرنسا في القرن السابع عشر، تسببت بتعطيل مؤقت لعملية تعزيز الملكية لهيمنة الأرستقراطية.

فلاح نصف حر Villeins: أقنان القرون الوسطى.

فيديريه Fédérés: متطوعون من خارج باريس زحفوا إلى داخلها للدفاع عن الثورة في ١٧٩٢.

كارليستيون: مؤيدو الأسرة المنافسة للأسرة المالكة في إسبانيا، وألد أعداء الحداثة أو اللبرلة، حتى في أكثر صورهما اعتدالا، من ثلاثينيات القرن التاسع عشر حتى انتصار الفاشية في ١٩٣٩.

كارمانيول: رقصة ثورية فرنسية.

كوش: اسم لحضارة نوبية قديمة.

كونفنسيون convention: اسم الجمعية الوطنية الفرنسية المنتخبة خلال السنوات الثورية ١٧٩٢-١٧٩٦.

لاتيفونديا Latifundia: اسم الملكيات الزراعية الواسعة في الإمبراطورية الرومانية القديمة [ومن ثم في مصر وما يعرف اليوم بالمغرب العربي -المترجم] وفي أمريكا اللاتينية الحديثة.

مادية: القول باستحالة وجود الروح أو الفكر بمعزل عن المادة.

مانويـــة Manicheism: ديانة أسسهـــا ماني في القرن الثالث الميـــلادي، وجمعت بين مفاهيم مسيحية وبوذية وزرادشتية.

محطمو الماكينات Luddites: النساجون وصانعو الجوارب الذين حطموا الآلات التي جاء بها الرأسماليون ضمن موجة إحتجاجات واسعة في ١٨١١-١٨١٦- ويستخدم المصطلح من قبيل الإهانة للإشارة إلى مناهضة التقدم التقني.

مجلس ترنت: مجلـــس الكنيسة الكاثوليكية الذي استُخدِم لإصلاح مضـــاد مناهض للبروتستانتية.

مستحقات إقطاعية: أموال دفعها الفلاحون للسادة الإقطاعيين، حتى بعد عتقهم من القنانة.

معركة الجبل الأبيض: حيث وقعت بقوات بوهيميا أول هزيمة كبرى في حرب الأعوام الثلاثين.

مغول Moguls: سلالة حكمت معظم الهند من ١٥٢٦ حتى بواكير القرن الثامن عشر.

مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI: منظمة الشرطة والشرطة السرية في الولايات المتحدة.

مناطق الامتيازات concessions: مناطق محصورة خاضعة لحكم اليابانيين أو لحكم الأوروبيين في المدن الصينية.

منغول Mongols: أناس من شرق ووسط آسيا تحركوا عبر أوراسيا، وغزوا الممالك والإمبراطوريات في الشرق الأوسط، وأوروبا الشرقية، وإيران، والهند، والصين من القرن الثاني عشر وحتى الرابع عشر.

موراليا: إمبراطورية ضمت معظم ما يعرف اليوم بالهند، في القرن الرابع قبل الميلاد.

مينج: سلالة حكمت الصين من ١٣٦٨ وحتى ١٦٤٤.

نائب الملك / خديو: حاكم دولة مستعمرة يتمتع بسلطات شبه ملكية (مطلقة).

نبالة الثـــوب Noblesse de robe: يشيـــر هذا المصطلح لقسم من النبالـــة الفرنسية التي اكتسبت الثروة بالسيطرة الوراثية على مواقع معينة في النظام القانوني- بمناصب ادخرها لهم الملوك الذين انتخبوهم من بين عناصر الطبقة الوسطى.

نبالة السيف Noblesse d'epée: النبالة الفرنسية التقليدية.

نسطورية: نحلة مسيحية حظرتها الكنائس الرومانية والبيزنطية. كان لها نفوذها في آسيا الوسطى والصين في القرون الوسطى.

نقابات الحرفيين: تنظيمات الحرفيين والصناع اليدويين التي قامت لصون المصالح بضبط الأسعار وجودة المنتجات، وغالبا ما كانت محل رعاية التاج أو الدولة – المدينة.

نورسيون: أناس من اسكندناوة أغاروا على أوروبا الغربية والمتوسطية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، قبل أن يستوطنوا إنجلترا، واسكتلندا، ولإيرلندا، وأيسلندا، وروسيا، ونورمانديا، وصقلية. ويعرفون أيضا بالفايكينج.

هابياس كوربوس Habeas corpus: قاعدة قضائية تحظر الحبس من دون محاكمة.

هكسوس: أناس هجموا على مصر بين القرنين السابع عشر والسادس عشر قبل الميلاد، وعادة ما يُظَن أنهم من فلسطين.

هوسيُّون Hussites: متمردون دينيون في بوهيميا في القرن الخامس عشر، وهم من مهدوا للإصلاح البروتستانتي في القرن السابع عشر.

هويج Whig: سَلَف الحزب الليبرالي، وهو حزب ارتبط في نشأته بالتسوية الدستورية في ١٦٨٨ في بريطانيا، وأصبح يتماهى مع القسم الصناعي من الطبقة الحاكمة بأكثر مما كان يتماهى مع القسم المؤلف من ملاك الأراضي من الطبقة الحاكمة، في القرن التاسع عشر. ويشير المصطلح أيضا إلى رؤية للتاريخ الإنجليزي ترى في كل أحداثه مسيرة متجهة، بالكامل، نحو الليبرالية.

هيدالجو Hidalgo: كلمة إسبانية تعني الوجيه.

المؤلف في سطور:

كريس هارمان (١٩٤٢ـ ٢٠٠٩)

صحفي وناشط سياسى ومُنَظِّر ماركسي من بريطانيا، كان عضوا في اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكي في بريطانيا، وتولى رئاسة تحرير مجلة العامل الاشتراكى، ثم مجلة الاشتراكية الأممية.

له عدد من المؤلفات؛ منها:

- Education, capitalism and the student revolt (1968)
- Russia: How the Revolution Was Lost (1967)
- Unemployment and how to fight it (with Dave Peers) (1971)
- The struggle in Ireland (1975)
- Why Labour fails (1979)
- New technology and the struggle for socialism (1979)
- The summer of 1981: a post-riot analysis (1981)
- Days of Hope: The General Strike of 1926 (with Duncan Hallas) (1981)
- Gramsci versus Reformism (1983)
- The Revolutionary Press (Summer, 1984)
- Explaining The Crisis: A Marxist Reappraisal (London, 1984)
- The Changing Working Class: Essays on Class Structure Today (with Alex Callinicos) (London: Bookmarks, 1987)
- Russia: from workers' state to state capitalism (with Peter Binns and Tony Cliff) (London, 1987)
- Class Struggles in Eastern Europe, 1945-1983 (London, 1988)
- The Fire Last Time: 1968 And After (London, 1988)
- The revolutionary paper (1991)

- In The Heat of the Struggle: 25 Years of Socialist Worker (editor) (with an introduction by Paul Foot) (1993)
- Economics Of The Madhouse: Capitalism and the Market Today (London, 1995)
- How Marxism Works (London, 1997)
- The Lost Revolution: Germany 1918-23 (London, 1997)
- Marxism and History: Two Essays (London, 1998)
- A People's History of the World (1999)
- The Prophet And The Proletariat: Islamic fundamentalism, class and revolution (London, 1999)
- The IMF, Globalisation and Resistance (2000)
- Revolution in the 21st Century (2007)
- Capitalism's New Crisis: What do socialists say? (2008)
- Zombie Capitalism: Global Crisis and the Relevance of Marx (London, 2009) ISBN 978-1-905192-53-3
- Selected Writings (2011)

المترجم فى سطور:

طلعت الشايب

- تخرج فى قسم اللغة الإنجليزية في كلية المعلمين – القاهرة (١٩٦٢).
- عمل في التدريس والترجمة والصحافة الثقافية فى مصر والكويت وقطر.
- عمل مترجما في القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية فى الفترة من ١٩٦٨: ١٩٧٤ حيث شارك فى ترجمة عدد كبير من المراجع والوثائق والمؤتمرات (من وإلى العربية والإنجليزية والروسية).
- عمل مستشارا ومنسقا للمشروع القومي للترجمة في المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٣ – ٢٠٠٦) ومساعدا لمدير المركز القومي للترجمة (٢٠٠٦ – ٢٠١٠).
- المحرر الرئيسي لموسوعة الأعمال الكاملة للرئيس الماليزى السابق "مهاتير محمد"، الصادرة بالإنجليزية والعربية عن دار الكتاب المصرى – دار الكتاب اللبنانى (١٩٩٦)، ومترجم ثلاثة أعمال منها: "التحدى"، و"الإسلام والأمة الإسلامية"، و"خطة جديدة لآسيا".
- حصل على جائزة الهيئة العامة لقصور الثقافة لأحسن رواية مترجمة (١٩٩٧) وهى "البطء" لـــ "ميلان كونديرا".
- حصل على جائزة اتحاد الكتاب للترجمة (٢٠٠٣).
- عضو اتحاد الكتاب ولجنة الترجمة في المجلس الأعلى للثقافة، ولجنة الإنسانيات في المركز القومي للترجمة، ومجلس تحرير مجلة "أدب ونقد"، ورئيس تحرير سلسلة "آفاق عالمية" (٢٠٠٢ – ٢٠١٠)، ومحرر سلسلة "ميراث الترجمة" (٢٠٠٦: ٢٠١٠).

ترجم نحو أربعين عملا من بينها:

- حدود حرية التعبير (تجربة كُتّاب القصة والرواية في مصر في عهدي عبد الناصر والسادات)، رسالة دكتوراه للمستعربة السويدية مارينا ستاج. (شرقيات – ١٩٩٥).
- المثقفون، تأليف: بول جونسون (شرقيات – ١٩٩٨).
- صدام الحضارات. تأليف: صامويل هنتنجتون (سطور – القاهرة ط. أولى ١٩٩٨، ط. ثانية ١٩٩٩– ط. ثالثة ٢٠١٥ (عن الهيئة العامة للكتاب).
- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي. تأليف: آرثر هيرمان (المشروع القومي للترجمة – ط. أولى ٢٠٠٠، ط. ثانية ٢٠٠٩).
- الحرب الباردة الثقافية: دور المخابرات المركزية الأمريكية في عالم الفنون والآداب. تأليف: ف. س. سوندرز (المشروع القومي للترجمة – ط. أولى ٢٠٠٢، ط. ثانية ٢٠٠٣، ط. ثالثة ٢٠٠٤، ط. رابعة ٢٠٠٩).
- في طفولتي: الطفولة في السيرة الذاتية العربية. رسالة دكتوراه للمستعرب السويدي تيتز روكي. (المشروع القومي للترجمة – ط. أولى ٢٠٠٣، ط. ثانية ٢٠٠٩).
- غياب السلام. تأليف: نيكولاس جويات (المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٥).
- الفنون والآداب تحت ضغط العولمة. تأليف: جووست سمايرز (المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٥، ط. ثانية: مشروع مكتبة الأسرة ٢٠٠٩).
- الاستشراق الأمريكي: الولايات المتحدة والشرق الأوسط منذ ١٩٤٥، (المركز القومي للترجمة ٢٠١٠).
- نحو فهم للعولمة الثقافية. تأليف: بول هوبر، (المركز القومي للترجمة – ٢٠١١).

ومن ترجماته فى الإبداع:

- البطء، رواية "ميلان كونديرا"، (شرقيات – ١٩٩٦).
- الملاك الصامت، رواية "هينريش بول"، (الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١٩٩٧).
- فتاة عادة، رواية "آرثر ميللر" (شرقيات – ١٩٩٧).
- عاريا أمام الآلهة، رواية "شيف كومار"، (شرقيات – ١٩٩٨).
- الحرير، رواية "أليساندرو باريكو"، (الهيئة العامة لقصور الثقافة – ١٩٩٧، ط. ثانية ٢٠١٢).
- الخوف من المرايا، رواية "طارق على"، (المشروع القومى للترجمة – ٢٠٠٠).
- اتبعى قلبك، رواية "سوزانا تامارو" (شرقيات – ٢٠٠٠).
- بقايا اليوم، رواية "كازو إيشيجورو" (المشروع القومى للترجمة ٢٠٠١، ط. ثانية ٢٠٠٩).

المقدم فى سطور:

أسامة الغزولى

صحفى ومترجم، بدأ مترجما للغة الروسية في القوات الجوية، عمل محررا ومترجمًا بعدد من الصحف فى مصر وفرنسا وإنجلترا، من ترجماته "أثر الجماعة فى تنمية الشخصية الفردية" عن الروسية، وعن الإنجليزية "السينما والإيديولوجية وشباك التذاكر". وصدر له فى سلسلة عالم المعرفة التى تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت ترجمة لكتاب "علم النفس السياسى"، و"الثقافة فى عصر العوالم الثلاثة".

وترجم لدى المركز القومي للترجمة عدة كتب منها: "أجساد ثقافية"، و"هلال وراء الغيوم"، و"قوة الحمقى"، و"أحلام عولمية".

التصحيح اللغوى: **محمود حنفى**

المشرف على إنتاج المطبوعات: **حسن كامل**